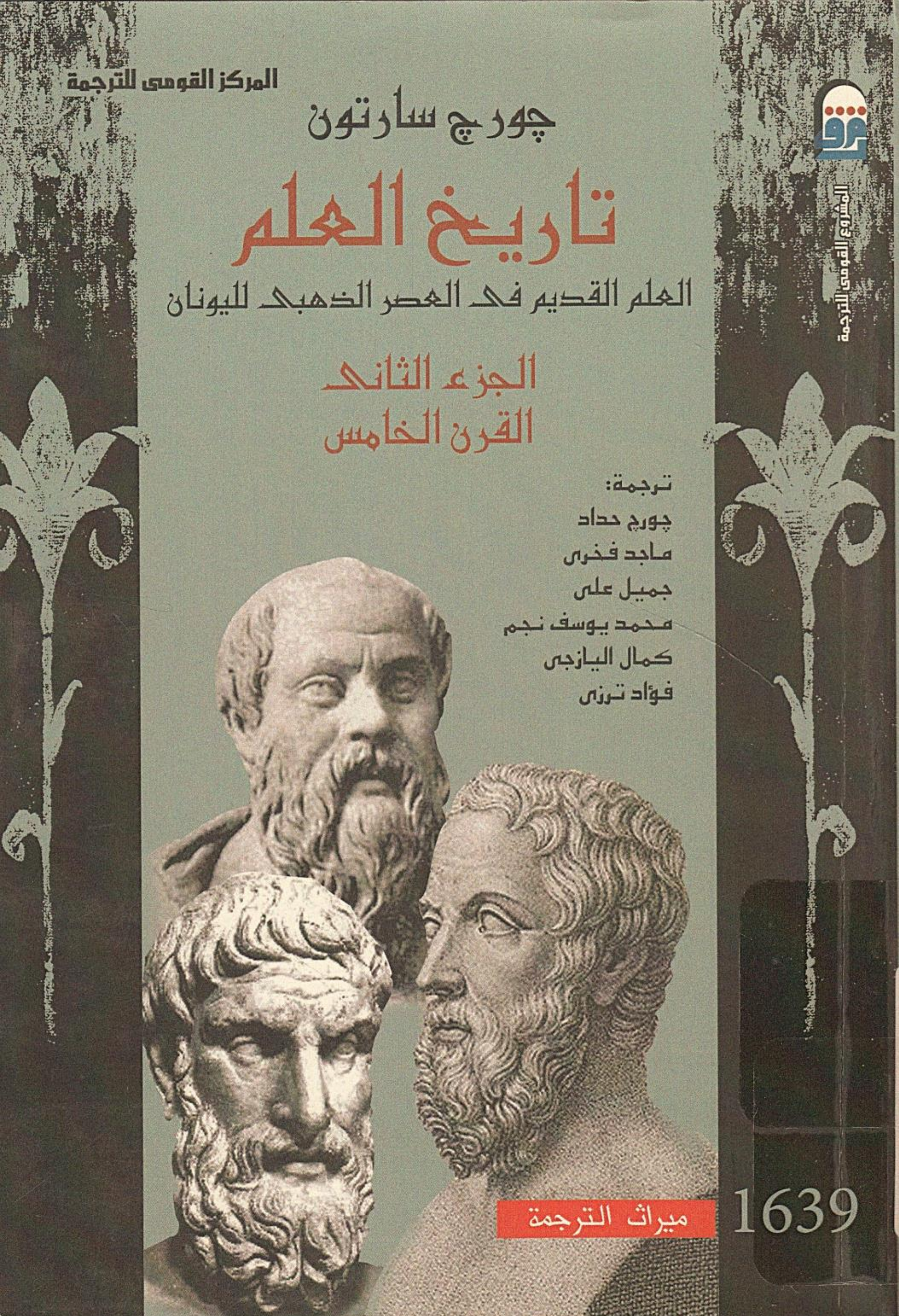


المركز القومى للترجمة
جورج سارتون
تاريخ العلم
العلم القديم فى العصر الذهبى لليونان
الجزء الثانى
القرن الخامس
ترجمة:
جورج حداد
ماجد فخرى
جميل على
محمد يوسف نجم
كمال اليازجى
فؤاد ترزى
المشروع القومى للترجمة
1639
ميراث الترجمة

تاريخ العلم

العلم القديم فى العصر الذهبى لليونان

الجزء الثانى

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1639
- تاريخ العلم: العلم القديم فى العصر الذهبى لليونان (الجزء الثانى)
- جورج سارتون
- نخبة
- إبراهيم بيومى مدكور ومحمد كامل حسين وقسطنطين زريق ومحمد مصطفى زيادة
- 2010

هذه ترجمة كتاب:

A History of Science,
(Vol. I, Part II)
Ancient Science through the Golden Age of Greece
by: George Sarton

" صدر هذا الكتاب بالتعاون مع الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية"

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

تاريخ العلم

العلم القديم فى العصر الذهبى لليونان

الجزء الثانى

القرن الخامس

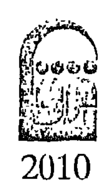
تأليف: چورچ سارتون

ترجمـــة لفيف من العلماء

إشراف

إبراهيم بيومى مدكور　　　محـــمد كامل حسين

قســطنطين زريـــق　　　محمد مصطفى زيادة



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سارتون، جورج.

تاريخ العلم (الجزء الثانى): العلم القديم فى العصر الذهبى لليونان / تأليف: جورج سارون، إشراف: إبراهيم بيومى مدكور ... (وآخرون)

ط ١ – القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٠

٣٤٠ ص ، ٢٤ سم

١– العلوم عند اليونان

٢– العلوم – تاريخ

(أ) مدكور، إبراهيم بيومى (مشرف مشارك)

(ب) العنوان ٥٠٩

رقم الإيداع ١٧٠١٧ / ٢٠١٠

الترقيم الدولى: I.S.B.N 978 - 977- 704 - 272- 7

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

محتويات الكتاب

الفصل التاسع

النزاع بين اليونان وفارس ـ مجد أثينا

الحروب الفارسية :

تمثل الفصول الثمانية السابقة عدة قرون، بل عدة آلاف من السنين وعدداً من البلاد، أو بالأحرى العالم القديم بأسره . وأما بقية هذا المجلد التي تكون ثلثيه تقريباً فإنها تبحث في قرنين فقط . وسيكون مدار الكلام حول منطقة واحدة صغيرة هي أتيكا . بل سيكون بالأحرى حول المدينة الرئيسية فيها وهي أثينا .

كانت أثينا معروفة قبل القرن السادس بمدة طويلة وقد سبقت الإشارة إليها ، ومع ذلك كانت من آخر ممالك المدن التي ظهرت على مسرح تاريخ اليونان .

وقد يمكن أن يعتبرها أناس كالإسبرطيين مثلا حديثة النعمة ، في حين أنها احتفظت بالنماذج والتقاليد الدورية على أشد ما تكون صا[1] . ومهما يكن من أمر فإن أثينا نشأت بسرعة وأصبحت في خلال قرن ونيف بارزة وقوية لدرجة تمكنت معها أن تتزعم العالم الهليني في نزاعه مع الفرس الذي كان نزاع حياة أو موت . وكانت أثينا بعد الفوز على الفرس الدولة الرئيسية في ذلك العالم الهليني لمدة نصف قرن . وأهم من ذلك بكثير أنها ظلت تعتبر منذ ذلك العهد أحسن رمز للحضارة الهلينية . وعندما نفكر في تلك الحضارة فإننا نفكر في معظم الأحيان في أثينا . ولفظتا أثينا واليونان تكادان تستعملان الواحدة للدلالة على الأخرى في ذكرياتنا المفعمة بعرفان الجميل .

وتحتاج هذه الأمور إلى بعض الإيضاح . ففي نهاية القرن السادس كانت إمبراطورية الفرس الأخمينيين[2] تسيطر على أهم قسم في العالم القديم ، وكانت تضم غربي آسية كلها (عدا شبه الجزيرة العربية) ، بل تضم مصر أيضاً[3] .

وكانت التجارة الفارسية منظمة ومتشعبة فى جهات مختلفة . وكانت المنافسة قوية بينها وبين المستعمرات اليونانية خاصة فى جهات البحر الأسود والمضايق المؤدية إليه وفى شرق البحر المتوسط . وقد تمكن الفرس من الجمع بين تجارة القوافل الواسعة فى آسية وشمالى أفريقيا وبين تجارة الفينيقيين البحرية . وكان الفينيقيون بطبيعة الحال حلفاء الفرس فى منافستهم لليونان وفى كرههم المتزايد لها . وامتدت مستعمراتهم فى هذا العصر من طرف البحر المتوسط إلى طرفه الآخر ، وبفضلها شملت التجارة الفارسية هذا البحر بأسره ، كما يشهد بذلك اكتشاف النقود الفارسية الذهبية (المعروفة باسم دارية darics نسبة إلى داريوس) فى أماكن مختلفة حوله . وقد كانت المستعمرات اليونانية كثيرة ومزدهرة حتى ذلك الزمن غير أنها كانت مطوقة ومحاطة فى كل مكان بمراكز فارسية أو فينيقية. وكان لهذا الوضع خطره ، ولكن ربما بدرجة غير كبيرة بالنسبة لليونانيين المعاصرين ، لأنه لم يكن فى استطاعتهم تقدير هذه الخطوة كما نفعل نحن عندما ننظر بإمعان فى الخرائط الممتازة التى وضعت بفضل جهود البحاثة المتلاحقة[٤] .

وكان الضغط شديداً على الأخص فى المستعمرات الأيونية التى كان الفرس يسيطرون على البلاد الواقعة وراءها ، حيث كان لابد من تكرر وقوع الحوادث وقيام الثورات وما يتبعها من أعمال القمع . وقد بدأت الثورة الأيونية عام ٤٩٩ ، وفى السنة التالية احتل اليونان بصورة مفاجئة مدينة ساردس (عاصمة مقاطعة ليديا) وخربوها . ولكنهم عوقبوا بشدة فى طريق عودتهم قرب أنسس . وامتدت الثورة إلى مستعمرات أخرى فى قبرص وآسية وكان مركزها الرئيسى مدينة ميليتس المشهورة التى احتلها الفرس « فى السنة السادسة للثورة » (٤٩٤) . وهدموها عن آخرها . واجتاح الفرس فى ٤٩٣ جزر كيوس وتنيدوس Tenedos ولسبوس وأصبح الوضع خطراً . وكان ثيمستوكليس Themistocles (حوالى ٥١٤ — ٤٦٠) من أول الساسة الأثينيين الذين أدركوا خطورة الحال ، فأقنع مواطنيه بأن يستعدوا للدفاع وذلك ببناء أسطول دائم وتأسيس دار للصناعة

البحرية فى بيرايوس ميناء أثينا . ولا داعى لرواية بقية القصة فهى معقدة حتى إن تلخيصاً واضحاً لها قد يستوعب مجالا كبيراً . ويكفى أن نذكر أعمال البطولة فى ماراثون حيث كسر جيش داريوس فى عام ٤٩٠[٥] والدفاع المجيد الذى قامت به مؤخرة جيش اليونان فى مضيق ترموبيلاى Thermopylae فى ٤٨٠ (حيث قضى ليونيداس ورجاله الإسبرطيون الثلاثمائة) وموقعة سلاميس البحرية فى السنة نفسها حيث كسر الأسطول اليونانى الأسطول الفارسى شر كسره ، وكان اكسرسيس ملك الفرس يشاهد مأساة الانكسار من العرش الذى نصبوه له على أحد تلال ساحل أتيكا . وانتقم الفرس فى الربيع التالى بغزو أتيكا ، ونهبوا أثينا وأحرقوا الأكروبول بما فيه من معبد البارثينون القديم . غير أنهم كسروا ثانية فى الصيف فى موقعة بلاتيا (فى مقاطعة بيوشيا قرب حدود أتيكا) وفى الوقت نفسه تقريباً (أغسطس ٤٧٩) كسر أسطول اليونان المتحالفين أسطولا فارسيا آخر قرب ميكال (على الساحل الأيونى مقابل جزيرة ساموس) . وحينذاك اطمأنت اليونان على استقلالها .

ولا نغلو مطلقاً فى أهمية هذا النزاع بين آسية وأوربا . فهو من أعظم المنازعات فى تاريخ العالم ومن أخطرها من حيث ما ترتب عليه من نتائج . وقد تقرر المستقبل بانتصار اليونان النهائى : (وكان يمكن أن يكون المستقبل مختلفاً تمام الاختلاف لو أن الفوز كتب للفرس ، على أنه ليس من المستطاع بل ليس من المفيد أن نتصور ما كان يمكن أن يحدث) . ومهما يكن فإنه من الخطأ أن نسمى هذا النزاع نزاعاً بين آسية وأوربا أو بين الشرق والغرب وإن كان فى ذلك بعض الصحة فى الظاهر . فكثيرون من اليونان كانوا يعيشون فى آسية أو فى مصر لعدة قرون خلت. ومن جهة أخرى فإن الفينيقيين وهم حلفاء الفرس البحريون كانوا منتشرين فى بلاد البحر المتوسط وكان فى إمكانهم أن يهددوا اليونان من جهة الغرب . كذلك لم يكن النزاع نزاعاً بين الآريين والساميين لأن الفرس كانوا آريين كاليونان ، بينما حلفاؤهم الفينيقيون كانوا ساميين . والإمبراطورية الأخمينية كانت مجموعة من جميع أجناس غربى

آسية وأممها ، وقد امتزجت بصورة متوالية أثناء آلاف السنين . ولغة الإمبراطورية الرئيسية كانت الآرامية وهى لغة سامية . ولذلك فإنه من الأصح أن نعتبر ذلك النزاع نزاعاً بين الحكم المطلق الآسيوى والديموقراطية اليونانية . وقد فازت الديموقراطية وتأيدت . ومع أن هذه المحاولة الأولى لم يكتب لها البقاء طويلا فإنها ظلت مثلا لم ينسه العالم أبداً .

ولم تدافع أمم اليونان كلها عن حريتها ، وإنما قامت بعضها بذلك وفى مقدمتها المستعمرات الأيونية وأثينا وإسبرطة (لا ننسى أن شهداء ترموبيلاى كانوا إسبرطيين) . وبرزت أثينا زعيمة لليونان . فكيف نفسر ذلك ؟ هل كان الأثينيون جنساً خاصاً ومتميزاً عن غيره من اليونانيين ؟ لقد كان معظم الأثينيين أول الأمر من السكان الأصليين ، أو كانوا يبدون كذلك ، وكانوا يضعون شارة ذهبية فى شعرهم إشعاراً بهذا[٦] . ومع ذلك فإن موقع أتيكا فى الطرف الشرقى لشبه جزيرة اليونان كان ملائماً كل الملاءمة لمختلف الأعمال التجارية ، وخاصة مع مستعمرات أيونيا وجزر بحر إيجة . وقد تدفق الأيونيون على أثينا وتأثرت الحضارة الأثينية كثيراً بالنماذج الأيونية . وأرى أن هذا هو التفسير الرئيسى لتفوق أثينا — أى تطعيم العنصر الأتيكى القديم بذكاء الأيونيين ومعارفهم المتنوعة (وفى التاريخ أمثلة كثيرة لهذا التطعيم وثماره العظيمة) . زد على ذلك أن أتيكا كانت تجذب إليها جماعات أخرى من الأجانب ، فكانوا يأتون من أماكن وأجناس مختلفة وبالتدريج يندمجون فيها . ولغة الأثينيين نفسها تظهر صفتهم العالمية[٧] ، وهذه اللغة بدورها كانت وسيلة أخرى للوحدة الثقافية . وقد اعترف بمكانة أثينا القومية قبل نهاية القرن السادس بالرغم من أن سائر المدن كانت تفوقها قوة . وارتفعت هذه المكانة كثيراً بعد موقعة سلاميس ، وأصبحت أثينا المدينة الرئيسية كما أن إلهتها بالاس أثينا Pallas Athene أضحت أحسن رمز للهلينية .

وصارت أثينا المركز السياسى والتجارى والثقافى الرئيسى ، وإن لم تكن بوجه من الوجوه المركز الوحيد . فقد ازدهرت مراكز أخرى فى طيبة وكورنثة

وسيكيون Sicyon وميجارة Megara وحتى فى مقدونية وأيونيا وبرقة Cyrenaica وإيطاليا وصقلية . وكان العالم اليونانى كثير الاتساع والتنوع ، ومع الزمن أنجبت كل زاوية من زواياه رجالها العظام . ومع ذلك فإن عدداً متزايداً من هؤلاء الرجال كانوا مضطرين ، إذا لم يكونوا مولودين فى أثينا . أن يأتوا إليها لإتمام تحصيلهم، أو لبلوغ هدفهم وممارسة نفوذهم وللحصول على الاعتراف النهائى بجدارتهم .

سلم نسبي بدوم خمسين سنة

بلغت سيادة أثينا الأوج فى فترة السنين الخمسين التى انقضت بين موقعة سلاميس والحروب البيلوبونيزية وقويت هذه السيادة وبدت كأنها متوطدة إلى الأبد . وكانت أثينا على رأس العصبة الأيونيه التى تحولت بالتدريج إلى الإمبراطورية الأثينية البحرية وكانت الأعياد الأثينية والاتيكية أكثر الأعياد شهرة وشيوعاً فى بلاد اليونان . وظلت الحضارة الأثينية بالرغم من تفوقها القومى وصفتها العالمية أصيلة غير متكلفة . وكان يحركها الفخر بالحاضر والإيمان بالمستقبل والوطنية الساذجة وكثير من الغرور يلطفه حب المناقشة : كما يحدث عادة فى أوقات السلم والرخاء . وقد كانت تلك السنون الخمسون عصر أثينا الذهبى . ويمكن أن نقارنها بالعصر الإليزابيثى فى إنجلترا الذى كان يعادلها طولا (مدته ٤٥ سنة من ١٥٥٨ — ١٦٠٣) وحماسة . وكانت تسيطر على السنوات الثلاثين الأخيرة من هذه الفترة شخصية سياسى كبير هو بركليس (٤٩٩ — ٤٢٩) ؛ ولذلك فإنها أحياناً تسمى عصر بركليس . على أنه من الأنسب ألا تدعى كذلك ، لأن عصر بركليس لم يكن كله ذهبياً ، وإن كان أكثر الأقسام فخامة وربما كان أكثرها إبداعاً . إلا أن الذهب الحقيقى كان قد بدأ يفقد لمعانه ؛ وأخذ التكلف يحل محل الفطرة . والشك محل الغرور الساذج . والغيوم الدكناء تتجمع فى الأفق .

والأمر السياسى البارز هو تأسيس العصبة الأيونية (البحرية) والسيادة الأثينية . وقد حكمت أثينا العالم مدة من الزمن وسادت الحضارة الأثينية

سائر الحضارات اليونانية . وكانت القوة البحرية هي القوة الوحيدة التي في إمكانها توحيد الدول الهلينية الواقعة بين البر والبحر ، وكان استخدامها مشجعاً كبيراً للتبادل الدولي سواء أكان تبادلا مادياً أم فكرياً . وكان مركز العصبة الأيونية وخزانتها أول الأمر في جزيرة ديلوس (أصغر مجموعة جزر السيكلاديس في بحر إيجة) وهي أقدس مكان لعبادة الإله أبوللو . ولقدسيتها هذه شأن في حمايتها ، حتى إن الملاحين الفرس في طريقهم إلى سلاميس لم يجرأوا على نهبها . وعندما عظمت سيادة أثينا نقلت إليها خزانة العصبة من ديلوس ، ولكن من جهة أخرى اتخذت جميع الاحتياطات لزيادة قدسية ذلك المكان . فجميع بقايا الإنسان والحيوان مثلا كانت تطرح خارجها . كما بذلت الجهود لمنع تدنيسها بوقوع الولادات والوفيات . على أنه من المؤسف أن نضطر للقول بأن قدسية ديلوس دنست في العصور التالية بشكل واضح . فالأعياد التي كانت تقام تكريماً لأبوللو والألعاب الديلوسية كانت تجتذب أفواجاً من الناس ، وبين هذه الألعاب والأعياد كان يأتي الوفد المقدس theoria الذي كانت ترسله أثينا في كل عام . كما أن عدداً كبيراً من الحجاج كانوا يتوافدون من مختلف أطراف العالم اليوناني . وكانت ديلوس ، كأي مكان مقدس آخر ، سوقاً عظيمة — وليس في ذلك من بأس ، غير أنها أصبحت سوقاً للنخاسة بل أعظم سوق من نوعه في ذلك العصر . ومن هنا الغرابة في أن تختلط الأعياد الدينية بتجارة الرقيق ! وعوقبت ديلوس بشدة على هذا الانحطاط المريع أثناء حرب ميثريداتيس ضد روما ، حين استولى أحد قواد ميثريداتيس(١) على جزيرة ديلوس عام ٨٤ ق.م . وذبح رجالها ولم يبق إلا على النساء والأطفال يعيشون في العبودية .

لنلق نظرة سريعة على قسم آخر من العالم اليوناني كان يساعد أيضاً في تحقيق وحدة اليونان ، وهو دلفي في مقاطعة فوكيس Phocis . وقد أسس هذا المعبد في موقع يثير الإعجاب والخوف على منحدر جبل برناسوس ، وكان يعتقد أنه سرة الأرض omphalos أو وسطها ؛ وأن الإله زيوس قرر هذا الموقع

بإطلاق نسرين أحدهما فى طرف العالم الغربى والآخر فى طرفه الشرقى ثم طارا بسرعة متساوية فالتقيا فى دلفى . تلك قصة جميلة وإن تكن بدائية نوعاً ما . وقد أقيمت قطعة من الرخام — كحجر سرة — فى وسط المعبد(٩) . وهذا المعبد قديم جداً ، وبعد أن احترق عام ٥٤٨ أعيد بناؤه فى صورة أفخم بتبرعات جمعت من جميع مناطق اليونان وحتى فى المستعمرات اليونانية فى مصر . وكانت تقام الألعاب البيثية Pythian * تكريماً لأپوللو فى دلفى ، غير أن أهم ما اشتهر به هذا المكان هو الفجوة أو الشق chasma الذى كانت تنبعث منه أبخرة ذات رائحة قوية من العالم الأسفل . وكانت تجلس نبية تدعى بيثيا Pythia(١٠) على شىء مثلث القوائم (سيبية) فوق ذلك الشق ، وتقع فى غيبوبة ، ثم تصدر عنها تكهنات كانت يتلقاها كل شخص تقريباً باحترام غريب سواء كان متعلماً أم لا . وكان وحى دلفى من العناصر التى ساعدت على تطور الثقافة اليونانية(١١) . وفى الأعياد الدينية كانت تلقى الخطب التى تتخذ فى بعض الأحيان صفة خطب سياسية ومديح لزعماء اليونان(١٢) . وكانت سلطة أثينا مبنية إلى حد كبير على تبرعات حلفائها المالية ، ولكنها أيضاً كانت مبنية إلى حد عظيم وإن يكن من الصعب قياسه على استخدام جميع الوسائل التى قدمتها أماكن مثل ديلوس ودلفى لإقناع الناس وتقوية الوحدة القومية .

وقد كان فى الإمكان أن تدوم سيادة أثينا مدة طويلة لولا حسد منافساتها اللاهب وخاصة إسبرطة . وكان يتضح أكثر فأكثر كل سنة أن وحدة اليونان مصطنعة ، دامت بدوام الخطر الفارسى ، وبالرغم من الأعياد والألعاب فإنها لم تكن لتبقى طويلا . فاليونان اتحدوا جميعاً ضد البرابرة أو غير اليونان ، وعندما فقد البرابرة أملهم وزال خطرهم ، حلت الريبة والعداء محل الوحدة . وأدى التوتر المتزايد إلى الحروب الأهلية (٤٣١ — ٤٠٤) التى سنأتى على ذكرها .

---

* كان الاسم القديم للمكان الذى فيه تقع مدينة دلفى « بيثو Pytho » كما أن دلفى نفسها عرفت بهذا الاسم ولذلك كان يسمى أپوللو « البيثى Pythian » والألعاب تسمى البيثية (المترجم) .

إن مهمتنا الرئيسية فى هذا الفصل هى إيضاح جمال العصر الذهبى الأثينى وسموه (٤٨٠ — ٤٣١) . وستخصص الفصول التالية للنتائج الفلسفية والعلمية . أما فى هذا الفصل فإننا سنتحدث بإيجاز عن الإبداع الأدبى والفنى الذى يمتاز بوضوحه ويساعد أكثر من أى شىء آخر على تقدير عظمة أثينا .

الشعر الغنائى

إن أقدم مظهر لعظمة أثينا يمكن مشاهدته فى الشعراء الغنائيين الذين ظهروا قبل الحروب الفارسية ، وكانوا أول من عبر عن مطامح هيلاس بعد عصر هوميروس وهزيود . وأفضل أولئك الشعراء كانوا فى الحقيقة لسان حال الجمهور ومفسرى إرادته ومواقفه . وكانت الألعاب الوطنية والأعياد الدينية تعطيهم فرصة ممتازة للتغنى بأفراح الشعب اليونانى ومفاخره ، والتحدث عما يجول فى خاطر الناس ، والتعبير عن أنتى الأفكار بكلمات مختارة متناسقة لدرجة أنها كانت تتناقلها الألسن وتدخرها القلوب وتعاد بصورة دائمة . إن تلك الكلمات التى كانت تطير من فم إلى فم كانت أكثر تأثيراً من العناوين الفخمة المبتذلة فى صحفنا اليوم .

ولم يكن الشعر بعد منفصلا عن الموسيقى ، فكان الشاعر مؤلفاً موسيقياً فى الوقت نفسه بحيث يتم التأليف الشعرى فى دماغه مع التأليف الموسيقى ويثير أحدهما الآخر . وكان النظم يرافق التلحين ، وتلاوة الشاعر أو ترتيله يرافقهما عزف الشاعر على القيثارة أو عزف شخص آخر على الناى .

وكانت الأشعار الغنائية أنواعاً كثيرة : فمنها الترانيم الدينية والأغانى التى ترافق المواكب والرقصات الطقسية ، والأناشيد التى تحتفل بالفائزين فى الألعاب الوطنية ، والأشعار التى تتلى فى نهاية مأدبة لشكر المضيف ، ومدائح عظماء الرجال . والمراثى ، والمقاطع الشعرية ذات المغزى ، والأبيات التى تكتب على الأضرحة ، وندع جانباً القطع التى لها لون شخصى أكثر وتعبر عن عواطف الشاعر الخاصة . ولم يكن الشاعر ليشرح الوقائع وإن أشار إليها أحياناً ،

وإنما كان غرضه التعبير عن شعور إخوانه . وقد فعل ذلك بصورة جيدة ، وفى بعض الأحيان كان عمله ممتازاً .

والأمثلة البارزة لهؤلاء الشعراء سيمونيديس Simonides (٥٥٦ — ٤٦٧) من جزيرة خيوس (إحدى جزر السيكلاديز) ؛ وابن أخيه باخيليديس Pacchylides وبوجه خاص الشاعر الثيبي بندار Pindar (حوالى ٥١٨ — ٤٣٨) . ولنلاحظ أن هؤلاء الثلاثة وإن كانوا ولدوا فى القرن السادس إلا أنهم عاشوا فى جزء كبير من القرن الخامس الذى نتحدث عنه .

ولعل القارئ صدمته إشارتنا إلى علم الغيب والتكهن . وقد يعجب أن يسمح هؤلاء اليونان المشهورون بحكمتهم لأنفسهم بأن يخدعهم قارئو الغيب والنساء المصابات بالهستيريا . ومع ذلك كان اليونان يسترشدون من جهة أخرى بالشعراء الذين كانوا يعدون أصواتاً إلهية من نوع آخر . وفى الظلام الذى أحاط بهم كانت الكلمات العاطفية تهز نفوسهم . وقد تبدو إلهية إما للظروف الخاصة التى ترافق التلفظ بها (كما فى الشق الموجود فى دلفى) أو لإيقاعها وجمالها الخارق . فكبار الشعراء فى مقدمة قراء الغيب وليسوا بأقلهم غموضاً .

نشأ سيمونيديس فى أثينا ، وتنقل فى تساليا ومناطق أخرى من بلاد اليونان ، حتى إنه وصل إلى بلاد اليونان العظمى (Magna Graecia) * وبلغ من شهرته أن الملك هييرون[١٣] دعاه إلى صقلية وبالغ فى إكرامه . وإلى القارئ مقطوعة قصيرة لإعطاء فكرة (هى حتما غير تامة) عن شعره وهى مقتطفة من قصيدة عن ترموبيلاى :

أولئك الذين قتلوا فى ترموبيلاى
لقد كان حتفهم مجيداً وحظهم جميلا
إن قبرهم مذبح : والرجال يمتنعون عن البكاء
ليكرموهم ويمتدحوهم ، لا ليندبوا حظهم
إن هذا الضريح سوف لا تبليه الكآبة

* يطلق هذا الاسم على المستعمرات اليونانية فى صقلية وجنوبى إيطاليا (المترجم) .

ولا الزمن الذى يزيل كل شىء . هذا هو حقهم
وفى ضريحهم وضع المجد الذى ولد فى اليونان
إن هذا ما يشهد به ليونيداس الإسبرطى
الذى يعيش فى قصته إلى الأبد إكليل من الفضيلة[١٤]

وذكر فى قطعة حفظها لنا پلوتارك أن سيمونيديس كان يعتبر أن مائة سنة وحتى ألف سنة ليست سوى نقطة (Stigme) بين خطين لا متناهيين هما الماضى والمستقبل .

كان باخيليديس ابن أخى سيمونيديس أصغر منه بنحو أربعين سنة ، وقد حذا حذوه، فكان يتنقل فى مختلف بلاد اليونان ، ويكتب الأناشيد وغيرها من الأشعار الغنائية للشعب الذى كان يقابله بالترحاب . وقضى بعض الوقت فى الپيلوپونيز وفى بلاط هيرون . ولم نكن حتى نهاية القرن الأخير نعلم إلا القليل جداً من شعره ، ثم اكتشف له منذ ذلك الحين تسع عشرة قصيدة فى ملف بردى . وبدلا من مائة بيت أصبح لدينا الآن من شعره نحو ١٤٠٠ ، وصار من الممكن تقدير نبوغه . وهذا مثال على تقدم المعرفة بفضل جهود العلماء فى العصر الحديث . وكان يظن أن ما عرفناه عن تاريخ الأدب اليونانى القديم تام ، فى حين أن معلوماتنا حتى عام ١٨٩٧ عن هذا الشاعر الكبير كانت ناقصة جداً[١٥] .

أما بندار (٥١٨ — ٤٣٨) الذى يأتى بين شاعرى خيوس[١٦] فإنه فاقهما كليهما وفاق جميع الآخرين . ويعتقد كوينتليان (الجزء الأول — الفصل الثانى) أنه أعظم الشعراء الغنائيين التسعة[١٧] . وظل حتى اليوم رمز الشعر الغنائى فى العصر الذهبى . ولم يخترع بندار شكلا جديداً من الشعر ولكنه حسن ما صنعه الآخرون قبله ، وأنتج إنتاجاً غزيراً ، فكانت عبقريته ممتازة فى طاقتها وثمارها . نشأ بجوار طيبة ، وتربى فى أثينا (وفى هذا ما يثبت أنها كانت مركزاً أدبياً منذ أول القرن) . وفى موقعة ماراثون كان فى نحو الثلاثين من عمره ، وبذا تلاقت سنو نضجه مع روح التسامى القومى . الذى استطاع التعبير

عنه بأوفى بيان . وكانت ألفاظه فى آن واحد براقة وفخمة؛ سريعة وصحيحة . ولقد تنقل أكثر من منافسيه ، فإننا لا نجده فى بلدة طيبة وأثينا وسائر مدن اليونان الأصلية فحسب ، وإنما نجده أيضاً فى مقدونيا وبرقة وصقلية .

هؤلاء الشعراء الغنائيون يمثلون ما يشبه مقدمة هيلينية جامعة للحضارة الأثينية . وقد دفعهم عدم استقرارهم إلى التنقل بين جميع البلاد اليونانية ؛ ومع أنهم كانوا مدينين لأثينا بالشيء الكثير فإنهم لم يعتبروا أنفسهم أثينيين بل هيلينيين . وكتبوا وأنشدوا الأشعار للبلاط والجماعات التى كانت ترحب بهم . وذكر عن سيمونيديس أنه كان أول من رضى بتناول المال لقاء عمله . ويصعب فهم عبارة كهذه ، لأننا نعلم أن المنشدين الذين كانوا يتجولون فى طول البلاد وعرضها كانوا يكافأون على أتعابهم وتقام لهم الحفلات من قبل مضيفيهم . وقد تكون تلك الإشارة إلى الدفع النقدى بدلا من الدفع العينى ، وهى بهذا لا تدل إلا على تبدل فى الأحوال الاقتصادية . وربما كان سيمونيديس من أول الذين دفعت لهم نقود ؛ لأن كمية النقد المتداولة كانت أكثر فى أيامه ، ولأن الناس كانوا أكثر استعداداً لاستعمالها وكانوا يؤثرون هذا على أن يقايضوا مواهبهم ببضائع وحاجات أخرى .

كان سيمونيديس وباخيليديس من خيوس وبندار من طيبة ، وجميعهم تنقلوا فى البلاد التى تتكلم باليونانية . وتوفى سيمونيديس فى سيراكوز ، وبندار فى آرجوس (فى شبة جزيرة البيلوبونيز) . وأشهر أغانى بندار تتعلق بحوادث الفوز فى دلفى ؛ ولذلك فإن مجده بدأ فيها ؛ وتردد صداه مع سائر الذكريات المتصلة بها فى جميع بلاد اليونان . وأشعاره الأخرى تبدو دلفية بما اتسمت به من عظمة قاتمة .

وفى نهاية الأغنية التى نظمها بندار باسم أحد صغار الرياضيين الذى فاز فى مصارعة عام ٤٤٦ ، واسمه ارستومينيس من إيجنا قال :

قصيرة فترة الزمن التى تنمو فيها سعادة المرء الفانى

وحتى فى ذلك تسقط إلى الحضيض إذا ما أصابها القضاء المعاكس

خلق يوم واحد ، فأى شىء هو هذا الإنسان ؟ وأى شىء ليس هو ؟
ليس شيئاً آخر سوى حلم الخيال
ولكن عندما يأتى بريق من الشمس هدية من السماء
فإن نورا مشرقاً يستقر على الناس وتستقر معه حياة سعيدة (١٨)

أصبحت شهرة بندار عظيمة أثناء حياته . بفضل عبقريته واتصاله بدلفى « سرة » الأرض ، واعتبر شاعراً كلاسيكياً بعد موته بفترة قصيرة جداً .

زاد شهرة هؤلاء الشعراء فى بلاد اليونان أجمع أنهم لم يكتبوا بلهجتهم الخاصة ، وإنما بلغة مصطنعة نوعاً ، وهى إحدى اللهجات الدورية الأدبية التى اقتصر استعمالها عليهم وحدهم تقريباً (١٩) . ويرمزون بذلك إلى وحدة الهلينيين الطبيعية التى أوجدتها تقاليدهم الهومرية وأسرارهم وألعابهم القومية واجتماعاتهم ووفودهم المقدسة ونظرياتهم وحججهم — وهذه الوحدة أقدم من وحدة العصبة الأيونية السياسية أو وحدة الإمبرطورية الأثينية ، وأرفع منها .

الفنون :

كان نشوء الشعر الغنائى إلى حد بعيد مستقلا عن الازدهار الاقتصادى وعن الإمبراطورية لأنه لم يستدع نفقات كبرى . واشترك الشعراء فى الأعياد العامة والخاصة وكانت النفقة الإضافية الوحيدة التى اقتضاها حضورهم هى مصروفهم الخاص والعطايا الملكية التى استحقوها (بدون أن يحصلوا عليها أحياناً) . ومن المحقق أنه مما كان يثير عبقريتهم إلى حدما هو الحماسة العامة . وإننا لنعبر عن هذا الشىء نفسه عندما نقول إنهم كانوا لسان حال الشعب ، ولذلك كان لابد من أن يرتفع إنشادهم ويزداد جمالا فى أيام الظفر والتوسع . وعلى عكس ذلك كان بناء المعابد وسائر الأبنية العامة يتكلف كثيراً . وكان الحجاج هم الذين يدفعون المبالغ اللازمة لبناء المعابد مثل ديلوس ودلفى واليوسيس Eleusis ، أو كانت تجمع من جماعات المؤمنين فى مختلف الأماكن . وعندما أصبحت أثينا مركز العصبة الأيونية ، كانت تتلقى التبرعات من حلفائها ، هذا إلى أن مواردها المالية ازدادت بفضل تجارتها . وفوق ذلك

كانت مناجم الفضة فى لوريون Laurion (فى جنوب أتيكا) ملكاً للدولة، يستثمرها الرأسماليون عن طريق الالتزام ويشتغل فيها العبيد . وقد استعملت الفضة المستخرجة منها فى أول الأمر (حسب نصيحة ثيمستوكليس) لتقوية الأسطول، ثم خصص فيما بعد قسم هام منها لإعادة بناء أثينا وزخرفتها بالمبانى المجيدة.

وقامت الإنشاءات الفنية البارزة بفضل بركليس ومساعده فيدياس (المولود فى عام ماراثون ٤٩٠، والمتوفى فى السجن فى عام ٤٣٢) . ولم يكن فيدياس أعظم نحات فى عصره (ومن أعظم النحاتين فى جميع العصور فحسب) ؛ بل كان مكلفاً أيضاً من قبل بركليس بإدارة جميع مشروعاته الفنية . وقد فقدت أهم أعماله فى النحت. وهى التماثيل الضخمة للإلهة أثينا فى مدينة أثينا وللإله زيوس فى أولمبيا المصنوعة من الذهب والعاج. ولكن جانباً كبيراً من زخارف المبانى الرئيسية على الأكروبول قد بقى . وخاصة قسم من المدخل وهيكل البارثينون . وفى رأى أكثر الناس أن مجد اليونان هو مجد أثينا فى مدة قرنين ، ومجد أثينا يرمز إليه هيكل البارثينون الجديد الذى تم انشاؤه بين ٤٤٧ و ٤٣٤ . ويقترن ذكر ثلاثة من الرجال العظام فى فخامة ذلك البناء وهم: بركليس الدماغ المفكر، وإكتينوس Ictinos البناء ؛ وفيدياس النحات . ولم يخطىء الناس فى نظرهم إلى هذا البناء . فهو بحق أحسن رمز للحضارة اليونانية ؛ وهو كغيره من بدائع الفن (بعكس بدائع العلم والأدب) يمكن تقديره بداهة من قبل أى شخص جدير بالتقدير . وأجمل تعبير أدبى عن عظمة البارثينون قدمه لنا أرنست رينان Renan فى مقطوعته « صلاة على الأكروبول حين وصلت إلى إدراك جماله التام » ؛ وكلماته نفسها هى من أشهر قطع النثر الفرنسى [٢٠].

تطور النحت اليونانى إلى حد بعيد فى القرن السادس ، وترجع بعض التماثيل التى نالت أكبر قسط من الإعجاب إلى ذلك العهد . وفى النصف الأول من القرن الخامس عرف اجيلاداس الأرجوسى Ageladas of Argos الذى فقدت أعماله الفنية ؛ وقد علم ثلاثة طلاب مشهورين هم فيدياس وميرون Myron وبوليكليتوس Polycleitos ، ويمثل هؤلاء الثلاثة نضج النحت اليونانى .

ويفضل كثيرون اليوم إنتاج القرن السابق الذى كان أقل نضجاً وأكثر سذاجة، إلا أنا نستطيع أن نقبل حكم اليونانيين أنفسهم الذين أجمعوا على إطراء أعمال فيدياس وبندار .

وفى العصر الذى عاش فيه أجيلاداس تقريباً ازدهر الرسام بوليجينوتوس Polygnotos . وقد ولد فى تاسوس (وهى جزيرة جنوبى ساحل تراقية) ، ثم أتى إلى أثينا منذ حداثته . وكان النحاتون الثلاثة العظام يعيشون أيضاً فى أثينا إلا عندما كانت مهماتهم تجبرهم على الإقامة المؤقتة فى أماكن أخرى . وكان يمكن مشاهدة أشهر رسوم بوليجنوتوس الجدارية فى رواق Lesche[٢١] فى دلفى ، وتمثل نهب طروادة . ويوليسيس Ulysses فى العالم الأسفل . وبقدر ما يمكننا الحكم عليها من أوصافها القديمة كانت ملونة تلويناً بسيطاً ، بدون أى تأثير للنور والظل وبدون مناظر فى أرضيتها . ومع ذلك كانت عظيمة الأثر فى صرامتها وهيبتها . لقد ضاعت هذه الرسوم : ولكن لدينا فكرة تقريبية عن مقدرة معاصرى بوليجنوتوس الفنية فى الرسم ، وذلك من الرسوم الكثيرة المحفوظة على الأوانى اليونانية (وتتميز الأوانى الأتيكية فى القرن الخامس بما سمى أسلوب الأشكال الحمراء) .

المأساة :

لم نتكلم بعد عن أبرز مظهر للحياة الأثينية فى القرن الخامس — طيلة ذلك القرن وبصورة متزايدة — وهو المسرحية . فإنها كانت شيئاً جديداً ؛ وإن كانت استمراراً وتوسعاً لتقليد قديم . وذلك لأن الشعب كان يحب الرقص والغناء ، كما يحب الاستماع لتلاوة الأشعار . ويعود هذا الميل إلى العصر الهومرى ، والشعراء الغنائيون فى القرنين السادس والخامس أعطوه شكلا جديداً . ومن جهة أخرى أدخلت الأسرار الدينية وسائر الاحتمالات التمثيل المسرحى . وبحسب الأساطير الشعبية كان مخترع المأساة رجلا اسمه تيسبيس Thespis[٢٢]، الذى عاش بين ٥٦٠ و ٥٣٥ . وأصله من إيكاريا Icaria (قرب ماراثون) ، وقد قدم

إلى أثينا وزرع بذوره فى أخصب تربة ؛ وساعدت الانتصارات على الفرس وما يتبعها من عظمة قومية على زيادة الحاجة لا إلى شعر غنائى فحسب ؛ بل إلى شعر مسرحى أيضاً ، يعبر بأقوال فخمة عن عواطف الناس ويثير شعورهم المتوقد، فكانت المأساة نوعاً من الطقوس العامة ، بل أسمى أشكال الطقوس التى احتفلت بها أية أمة .

وقد تطور شعر المأساة المسرحى بشكل منقطع النظير بسبب الوضع الاجتماعى الذى كان مشجعاً له من جهة ، وبسبب وجود ثلاثة من العباقرة الممتازين من جهة أخرى . وحل بالتدريج محل الشعر الغنائى، لأنه مكَّن من سد الحاجة نفسها بصورة أتم . وأضاف إلى الشعر الغنائى والموسيقى الإلقاء المصحوب بالرقص وتبادل الآراء بصورة تمثيلية . فهو عبارة عن شعر غنائى موضوع بشكل مسرحى متعدد الأشكال ومقرون بالأسرار الدينية ومحول إلى حفلة تمثيلية عامة مستقلة بذاتها . وقد كانت المآسى الأولى بسيطة جداً ، بل وساذجة فى عظمتها ، ولكن حوالى نهاية القرن أصبحت تغلب عليها السفسطة والتعقيد ، كما غلبت على الجمهور الذى كان يشاهدها (وأصبحت الصفة الغنائية المحضة ثانوية بالنسبة للمسرحية) ، ومع هذا حققت الغرض نفسه . وكان المسرح مدرسة للياقة والجد والتقوى. وقد ساعد الناس العاديين على أن يتقاسموا الانتصارات والانكسارات المشتركة بكرامة ؛ وأن يفكروا بصورة سامية . وهذا بالطبع ما كان يفعله الشعراء الغنائيون مثل بندار ، إلا أن مؤلفى المسرحيات كان فى إمكانهم أن يفعلوا ذلك بشكل أوقع كما كانوا يتصلون بعدد أكبر من المستمعين .

وقراؤنا يلمون بأهم هذه الروائع . ولكن يحسن بنا أن نذكر الروائيين المبدعين الثلاثة وهم أخيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس. والثلاثة يتصلون بمعركة سلاميس (٤٨٠) حيث استيقظت اليونان الحديثة على أفكار الحرية والمجد . وكان أخيلوس وهو أكبرهم فى الخامسة والأربعين من عمره حينذاك واشترك فعلا فى المعركة . وقد اختير سوفوكليس ؛ وكان فتى جميلا فى الخامسة عشرة من

عمره . ليتقدم الجوقة الغنائية المحتفلة بالنصر ، ومشى أمام الموكب عارياً يحمل القيثارة وينشد نشيد الظفر . أما دور يوريبيديس فكان سلبيًّا ولكنه كان حسن الطالع لأنه ولد يوم الفوز فى موقعة سلاميس .

ولد أخيلوس فى اليوسيس وهى أكثر الأماكن قداسة فى أتيكا حوالى عام ٥٢٥ . واشترك فى موقعتى ماراثون وسلاميس الخالدتين . وتذكر الكتابة الموجودة على قبره . الدور الذى لعبه فى المعركة الأولى ، بينما كتبت مأساته الأولى وموضوعها « الفرس » (٤٧٢) إحياء لذكرى المعركة الثانية . وقد بقيت لنا سبع روايات من رواياته (وعددها نحو ثمانين) وتتصف كلها بالصرامة والرزانة . والمأساة التى كتبها أخيلوس فى مستوى كتابات ثيسبيس من حيث البساطة ، وتسودها الصبغة الغنائية . فهو يذكرنا بالشاعر بندار . والفكرة الأساسية فى رواياته هى فكرة الشؤم المستتر فى الظلام والذى يظهر بالتدريج . فالعظمة البشرية تسبب حسد الآلهة . والفخر Hybris يتبعه الضلال : والآلهة تصيب المتكبرين الفخورين بالجنون والعمى [٢٣] . وإظهار الفخر وعقابه هو الحادث الرئيسى ولكنه مخيف حتى إنه يتخذ مظهراً دينيًّا . والميزة الغنائية طبيعية هنا كما لو كانت فى ترنيمة دينية . والرواية تبدو كما لو كانت رؤيا تنكشف تدريجيا أمام أعيننا كطقس دينى أو كتمثيلية تتعلق بالأسرار الدينية . والرؤيا تنكشف عن طريق الجولة الغنائية وتعترضها المحاورة أحياناً . وتساعد هذه المحاورة على شرح ما يحدث . وتعمل فى الوقت نفسه على وقف الإيقاع ووضع حد للترقب والقلق الذى قد يصبح غير محتمل . ومع أن أخيلوس اضطر إلى قضاء معظم حياته فى أثينا فإنه ذهب ثلاث مرات إلى صقلية وكان فى أحد الأوقات ضيف الطاغية هييرون . وقد توفى فى جيلا Gela على ساحل صقلية الجنوبى فى عام ٤٥٦ .

وولد الروائى الثانى سوفوكليس قرب أثينا فى عام ٤٩٥ بعد زميله بجيل كامل . وكان أكثر اجتهاداً من زميله ، ويقال إنه وضع مالا يقل عن ١٣٠ مسرحية . ومهما يكن فإنه يجب ألا ننظر إليه كمعجزة منذ الطفولة ، لأن مزاج

اليونان المعتدل الممزوج بالتهكم لم يكن من السهل أن يفتن كما نفتن اليوم بأعمال النبوغ السابق لأوانه . وكان هذا المزاج يدرك أن الرجاء المنتظر من الصغرة قد يكون خادعاً كالبراعم المزدوجة لبعض الأشجار التى لا تعطى ثمراً . وقد بدأ سوفوكليس يكتب وهو صغير السن ، ولكن نجاحه كان متأخراً نسبياً فقد كتب نحو إحدى وثمانين من مسرحياته بعد سن الثالثة والخمسين . ولم تبق من مسرحياته إلا سبع ترجع كلها إلى الفترة الأخيرة فى حياته . وتعود أقدم الروايات الباقية « انتيجون Antigone» إلى عام ٤٤٢ .

وكثيراً ما يقال إن سوفوكليس أصلح المأساة ، والأولى أن نقرر أنه زادها تعقيداً . وأكثر التغيرات وضوحاً إدخال ممثل ثالث ، وزيادة عدد الجوقة الغنائية من اثنى عشر رجلا إلى خمسة عشر ، واستعمال المناظر المرسومة (*Scenographia*) فى مؤخرة المسرح . وأعمق من ذلك كانت تغيرات الرواية نفسها . فلم يعد المتألمون ضحايا القدر الذى لا يرحم ، وإنما كان يقرر مصيرهم إلى حد ما اعتدالهم *sophrosyne* أو عدمه . وبهذا أصبحت الرواية إنسانية وأقرب إلى شعورنا . والسيكولوجيا المسرحية أعقد مما هى عليه عند أخيلوس . ويقل دور الشعر الغنائى ، بينما تدعو الحاجة إلى مجال أفسح للمحاورة .

ويبدو أن سوفوكليس قضى حياته كلها فى أثينا مشاطراً مواطنيه أفراح العصر الذهبى وقلق العصر الحديدى وبؤسه ، وقد شرب كأس هذا القلق والبؤس حتى نهايتها المرة . لأنه عاش حتى ٤٠٦ ، ومع ذلك فقد كانت الذكرى التى تركها ذكرى رجل سعيد .

أما يوريبيديس فإن الفترة الزمنية التى تفصله عن سوفوكليس نصف الفترة التى تفصل هذا الأخير عن أخيلوس ، فى حين أن الفواصل المعنوية بينهما أعظم بكثير . ولد يوريبيديس عام سلاميس (٤٨٠) ، فهو أصغر من سوفوكليس بخمس عشرة سنة ، وقد توفيا معاً فى سنة واحدة (٤٠٦) . وهنالك فرق أساسى بينهما ذكره سوفوكليس « الذى قال إنه وصف الناس كما يجب أن يكونوا ، بينما وصفهم يوريبيديس كما هم[٢٤] » . وسبق لنا أن لاحظنا

أن روايات سوفوكليس كانت أكثر إنسانية من روايات أخيلوس ، وروايات يوريبيدس أكثر إنسانية منهما ، وأصبحت العواطف البشرية مركز اهتمامه الرئيسى ، ونظرته إلى الناس أكثر واقعية من نظرة الذين تقدموه ، وإن كانت متجهمة كنظرتهم . وبما أن الحوادث المفجعة تزداد قوة وتعقيداً فإن الجوقة الغنائية لم تعد تابعة للمحاورة ولم يعد لها أهمية تمثيلية ، وإنما بقيت على صورة إضافة غنائية احتراماً للتقاليد . وبقيت الآلهة أيضاً ، إلا أنها لم تكن فى وسط المسرح كما كانت فى تمثيليات أخيلوس بل حوله ، والحق أن من نواحى الضعف فى مأساة يوريبيديس أنه كان يجعل الآلهة تتدخل بكثرة (مما يعبر عنه باليونانية *theos apo mechanes* وباللاتينية *deus ex machina*) لحل العقد الصعبة ولإنهاء الرواية .

كان يوريبيديس أكثر سفسطة من أخيلوس وسوفوكليس . ومن الأهمية بمكان أنه كان من أول الأثينيين الذين كان لهم فخر الحصول على مكتبة خاصة . ولم يشترك فى الشؤون العامة وإنما كان طالباً وأديباً وفيلسوفاً إلى حدما ، وقد تأثر بهيراكليتوس Heracleitos وأناكساجوراس Anaxagoras كما أنه كان صديق هيرودوت وسقراط . وكانت معرفته بالأمور وبالناس أوسع من معرفة سوفوكليس ، إلا أنه دفع ثمن هذه المعرفة غالياً . فحياته لم تكن سعيدة ، وكان قلقاً خائب الأمل ، كما أن ولاءه لأثينا كان أقل ، وتدينه حسب العرف القديم كان أضعف . وكان اطلاعه أوسع وخياله أخصب من خيال سوفوكليس ، وكان أكثر حيوية وذكاء ، وفى بعض الأحيان كان يفوقه رقة . ولكنه من جهة أخرى كان أقل حذراً واحتراماً ، وقد يثير استغراب سامعيه بأفكار فلسفية غير مألوفة . وقد كتب روايات أقل مما كتبه سوفوكليس ، بل وأقل من أخيلوس ، إلا أننا نعرف مؤلفاته أكثر مما نعرف مؤلفاتهم ، لأن ربعها (أى ثمانى عشرة رواية من خمس وسبعين) وصلنا ، ولدينا منها ما يفوق ما وصلنا من روايات الاثنين الآخرين معاً . وقد غادر أثينا فى أواخر حياته وذهب إلى مجنيزيا فى تساليا ، ثم إلى مقدونيا حيث رحب به أرخيلاوس Archelaos [٢٥] ملك تلك

البلاد ، وتوفى هناك سنة ٤٠٦ .

ومن المفيد جداً أن نقارن بين هؤلاء الثلاثة . فبالرغم من أوجه الخلاف الملموسة بينهم والتى ترجع فى الغالب إلى تفاوت أعمارهم ، فإن فيهم صفات كثيرة مشتركة ، منها العظمة والصحة والاعتدال . .ويتساءل الإنسان كيف اتفق أن هؤلاء الثلاثة كانوا معاصرين وشكلوا مجموعة فريدة فى تاريخ الأدب . وقد يميل إلى أن يستنتج ، كما فعل جوته[٢٦] ، أن عبقريتهم كانت إلى حدما عبقرية عصرهم وبيئتهم . ومن العبث أن نحاول تصنيفهم ونقول إن هذا أو ذاك أعظمهم ، ولندع ذلك للمعلمين والمتحذلقين . فقد كان كل منهم عظيماً فى أسلوبه الخاص وبيئته . فأخيلوس أكبرهم سناً وأكثرهم وقاراً . وقد يذكرنا بأنبياء العبرانيين . وسوفوكليس ، وهو أوسطهم من الناحية الزمنية ، يمثل الوسط من ناحية الصفات البشرية والروائية . أما يوريبيديس فهو عاطفى وعصرى أكثر منهما . ويهتم تبعاً لهذا بنفسية الفرد . ومن المؤكد أن سوفوكليس أحسن رمز للاعتدال الأثينى فى العصر الذهبى : ويمكننا أن نصفه بجانب بندار وفيدياس ، وهو أكثر الثلاثة ولاء لأثينا . وقد حارب أخيلوس فى ماراثون وسلاميس . وكان من حظه أن توفى فى وسط العصر الذهبى . أما سوفوكليس ويوريبيديس فقد شاهدا فى آن واحد عظمة ذلك العصر وما تبعه من انهيار وانحطاط سياسى . وتمكن سوفوكليس من المحافظة على هدوئه ، بينما أصبح يوريبيديس أكثر كآبة إن لم يكن أكثر حكمة . وقد بقى سوفوكليس فى وطنه وشغل وظائف عامة حتى فى أيام الاضطراب والانكسار القاتمة . أما الاثنان الآخران فهجرا أمهما أثينا ، وانتهت حياتهما فى المنفى ، فتوفى أخيلوس فى صقلية ويوريبيديس فى مقدونيا .

الملهاة :

إن قصة المسرحية الأثينية التى رويناها فى ثلاث فقرات — تتعلق بأخيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس — يجب إتمامها بفقرة رابعة تتصل بالملهاة . وليس

هذا بحديث جديد ، وإنما هى تتمة للحديث السابق . والملهاة تشبه المأساة فى قدمها : فمصدرهما معاً دورة الأعياد والتسليات الشعبية نفسها ، والطقوس المتعلقة بالإله ديونيسيوس هى التى ولدتهما كليهما . وكان مصدر الملهاة أعياد الحصاد وقطف العنب الريفية ، وأعياد الشكر والمواكب المرحة تكريماً لآلهة الخصب التى يدين لها الناس بلذائذ الحياة . ومع أن المأساة والملهاة نشأتا فى مهد واحد فإن الثانية تطورت بعد الأولى بزمن طويل[٢٧] . ذلك فى الغالب لأن الأعياد المحزنة احتاجت إلى شيء من التدبير لتكون على ما يجب من الوقار والفخامة . بينما يمكن أن تتم التسلية المرحة من تلقاء نفسها فى صورة طبيعية . ومهما يكن فإن الممثل الوحيد « للملهاة القديمة » الذى وصلتنا مؤلفاته لا يظهر قبل الربع الأخير من القرن الخامس وهو أرستوفانيس Aristophanes الأثينى (٤٤٨ — ٣٨٦) . وبظهوره نأخذ طريقنا إلى القرن الرابع . إلا أن من المناسب أن نتكلم عنه الآن . وقد كتب معظم رواياته الأربع والأربعين (وصلنا منها إحدى عشرة فقط) فى القرن الخامس .

لقد كان أخيلوس وسوفوكليس ويوريبيديس متعاصرين ، وكذلك كان سوفوكليس ويوريبيديس وأرستوفانيس ، غير أن الفترة التى انقضت بين الاثنين الأخيرين لا تقل عن تلك التى انقضت بين الأول والثانى[٢٨] . وقد أثر كل منهم فيمن جاء بعده . وإن كان ينبغى أن نذكر أن العكس يحصل أحياناً فيتحدى الشبان من هم أكبر منهم سناً . وهكذا أثر يوريبيديس نوعاً فى سوفوكليس ، وأريستوفانيس فى ايوريبيديس ، وإن وجدت فوارق بين الاثنين الأخيرين لا يمكن إغفالها . وادعى البعض أن يوريبيديس يعد مؤسس الملهاة لتحليله الدقيق لطبائع الناس تحليلا يقرب من الهجو ، ولكن ما أعظم الفرق بين أهداف الرجلين : لقد كانا معاً من رجال الآداب ويستخدمان الأسلوب الأتيكى ، ولكن يوريبيديس بالرغم من سفسطته البالية لا يزال أحد أتباع سوفوكليس .

أما أرستوفانيس فعلى عكس ذلك بدأ شيئاً جديداً للغاية . فهو ناقد شديد

للناس والعادات . لا يعفى أحداً . ولو كان أقوى رجال المدينة وأكثرهم احتراماً . يهاجم المتجرين بالحرب ورجال الدولة والسياسيين والسفسطائيين والشيوعيين ، ويهاجم بوجه خاص متملقي الشعب : والشعب الغبي نفسه demos الذي يسمح بأن يتملقه ويخدعه الفوضويون . وهو لا يهاجم المشتغلين بالشؤون العامة مثل كيمون وبركليس فحسب ، وإنما يهاجم أيضاً الشعراء مثل يوريبيديس والفلاسفة مثل سقراط . وإلى جانب الرجال كان ينتقد المؤسسات نفسها مثل مجلس الشيوخ والجمعية العمومية والمحاكم ومناصب القضاء . وكانت رواياته الانتقادية جريئة غالية ، مثل انتقادات الرسام الكاريكاتوري : لأنه كان يعلم أن الطريق الوحيد لإظهار انتقاداته هو تبسيطها وتعظيمها ، كما يفعل الكاريكاتوري . وأسلوبه فظ قوى لدرجة الخشونة والبذاءة ، ومع ذلك لم يكن مؤذياً (إلا لضحايا انتقاده) ، لأنه كان يعوض عن خشونته بروح الفكاهة والمجون والنكتة الحاضرة . وكانت الغريزة السياسية طبيعية فيه كما كانت لدى كل أثيني مثقف ؛ ولكنه لم يكن متحيزاً ولا مغرضاً ؛ وإنما كان يوجهه ذوقه السليم وحبه للدعابة . كان يرغب في أن يضحك الناس معه وأن يحميهم من غباوتهم هم أنفسهم وممن يحاول غشهم . وكان كغيره من النقاد البارزين ملماً بشئون عصره يحس بكل ما يحصل حوله ، كما كان ساخراً ومشككاً إلى حدما . وقد كان أحياناً يمدح الماضي الزاهر لكي يلفت النظر إلى نواحي البؤس في عصره ، ومن الغريب في هذا أن يدافع عن أخيلوس ضد سوفوكليس . ولم يكن متديناً ولا خصماً للدين ، ولكن اهتمامه به كان أقل من اهتمامه بالعدل والسلم. وتجمع رواياته إلى جانب الواقعية والحقيقية Dichtung und Wahrheit نواحي خيالية لا تكاد تصدق . ومهما يكن من غرابة شخصياته فإن فيها قدراً من الحقيقة يكفي للفت النظر وجذبه وإثبات ما يذهب إليه . وكان شعوره بالطبيعة الإنسانية قوياً وإن كان فجاً . وبعض أشعاره مأخوذة عن أناشيد وأقوال دارجة . أما لغته فمألوفة(٢٩) وطلية وكثيرة الحيوية، وهي أكثر اللغات تعبيراً بالنسبة لمستمعيه ، أما القارئ الحديث فعليه أن يعرف اليونانية معرفة تامة،

(وبصورة حية) ؛ إذا أراد أن يقدر نواحي دقته وظرفه .

كان أريستوفانيس أول نموذج للناقد الهزلي في الأدب العالمي . فهو السلف البعيد لمثل إرازموس وموليير وفولتير وأناتول فرانس . وكان ينتقد الديموقراطية ؛ لأنه كان محظوظاً بأن عاش في ظل أول ديموقراطية عرفت في العالم ، ولأنه كان من سوء حظه أن يشاهد فترة ملأى بالفوضى والمآسي حيث أصيبت المثل العليا الديموقراطية بمحنة يصعب تحملها . وقد رأى شرور العصر وفساده ، وهاجم بجرأة الزعماء السياسيين والروحيين الذين كان عليهم أن يتحملوا المسئوليات كما حصلوا على المفاخر والأمجاد . وكانت الانتقادات التي وجهها مفيدة وسليمة ، بالرغم من عنفها ، وأحسنت البرهنة على صلاحية الديموقراطية الأثينية وأصالتها . فالديموقراطية لا يمكن أن توجد بدون توجيه النقد للذين يعيشون في ظلها ، والنقد اللاذع أوفق من انعدام النقد بتاتاً .

ويمكننا أن نفهم قيمة عمل أريستوفانيس بالنسبة لعصره إذا سألنا أنفسنا بضعة أسئلة : هل يمكن تصور وقوع مثل هذا النقد في إسبرطة أو فارس المعاصرتين ؟ أو إذا اقتربنا من عصرنا الحاضر : هل كان يمكن إخراج رواية في برلين عام ١٩٤١ مثلا تسخر من اعتقاد هتلر في رسالته الإلهية وتظهر ذلك الزعيم الملهم يقود شعبه نحو الهاوية ؟ (وهل كان يمكن إعلان فوز مثل تلك الرواية !) وماذا لو أخرجت رواية في وشنطن في السنة نفسها تدعو إلى السلم وتتهم رئيس الولايات المتحدة ووزراءه بالمتاجرة بالحرب ؟ وهل كان من الممكن إخراج رواية في موسكو عام ١٩٥١ تقلل من شأن ستالين ؟

إن هذه الأمور بعينها كانت ممكنة في وسط الهموم والقلق أثناء حرب البيلوبونيز . ألا فما أعظم أثينا وما أعظم أريستوفانيس! فهو يستحق بفضل إخلاصه الشعري وجرأته تلك الكتابة المنقوشة على قبره إكراماً له (والتي قيل إن أفلاطون كتبها) ، ونصها : « حاولت إلهات الجمال إيجاد معبد يبقى على الأيام ، فلم تجد أحسن من قلب أريستوفانيس[٣٠] » .

القرن الخامس هو نفسه مأساة :

فى هذه الكلمات الموجزة عن الثمار الفنية والأدبية للعصر الذهبى التى لم يعادلها شىء فى أى مكان وفى أى عصر آخر — لا بد أن يكون القارئ قد لاحظ إشارات إلى الحوادث الرهيبة التى أحلت النكبات وخيبة الأمل موضع الحماسة والأمل وكادت تهدم جلال، أثينا ومجدها . ويجدر بنا أن نضيف كلمات أخرى إلى ذلك دون الدخول فى التفاصيل التى ليس فيها فى حد ذاتها كبير فائدة . ظلت بلاد اليونان متحدة اتحاداً بديعاً تحت زعامة أثينا ، وذلك لفترة من الزمن — وتبدو هذه الفترة قصيرة ونحن ننظر إليها الآن من بعيد . غير أن الشعب اليونانى لسوء الحظ قوم متحاسدون . كان ذلك شأنهم ، وقد لازمهم، ولا يزال موطن ضعفهم الرئيسى إلى اليوم . ووجدت المدن التى هى أقدم من أثينا صعوبة فى أن تصبح تابعة لها ، وكان ذلك غير محتمل تقريباً لواحدة منها خاصة ، وهى إسبرطة المتكبرة . وزاد فى حسدها اختلاف وجهات النظر التى لم يكن فى الإمكان تسويتها بطريقة من الطرق . فأثينا ديموقراطية وطابع إسبرطة أرستقراطى واستبدادى ، والفرق بين المدينتين فى القرن الخامس عظيم ، كالفرق بين لندن وبرلين عام ١٩٤٠ ، وفى كلتا الحالين لم يكن من حل سوى الحرب . وقد وقعت بكل ما فيها من ويلات . ولسنا فى حاجة لوصف الحرب البيلوبونيزية ، ولا الحربين اللتين دمرتا العالم اليونانى بين ٤٣١ و ٤٢١ ، ولا ما حدث بعد هدنة قصيرة بين ٤١٤ ،و ٤٠٤ ، وانتهى بفوز تام لإسبرطة وأضحت هذه الحروب الأهلية حروباً عالمية ، ويمكن مقارنتها ، من حيث اتساعها النسبى وشدتها والنتائج التى ولدتها ، بالحروب الفارسية التى خرجت منها بلاد اليونان الموحدة ملأى بالأمل فى مطلع القرن الخامس ، ويمكن مقارنتها أيضاً بالحربين العالميتين اللتين اسودت بهما أيامنا هذه .

وأضيفت إلى ويلات هذه الحرب آلام الطاعون ومخاوفه التى يعز علينا وصفها . ودامت خمس سنوات طويلة (٤٣٠ — ٤٢٥) . وكاد يشعر الأثينيون

أن نهاية العالم اقتربت . ومن المحقق أن عالمهم المرح انتهى إلى غير رجعة . إلا أن حياتهم الثقافية لم تتوقف توقفاً تامًّا خلال تلك السنين الرهيبة . وبقيت بوجه خاص مآسي سوفوكليس ويوريبيديس وملاهي أريستوفانيس المتجهمة تمثل . وكانت الروايات الجديدة تدخل المسابقة كل عام كالمعتاد . وتكلل أحسنها بالنجاح .

وكان عام ٤٠٤ عام الخضوع والذل . فاضطرت أثينا إلى الاستسلام . وهدمت أسوار بيرايوس (ميناء أثينا ومركز صناعتها البحرية) والأسوار الطويلة بين أثينا والميناء . وسقطت الحكومة الديموقراطية . وانتقل سلطانها للطغاة الثلاثين ، ولا داعي لوصف هذه الأعمال الفظيعة التي كادت تمحو معالم هذه المدينة النبيلة إلى الأبد . ومع ذلك عادت أثينا فازدهرت كما سنرى . واتخذت مظهراً جديداً من المجد والزعامة الروحية . وظلت مدينة عظيمة . بل إحدى المدن العظمى فى العالم القديم . وانتعشت اليونان كلها . ولكنها لم تستعد وحدتها ولا سلمها ، ولا الفورة البريئة التي عرفها عصرها الذهبي الأول .

ومع الزمن استولت على العالم القديم روح أتيكية جديدة . وهى روح أفلاطون وأرسطو التي لا تزال حية إلى اليوم . وهذه الروح ذات صفة دولية أكثر من تلك التي ظهرت فى القرن الخامس . وكانت أكثر شعوراً بنفسها ووجودها ، إلا أنها كانت أقل صفاء . والفرق العظيم بين العصر الذهبي الأول والعصر الذهبي الثانى يتضح بسرعة فى ذلك التباين بين عمل فيدياس من جهة وعمل أسكوباس وبراكسيتليس من جهة أخرى . على أنه ينبغي ألا نستبق الأمور .

وإذا عدنا إلى القرن الخامس ونظرنا إليه من دروة عصرنا الحاضر . خلال خمسة وعشرين قرناً . فإننا نتحقق من أنه كان كإحدى مآسي أخيلوس يبدأ بعظمة وفخر لا يلبث أن يغضب الآلهة ويثير حسدها . ثم ينتهى بانتقامها وبطشها بالأثينيين ودمارهم .

خطر مقارنة الماضى بالحاضر

ينبغى أن يختم هذا الفصل بشىء من التنبيه . فقد تكلمنا عن مجد أثينا ؛ ولا يصح أن يغيب عن بالنا أن هذا هو الجانب السعيد الزاهى ، فى حين أن الجانب الآخر ليس بمثل هذه البهجة .

وآثار الماضى فى نفوسنا ذات جانب واحد بالضرورة ، فنحن نذكر العظمة والجمال فقط ، والأمور التى تستحق الذكر ، أو بالأحرى تلك التى لا تحتاج إلى تذكر ؛ لأنها لا تزال قائمة ، وننسى الأمور السيئة البشعة والدنيئة الزائلة الفانية ، لأننا لا نرى ما يدعو لأن نثقل ذاكرتنا بها .

ولم يكن فى الإمكان أن تكون المعيشة فى أثينا بهيجة أثناء الحروب البيلوبونيزية ، وحتى قبل اندلاعها فإن فترات السلم التام كانت قصيرة وقليلة . وهذا ما يجب أن نذكره عندما نقارن الماضى بالحاضر (كما يمكننا وكما يجب أن نفعل) . وقد نمدح أحياناً حوادث الماضى فى حين أننا لا ننصف معاصرينا ، لأن فظائع عصرنا ونواحى التقصير فيه جلية واضحة بالنسبة لنا وهى تؤذينا بينما فظائع الماضى تنسى أو تفقد مرارتها .

وهل علينا أن نحاول استعادة ذكرى الجانب الكثيب المحزن من القرن الخامس ؟ إننا حتماً لا نفعل ذلك بالتفصيل ، وما فائدة هذا العمل ؟ ولماذا نسمح لأنفسنا أن نتلهى بشرور انقضى عهدها منذ أمد طويل ؟ إن شرور اليوم تكفينا . ومن المفيد أن نعلم أن الناس رجالا ونساء أصابتهم جميع أنواع البؤس فى كل مكان وزمان مع فترات قصيرة فقط من السلم والسعادة . وإدراك المرء أن قسطاً من الشر والألم كان دائماً موجوداً حتى فى أمجد عصور الماضى من شأنه أن يساعده على تحمل شرور اليوم فى رباطة جأش أكثر .

ويدعونا الواجب إلى أن ندرك شرور عصرنا قدر الإمكان ، لكى نتمكن من معالجتها أو إزالتها ، ولا حاجة إلى مشاهدة شرور الماضى أيضاً لأن شفاءها لم يعد ممكنا والزمن أزالها فعلا . ومع ذلك يجب أن نحفظ لها ذكرى بصورة

عامة ، وبهذه الذكرى ينبغي إنصافاً أن يخف مديحنا للماضي .

وليتضح لدينا دائماً أن ما يروقنا من الماضي (ولم يكن فى وسعنا أن يروقنا أكثر من اللازم) ، ليس هو الماضي كله بأى وجه من الوجوه ، وإنما جزء صغير منه ، بل وأحسن أجزائه . ولا يصح أن ننظر إليه على أنه مثل أعلى ، كما فعل أرنست رينان فى « صلاته على الأكروبول » ، وإنما ننظر إليه ككل نعجب فيه فقط بالأمور التى كانت جيدة جداً بحيث لا تفنى . ونحن لا نحب الماضي ، اللهم إلا قسماً منه لم يكن ماضياً ، وسوف لا يكون أبداً .

وواضح أن الأثينيين لم يكونوا جميعاً فى مستوى البارثينون الروحى ، وأحسنهم فقط هم الذين استطاعوا أن يتذوقوا سوفوكليس وفيدياس . ولم تكن هذه الأقلية إلا بمثابة الخميرة ، وبفضل تشجيعها وعبقريتها تمكن رجال عظام مثل فيدياس وسوفوكليس أن ينتجوا روائعهم الممتازة . وقد بقى هؤلاء العظماء . بينما ذهب الآخرون ، وهم وحدهم يرمزون إلى قيم العصر الذهبي الخالدة .

تعليقات

(١) يمكن القول بوجه التقريب أن الشعب اليونانى الذى تبحث عنه فى هذا المجلد هو مزيج من سكان البحر المتوسط (من كريتيين وأخيين وغيرهم) وغزاة مختلفين وخاصة الدوريين الذين هبطوا من الشمال. وهذه مسألة كثيرة التعقيد وقد يكون حلها متعذراً. وهنالك موجز عنها فى كتاب A.J.B. Wace وعنوانه Companion to Greek Studies (كمبردج الطبعة الثالثة ١٩١٦) ص ٢٣ – ٣٤ .

(٢) لن نتمكن من الكتابة عن الحضارة الأخمينية فى هذا الكتاب ؛ وذلك لعدم وجود متسع لها ولضرورة وحدة الموضوع . ونكتفى بتذكير القارئ أن أول ملوك السلالة الأخمينية كان قورش (حكم ٥٥٩ – ٥٢٩ ق . م .) وأن آخرهم كان دارايوس الثالث الذى كسره الاسكندر الأكبر فى ٣٣١ ق . م . وقد دام حكم السلالة ٢٢٨ سنة . ويجدر التكلم عما حققته الحضارة الأخمينية فى تاريخ الفن أو حتى فى تاريخ التربية عند الأقدمين (بالرغم من أن التربية الفارسية –كما أوضحها كزينوفون فى كتاب تربية قورش Cyrupaideia – كانت وهمية وخيالية إلى حد بعيد) ، أما مؤرخ العلوم فيمكنه أن يهمل ذكرها بدون حرج وخاصة بالنسبة لطبيعة هذا الكتاب وموضوعاته . راجع الكتاب الذى وضعه المرحوم البرت أولمستد A. Olmstead (١٨٨٠ – ١٩٤٥) وهو تاريخ الامبراطورية الفارسية History of the Persian Empire (٥٩٦ صفحة مع الرسوم مطبعة جامعة شيكاجو ١٩٤٨) .

(٣) كانت مصر تحت حكم الفرس بين ٥٢٥ و ٣٣٢ ق . م .

(٤) انظر مقال جورج سارتون : « وحدة عالم البحر المتوسط وتنوعه The unity and diversity of the Mediterranean world فى مجلة Osiris عدد ٢ ، ص ٤٠٦ – ٤٦٣ ، عام ١٩٣٦ وخاصة ص ٤٢٢ – ٤٢٣ .

(٥) ذهب أحد جنود اليونان ركضاً إلى أثينا ليذيع الأنباء السارة . ولإحياء ذكرى أعمال البطولة هذه (ومنها عمل هذا اليونانى) وقام سباق ماراثون الطويل المدى فى عدة بلاد ، كما يحدث فى بوسطن مثلا كل سنة ، ومسافته ٢٦ ميلا و ٣٨٥ ياردة ، على أساس أنها المسافة بين ماراثون وأثينا . ولا أدرى على أى أساس حسبت .

(٦) انظر المقدمة Introduction ج ٣ ، ص ١١٨٨ .

(٧) هنالك ملاحظات غريبة من اللهجة الأثينية فى كتاب « دستور أثينا » ، الجزء الثانى والثامن ، وهو كتاب جزيل الفائدة ينسب إلى كزينوفون ، ولكنه أقدم بقليل (نحو ٤١٣ – ٤٢٤) . وقد قال مؤلف الكتاب المجهول « بما أن الفرصة كانت متاحة لهم للاصغاء إلى لهجات متعددة فإنهم استعاروا من كل منها . وبينما استعمل كل واحد من الشعوب اليونانية الأخرى

لنته الخاصة واتبع أسلوبه فى المعيشة والزى فإن الأثينيين استعملوا لغة مزيجة استمدوا عناصرها من اليونان الآخرين وغيرهم »، انظر الطبعة اليونانية – الإنجليزية ، لهذا النص مع شروح هارتفج فريش « دستور أثينا » (طبع كوبنهاجن ١٩٤٢) .

(٨) أطلق اسم ميثريداتيس على عدد من الولاة أو الملوك فى پونتوس Pontos (فى شمال شرقى آسية الصغرى جنوبى الطرف الشرقى للبحر الأسود) وقد اشتق هذا الاسم من اسم إله الشمس عند الإيرانيين، وهو مثرا Mithras . والملك الذى نتكلم عنه هو ميثريداتيس السابع أو يوپاتور Eupator أو العظيم ؛ وقد دام حكمه من حوالى ١٢٠ إلى ٦٣ ، وكان هانيبال أشد أعداء الرومان خطراً واتصف بالقسوة والوحشية وإن كان مولعاً بالآداب والفنون .

(٩) اكتشفت البعثة الأثرية الفرنسية سرتين من رخام فى دلفى . (انظر مقال "Omphalos" لكاتبه و . ج . وودهوس Woodhouse فى دائرة معارف الدين والأخلاق Encyclopedia of Religion and Ethics ج ٩ (١٩١٧) ص ٤٩٣) . وإن فكرة وجود سرة الأرض أو وسطها فى مدينة معينة أو بلد معين هى نوع من الإقليمية والاعتداد بالذات ، وليست بأى شكل من الأشكال مقتصرة على اليونان . فقد كان يعتقد سكان بوسطن مثلا أن مدينتهم هى « مركز العالم » والفكرتان متشابهتان وإن كانت الاستعارة مختلفة ، وإننى أفضل فكره « السرة » ، وهى عضوية ، على فكرة المركز hub ، وهى ميكانيكية .

(١٠) كانت البيثيا Pythia (والمقدسة hiera) كاهنة أبولون البيثى ،وكانت هؤلاء الكاهنات فى الأغلب نساء يتمتعن بقوى فائقة فى الوساطة .

(١١) قد تبدو هذه الأمور كلها مخالفة للعقل . على أننا يجب أن نتذكر أن حوادث التاريخ القديم (ومنها الحوادث السياسية والعسكرية مثلا) كان يسيطر عليها لحد كبير الإيمان بالفأل والتكهنات . وتراجم بلوتارك Plutarch ملأى بالإشارات إلى التكهن وعلم الغيب ، وقد زادت هذه الإشارات فى شهرة مؤلفه فى العصور السابقة (حتى القرن الثامن عشر) ، وهى الآن من الأسباب الرئيسية لزوال هذه الشهرة على الأغلب . ومهما يكن من غباوة التكهن فإن الناس كانوا يتأثرون به ما داموا يعتقدون صدقه . فالاعتقاد خاطىء والتأثير واقعى . انظر بشأن دلفى وسلطة كاهناتها (Pythiae) التوجيهية كتاب بوشيه لوكليرر . تاريخ الكهانة فى العالم القديم Bouché-Leclerc, Histoire de la divination dans l'antiquité (فى أربعة مجلدات . باريس ١٨٧٩–١٨٨٢) وخاصة المجلد ٢ ، ص ٣٩–٢٠٧ ؛ وكتاب «وبرت وليم بارك Parke : تاريخ تكهنات دلفى History of the Delphic oracle (عدد صفحاته ٤٦٥ مع الرسوم طبع مكتبة بلاكول Blackwell فى اكسفورد ١٩٣٩) ، ومجلة ايزس Isis ص ٣٥ ، ٣٥٠ عام ١٩٤٤ . وتنبؤات دلفى كانت عموماً غامضة وسلبية (سوف لا تفعل كذا . . .) ومقيدة ومحافظة . وقد يود رجال السياسة اليوم لو كان فى وسعهم أن يبرروا أعمالهم أو عدم إتيانهم لعمل بالاستناد إلى أمر إلهى ! فإن ذلك كان يعطيهم أعذاراً لا يمكن التغلب عليها .

(١٢) تشهد بذلك بعض الظواهر الباقية في لغتنا : فكلمة panegyric التي تعني أي خطاب أو كلام فيه مديح مشتقة من Panegyris ومعناها جمعية وطنية عموماً من نوع الأعياد الدينية كالتي كان يجتمع الناس فيها في دلفي وديلوس . وخطب العيد كانت تسمى panegyricoi . وبما أن هذه الخطب كان يزداد فيها المديح للزعماء أكثر فأكثر فإن خطبة تمتدح الأشخاص أصبحت تدعى Panegyricus ، ومنها خطبة الكاتب بليني الأصغر الذي عاش ٦١ – ١١٤ وفيها إغراق في مدح الإمبراطور تراجان (حكم ٨٩ – ١١٧).

(١٣) كان هيرون طاغية سيراكيوز في صقلية من عام ٤٧٨ حتى وفاته في ٤٦٧ . وكان من المستنيرين الذين يعطفون على الأدب ، وقد رحب في بلاطه بالشعراء ، أخيلوس Aischylos وسيمونيدس وبندار واخيليديس وغيرهم .

(١٤) نقل هذا الشعر إلى الإنجليزية جون سترلنج Sterling ، راجع لأجل النص اليوناني ف . ج . شنايدون Schneidewin, Simonidis Cwei Crmenum reliquiue (Brunswick,1835 (طبع برنزويك ١٨٣٥) ص ١٠ .

(١٥) انظر كتاب فردريك . كينيون Kenyon « أشعار باخيليديس من ملف بردى في المتحف البريطاني» The poems of Bacchylides froma papyrus in the British Museum (٣٠٠ ص . لندن ١٨٩٧) . نشر المتحف البريطاني في تلك السنة صورة تامة من ذلك الملف ، وظهرت منذ ذلك الحين طبعات وترجمات مختلفة لباخيليديس في بلاد عديدة ؛ وعلى هذا فعام ١٨٩٧ هو تاريخ بعث باخيليديس .

(١٦) ويشمل نشاطه تقريباً النصف الأول من القرن الخامس تماماً وأقدم شعر باق له يرجع إلى عام ٥٠٢ وآخر أشعاره من عام ٤٥٢ .

(١٧) راجع كتاب كويتليان Institutio Oratoria (الجزء العاشر ، الفصل الأول ، الفقرة ٦١) في مكتبة Loeb للمؤلفين الكلاسيكيين المجلد الرابع ص ٣٥ . أما « الشعراء الغنائيون التسعة » فإنهم بحسب الترتيب التاريخي : آرخيلوخوس من باروس Archilochos of Paros (٧٢٠ – ٦٧٦) وآلكمان Alcaman الإسبرطي الذي ولد في ساردیس (القرن السابع) والشاعرة سافو Sappho من لسبوس (ازدهرت عام ٦٠٠) ، وايبيكوس من ريجيوم Ibycos of Rhegium (ازدهر في ساموس ٥٤٠) ، وأنكريون من تيوس Anacreon of Teos (٥٦٣ – ٤٧٨) ، وبندار ، وباخيليديس ، وفيليتاس من كوس Philetas of Cos (توفي نحو ٢٨٠) وكاليما خوس من برقه Callimachos of Cyrene (ازدهر ، ٢٦٠–٢٤٠) . ويجب ملاحظة توزع هؤلاء الشعراء في الزمان بين القرنين الثامن والثالث ، وفي المكان فكان واحد منهم فقط – بندار – وهو أعظمهم من صميم اليونان ، بينما كان أربعة آخرون من جزر بحر إيجة وهم آرخيلوخوس وسافو وباخيليديس وفيليتاس ، واثنان من آسية وهما الكمان وآنكريون ، والثامن من بلاد اليونان العظمى وهو ايبيكوس ، والأخير من برقة وهو كاليماخوس .

(١٨) أغنية دلفي ، الجزء الثامن . ترجمها إلى الإنكليزية السير جون ساندس Sandys

(١٨٤٤ – ١٩٢٢) فى طبعة لوب Loeb لأغانى بندار (١٩١٩) ص ٢٦٩ .

(١٩) إن هذا الأمر أقل غرابة مما يبدو لأول وهلة . فالشعر مختلف فى جوهره عن اللغة اليومية ولذلك فإنه ليس من المستغرب أن ينتهى الأمر بالشعراء إلى استعمال مفردات وقواعد تختص بهم ، قارن ذلك باستعمال اللهجة الغاليسية Galician التى هى أقرب إلى البرتغالية منها إلى الكاستية لغة ملك كاستيليا الفونسو العاشر المعروف بالحكيم (راجع المقدمة Introduction ج ٣ ص ٣٤٣ – ٣٤٤) .

(٢٠) تصور رينان هذه القطعة عندما زار أثينا فى ١٨٦٥ ، ثم كتبها فيما بعد ولم ينشرها إلا فى مايو ١٨٧٦ (فى مجلة (Revue des Deux Mondes) ويعد ذلك أدخلها فى كتابه Souvenirs d'enfance et de jeunesse (١٨٨٣) . وكلمة بارثينون – Parthenon معناها غرفة العذراء ، وهو معبد أثينا بارثينوس Parthenos الإلهة العذراء للحكمة .

(٢١) تفيد كلمة lesche مكاناً يجتمع فيه الناس (lego) لأجل التحدث ، وكانت عموماً أشبه بالرواق (stoa)

(٢٢) إننا لا نعلم الشىء الكثير عن ثيسبيس ولكن اسمه محفوظ فى اللغة الإنكليزية فى عبارة Thespian art « الفن الثسبى » أو a Thespian « ثسبى » للدلالة بصورة هازلة عن الممثل . ويقال إنه أوجد ممثلا (يعرف باسم hypocrites ومن هذه الكلمة أتت لفظة hypocrite أى مراء بمعنى الإنسان الذى يلعب دوراً) ليجيب الجوقة الغنائية . فاختراع المأساة إذن يقوم على إضافة العمل الفردى إلى الجوقة الغنائية .

(٢٣) تلك كانت فكرة عادية فى الشعر اليونانى وترجع بأصلها إلى هوميروس ، وقد أبانها أصحاب المأساة الأولون كلهم كما فى مأساة أنتيجون Antigone التى كتبها سوفوكليس (الجزء الأول مقطع ٦٢٠). ومعظم الناس يذكرونها فى شكلها اللاتينى (فى ترجمة متأخرة لبيت منسوب لاوربيديس):

Quem (orquos) vult perdere Iupiter dementat prius

(٢٤) أرسطو : كتاب الشعر Poetiea الفصل ٢٥ .

(٢٥) كان أرخيلاوس ملك مقدونيا من ٤١٣ حتى ٣٣٩ يعطف على الفنون والآداب وقد زخرف قصره زويكسيس Zeuxis وهو من مشاهير الرسامين فى بلاد اليونان قديماً . وتاريخ مقدونيا تاريخ معقد جداً ، والاسكندر الأكبر ملكها الثانى عشر (ومن هؤلاء الملوك أربعة مغتصبون) بعد أرخيلاوس .

(٢٦) فى حديثه مع أكرمان Eckermann فى ٣ مايو ١٨٢٧ .

(٢٧) هذا إذا استثنينا الرواية الهزلية التى ليست قصة مضحكة وإنما هى مأساة هزلية paizusa tragodia. وكان الشعراء المتنافسون فى أعياد ديونيسيوس يضطرون لتقديم أربع روايات (tetralogia) منها ثلاث مآس (trilogia) ورواية هزلية satyricon ورواية الـ Cyclops ليوريبيديس المبنية على ما جاء فى الأوديسية ، (الكتاب التاسع) رواية هزلية ، وهى الوحيدة التى وصلتنا من هذا الروائى .

(٢٨) والفروق بين تواريخ ولادتهم هى ٣٠ و ١٥ و ٣٢ سنة .

(٢٩) وأحياناً كانت مألوفة أكثر من اللزوم بالنسبة لذوقنا . فقد كان ينغمس فى توريات سخيفة لا تضحكنا اليوم كما كانت تضحك معاصريه ، حتى ولو جعلتها التفاسير فى الهوامش واضحة .

(٣٠) كانت إلهات الجمال (المعروفة فى اليونانية باسم Charite وباللاتينية بـ Gratiae وبالانجليزية باسم The Graces) بنات زيوس الثلاث وهن المرح Euphrosyne والبهاء Aglaia والازدهار Thalia ومهمتهن زيادة مرات الحياة الدنيا . وليتهن بقين معنا لأن حاجتنا إلى عونهن ماسة .

(٣١) إن مقارنة القرن الخامس بمأساة مقارنة ملائمة ، خصوصاً وإسبرطة ما كانت لتكسب الحرب لولا مساعدة فارس المالية . وبسبب خيانة إسبرطة هنا تمكنت فارس ، التى أصيبت بانكسار تام سنة ٤٧٩ ، أن تملى شروط الصلح سنة ٤٠٤ . وهل يمكن تصور انقلاب مفجع أكثر من هذا ؟ وإذا درسنا الحوادث السياسية السابقة بشىء من التفصيل ، وجدنا مآسى صغيرة كثيرة ساعدت على إيجاد مأساة الانكسار الأثينى الرئيسية ، وكان من أمر اثنين من منقذى اليونان – وهما ثيمستوكليس الأثينى وبوزانياس الإسبرطى – أنهما أصبحا فى نهاية حياتيهما خائنين منبوذين .

الفصل العاشر

تاريخ الفلسفة والعلم حتى وفاة سقراط

بينما كان الشعراء الغنائيون وكتاب المآسي والفنانون يشاركون الشعب فى أحاسيسه ويحاولون أن يعبروا عنها ويوجهوها ، كان ثمة فئة أخرى من الناس يسمون الفسيولوجيين (دارسي الطبيعة) أو الفلاسفة (محبي الحكمة) ، يميلون إلى اعتزال الجمهور لكي يناجوا أنفسهم ويكونوا أرواحهم بأيديهم . وكان فى وسع الفريق الأول أن ينعم بالمهرجانات والأعياد اليونانية ويشارك الشعب فى إقباله على الأساطير والتكهنات بشيء من الحرية ، ولم يكن يتسنى للفلاسفة مثل ذلك الإقبال ، لأن التأمل كان يستحوذ على أفكارهم . فكانوا يحاولون جهدهم أن يتفهموا طبيعة الأشياء والبشر والآلهة ، ولم ينأوا عن مشاركة الشعب فى خرافاته وأوهامه وحسب ، بل كان تحررهم الفكرى ذاته بمثابة تحد لهذه الآراء . تلك كانت حالهم قديماً ولا تزال حتى اليوم .

كان الإنتاج الشعرى والفنى يلاقى رواجاً وإطراء عامين ، بحيث كان الشعراء والفنانون المبرزون يدخلون فى عداد الأبطال الشعبيين . أما إنتاج الفلاسفة فكان من التعاليم الخفية التى كثيراً ما أثارت الشبهات والحسد . وعوضاً عن التقريظ والتقديس ، كثيراً ما عد الفلاسفة بين أعداء الشعب وتعرضوا لنقمته واضطهاده .

ولما أخذت معرفة الأشياء تنمو وتدق ، راح الفلاسفة يحددون نطاق تأملاتهم ويمعنون فى التفكير فى الأشياء ، ونحوا هذا المنحى فى تدرج ، بحيث لا يكاد يتجلى للعيان قبل سنة ٤٥٠ . وبقى فلاسفة النصف الأول من القرن الخامس أشبه ما يكون بفلاسفة القرن السابق ، ومع هذا كانوا أبعد ما يكون عن الأنبياء.[١] وما إن تجاوز نصف هذا القرن حتى نجد بعضهم قد أصبحوا أقرب إلى ما لا يزال

يعرف « بالفلاسفة الطبيعيين » . فكبار العلماء كالأبقراطيين الأثينيين وكبار المؤرخين كهيرودوت وثوكيديديس ينتمون بلاشك إلى النصف الثانى من هذا القرن.

كانت أثينا حينذاك مركز الحياة العقلية، ولكن لم يضطر الفلاسفة لأن يكونوا على مقربة منها كما صنع الفنانون . فقد كانت تتنازعهم دوافع متضاربة : فرغبتهم فى العثور على جمهور لائق من المستمعين وتلامذة من ذوى الجدارة كانت تجذبهم إلى المدينة الكبرى ، بينما كان الحرص على الهدوء والعزلة يدفعهم إلى الابتعاد عنها . ثم إن أثينا لم تكن مركز الثقل الفكرى الوحيد ، بل مما زاد عظمة الحضارة الهلينية اشتداد التنافس بين المدن العديدة المنتشرة فى أنحاء البلاد . وقد كان عامة الفلاسفة يشاطرون الشعراء حب الارتياد ، لذلك راحوا يطوفون فى أرجاء العالم اليونانى . وبالطبع زار عامتهم أثينا مرة أو أكثر ، إلا أنهم لم يقيموا فيها فى الغالب ، لأن تقلبات الأحوال السياسية كانت كثيرة وأسس الأمن واهية ، فلا يجد المرء معها إلى الاستقرار سبيلا .

لسنا نعرف آراء الفلاسفة الأول معرفة تامة ، لأن آثارهم فقدت ولم يصلنا منها إلا شذرات ، يضاف إليها ما يرويه بعض مؤرخى العقائد[٢] ، وقد بلغتنا كلها مشوهة وعن طريق غير مباشر . ونحن لا نعثر أحياناً إلا على سلسلة من الأقوال الغامضة التى تفنن العلماء فى تأويلها كل التفنن . ومن العبث أن نحاول فى كتاب كهذا أن ننسج على منوالهم ، ولنفرض أننا أصبنا تأويلا جديداً فكيف يمكننا التيقن من أنه يتفق مع المعنى الأصلى الذى قصد إليه المؤلف ؟ ومهما بلغ من الوجاهة لابد أن يبقى موضعاً لشك . وقد يكون من الأيسر أن نحاول تأويل نبوات كهنة دلفى . أما غرضنا فأبسط من ذلك ، وهو أن نستعرض هؤلاء الفلاسفة دون أن نحاول شرح آرائهم بدقة لا تسمح بها معلوماتنا الضئيلة عنهم .

وسوف تقتصر فى هذا الفصل على اثنى عشر رجلا ، أربعة من الأيونيين هم هيراكليتوس وأناكساجوراس ومليسوس ولوكيبوس ، وثمانية آخرون كانوا ينتمون

إلى أربع مناطق مختلفة من بلاد اليونان : بارمنيديس وزينون من أبناء اليونان الكبرى (جنوبى إيطاليا) ، وانبادوكليس وجورجياس من صقلية ، وديموكريتوس وبروتا جوراس من تراقية ، وأنتيفون وسقراط من أتيكا . (ويلاحظ أن واحداً من ستة فقط كان من أبناء القسم المحيط بأثينا أتيكا) ، ومن هؤلاء الاثنى عشر عاش ثلاثة فقط فى النصف الأول من القرن الخامس هم هيراكليتوس وبارمنيديس وزينون ، وثلاثة فى النصف الثانى ، هم مليسوس وديموكريتوس وسقراط ، بينما لمع الباقون فى أواسط هذا القرن .

هيراكليتوس الأفسوسى :

كانت أفسوس أهم المدن الأيونية الاثنتى عشرة dodecapolis الواقعة على الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى ، وأحرزت شهرة كبرى فى العصور القديمة من جراء معبدها العظيم المكرس لأرتميس[٣] . فى هذه المدينة ولد هيراكليتوس وقضى معظم حياته على ما نعرف . فقد تجول فى صباه كثيراً ولكنه عاد إلى مسقط رأسه بعد ذلك . ويروى ديوجنيس * اللائرتى Diogenes Laërtios أنه عند انتهائه من تأليف أهم كتاب له : « حول الكل » Peri tu pantos أودعه فى هيكل أرتميس . ويقال إنه جعل كتابه هذا غامضاً كل الغموض ، ولذلك دعى بهيراكليتوس المظلم ho Scoteinos . وينقسم هذا الكتاب كما يروى بعضهم إلى ثلاثة أقسام : تبحث فى الكون ، السياسة والأخلاق ، اللاهوت . وليس ذلك بمستبعد لأنه يمكن رد الـ ١٣٠ شذرة التى وصلتنا منه إلى أقسام ثلاثة تنطبق على هذا التقسيم ، كما فعل بعضهم[٤] . ولكنه كان من الصعوبة ، حتى حين كان كله فى متناول الناس ، بحيث إن دازابن هيستاسپيس ملك الفرس كتب إلى هيراكليتوس ودعاه إلى بلاطه ليفسره له . وقد رد عليه ورفض الدعوة قائلا : « أكره الظهور كرهاً عظيماً ، وليس فى وسعى الحضور إلى فارس لأنى قانع بالقليل ما دام

* مؤلف حياة الفلاسفة قبل المسيح ، وكتابه من أهم المراجع القديمة . (المترجم)

ذلك القليل يروق لى » . وهاتان الرسالتان مثبتتان كاملتين فى كتاب ديوجنيس اللاثرتى ، وأذكرهما هنا لأنهما تعينانا على وضع هيراكليتوس فى إطاره التاريخى . حكم دارا الأول من سنة ٥٢١ إلى سنة ٤٨٥ ؛ وإذن يكون هيراكليتوس قد ألف كتابه قبل سنة ٤٨٤ ، ويمكننا أن نرجح أنه ازدهر فى أوائل القرن الخامس .

وأمر هاتين الرسالتين معقول. فنحن نعلم أن هراكليتوس كان يزدرى البشر ، حتى الملوك والفلاسفة . وكان يقول « إن العلم الكثير لا يعلم الفهم وإلا لكان علم هزيود وفيثاغورس وأكسينوفانيس وهيكاتايوس (٥) ». وذهب هيراكليتوس كسائر الفلاسفة الأيونيين إلى أنه ينبغى أن يكون وراء مظاهر الأشياء جوهر واحد للكون ، وأن هذا الجوهر أو العنصر الأول هو النار . ولكن لم النار ؟ لعله استنتج ذلك مما قد يصح تسميته بمبدئه الثانى ، أى مبدأ تحول الأشياء الدائم — Panta rhei (٦) . ويبدو أن تلك كانت فكرته الرئيسية : كل شىء يتحول إما إلى فوق أو إلى تحت . فالنار التى تنطلق إلى أعلى ثم تنحدر إلى أسفل وتتغير فى مظهرها كل لحظة هى رمز التحول الكلى الدائم . كذلك الشمس : المصدر الأعظم للنار الدائمة المتحولة .

أما مبدؤه الثالث فقد كان أن تضارب الأشياء الظاهر ينطوى على انسجام عميق ، لأن كل تحول إنما يجرى بحسب سنة شاملة (٧) . فكل صفة تنطوى على نقيضها ، ووجود كل شىء يتضمن عدمه فى مكان ما . وهذه الأضداد تتحد جميعاً فى نظام الطبيعة العام . « الله هو النهار والليل ، الشتاء والصيف ، الحرب والسلم ، الشبع والجوع » (٨). وهذا القول يتفق مع قول آخر لهيراكليتوس ، مؤداه أن الانسجام الباطن هو الأصل ، لا التنافر والقبح الظاهران . غير أن أكثر البشر من الغفلة بحيث لا يرون الجمال الخفى الذى لا يبدو للعيان . كان هيراكليتوس رجلا حزيناً ، لأنه أدرك نسبية الأشياء وبطلانها ، واستحالة التشبث بشىء ما ، ما دام كل شىء يفر منا أبداً . وكذا كان يعتبر مثالا للتشاؤم ، يقابله ديموكريتوس ، مثال التفاؤل فى السير الشعبية . وبينما كان

الأول يبكى أبداً ، كان الثانى يضحك أبداً .

والخلاصة أن هيراكليتوس كان فيلسوفاً وشاعراً من النمط الأيونى القديم ، لا رجل علم حتى ولا فى مرتبة كسينوفانيس نفسه . ومع ذلك ابتدأ كتابه « حول الكل » بالطبيعيات ، ثم انتقل إلى المسائل السياسية ؛ وأخيراً عالج مسائل لاهوتية : وهذا ترتيب لا بأس به . ويمكننا أن نختم كلامنا عنه بأحد أقواله السياسية : « ينبغى أن يقاتل الناس من أجل القوانين ؛ كما يقاتلون من أجل جدران المدينة »(٩) . وما أجدر ذلك « بالبارثنون » * !

أناكساجوراس القلازومينى :

عندما نصل إلى أناكساجوراس ، آخر الفلاسفة الأيونيين ، نجدنا أمام مفكر أقرب إلى طائفة العلماء . والتباين بينه وبين هيراكليتوس مدهش جداً : فهذا ينطق بلسان شاعر وصوفى ، وذلك بلسان عالم طبيعى متزن . وأهم آثاره مقالته « فى الطبيعة » Peri physēos التى وصلنا منها ١٧ شذرة . ولا موضع للشك فى صحة هذه الشذرات التى تقع فى ثلاث صفحات مطبوعة .

ولد أناكساجوراس فى أوائل القرن الخامس فى قلازومينا ، إحدى المدن الأيونية الاثنتى عشرة ، الواقعة فى أواسط الساحل الغربى لآسيا الصغرى ، شمالى مدينة أفسوس . ولما كانت أفسوس كعبة هامة يحج إليها ، فمن الراجح جداً أن أناكساجوراس وفد على هذه المدينة حيث التقى بهيراكليتوس. وعلى كل حال رحل إلى أثينا على أثر الحروب الفارسية ، وهو أول من قام بتلك الرحلة من الفلاسفة الأيونيين ؛ وهذا يدل على أن أثينا أصبحت مركزاً جذاباً . ومن حسن طالع أناكساجوراس أن حظى بصداقة بركليس أعظم أبناء تلك المدينة نفوذاً ، ويصف بلوتارك إعجاب بركليس به وصفاً بليغاً يجدر بنا أن نثبته هنا حرفياً :

« . . . أما الرجل ، الذى لازم بركليس وأضفى عليه ذلك الوقار الرائع

(*) البارثنون أحد هياكل الأكروبول الكبرى الذى بناه بركليس ، تخليداً لأبطال الحروب الفارسية .

الذى فاق جميع أساليب إغراء دعاة الفوضى ، وسما بخلقه حقًّا إلى أرفع درجات السمو ، إنما هو أناكساجوراس القلازومينى ، الذى كان يدعوه أهل عصره بالعقل« Nus » : « إما لإعجابهم بمدى إدراكه الفائق فى الفحص عن الطبيعة ، أو لكونه أول من قال بالعقل الخالص البسيط الذى يميز ويفصل الجواهر ذات العناصر المتشابهة فى وسط عالم من الخليط المشوش ، وعده مبدأ لنظام الكون البديع بدلا من المصادفة أو« الضرورة » . كان بركليس معجباً بهذا الرجل إعجاباً بالغاً ، ولما كان قد تشبع من الفلسفة العليا والتفكير الرفيع ، فقد امتاز بروح تتحلى بالوقار وبيان رفيع خلو من كل قحة سوقية طائشة ، هذا إلى طلعة هادئة لم تستسلم إلى الضحك أبداً ، وخطوة متئدة وهندام لم تكن لتشوشه أى نزوة من نزوات العاطفة إبان الخطابة ، وإيقاع فى الصوت بعيد كل البعد عن الصخب . وميزات كثيرة أخرى كانت تدهش مستمعيه كل الدهشة » . ويقول بلوتارك فى تلك السيرة بعد ذلك بقليل : « وفوق هذا ، كثيراً ما كان بركليس يتخذ من أناكساجوراس وتراً إضافيًّا لكى يتسنى له أسلوب خطابى مناسب لنمط حياته وسمو مشاعره مناسبة الآلة الموسيقية . حتى لكأنه كان يمزج ببيانه صباغ العلم الطبيعى مزجاً حاذقاً »(١٠).

وسنعود بعد قليل إلى عرض أفكار أناكساجوراس ، إلا أن هنا ما يدهش له المرء ، وهو إشارة بلوتارك إلى أنه كان لأناكساجوراس الفضل فى رفع شأن بركليس ، لا العكس . فياله من تنويه عظيم بالشهرة التى أحرزها الفيلسوف الأيونى فى أثينا وبعظمة الشعب الأثينى آنذاك . ترى هل يحترم شعبنا اليوم فيلسوفاً ما، أكثر من احترامه لسياسى مشهور ؟ ويقال أيضاً إن يوريبيديس الشاعر كان تلميذاً لأناكساجوراس. ومن حقنا أن نذهب إلى أن أناكساجوراس كان أول معلم للفلسفة الطبيعية فى أثينا وسلف أفلاطون وأرسطو .

وكان يرى أنه ليس فى الكون انتقال من وجود إلى العدم بل مجرد امتزاج symmisgesthai وانفصال diacrinesthai . فكان الكون منذ البدء خليطاً من بذور spermata لا تحصى أضفى عليها العقل (nus) النظام

والصورة عن طريق حركة التفاف Perichoresis ويلاحظ أن البذور هذه ليست من نوع العناصر ، لأن كلا منها مركب تركيب الكل ؛ ولا من نوع الذرات أو الجواهر الفردة لأنه لا نهاية لتقسيم المادة عنده ؛ ولا حصر لعددها . والنقطتان الأساسيتان فى نظريته هما أولا : إدخال العقل ، تجاه المادة ؛ كقوة تحول الخليط بالتدريج من الفوضى إلى النظام . وثانياً : فكرة الاعصار الأزلى الأول الذى يتم بواسطته تنظيم المادة . وعن القول بالنوس انبثقت فكرة المقارنة بين العقل والمادة ؛ وإن يكن من الغلو أن يدعى أناكساجورس أبا الثنائية الفلسفية . لأن « النوس » عنده ليس واضحاً كل الوضوح : فيشير إلى قوة طبيعية أو إلى قوة روحية(١١) . أما الإعصار الأول وأثره فى التنظيم التدريجى للكون فيقرب من نظريات « كانت » و « لابلاس » الفلكية ، إلا أنه لا يعدو أن يكون إلماعاً غامضاً إلى هذه النظريات . ومع ذلك يكفى الفيلسوف الأثينى الأول فخراً أن يثير فى أذهاننا مثل هذه المقارنات .

ومما يلحظ لديه توفيقه بين الوحدة الأيونية الساذجة والتعددية الفيثاغورية. فالكون فى جملته وأجزائه المفرطة فى الصغر من جنس واحد ، والفرق بين هذه الأجزاء فى الحجم لا فى التكوين(١٢) .

ولنثبت هنا الشذرة الأولى من شذراته الفلسفية(١٣) لتكون بمثابة مثل على أسلوبه النثرى الذى يختلف كل الاختلاف عن أسلوب هيراكليتوس الشعرى :

« فى البدء كانت جميع الأشياء مختلطة ، لا متناهية فى العدد والصغر ، لأن اللامتناهى فى الصغر كان موجوداً . ولما كانت جميع الأشياء مختلطة لم يبد واحد منها للعيان ، لصغر حجمه (لم يكن من الكبر بحيث يرى) . وكان الهواء والأثير(١٤) (وكلاهما غير متناه) يخلان فى كل شىء ، لأنهما كانا أعظم الأشياء عدداً وحجماً . »

هذا العمق وهذه الدقة فى التفكير اللذان يبرزان من خلال شذرات أناكساجوراس رغم ضآلة المعطيات العلمية الأساسية التى ارتكزت عليها مدهش حقًّا : كهيكل « البارثنون » الذى كان يشيد فى الوقت ذاته . كيف استطاع

أناكساجوراس أن يفعل ذلك ؟

إن دهشتنا لتزداد عندما ندرك أن معرفته العلمية لم تكن هزيلة وحسب ، بل كانت فى الغالب خاطئة أيضاً . كانت نظرياته الطبيعية تقدمية ، فى حين كانت معرفته الفلكية رجعية إذا قيست بآراء الفيثاغوريين . ولا يستحق ثناء خاصاً فى تفسيره لكسوف الشمس وخسوف القمر على أساس نظرية اعتراض القمر أو الأرض أو أحد الأجرام الأخرى بينهما ، لأن هذا التفسير لم يكن جديداً ولأنه كان يتصل به عدد من الآراء البدائية ، كفكرة استواء سطح الأرض والكواكب الأخرى ، وكالزعم أن الشمس أكبر من شبه جزيرة « البيلوبونيز » ، وهلم جرا . وقد ذهب إلى أن القمر جرم مسكون كالأرض توجد فيه سهول وأخاديد ، وأن النيزك العظيم الذى هبط سنة ٤٦٧ على نهر الماعز (Aegos Potamoi) فى خرسونيس من أعمال تراقية أو شبه جزيرة جاليبولى فى الساحل الشمالى للدردنيل ، إنما هبط من الشمس . وهذا النيزك هو أول نيزك فى التاريخ نعرف زمان وقوعه[١٥].

وقد كان أناكساجوراس يعتنى عناية بالغة بالتشريح والطب . ويروى أنه درس علم تشريح الحيوانات وقام بتجارب تطبيقية عليها . وقد شرح الدماغ وعرف موضع « الجويفات الجانبية » . وعزا نشوء الأمراض الحادة إلى تسرب الصفراء إلى الدم وإلى الأعضاء .

ثم حاول أن يربع الدائرة ، وألف كتاباً فى فن المشاهد المسرحية : أى تطبيق قوانين الظل على هندسة المناظر والستائر المسرحية ، وهكذا يكون أحد واضعى العلم الرياضى لقوانين الظل الصورى (Perosptive) . وليس هذا بمستبعد، لأن الحاجة إلى مناظر مسرحية جيدة وبسيطة كانت ماسة، لما كانت تنعم به الدراما من شأن فى ذلك العصر . وكان من الطبيعى أن يتجه كتاب الدراما نحو رجل من رجال العلم لسد تلك الحاجة ، وكان من الطبيعى أيضاً أن يستشير يوريبيديس معلمه أناكساجوراس فى الأمر.

كان علماء اليونان يعرفون الشيء الكثير عن مصر ونهرها العظيم ، الذى

كان يختلف اختلافاً تامًّا عن الأنهار أو الجداول الضحلة التى ألفوها فى بلادهم، ولذلك راحوا يعملون الفكر فى أسباب فيضانه السنوى الذى كانت تدعى أرض مصر من جرائه « هبة من النيل » (doron tu Potamu) وذهب أناكساجوراس إلى أن هذا الفيضان ناجم عن ذوبان الثلوج على الجبال داخل ليبيا صيفاً؛ وبعد أن يروى هيروديت هذا التفسير يطرحه جانباً . وأول من أتى بالتفسير الصحيح أرسطو واراتوسثنيس ، فقد قالا إن الفيضان ليس ناجماً عن ذوبان الثلوج ، بل عن الأمطار الاستوائية التى تهطل أثناء الربيع وأوائل الصيف بالقرب من مياه النيل الأزرق والنيل الأبيض . ولم يكن تفسير أناكساجوراس صحيحاً كل الصحة إلا أنه كان تفسيراً معقولا ، وهو أول من ذهب إلى أن الفيضان يبدأ فى الجبال التى ينبثق منها النيل[١٧]. وقد مضت ألوف من السنين قبل أن يسلم الناس عامة بالتفسير الصحيح : لأن حل هذه المشكلة عثر عليه ثم فقد مراراً عدة ، وقصة النظريات الدائرة حول فيضان النيل مثال حسن على الصعوبات التى لاقاها الباحثون فى اكتشاف الحقيقة والمحافظة عليها قبل العصور الحديثة .

لن نبحث نظريات أناكساجوراس الفلكية ، فإن معالجة كل بند منها قد يؤدى بنا إلى التطويل ، وليس فى ذلك كبير جدوى ، لأنه وإن كان عالماً مدهشاً فى الكونيات لم يكن فلكيًّا حاذقاً ، بل كان إلى حدما عالماً رياضيًّا يصح تسميته بعالم نظرى . وكان فى هذا عالماً أصيلا لأنه أثار مشاكل علمية حاول أن يجد لها حلولا عقلية . ومع أن الأثينيين أعجبوا به بادئ الأمر ، استهجنوا أقواله مراراً عدة ، واستهجنوا نظرته العامة إلى الأشياء ، وهى نظرة رجل الفكر الذى يطرح الخرافات جانباً : ومثل هذا الموقف ضرب من الإلحاد فى نظر الرجل المتعصب[١٨]. وهذا تعليل كاف لتوجيه تهمة الكفر إليه ، ومن المحتمل أن يكون الغرض من ذلك الاتهام النيل من ولى نعمته بركليس الذى فقد الكثير من شعبيته عند ابتداء حروب البيلوبونيز . فقد أدين عدد من أصدقائه — أشهرهم فيدياس الذى حكم عليه بالسجن وقضى نحبه فيه . أما

يوريبيديس فقد برهن على بعد نظره بمغادرته أثينا حوالى سنة ٤٤٠ ، قبل أن استفحل الأمر ذلك الاستفحال خلال السنوات العشر اللاحقة . واستطاع بركليس أن ينقذ أناكساجوراس من السجن وإن لم يستطع إنقاذه من النفى .

ومهما كانت دواعى اتهام أناكساجوراس الحقيقية – صداقته لبركليس أو ميوله الفارسية (١٩) – فقد كان الاتهام المباشر دينيا . وهكذا أدين أناكساجوراس لنزعته العقلية حوالى سنة ٤٣٢ . ومن المحقق أنه لم يكن أول ضحايا النزاع الدائم بين العلم، والتعصب ، إلا أنه أول ضحية وصلنا خبرها . وربما لا يصح أن ندعوه شهيد العلم ، فقد اقتصرت عقوبته على النفى ، ومع هذا فهو أول رجل فى التاريخ عوقب من جراء تفكيره الحر ، وسيره وراء ما أوحى به عقله وضميره بدلا من عقائد الجماهير . ولسنا نعرف تفاصيل حياته فى الغربة ، ولكننا نعرف أنه استقر آخر الأمر فى لامبساكوس ، إحدى مدن « ميسيا »، على الشاطئ الجنوبى للدردنيل . لماذا اختار هذا المكان ؟ أللانزواء عن العالم ؟ كلا ! بل لأنه أراد الانضمام إلى لاجئين آخرين إذ أنه حين دمر الفرس مدينة « ملطية » المجيدة ، مهد الفلسفة الأيونية وحاملة لواء الثورة الأيونية على الفرس ، سنة ٤٩٤ ؛ التجأ عدد كبير من أهلها إلى لامبساكوس ، وقد حل فى تلك المدينة لاجئ آخر ، أو سمه خائناً إذا شئت ، هو ثمستوكليس . ولم يكن ذلك بالأمر الشائق ، ولكن يمكننا أن نفترض أن الملطيين أحدثوا فى « لامبساكوس » تقليداً فلسفياً هلينياً، راق لأناكساجوراس، فقضى آخر أيام حياته هناك وتوفى سنة ٤٢٨ . وليس من المرجح أن يكون وجد متسعاً من الوقت لتأسيس مدرسة فلسفية هناك ، وإن كان وجوده كفيلا بتقوية التقليد الهليني فى تلك الجهة التى أنجبت فى القرن التالى « أناكسيمينيس »، أحد ملازمى الإسكندر الأكبر ومؤرخيه .

المدرسة الأيلية : بارمينيديس وزينون الإيليان ، مليسوس الساموسى :

لما استولى الفرس على فوكايا ، أقصى المدن الأيونية الشمالية ، استوطن

عدد من سكانها إيليا أو (فيليا) على شاطئ إيطاليا الجنوبية الغربى . ومن المحتمل أن يكون كسينوفانيس الكولوفونى — وهو أيونى آخر — قد مكث فى تلك المدينة ردحاً من الزمن ، وبذلك أيقظ الروح الفلسفية فى أبنائها . وعلى كل حال كانت ولادة بارمينيديس الفيلسوف العظيم وأحد آباء الميتافيزيقى فيها ؛ ومن المحتمل أن يكون تتلمذ على كسينوفانيس فى أواخر أيامه .

كان بارمينيديس مثال الميتافيزيقى الصرف ، همه الأكبر اكتشاف الوسائل التى توصل إلى الحقيقة الكامنة وراء مظاهر الأشياء ، لا هذه المظاهر عينها ، وليست هذه الوسائل مجرد المشاهدة والتجربة — كما يرى رجل العلم — بل هى المنطق الصرف . ويبدو أنه كان يتصور أن فى وسع الإنسان أن يبلغ الحقيقة المطلقة بالوسائل المنطقية وحدها ، وليس من الإنصاف أن ننحى باللوم على رجل من رجال القرن الخامس خامرته هذه الأوهام ، مادام كل ميتافيزيقى تقريباً حتى يومنا هذا يشاركه فى هذا الاعتقاد .

حاول « بارمينيديس » أن يقيم الفلسفة الأيونية الواحدية بدقة بالغة لتعارض التعددية والثنائية الفيثاغورية . وهو فى محاولته هذه أشبه ما يكون بالعالم الرياضى الذى تهمه الدقة أكثر من المتعارف والأمر الواقع . فعنده « ماهو » (to eon) أو الوجود يملأ جميع أنحاء المكان ، أما العدم فهو « المكان المحض » أى الفراغ المطلق . وهذا العدم يستحيل أن يوجد ، وإن كان يمكن تصوره والتعبير عنه (كما فعلنا نحن هنا) . وبناء على هذه المقدمة يذهب بارمينيديس إلى أن العالم ينبغى أن يكون واحداً ومحدوداً ، وبالتالى ينبغى أن يملأ المكان كله . وللتناسق (symmetry) ينبغى أن يكون كروياً . أما الفراغ فممتنع لأن جميع أجزاء الكون ملأى على السواء ، وهذا الكون أزلى لا يتغير ولا يتحرك لأن التغير والحركة لا حقيقة لهما . ويلاحظ أن هذه النتائج نقيض ما انتهى إليه معاصره الأيونى هيراكليتوس . وكانت مقدمته خاطئة ، ولذا استحال عليه أن ينتهى إلى نتائج صحيحة ، وإن كان هذا لا يعنى أن نتائج هيراكليتوس صحيحة .

استأنف زينون الأيلى ، أحد تلامذة بارمينيديس ، مباحثه الميتافيزيقية

(ولاشك فى أنها تمت إلى الميتافيزيقى لا إلى العلم) وأكملها تلميذ آخر هو ميليسوس الساموسى[٢٠]. ويبدو أن الفلسفة الايلية اتخذت شكلا نهائياً قبل انتقال بارمينيديس إلى أثينا وهو فى السادسة والخمسين من عمره. ويروى « أفلاطون » أن « بارمينيديس » تحدث إلى سقراط وهو حديث السن آنذاك. ويستدل من هذا أن وفوده على أثينا كان فى أواسط القرن الخامس وولادته فى أوائله. ولن نناقش هنا فلسفة المدرسة الإيلية الواحدية المتعالية ، وإنما كان لابد لنا أن نشير إلى نشأتها، وأن نعرف ببارمينيديس وزينون اللذين سنعالج نظرياتهما الرياضية والفلكية فى الفصل التالى.

إن فلسفة بارمينيديس معروفة إلى حدما ، لأن عدداً من أبيات قصيدته التى تلخصها وصلتنا. وتقع هذه القصيدة فى مطلع وقسمين : قسم يدور حول الحقيقة وآخر حول الرأى. فاستعاض عن الثنائية الفيثاغورية القديمة بثنائية منطقية جديدة : ثنائية الحقيقة والرأى. كانت أفكاره عميقة أو قل غامضة ، ولكى ننصف الرجل ينبغى أن نراجع أفكاره بالتفصيل ونفحص عنها فحصاً حرفياً دقيقاً ، وإن كان ذلك لا يضمن أن ندركها إدراكاً واضحاً.

أما زينون فقد أكمل « برهان » بارمينيديس بعرضه للحالات التى تلزم عن افتراض أن التعدد والتغير شيئان حقيقيان. ولعل أرسطو دعاه « مكتشف الجدل» من جراء استعماله الغالب لقياس الخلف (reductio ad absurdum) *

إذا سلمنا بالروايات القائلة بأن زينون ولد سنة ٤٨٨ وأنه كان ابن أربع وأربعين سنة عندما رافق أستاذه إلى أثينا ، اتضح لنا أن زيارتهما لأثينا كانت سنة ٤٤٤. وليس هذا بمستبعد ، وإن كنت أفضل أن أقول إنهما كانا فى أثينا فى أواسط القرن الخامس.

أما ميليسوس فكان أميرال الأسطول الساموسى ، وأحرز بعض النجاح فى مناوأته لبركليس ؛ وإن لم يتمكن من الحيلولة دون انهزام الجزيرة التى أنجبته

---

* « قياس الخلف هو الذى تبين فيه المطلوب من جهة تكذيب نقيضه – ابن سينا – النجاة ، مصر ١٩٣٨ ، ص ٥٥. (المترجم).

سنة ٤٤٠ .هل ذهب إلى أثينا فى تلك السنة وتتلمذ على بارمينيديس أم بعد ذلك بقليل ؟ وهو على كل حال الذى دفع « بالواحدية المتعالية » إلى أقصى مدى ، فقد ذهب إلى أن التغيرات التى تطرأ على العالم الخارجى من خداع الحواس ، وأن العقل لا يستطيع أن يدرك حقيقة الوجود فى أى شكل من أشكاله المتغيرة(٢). و يمتنع أن يكون الوجود الحقيقى متناهياً وكرو يًّا كما قال بارمينيديس، بل ينبغى أن يكون لا متناهياً و إلا أمكن وجود الخلاء خارجه . ومن الغريب حقاً أن نرى الواحدية الأيونية قد تفتقت فى جو جنوب إيطاليا الفيثاغورى عن هذا الشكل الفكرى المتطرف المتضارب .

وسوف نصادف بارمينيديس و زينون مرة أخرى فيما بعد ، ولنتركهما الآن لأننا لسنا بصدد تاريخ الميتافيزيقى بل تاريخ العلم .

أنبادوكليس الأجريجنتى :

كان الفلاسفة الذين عرضنا لهم من قبل (هيراكليتوس وأناكساجوراس و بارمينيديس و زينون) — بقدر ما نعرف عنهم أو يمكننا أن نقرأ بين سطور مؤلفاتهم — غريبى الأطوار ؛ إلا أن واحداً منهم لا يضارع فى الغرابة الفيلسوف الصقلى الذى نعرض له الآن . ولد أنبادوكليس فى « أجريجنت» الواقعة على الساحل الجنوبى لصقلية حوالى سنة ٤٩٢ . ولم يكن فيلسوفاً فقط . بل كان شاعراً وعرافاً وعالماً طبيعيًّا وطبيباً ومصلحاً اجتماعيًّا ؛ وبكلمة . كان من الحماسة بحيث استطاع بعضهم أن يعده دجالا . وعده بعض آخر بطلا أسطوريًّا . وكان مسقط رأسه مدينة من أجمل مدن العالم القديم : دمرها القرطاجيون حوالى سنة ٤٠٦ ، ولم تستعد روعتها بعد ذلك أبداً . وفى عهد انبادوكليس كانت لا تزال مركزاً للثقافة اليونانية امتاز بالغنى والتهتك ؛ وينتمى أنبادوكليس إلى إحدى أسرها الكبرى . ومن الطبيعى أن تجتذب الثروة ووسائل الرفاهية عدداً من الرجال المبرزين مثل بندار وسيسموندیس، و باخیلدیس وأکسینوفانیس و بارمینیدیس فى الغالب. وعندما أقصى الفيثاغوريون عن «أقروطونا» لجأ بعضهم إلى «أجريجنت» حيث كان منظر البحر من التلال رائعاً جدًّا ، والسهول المحيطة بالمدينة تحتوى

على مناجم الكبريت والملح والمنابع الحارة والأعاجيب الأخرى التى كانت كفيلة بإثارة فضول العقول المتعطشة للمعرفة . وليس لدينا أى دليل على أن أنبادوكليس تجول فى مصر والشرق — كما يروى بعضهم — ولكنه تجول فى العالم اليونانى : من جهة ، ووفد على مسقط رأسه . من جهة أخرى . وكان لابد له أن ينغمس فى تلك الحركة الفكرية — الفلسفية والدينية والعلمية — التى كانت تغمر جميع الأصقاع الناطقة باليونانية . .

وتشتمل مؤلفاته على أغان تطهيرية (Catharmoi)، وثلاثة كتب عن الطبيعة (Peri physeos) ؛ وقصيدة طبية (Iatricos) . وقد وصلنا ٤٥٠ بيتاً من جميع آثاره . ومع أن هذا جزء ضئيل من المجموع . فإنه كاف لتكوين فكرة دقيقة عن أسلوبه وآرائه .

ويذهب إلى أن العناصر أو الأركان (rhizomata) أربعة : النار والهواء والماء والتراب ، وأن القوى المحركة اثنتان : قوة تجذب نحو المركز وهى الحب (philotes) ، وقوة تدفع عنه هى الغلبة (neicos) . وجميع الموجودات تتركب من هذه العناصر التى لا تتغير ولا تنعدم ؛ والتى تتألف وتتحد بفعل الحب وتتفرق وتتفكك بفعل الغلبة . كانت نظرية العناصر الأربعة توفيقاً غريباً بين الواحدية الأيونية من جهة والتعددية الصرفة من جهة أخرى[٢٢].

وقد يتساءل : لم أربعة عناصر ؟ يظهر أن هذه القضية لم يعبأ بها أحد : بل إن أفلاطون وأرسطو أضافا عنصراً خامساً . ورغم كون هذا العدد اعتبارياً محضاً ، فإنه كان لهذه النظرية تاريخ مجيد ؛ وقد سيطرت على الفكر الغربى حتى القرن الثامن عشر تقريباً[٢٣].

عمرت هذه النظريات الكونية طوال هذه العصور . لأنه كان من المستحيل البرهنة على صحتها أو على بطلانها قبل ولادة علم الكيمياء الحديثة . أما النظريات الفلكية عامة فكانت أقرب إلى المعقول . وكانت نظريات أنبادوكليس خاصة من النوع الساذج : فقد ذهب إلى أن السماء سطح مصنوع من البلور ، إهليلجى الشكل ، شدت إليه النجوم الثوابت وحدها بينما خليت الكواكب وشأنها . ومع

ذلك استطاع أن يقوم بملاحظات وتجارب طبيعية مثمرة ، وثمة تجربة واحدة تنسب إليه كافية فى أن نسلم له بمنزلة رفيعة دائمة فى تاريخ العلم ، وهى تجربة الكلبسيدرا (Clepsydra) * التى برهن من خلالها على أن الهواء جسم . ولعله لجأ إليها من جراء المناقشات حول وجود الخلاء أو استحالته . كانت الكلبسيدرا العادية عبارة عن وعاء مغلق فى قعره ثقب واحد أو عدة ثقوب ، وفى أعلاه ثقب آخر . فإذا أغلق الثقب الأعلى بالاصبع وغطست الكلبسيدرا فى الماء لم تمتلىء ، ولكن عندما ترتفع الاصبع يندفع إليها الماء — وثمة عدد من التجارب البسيطة الأخرى التى تؤدى إلى هذه النتيجة نفسها . مثلا : إذا حاولنا أن ندفع بإناء فارغ ذى فوهة واسعة فى الماء فإن فقاقيع من الهواء تأخذ فى الخروج من سطح الماء . وهذه الفقاقيع التى يمكن رؤيتها وسماعها تمثل جسماً مادياً . إن الإشارة إلى استعمال انبادوكليس للكلبسيدرا هو أول ذكر يرد لها فى الأدب اليونانى ، ولابد أن يكون اليونان استخدموها فى شكل من الأشكال ، لأنها كانت معروفة عند المصريين فى عهد السلالة الثامنة عشرة وعند البابليين القدماء أيضاً . أما نظرية الكلبسيدرا عند اليونان فمتأخرة العهد ، ولا نقع لها على ذكر قبل زمن كليوميديس (١ . ق . م .) (٢٤).

وقد سجل أنبادوكليس عدداً من الملاحظات حول الرؤية والضوء ، ليجيب على سؤال : كيف نرى شيئاً ما ؟ ويبدو من رواية أيتيوس أنه توصل إلى حل وسط للمشكلة : وذلك أنه يصدر عن الأجسام المضيئة إشعاعات (aporroai) تصادف الأشعة الخارجة من العين ، وفى هذا ما يشير إلى أن مفكرين يونانيين آخرين حاولوا حل هذا اللغز . فزعم فيثاغورس وأتباعه أن الرؤية تنشأ عن أجزاء تنبعث عن الجسم ، وزعم آخرون أن العين نفسها ترسل الأشعة الحاسة . وهذه الأوهام تبدو سخيفة للقارئ المعاصر ، ولكن ينبغى أن يذكر أنها تمثل خطوة جريئة ، إذا قيست بموقف القدماء الذين كانوا يعتبرون الرؤية

---

* معناها الساعة المائية ، وهى آلة فى قعرها ثقب صغير ينقط منه الماء ، وتستعمل للدلالة على الوقت — (المترجم)..

من الأشياء المسلم بها دون أن يحاولوا تفسيرها مطلقاً ، ولم يخطر لهم على بال أن هناك ما يدعو إلى التفسير[٢٥] .

وكذلك كانت تقديرات أنبادوكليس لسرعة الضوء مغامرة وتخميناً ، وإن كانت أكثر توفيقاً . فقد أثبتت صحتها مشاهدات قام بها الفلكي الدانمركي « رومر » بعد واحد وعشرين قرناً (سنة ١٦٧٦)[٢٦]، وتجارب أخرى لم يتمها العلماء إلا خلال القرن الماضي . ذهب أنبادوكليس إلى أن للنور سرعة محدودة ، ولم يكن هذا القول بالطبع نتيجة للمشاهدة ، بل للتأمل النظرى البحت . ويشهد أرسطو على ذلك ، ويرويه فى موضعين[٢٧]، ومن المفيد أن نثبت هنا أول هاتين الروايتين وأطولهما :

« يقول أنبادوكليس إن نور الشمس يخترق الفضاء المعترض (بين الشمس والأرض) قبل أن يبلغ العين أو الأرض ، ويبدو أنه كذلك ، لأن كل ما يتحرك (فى المكان) إنما ينتقل من موضع إلى آخر ، وهكذا اقتضى أن يكون ثمة فترة زمنية مقابلة يتحرك فيها الشيء من مكان إلى آخر . وكل وقت معين منقسم إلى أجزاء ، لذلك ينبغى أن نفترض فترة لم يكن شعاع الشمس قد رؤى خلالها بعد ، بل كان لا يزال منطلقاً فى الفضاء المتوسط » .

ويعزى إلى أنبادوكليس عدد من « الاكتشافات » فى علمى التشريح ووظائف الأعضاء . فقد اكتشف صماخ الأذن ، وذهب إلى أن التنفس لا يكون بحركة القلب فقط ، بل بواسطة الجلد كله . ودلل على أهمية الأوردة الدموية ، وأن الدم حامل الحرارة الغريزية ، وأنه يندفع من القلب ثم ينصب فيه مرة ثانية . وليس هذا اكتشافاً لنظرية الدورة الدموية ، بل « للنظرية التموجية » التى بسطها جالينوس (٢ — II) — والتى بقيت شائعة مع شيء من التعديل حتى زمان هارفى (١٦٢٨) وبعده بقليل . ويبدو أن أنبادوكليس طبق « نظرية التموج » هذه على العالم برمته : ففى رأيه، هناك أمواج كونية (أو قل تنفس كونى) تشبه الأمواج (أى التنفس وضربات القلب) التى نجدها فى الجسم البشرى . وهذا القول يتفق مع فكرة التعاقب بين القوتين الكونيتين : الحب

والبغض — وهي فكرة أحرزت شهرة عظيمة طيلة قرون ، وعادت إلى الظهور مراراً في آثار عدد من الكتاب (مثل ليوناردو دافينشي وجيته) .

أما نظرياته الطبية فقد اتسمت أيضاً بسمة التنبؤ بالغيب . فالصحة عنده تتوقف على التوازن بين عناصر الجسم الأربعة ، وينجم المرض عن اختلال توازنها . وكثيراً ما حورت هذه النظرية أو بسطت[٢٨] . ولكن بقيت مسلماً بها طيلة الحقبة التي سلم فيها بنظرية العناصر الأربعة . بل لقد بزتها في التعمير . وبقيت تردد حتى يومنا هذا.

وثمة « نواحي سبق » أخرى طالعها بعضهم في مؤلفاته الغامضة : كالقول بوحدة الطبيعة ، والتطور العضوي ، والتكيف بحسب البيئة . والتذكر المتصل بتناسخ الأرواح[٢٩] .

إن هذه الصورة لأنبادوكليس . رغم تنوع ألوانها ، ليست كاملة بعد ، لأنه كان يتصف أيضاً بصفة لعلها أبرز نواحي شخصيته . وهي ناحية المصلح والمبشر. فكانت المستنقعات المحيطة بأجريجنت موبوءة فجفف بعضها على حسابه الخاص . وكان يتجول من بلدة إلى أخرى يعظ تارة ، وينشد أبياته طوراً ، ويطهر النفوس ويشفي الأجسام ، وفوق هذا يقال إنه أعاد إحدى نساء أجريجنت إلى الحياة . فكان من المخلصين أصحاب المعجزات . وبلغت شهرته (رغم ما كان يشوبها من شوائب) حداً بعيداً في حياته ، ودخل في عداد الأبطال على أثر وفاته . وهكذا تجمعت الأساطير بسرعة حول اسمه كما جرى لفيثاغورس والقديسين الأول . وكانت هذه الأساطير من الغلو بحيث طمست معالم الحقيقة . وأصبحنا لا نعرف بالضبط ملابسات وفاته . وفي بعض هذه الأساطير أنه ألقى بنفسه في فوهة بركان أطنة ، وفي بعضها الآخر أنه سقط فيها حين كان يراقب هيجانه . ويقال أيضاً إن البركان قذف بإحدى نعليه ، (وهذا نوع من الظروف التي ترافق عادة هذه الخرافات وترمي إلى تسهيل تصديقها على المستمعين السذج) . وفي رواية أخرى أنه تعرض لسخط الجمهور ، واضطر لمغادرة صقلية ، ولم يكن ذلك بغريب فإن رضا الجمهور متقلب بين طرفي

الشدة والضعف . فذهب أولا إلى إيطاليا ؛ والأدلة تشير إلى أنه أقام فى ثوريا (لوقانيا) على أثر تأسيسها بأمد قصير (سنة ٤٤٥) ؛ ثم هاجر إلى «البيلوپونيز» وبلغ أولمبيا سنة ٤٤٠ ؛ وأنشد أحد الحفاظ «قصائده التطهيرية» أثناء إحدى الحفلات الأولمبية فى تلك السنة (سنة ١ — ٨٥ للأولمبياد) . وبعد ذلك انقطع أثره . فهل تراه وفد على أثينا ؟ ليس لدينا ما يدل على ذلك . وهو ليس قريب الاحتمال . لأن صانع معجزات يفد على أثينا من المستعمرات لم يكن ليستقبل استقبالا حسناً فيها ، بل على العكس إن وافداً كهذا قد يتعرض لسوء عظيم . فقبله طرد أناكساجوراس منها ، برغم كونه أقل حماسة وغرابة ؛ وبعده بزمن غير طويل أدين سقراط بدوره . ولعل الأقرب احتمالا أن أنبادوكليس بقى فى البيلوپونيز متنقلا من مكان إلى آخر برفقة صديق له شاب اسمه بوسانياس ابن أنخيتوس . وإليه أهدى كتابه «فى الطبيعة» (راجع مطلعه) ، ويمكننا أن نفترض أنه ألف هذا الكتاب أثناء سنوات نفيه هذه . وفى رواية طريفة كل الطرافة أنه توفى فى بعض أنحاء البيلوپونيز حوالى سنة ٤٣٥ — ٤٣٠ ؛ حينما كان جالساً فى حلقة من أصدقائه ، ومن بينهم بوسانياس . يتناولون الطعام . وما إن جن الليل حتى سمع الجلوس إلى هذا العشاء الأخير صوتاً قوياً ينادى أنبادوكليس ، وما لبثت السماء أن أضاءت وتوارى هو عن العيان[٣٠].

وإن هذه العجالة على قصرها لتثبت أن أنبادوكليس الصقلى كان يختلف كل الاختلاف عن سائر الفلاسفة اليونان ، باستثناء فيثاغورس والشعراء الأورفيين . فقد كان فيه شيء من الشرق خالطته بعض النزعات العلمية الأصيلة ، وقد تكون العناصر الشرقية تسربت إلى ذهنه المتفتح من إيران أو بابل أو مصر أو الهند ، أو تكون مظهراً أصيلاً من مظاهر طبيعته المحفوفة بالأسرار . وكان رجلا عظيماً فذاً بحيث لم يخلف وراءه مدرسة ما ، ومن هنا لم يستطع أحد من أتباعه أو تلامذته — حتى ولا بوسانياس الأمين — أن يستأنف نشاطه .

الذريون : لويكيبوس وديموكريتوس[٣١]

بعد هذه الجولة فى صقلية ، يمكننا أن نعود ثانية إلى بلاد اليونان ذات

الصبغة العقلية لنشاهد نشأة تفسير جديد للكون : نظرية الذرات أو الجواهر الفردة . لكن العودة إلى اليونان لا تعني الفرار من الشرق ، لأن التأثير الشرقي كان قد تغلغل في صميم عالم البحر المتوسط الشرقي طيلة أجيال . ولكي ندرك أهمية هذه النظرية الجديدة دعنا ننس كل ما نعرف ونسأل أنفسنا : من أي شيء يتركب العالم ؟ ثمة جوابان على هذا السؤال : إنه مركب من مادة واحدة أو من عدة مواد . رأينا أن الفلاسفة الأيونيين الطبيعيين أجابوا على هذا السؤال الجواب الأول ، ولكن نقاط الضعف في هذا الجواب أخذت تبرز لنا منذ البدء ولم يكن من المستطاع تلافيها إلا بإدخال تعديلات تنطوي على تخل ضمني عن الواحدية monism الأصلية . فأناكسيمينيس مثلا قرر أن العنصر هو الهواء ، عازيا تعدد مظاهره إلى التكاثف أو التخلخل . ومن اليسير أن نسلم بهذا التأويل لأننا نعلم أن الهواء مركب من جزئيات لا تحصى يمكن الجمع بينها من جهة ، أو تفريقها من جهة أخرى ، ولكن دون هذه الصورة يصبح ذلك مستحيلا . فكيف يستطيع المرء أن يدرك تخلخل مادة ما أو تكاثفها إذا كانت تتركب من قطعة واحدة ؟ وهكذا يمكننا أن نقول إن أناكسيمينيس كان من أصحاب التعدد وهو لا يدري .

ومثل هذا يصدق على فيثاغورس وأتباعه الذين قالوا بوجود الخلاء . فالواحدية الحقة ، كما تبدو عند بارمينيديس والإيليين بوضوح ، تفترض فكرة الملأ .

أما فلسفتا أناكساجوراس وأنبادوكليس فقد كانتا عبارة عن تلاف للمأزق الذي كان يؤدي إليه القول بالمبدأ الواحد . وخرجا من ذلك وخرجت معهما البشرية عامة إلى الأبد . فأناكساجوراس في قوله بوجود عقل يهيمن على الكون أدخل الثنائية ، وأنبادوكليس في قوله بالأركان الأربعة والقوتين الاثنتين أقر تعددية كاملة . ولم يلبث أصحاب المذهب الذري أن خطوا الخطوة التالية فوضعوا عدداً غير متناه من الجزئيات المنفصلة والمبثوثة في الخلاء اللامتناهي .

كان القدماء (كأرسطو وثيوفراستوس مثلا) يجمعون على أن مخترع النظرية الذرية لوكيبوس ، الذي ازدهر أواسط القرن الخامس ، وموسعها بعد ذلك بنحو

ثلاثين سنة هو ديموكريتوس . فلنتعرف أولا إلى هذين الرجلين الغريبين .

لا نعرف إلا النزر اليسير عن الأول : فنحن نجهل حتى مسقط رأسه . ومن قائل إنه « إيليا » ، أو « أبديريا» ؛ أو « ملطيا » : والأخيرة أرجح ، ولهذا سندعوه لويكيپوس الملطى . أما البلدان الآخران ابديريا أو إيليا فلعلهما ذكرا من باب الخلط بينه وبين ديموكريتوس بالنسبة للأولى ، أو لأنه بدأ بالتتلمذ على المدرسة الايلية وكان بالفعل تلميذاً لزينون بالنسبة للثانية (كما ورد فى رواية قديمة) ، ومن الممكن على كل حال أن يكون زار إيليا . ومن المرجح جداً أنه أقام زمناً فى أبديريا . ويمكننا أن نتصور نشأة المذهب الذرى كرد فعل لنظريات بارمينيديس الغريبة ، ويروى أن لويكيپوس بسط النظرية الذرية فى كتاب دعاه — ويا للغرابة — « نظام الكون العظيم » (Magas diacosmos) . ولكن هذا الكتاب ينسب أيضاً إلى ديموكريتوس كما ينسب إليه كتاب أصغر يدعى « نظام العالم الصغير » .وقد فقد ما كتبه لويكيپوس إلا جملة تنسب إليه وهى هذه : « لا يحدث شيء عبثاً (بدون علة) ؛ فكل شيء ينشأ عن سبب ويتولد عن الضرورة »[٣٢] .

أما ديمركريتوس فمعرفتنا به أوفى .[٣٣] فلا خلاف مثلا حول مسقط رأسه أبديريا فى تراقية ، أو حول زمانه ، فإنه يخبرنا أنه كان لايزال شاباً إبان شيخوخة أناكساجوراس وأنه كان أصغر منه بأربعين سنة . وهذا يتفق كل الاتفاق مع رواية أخرى ، مفادها أنه ولد فى سنة ٨٠ للأولمبياد (٤٦٠ — ٤٥٧) ويتفق أيضاً مع ما يذكره من علاقته بلوكيپوس . ولا نحيد كثيراً عن جادة الصواب إذا قلنا إن تاريخ ازدهارهما كان فى ٤٥٠ و ٤٢٠ . وبعبارة أخرى اتخذت نظرية الذرة شكلا نهائياً فى الربع الثالث من القرن الخامس فى مدينة أبديريا.

قد يثير ذكر أبديريا استغراب القارئ ، ومع ذلك لاشك أنه أخذ يدرك طبيعة العبقرية الجوابة فى العالم اليونانى . وقد تبدو أبديريا الواقعة فى الطرف الشمالى من البحر الإيجى نائية ، إلا أنها كانت مدينة قديمة ومزدهرة ؛ ومن الطريف أنها اشتهرت كمقر للأغبياء[٣٤] ، رغم أنها أنجبت ديموكريتوس

وبروتاغوراس وأناكساجوراس [٣٥] ، وإذا صح ، كما نرى ، أنها كانت مهد النظرية الذرية ، فما أقل المدن التي يمكن أن تضاهي أبديريا مجداً في العالم ! ! كانت أثينا مركز العالم اليوناني ولكنها لم تكن العالم اليوناني كله ، ولا الموطن الوحيد للكفاية ، بل كانت المكان الذي كانت الكفاية تجد فيه خير جزاء في أواسط القرن الخامس ، وإن كان هذا الجزاء لم يبذل دائماً : فقد ذهب ديموكريتوس إلى أثينا وشاهد سقراط ، ولم يجرؤ على تعريف نفسه به لشدة حيائه . وهو يقول : « أتيت إلى أثينا ولم يتعرف إليّ أحد » . ومن المحتمل أن الأثينيين لم يكونوا بحاجة كبرى إليه ، ما دام مجيئه قد تم في أواخر القرن . وقد ألف عدداً كبيراً من الكتب التي لم تصلنا سوى أسمائها ، وهي مرتبة في فئات أربع [٣٦] . وإذا استندنا إلى هذه الأسماء فإنها تؤيد الروايات المتعلقة بتربية ديموكريتوس ، فلدى وفاة أبيه قرر أن ينفق تركته الضخمة على البحث والدراسة في الخارج . ولم يكن هذا بدعاً في اليونان : فقد رأينا الفلاسفة والشعراء يتجولون كثيراً ، وإن اكتفى أكثرهم بالطواف في الأصقاع الناطقة باليونانية ، وقليل منهم جذبه الشرق بأسراره ثقة منه أنه منبع الحكمة القديمة . وقد تجول ديموكريتوس كثيراً ، وحيث ذهب كان يبحث عن العلماء ويدرس عليهم . فقضى خمس سنوات في مصر يدرس الرياضيات وبلغ « مروى » الواقعة على ضفاف النيل الأعلى . ويسر الصلح الذي عقد حين ذاك (بعد سنة ٤٤٩) بين اليونان والفرس لمن شاء من أهل اليونان أن يطوف في آسيا الصغرى [٣٧] . واغتنم ديموكريتوس هذه الفرصة لكي يزور بلاد الكلدان ، ووصل فعلا إلى بابل (فكان أول فيلسوف يوناني وصلها) ، ومنها إلى فارس ، ولعله وصل إلى الهند ، والمهم أنه لم يكن متفرجاً ولا سائحاً ولا تاجراً ، بل كان فيلسوفاً يبحث عن المعرفة . ترى كم أتيح له أن يجني من ثمارها ؟ وهل كان في وسعه أن يقرأ الكتابة الهيروغليفية والمسمارية ؟ الأرجح لا ، ولكنه كان رجلا ذكياً يقظاً طلعة يستطيع أن يقارن بين المعلومات التي ترد إليه من مصادر مختلفة . ولا شك أنه تعلم أشياء كثيرة من معلميه المصريين والكلدانيين والفارسيين . ولكن

ما مقدار ما تعلمه ؟ وهل لنا أن نستنتج أنه حمل المذهب الذرى معه من الشرق ؟ سوف نعود إلى ذلك بعد قليل .

قبل أن نناقش هذا المذهب ينبغى أن نكمل وصفنا لشخصية ديموكريتوس . فهو لم يكن أحد مؤسسى المذهب الذرى وحسب ، بل كان واسع المعلومات يهتم بجميع فروع الفلسفة والعلم . وسنعرض لمعارفه فى الرياضيات والفلك والطب فى فصول أخرى . ونكتفى هنا بأن نشير إلى نظرياته فى علم النفس والأخلاق . فهو أول من حاول إعطاء تفسير علمى « للحماسة » أو حال النفس البشرية التى استحوذ عليها الله والتى يمكن تسميتها بالإلهام الإلهى — وهى أيضاً حال الخلق الفنى والعبقرية والجنون [٣٨] — ودفعه هذا إلى دراسة أصناف عدة من المشاكل النفسية وما وراء النفسية (ميتابسيكية) . أما اهتمامه بالأخلاق فيمكن الاستدلال عليه من مجموعة الحكم (gnomai) المنسوبة إليه . هل هى أقوال أصيلة ؟ من يدرى ؟ فبعضها أمثال لا يصعب التسليم بأنها من تأليفه ، حتى ولو سلمنا بأنها وصلتنا فى الشكل الذى صاغه هو ، لأنها تمثل حكمة قومه المتراكمة ، لا حكمته الخاصة . وتمثل أول مجموعة من نوعها فى الأدب الأوروبى ، لذلك كانت ذات أهمية خاصة . وهاك بعض أمثلة منها :

— لا تحاول أن تعرف كل شىء إذا كنت لا تريد أن تجهل كل شىء .

— الشجاعة بداية العمل والمصادفة سيدة النهاية [٣٩] .

— تنشأ اللذات الكبرى عن التأمل فى الأعمال الجميلة .

— البشاشة نتيجة الاعتدال فى التلذذ والاتساق فى المعيشة . والإفراط والتفريط قد يؤديان إلى تغيير حال النفس وإثارة حركات عنيفة فيها .

— من أهم الأمور فى الشدائد أن نفكر تفكيراً صحيحاً .

— من يظلم أتعس ممن يظلم .

— خير للمرء أن يستشير قبل الفعل من أن يندم بعده .

— (ومع ذلك) الندم على الأفعال الشائنة مفتاح الخلاص فى الحياة .

— النفوس الكبيرة تحتمل الإساءة بوداعة .

– من أصاب زوج بنت حسناً وجد ابناً، ومن أصاب زوج بنت سيئاً فقد ابنه.
– من لم يكن له صديق وفيّ واحد لم يستحق أن يعيش .
– اطلب فن السياسة فإنه أعظم الفنون جميعاً ، وتحمل ما يقضي به من مصاعب ، فإنها مصدر ما يرجوه البشر من نتائج كبرى باهرة .
– ينبغي للمرء أن يعتبر شؤون الدولة أعظم الأشياء ويحرص على أن تكون مدبرة تدبيراً حسناً . وينبغي ألا ينازع إلا فيما هو حق ولا يتقلد السلطة إلا من أجل الخير العام. لأن دولة أحسن تدبيرها خير مأثرة، إذ هي تشتمل على كل شيء : فإن سلمت سلم كل شيء معها وإن هلكت هلك كل شيء .

كانت أكثر هذه الحكم الأخلاقية والسياسية والاقتصادية من المبتذلات عند الجماعة المثقفة في عهد ديموكريتوس، ولكن بعضها أرقى من مفاهيم ذلك العصر بحيث يستشف الإنسان من خلالها نزعة سقراطية أو أفلاطونية بل مسيحية . لم يشدد ديموكريتوس على الاعتدال فقط ، بل على روح البشاشة وذلك مما يستحق الثناء الخاص خلال تلك الأيام السود التي شهدها ولا شك . ولما كان قد توفى عن سن متأخرة ؛ ولعله شارف المائة ، فإن حياته امتدت إلى الربع الثاني من القرن الرابع[٤٠] .

ولننظر الآن في المذهب الذري الذي أخذه ديموكريتوس عن لوكيبوس . ووسعه حتى أصبح تفسيراً كاملا ومتماسكاً للكون .

وضع ديموكريتوس ثبات الوجود النسبي محل صيرورة هيراكليتوس التامة ، وحقيقة الحركة محل استقرار بارمينيديس . ويتألف العالم عنده من جزئين : الملأ (pleres, stereon) والخلاء (cenon, manon)، وينقسم الملأ إلى أجزاء تدعى ذرات atomon (جزىء لا يتجزأ) . والذرات غير متناهية العدد ، أزلية بسيطة كل البساطة . تتشابه في الكيفية وتختلف في الشكل والترتيب والموقع[٤١]. وكل جوهر، أي كل موضوع فرد، يتركب من هذه الذرات، والتراكيب الممكنة منها متناهية وعلى أنحاء متناهية ، والأشياء توجد ما دامت الذرات التي تتألف منها مجتمعة، وتنعدم عندما تتفرق هذه الذرات . فالتغير الدائم في الكون

نتيجة اجتماع الذرات وافتراقها . ولما كانت الذرات فى حد ذاتها غير قابلة للعدم يمكننا أن نعتبر هذه النظرية بمثابة إقرار لمبدأ بقاء المادة .

ولكن كيف تتحرك الذرات ؟ كيف تجتمع وتفترق ؟ تجتمع على وجه ما دون آخر ؟ يمكننا إثارة عدد لا يحصى من هذه الأسئلة التى لم يكن فى وسع ديموكريتوس الإجابة عنها ، ولا صياغتها . ولم تتم صياغة هذه الأسئلة بدقة إلا ببطء ومشقة على يد كيماويى القرنين السابع عشر والعشرين ، ومع ذلك لم ينته عملهم بعد ولن ينتهى . المذهب الذرى مذهب جبرى وآلى ، ولا يحد من جبريته فى نطاق الإرادة والحرية البشريتين سوى جهل الإنسان وتعقد الأسباب غير المتناهى . لم يقل ديموكريتوس بروح متميزة عن المادة ، إلا أن فئات من هذه الذرات ألطف عنده من فئات أخرى ، ولهذا وضع سلسلة من هذه الفئات تمتد من الأثقل والأكثر ترابية إلى الألطف والأشد أثيرية . والنفس (أو المبدأ الحيوى : psyche) جسمانية ، وإن كانت تتألف من أخف الذرات (كالنار) ، وأسرعها حركة (وكروية الشكل لتزيد سرعتها) . ولجميع الأشياء نصيب من هذه الذرات الخفيفة (أى النفوس) ، وفى هذا ما مكن الذريين القدماء من تفسير الإحساسات والأفكار والظواهر النفسية المختلفة . ترد كلمة Psyche فى شذرات ديموكريتوس التى وصلتنا مراراً : وهى تعنى العقل أو النفس . وثمة قدر من « البسيشيه » فى كل مكان ، أو بعبارة أخرى : العالم كله حىّ (أى متنفس) ، ولكن ليس ثمة آلهة ولا عقل « كالنوس » الذى قال به أناكساجوراس ، ولا عناية سماوية كالتى قال بها سقراط . وتفوق النفس على الجسد ، أو الفئات الأقل جسمانية من الذرات على الفئات الأكثر جسمانية ، قضية ثابتة عند ديموكريتوس بحيث لا يناقشها بل يعيد التأكيد عليها مراراً . وهكذا يهيمن على ماديته شىء من المثالية الأصيلة . وفوق ذلك قال بوجود ذرات لطيفة أشد اللطف ومنبثة فى كل مكان وفى وسعها التأثير على مصيرنا ، يدعوها أيدولا eidola (ومنها لفظة idols فى الإنجليزية ، ولها دلالة خاصة بمعنى : أشباح ، صور ، أطياف ، أوهام) ، وقد كانت هذه وسيلة

لبقة لتأويل ما تنطوى عليه الأحلام والرؤى والتكهن . والخفايا الأخرى من حقائق . ومما يخفف الجمود الظاهر فى مذهبه ما اشتمل عليه من غموض وسرونة ، فكان مذهباً شاملا يستطيع أن يؤول أكثر الحقائق أو الوقائع أشدها مادية وأعظمها روحانية . وكما يلاحظ بيلى :

« لم يكن ديموكريتوس أحد الشكاك ولا العقليين ولا من القائلين بالظواهر (Phenomenalist) ، ولا يصدق عليه شىء من مفاهيمنا الحديثة . فلم ينكر ولم يثبت حقيقة جميع الإحساسات أو جميع الأفكار ، ولكن كوّن لنفسه نظرية فى المعرفة دقيقة تكاد تكون بادية التناقض ، وترتكز مباشرة على نظرته الذرية إلى الكون . فمقومات الكون الأخيرة : أى الذرات والخلاء ، حقيقية ويمكن للعقل إدراكها . والظواهر إنما تتركب من هذه المقومات الأخيرة وتحتفظ بخاصيات الحجم والشكل ، وهكذا هى حقيقية ويمكن إدراكها بالحواس . ويستطيع العقل أن يستنتج من الظواهر، لأنها ، وهى وحدة مؤلفة من الخاصيات الأولية ، حقيقية ، ولأن الحس ، وهو إدراك الظواهر الحقيقية المحض ، هو والفكر شىء واحد . وإذا تجاوزنا هذه الخاصيات الأولية ، أى تجاوزنا حقيقة الظواهر ، كنا كمن يسند إلى الموضوع ما هو فى الواقع من خواص التجربة الذاتية المستمدة من الحواس وأن الفكرة المبنية على هذه « الاصطلاحات» لن تجدى نفعاً[٤٢].

ثارت حول مصدر المذهب الذرى مشادات بين عدد من العلماء ، الذين لم يجدوا فى الأصول اليونانية (كالفيثاغورية وغيرها) التى أشرنا إليها من قبل ، ما يكفى لتفسيره . وقد نشأت مذاهب ذرية فى الهند فى مدرستى « نيايا » و « فايسيشكا » فى عهد لا يمكن تعيينه بالضبط ، وإن كنا نجزم أنه يرقى إلى ما قبل المسيح[٤٣]. وإذا افترضنا أنه سبق قيام هذه النظريات نظريات أقدم ، أو قل أقدم جداً (براهمية وبوذية وجاينية) ، فهل اطلع اليونان على هذه النظريات القديمة ؟ وهل أثرت فيهم يا ترى ؟ ليس ذلك ممتنعاً ولعل ديموكريتوس نفسه سمع بها عندما كان فى الفرس أو الهند (؟) ولكن هذه تخمينات فرضية

لم يدلل عليها . والنظرية الذرية فرض علمى لابد أن يعثر عليه رجال من ذوى البصيرة ، العاملين على التوفيق بين وحدة الطبيعة واستقرارها النسبي و بين تحول أشكالها المستمر . كيف يمكن التوفيق بين القول بالوحدة والقول بالتعدد ؟ليس من المدهش أن تكون هذه النظرية عرضت للمفكرين الهنود وللمفكرين اليونان كل على حدة . وكان فى وسع اليونان والهنود أن يتوصلوا إلى هذا الحل بأنفسهم .

وما أجدرنا أن نشير إلى إحدى الروايات التى تعرض للأصل الشرقى للمذهب الذرى ، فإن فيها ما يبعث على الدهشة . ينسب بوسيدونيوس (١ – I . ق . م .) هذا المذهب إلى عالم فينيقى هو « موخوس » الصيداوى ، و ينسبه فيلون البيبلوسى إلى عالم فينيقى آخر هو سانخونياتون البيروتى الذى ترجم فيلون هذا كتبه إلى اليونانية . وقد أثبت يوسيبيوس فى تاريخه قسما من هذه الترجمة (٤ – ١) ، ويقال إن كلا من موخوس وسانخانياتون عاش قبل حروب طروادة وأن الأخير عاش فى زمن سميراميس[٤٦] . وإذا اعتمدنا نص يوسيبيوس فإن أقوالهما بعيدة كل البعد عن مذهب لو يكيبوس وديموكريتوس الذرى . ولعل الفينيقيين الذين كانوا تراجمة وسماسرة حاذقين نقلوا نظرية هندية ما ، أو لعلهم ابتدعوا نظرية جديدة وإن كان هذا ليس من المألوف لديهم .

ولما كنا نعرف اليونان والفينيقيين فلا يدهشنا قط أن يكون أولئك قد ابتدعوا النظرية الذرية . أما أن يكون هؤلاء قد فعلوا ذلك فمدهش حقاً[٤٧]. والروايات الفينيقية لا تشفى غليلا ، لأن ديموكريتوس المتعطش للمعرفة وقع تحت تأثير عوامل شرقية مختلفة أثناء إقامته فى الشرق . إلا أن اكتشاف المذهب الذرى لا ينسب إليه بل إلى معلمه لو يكيبوس .

وعندما نحكم على هذا المذهب اليونانى ينبغى أن نحترس من خطرين : الأول هو الخلط بينه وبين النظرية العصرية التى اكتشفها « دالتون » فى أوائل القرن التاسع عشر ، والثانى إسقاطه من تاريخ العلم من جراء غموضه ، فبين الفكرة اليونانية وفكرة دالتون بون شاسع ، وهو البون بين المفهوم الفلسفى الذى لا يمكن أن يمتحن ، والفرض العلمى الذى يتطلب سلسلة من الاختبارات

والتجارب . وبرغم ذلك لاريب أن نظرية ديموكريتوس . فى الشكل الذى أعاده أبيقور إلى الحياة وروجه لوكريتوس بقيت حافزاً فكرياً خلال العصور . وإن كان قد أصابها إهمال من جراء تأثير العلماء المسيحيين واليهود ، فإنها لم تمت قط ، وسيرة ما أصابها من تقلبات من أروع السير فى تاريخ المعرفة .

السوفسطائيون : بروتاجوراس الأبديرى وجورجياس الليونتينى وأنتيفون الرامتوسى :

لنعد الآن إلى أثينا ولننظر إلى الجو الفكرى نظرة رجل مثقف عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس يحاول أن يفهم الكون المحيط به . وإذا استثنينا الأحوال السياسية التى كانت تزداد سوءاً كل يوم فلابد أن يقع صاحبنا فى حيرة من أمر العقائد المتناقضة التى كانت تثار وتبحث حوله . أيصدق هيراكليتوس أم بارمينيديس؟ أناكساجوراس أم أنبادوكليس؟ أم يتبع أصحاب المذهب الذرى؟ أو ليس من الأسهل والأضمن له أن يشترك فى الطقوس الدينية السرية وحفلات تكريم الأولياء ويقوم بواجباته كمواطن ويساهم فى الإيمان بالخرافات الشعبية ؟ أين الحقيقة فى كل هذا ؟ أمام هذا التساؤل الذى كان يزيد فى خطورته عدم الاستقرار الاقتصادى والسياسى ، لم يكن من الغريب أن يلجأ الإنسان الحسن الطوية إلى التعصب أو الشك أو إلى صورة من صور اليأس الأخرى . ما جدوى ذلك كله ؟ وهل ثمة حقيقة ؟ وهل يستطيع الإنسان الفانى أن يدركها ؟ وكان أعقد هذه الأسئلة هو إلى من تكل تربية أبنائك — إن وجدوا — فى ظروف كهذه ؟

كانت الحاجة إلى المعلمين ماسة جداً ، وقد تكونت طبقة منهم سداً لهذه الحاجة ، سموا بالسوفسطائيين ، وكان قبلهم طبعاً معلمون آخرون ، لأن أية مدنية لا تقوم بدونهم . وعنت كلمة سوفسطائى (sophistes) ، بحسب الاستعمال السائد حوالى آخر القرن الخامس ، معلماً للنحو والبيان والمنطق والفصاحة ، وكان محترفاً يعلم الشبيبة آداب السلوك والحكمة وسبل السعادة . وبعض هؤلاء السوفسطائية ، بل أكثرهم ، رجال أفاضل ، وفريق منهم من اللامعين نفعى ومراء ، وذلك أمر لا مفر منه . ويظهر أن عدد هذا الفريق

كان يزداد على مرور الزمن ، بحيث أخذ يلصق باسم سوفسطائى المعنى الذى الذى احتفظ به حتى عصرنا هذا .

لا خير يرتجى من مصاحبة الأوغاد : ومع هذا من المفيد أن نتعرف على ثلاثة من سوفسطائيي العصر الذهبي الشهيرين . وهم براتاجوراس وجورجياس وأنتيفون . وقد خلد الأول والثانى فى محاورتين لأفلاطون تحملان اسميهما وتعطيان صورة ناطقة جميلة عنهما[٤٨].

بروتاجوراس الأبديرى :

ولد بروتاجوراس فى أبديرا ، بلد ديموكريتوس ، حوالى سنة ٤٨٥ . ولما بلغ سن الثلاثين أخذ يطوف فى أرجاء اليونان وصقلية واليونان الكبرى (Magna Graecia) يحاضر ويعلم . وكان أول من دعى سوفسطائياً . واستغل أول حصاد فكرى واجتماعى . وكان نجاحه عظيماً جداً حتى لقد جمع . خلال أربعين سنة . من التعليم عشرة أضعاف ما جمعه فيدياس من المال : وتردد على أثينا مراراً عديدة — وطالت بعض زياراته هذه . وأصبح معروفاً فى تلك المدينة . ونال حظوة عند بركليس . وكانت قصة نجاحه المادى هذه مؤسفة ومشئومة ، فقد حفزت كثيرين غيره على نهج مسلك يدر مثل ذلك المال : وإن مهنة تعود بمثل ذلك النفع لمحفوفة بخطر عظيم . وقد ابتدأت هذه المهنة الجديدة بداية حسنة : ولا غرو أن تكون قد أخذت فى الانحطاط من سئ إلى أسوأ . وأن يحرز الجدال والسفسطة سمعة شائنة . ومما سهل نجاح بروتاجوراس أن فلسفته كانت ضرباً من النسبية الهيراكليتية . وهى فلسفة كثيراً ما يقبل عليها الناس فى عصر من الضجر والتبرم الزائد بالحياة . ويقول فى أحد كتبه التى تبحث عن الحقيقة: « إن الإنسان معيار كل شيء » . فليس هناك حقيقة مطلقة إذن . ومن أقواله الأخرى الأقل احتراساً : « أما الآلهة فلست أدرى إذا كانوا موجودين أم لا : فهناك أشياء كثيرة تحول دون معرفتنا ذلك . أولا غموض الموضوع . وثانياً قصر حياة الإنسان » . لقد كان هذا فوق ما تستطيع الديمقراطية الأثينية إساغته .

وكانت شديدة التأثر بما يمت إلى المسائل الدينية ونفد صبرها بسبب حوادث الكفر المتكررة[٤٩] . وفى سنة ٤١١ اتهم بروتاجوراس بالكفر فدعا المنادى بالمدينة جميع الذين اشتروا كتبه أن يجلبوها إلى السوق لكى تحرق[٥٠]. وقد أقصى عن أثينا ، أو لعله حكم عليه بالموت وتمكن من الهرب ، ومع أنه استطاع أن يخدع قضاة أثينا فإنه لم يستطع أن يخدع القدر ، فقد تحطمت السفينة التى كانت تقله إلى النجاة وهلك .

ولابد لنا أن نضيف ملاحظة أخرى : كان السوفسطائيون يعلمون حسن الأداء ويشتمل على النحو ، لذلك كان بروتاجوراس ، وهو السوفسطائى الأول ، فى الوقت نفسه النحوى الأول ؛ فقد نبه إلى التأنيث والتذكير ، وميز بين زمان الأفعال وصيغها . وكان بالطبع أول معلم للمنطق العملى ، وسنعود إلى ذلك فيما بعد ؛ ومن المفيد أن نلاحظ هنا ولادة النحو اليونانى[٥١] .

جورجياس الليونتينى :

بينما كان أول السوفسطائيين وأشهرهم من أبناء تراقيا ؛ كان منافسه الأكبر جورجياس من أبناء صقلية .

ولد جورجياس فى ليونتينى (على مقربة من سرقسطة) ، حوالى سنة ٤٨٥ ؛ ولسنا نعرف تاريخ ولادته بالضبط ، وكل ما نعرف أنه كان شيخاً حينما أوفد سنة ٤٢٧ سفيراً لمسقط رأسه إلى أثينا ، ويقال إنه عاش بعد موت سقراط ومات عن مائة عام، ويقال أيضاً إنه كان تلميذاً لأنبادوكليس . وقد تجول كثيراً مثل بروتاجوراس ، وقضى عدة سنوات فى أثينا . وجمع مالا كثيراً وأنفقه بسخاء . وكان فى سفسطته من نوع بروتاجوراس ، أو أسوأ منه . وإذا استندنا إلى المقتطفات القليلة الباقية ، وجدنا أنهما معاً كانا ميالين إلى الشك وإن كان بروتاجوراس أقرب إلى الفلسفة ، فى حين كان جورجياس مثالا للسفسطائى الغالى الضعيف الذكر ، أى الرجل الذى يزعم أن ما هو محتمل خير مما هو حقيقى ، وأن فى وسعه أن يجعل الأشياء التافهة جليلة ، والعكس بالعكس ، والمنطق

أو الخطيب الذى يهتم بالشكل أكثر من اهتمامه بالموضوع . وكانت لهجته أتيكية فصيحة . وكان مولعاً بالألفاظ الغريبة والاستعارات النادرة ، ومع ذلك فإن أفلاطون لا يقسو عليه كل القسوة فى المحاورة المدعوة باسمه . وقد كتبها فى الوقت الذى كتب فيه « الجمهورية » ، أى حوالى ٣٩٠ — ٣٨٧ ، عندما كان يعد العدة لافتتاح الأكاديمية . أما مشاهد الرواية فترقى إلى سنة ٤٠٥ ، عندما كان سقراط فى سن الرابعة والستين وجورجياس عجوزاً فى سن الثمانين وفى ذروة شهرته .

كان جورجياس يكتب مقالات خطابية وينشد أشعاراً رياضية ويلقى خطباً فى الأعياد فى أولمبيا ودلفى مبشراً بالسلام والوحدة . ولكن من يسيغ لنفسه أن يصغى إلى امرئ عرف من الجميع بأن غرضه الأول الفصاحة والإقناع ، وأن فى وسعه أن يتكلم فى طرفى الموضوع بالفصاحة نفسها ؟ ولكى يقنع المرء الآخرين ينبغى أن يقتنع هو أولا ، ولم يكن جورجياس مقتنعاً ذلك الاقتناع . وإذا سلمنا بماضيه الجدلى فإنه لم يكن كاذباً ولكن النجاح غشى على بصيرته .

أنتيفون الرامنوسى :

يمثل السوفسطائى الثالث ، صنفاً آخر يختلف عن السابقين ، ويساعدنا على تبين أن السوفسطائيين أنواع مختلفة : ولد أنتيفون فى رامنوس على مقربة من « مراثون » فى الوقت الذى ولد فيه السوفسطائيان الآخران تقريباً ، حوالى سنة ٤٨٠ ، واحترف الخطابة[٥٢] ، وكان زعيماً لمدرسة خطابية[٥٣] أشهر تلامذتها « ثوكيديديس » . وقد وصلنا من خطبه خمس عشرة ، أعدت كلها كى يلقيها غيره أو للتمرين . ولم يلق من خطبه العديدة سوى خطاب واحد أعده للدفاع عن نفسه سنة ٤١١ : إلا أن هذا الخطاب الذى لابد أن يكون أجمل خطبه وأبلغها قد ضاع . وكان أنتيفون إلى جانب ذلك من رجال السياسة واشترك فى حكومة الأربعمائة ، سنة ٤١١ ، وأعدم بعد سقوط تلك الحكومة .

وإلى جانب خطبه ألف كتيباً صغيراً يدعى « فن تفادى الكآبة »

(Techne alypias) وهو أول كتاب من ذلك الصنف الشائع الذى يعرف « بالتعازى » . فالناس يعانون ضروباً من الأسى . وليس بينهم من لم يذق طعم الحزن والشجن ، وهم يحتاجون جميعاً إلى العزاء : فكان طبيعياً أن يرحبوا بكتاب جيد فى التعزية . وقد كان لأنتيفون مقلدون عديدون فى جميع البلدان والعصور نكتفى بأن نذكر منهم « بوئيثيوس » ويوشع ليبمان(٥٤) .

كان بروتاجوراس وجورجياس وأنتيفون من خيرة السوفسطائيين : وإن لم يكونوا ممن تطيب لهم النفس ، وهم يساعدوننا على فهم الجو الفكرى السائد فى النصف الثانى من القرن الخامس ، والمشاكل التى نشأت عن نشاط السوفسطائيين معروفة لدينا لأنها مشاكل التربية . وعندما يصبح المجتمع متحذلقاً — كما حدث للمجتمع اليونانى فى أواسط القرن الخامس — ظهرت فيه نزعة محتومة نحو استبدال نظام التربية القديم بنظام جديد يمكن معه أداء عناصر الثقافة الجديدة إلى الجيل الجديد . وهنا يبدأ النزاع بين الآباء والأبناء : ذلك النزاع الأزلى بين الأجيال المتلاحقة ، والذى يشتد كثيراً فى فترات التقدم الثقافى الفجائى : ولا يوجد نوع من التربية ، مهما بلغت جودته ، يصلح لكل فرد ، ويمكن أن يقال إن خير نظم التربية قد يصلح الطلبة الجيدين ويفسد الطلبة الفاسدين . وحتى اليوم لا نزال نرى أن بعض الطلبة لا يستفيدون شيئاً من الجامعات سوى الغرور الذى يضاعف غباوتهم ، وواضح أنه لم يكن فى وسع خير السوفسطائيين أن يحول دون النزعات الشريرة لدى رجل كالقبيادس . إلا أن من المحقق ، كما أثبتت التجارب المتواترة : أن نمطاً من أنماط التربية قد يصلح للطلبة ذوى الاستعداد الحسن ، ويضر بسواهم ممن ليس لهم ذلك الاستعداد . وفى النقد اليونانى المعاصر للسوفسطائيين مثال حى لذلك فى بعض روايات أريستوفانيس. « كأصحاب المأدبة» المفقودة (Daitaleis) التى مثلت سنة ٤٢٧ ، أو « السحاب » (Nephelai)التى أخرجت فى مهرجان « ديونيسيا » الأكبر سنة ٤٢٣ . ويخيل إلى أنه ليس من العسير أن نضع ثبتاً طويلا بروايات ألفت منذ أريستوفانيس إلى اليوم للتعبير عن تبرم الشيوخ بالتربية الجديدة : وبيان

ما فيها من أخطار حقيقية حتى فى أروع أشكالها. ومما زاد فى حدة هذا النزاع فى أثينا ظروف الهزيمة فى الحرب وإسراف الخطباء الشعبيين والقلق الاقتصادى. ويظهر أنه كان هناك ما يستند إليه المحافظون فى إنحائهم على المربين المحدثين باللائمة. وكان الرجل العادى الحسن السيرة يخاف من نمو الشك والتهتك والتخلى التدريجى عن الطقوس القديمة واطراح العقائد العامة.

سقراط الأثينى :

كان يوريبيديس وسقراط بين السوفسطائيين الذين هزئ بهم «أريستوفانيس». وقد عرفنا الأول ونحن على وشك أن نعرف الثانى : وهو رجل من أنبل الرجال فى تاريخ البشرية جمعاء. وإن وصف أريستوفانيس له « بامرئ حقير »[٥٥] لهو وصف مغرض وسخيف : فقد خلط بينه وبين السوفسطائيين المرتزقين الذين كانوا « يجعلون أوهى الحجج تبدو أفضلها »، أو بينه وبين جماعة من المتحذلقين الذين كانوا يهتمون بالأمور السماوية (ta meteora) أو ما تحت الأرض (ta hypo tes ges) فوق اهتمامهم بواجبات الإنسان. ولم يكن سقراط من المشغلين بالسماويات[٥٦] قط ، وإن كان سوفسطائياً فى نظر الأثينيين ، أى معلماً للأحداث ، ولذا أصابه نصيب من نقمتهم. وفى هذا ما يفسر سخرية أريستوفانيس وإن كان لا يبررها لأنه كان ينبغى أن يكون أعرف بحقيقة الموقف.

ولد سقراط فى أثينا سنة ٤٧٠ وكان أبوه « سوفرونيسكوس » نحاتاً، وأمه « فاينريت » قابلة. وكانا شخصين عاديين متوسطى الحال ، فى وسعهما أن يعلماه أفضل تعليم ممكن فى تلك الأيام. وقد تدرب على مهنة أبيه ، ثم أظهر ولعاً مبكراً بالفلسفة ، ومن السهل أن ينشأ فى أثينا ولع كهذا. وأن يروى غليل صاحبه. فقد كانت المناقشات الفلسفية تدور دوماً : فى المسرح أو السوق أو الشارع. وقد تعلم قسطاً من الحساب والهندسة وعلم الفلك. أما السياسة فكانت أكثر شيوعاً من الفلسفة ، وكان لابد منها اللهم إلا للبكم.

والتحق سقراط بالجندية واشترك فى القتال مراراً ، ولم يساهم فى الحياة العامة إلا مرتين ، أبدى فيهما شجاعة من الطراز الأول . وكان مظهره فريداً ، بسبب دمامته التامة ، فكان أفطس الأنف غليظ الشفتين يذكرنا بفلاح روسى من الطراز القديم ، إذا اعتمدنا على التمثال اللندنى(٥٧). وكان قوى البنية قادراً على تحمل التعب المضنى ومكابدة المشقات وتقلبات الطقس إلى حد كان يدهش رفاقه . وزيه بسيط جداً ، يسير فى الشوارع دائماً حافى القدمين ، ولا يأكل إلا القليل ، لا عن زهد، فإنه لم يدع إلى إنكار الذات ، وإنما لأنه ، وهو يعيش عيشة البساطة جداً ، كان يؤثر ذلك النمط من الحياة .

أما شكاسة طبع امرأته « اكسانتيپ » ، فقد ذهبت مثلا . وقد يتساءل: ألم تكن هذه الشكاسة مبالغاً فيها لإبراز لطفه وطول أناته إبرازاً أتم ؟ وقد رزقت منه ثلاثة صبيان كان أكبرهم شاباً عند وفاة والده(٥٨). وكان الاثنان الآخران أصغر كثيراً ، وهذا يدل على أن سقراط تزوج متأخراً نسبياً .

ولم يترك أى مؤلف ، ومعرفتنا به مستمدة من مؤلفات اثنين من تلامذته : أفلاطون واكسينوفان . والصورتان اللتان يرسمانها تتفقان فى الجوهر ، وإن اصطبغت الأولى بمثالية أفلاطون والأخرى بواقعية اكسينوفان . وفى المحاورات الأفلاطونية التى يظهر فيها سقراط ويتكلم ، يستحيل تعيين المقدار الذى ينبغى أن نعزوه إليه من خطبه ، والمقدار الذى ينبغى أن نعزوه لأفلاطون(٥٩)، وليس فى وسعنا أن نسند إلى الأول أمراً دون أن نسلبه من الثانى . ولكننا نجد فى اكسينوفان أداة صالحة للمقابلة والتصحيح ، فكلما اتفق هو وأفلاطون كنا واثقين كل الثقة . وإذا استثنينا بعض التفاصيل التى لا أهمية لها ، وجدنا صورة سقراط التى وصلتنا تبدو شديدة الشبه بالأصل . وليس بين القدماء امرؤ نعرفه معرفة أوفى : فبفضل فن أفلاطون وطيبة قلب اكسينوفان نكاد نراه ونسمع كلامه .

ورغم أنه قضى حياته يعلم الناشئة ، فإنه كان يختلف عن السوفسطائية إذ لم يكن معلماً محترفاً ، ولم يفتح مدرسة أو يعقد نادياً للدرس ، ولم يلق

محاضرات،ولم يطلب مالا لقاء تعليمه . والمقارنة بين الثروة التى جمعها رجال كبروتاجوراس وجورجياس وبين فقرسقراط تنطق بذلك، وكان صاحبنا رجلا من طراز آخر، هذا إلى أنه كان يزدرى السوفسطائيين، ولم يتقاعس قط عن التشهير بشكهم وسطحيتهم .وهذا ما يجعل تهمة أريستوفانيس بغيضة إلى حد بعيد، : فقد اختار نموذجاً للسوفسطائيين خير خصومهم . وكيف كان فى وسع رجل له اطلاع أريستوفانيس أن يرتكب هذا الاتهام الجرىء ؟

تعطينا الفقرة التالية من « مذكرات اكسينوفان » (Memorabilia) فكرة عامة جيدة عن شخصية سقراط وشخصية اكسينوفان نفسه :

«كان سقراط يعيش دائماً خارج بيته : فكان يذهب فى الصباح الباكر إلى المتنزهات والملاعب العامة ، ويرى قبل الظهر فى السوق ، ويقضى سائر النهار حيث يلقى الناس عامة . وكان دأبه التحدث ، يصغى إليه من شاء . ولم يتحامل قط على الدين والعبادة : قولا أو فعلا . ولم يعرض لذلك الموضوع المحبب لدى عامة الخطباء « طبيعة الكون » — وتحاشى الخوض فيما يدعوه الأساتذة « بالكون المنظم » (Cosmos) وفى القوانين التى تخضع لها الظواهر السماوية : بل كان يقول على العكس إن الاشتغال بهذه المسائل جنون مطبق : كان يتساءل أولا : هل يحسب هؤلاء المفكرون أن معرفتهم بالشؤون البشرية كاملة،وأنه ينبغى لهم أن يبحثوا عن ميادين جديدة لترويض عقولهم ، أو أن واجبهم أن يهملوا الشؤون البشرية وينظروا فى الأمور الإلهية فقط ؟ وفوق هذا كان يعجب من تعاميهم عن إدراك أن الإنسان لا يستطيع حل هذه الألغاز ، لاسيما أن أشد المتكلمين فى هذه الأمور غروراً لم يتفقوا على رأى فيما بينهم ، بل نظر بعضهم إلى بعض نظرة المجانين ، فبعض المجانين لا يخشون خطراً ما ، فى حين يخاف بعضهم الآخر مما لا يبعث على الخوف . ويقول بعضهم أو يفعل ما شاء أمام الجمهور فى غير استحياء ، بينما يحجم بعضهم عن الظهور بين الناس ، وقد يحترم بعضهم هيكلا أو مذبحاً أو أى شيء مقدس آخر ، بينما يعبد غيرهم الأخشاب والحجارة والوحوش — وهذه هى حال من يبحثون عن

« الطبيعة الكلية » . فيحسب بعضهم أن الموجود واحد ، وبعضهم الآخر إنه لا متناه في العدد ؛ ويقول قوم إن جميع الأشياء تتحرك دائماً ، وآخرون إنه لا يتحرك شيء قط ، وقوم إن الحياة ليست إلا ولادة وانحلالا ؛ وآخرون إنه لا يولد شيء ولا يموت . وليست هذه كل الأسئلة التي كان يثيرها هؤلاء النظريون . وعلى عكس هذا في وسع من يدرسون الطبيعة البشرية أن يطبقوا معلوماتهم في الوقت المناسب لتحقيق خيرهم وخير من يشاءون من البشر . فهل يزعم الباحثون عن الظواهر السماوية أنهم متى اكتشفوا القوانين التي تتولد عنها : فسوف يصبح في وسعهم أن يخلقوا الرياح والأمطار والفصول وما شابهها حسب حاجتهم ؟ أم تراهم لا يتوقعون شيئاً كهذا . بل هم قانعون بمعرفة أسباب هذه الظواهر المختلفة ؟

« هذا هو انتقاده للفضوليين الذين يتطفلون في البحث عن هذه الأشياء . أما أحاديثه فكانت تدور حول الشؤون البشرية . فمن المشاكل التي كان يبحثها : ما البر وما الكفر ؟ ما الجميل وما القبيح ؟ ما العدل وما الظلم ؟ ما الحكمة وما الجنون ؟ ما الشجاعة وما الجبن ؟ ما الدولة وما السياسي ؟ ما الحكومة وما الحاكم ؟ في العلم بهذه المشاكل وأشباهها ما يجعل المرء رجلا شهماً عنده . وفي الجهل بها ما ينطوي على « الذلة »[٦٠].

هذه الصورة التي يرسمها إكسينوفان بأسلوبه البسيط السائغ ممتعة جداً ؛ لأنها تشير إلى الألغاز الفلسفية والعلمية التي كان على الأثينيين حلها والتي أدت إلى تمرد سقراط . وليست هذه اللفظة بقوية ؛ فقد كان سقراط متبرماً من جراء التقلبات الناجمة عن الحروب الدائمة والمؤامرات السياسية والمشاكل الاقتصادية . شأن كل مواطن آخر ، ومن جراء البحوث الصبيانية والمناقشات السوفسطائية الفارغة ؛ ومن جراء فروض الفلاسفة وعلماء الطبيعة التي لا أساس لها . وقبل أن يوضح المرء الكون أليس من الأفضل أن يبدأ بترتيب منزله وشؤونه الخاصة ؟ وبدلا من أن نحاول فهم الأشياء التي لا تنال ألا ينبغي أن نوضح الأشياء التي نستطيع أن نسيطر عليها ؟ نحن بشر : ألا ينبغي أن نحاول أن نعرف أنفسنا

وسائر البشر قبل أى شىء آخر ؟ وهذا يذكرنا بقصة يرويها أريستوكسينوس التارنتى (٢ — VI ق . م .) : فقد التقى حكيم هندى بسقراط فى أثينا وسأله : « إنك تدعو نفسك فيلسوفاً ، فبماذا تشتغل ؟ » فأجاب سقراط إنه يدرس الشؤون البشرية . فأخذ الهندى يضحك قائلا : إذ يستحيل للمرء أن يفهم الشؤون البشرية ما لم يدرك الشؤون الإلهية أولا . وهذه القصة طريفة من ناحيتين : أولا — لأنها تظهر بوضوح التقابل بين نمط التفكير السقراطى والهندى . وثانياً — هذا أحد الشواهد القاطعة على بعض الاتصال الحقيقى بين الفلاسفة اليونان والفلاسفة الهنود . وليس وجود هؤلاء فى مصر واليونان بمستبعد قط (٦١) .

وفى المحاورة الأفلاطونية« الكيبياديس الأولى (Alcibiades I) نجد جواباً جزئياً على الاعتراض الهندى . وتدور هذه المحاورة بين سقراط والكيبياديس وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، فتاريخها إذن سنة ٤٣٢ . وهما يتناقشان فى الجزء الثالث والأخير من المحاورة فى الحكمة الدلفية : « اعرف نفسك » . ويذهب سقراط إلى أن المرء يجب أن يتأمل فى نفسه ولا سيما الجزء الإلهى منها : إذا أراد أن يعرف نفسه ويخلص إلى هذه النتيجة : « هذا الجزء من النفس يشبه الله وكل من تأمله وتوصل إلى معرفة ما هو إلهى فاز بخير معرفة لنفسه »(٦٢). ولكن هل «الكيبياديس» الأولى أصيلة ؟ يزعم بعض النقاد أنها أصيلة ولكنهم يذهبون إلى أنها من المؤلفات الأولى التى كتبت فى بدء القرن الرابع . أما آخرون فيحسبون أنها منحولة. ويورد «بيديز »(٦٣)هذه الفقرة عينها للتدليل على ذلك . وإذا فرضنا أن المحاورة أصيلة فهل تمثل الفقرة التى أشرنا إليها تفكير سقراط أم تفكير أفلاطون ؟ فقد تكون المحاورة أصيلة والكلمات المنسوبة إلى سقراط موضوعة .

أما اعتراض سقراط على علم الفلك الذى يعبر عنه اكسينوفان فهو يكاد لا يعلو عن مستوى النكتة الشعبية الأمريكية القديمة : « يتحدث الناس عن الطقس دائماً ولا يصنعون شيئاً من أجل تغييره » . لذلك كان من الغباوة والإجحاف أن يدعى سقراط ، كما سماه أريستوفانيس، «حكيماً فى الأمور السماوية » (metcorosophist) إذ أنه كان على عكس ذلك تماماً . ونهاية عبارة

اكسينوفان المسرودة آنفا بليغة جداً : فهى تلخص الاتجاه الرئيسى لتعليم سقراط ، ويمكننا أن نضعها على هذا الوجه: « لنكن أكثر تواضعاً من علماء الطبيعة . وأكثر أمانة من السوفسطائية . فالمعرفة التى ينبغى أن نسعى للحصول عليها يجب أن تتكيف بحسب حاجاتنا الشخصية والاجتماعية . والمهم هو أن نعرف كيف نحيا حياة سعيدة وشريفة ، وأن نكون مواطنين أخياراً » .

كان ذلك يتطلب أسلوباً خاصاً ، هو بالنسبة إلى البشر عامة بمثابة الضمير بالنسبة إلى الفرد . يجب أن نبنى السياسة والأخلاق على أساس صحيح ؛ ويجب أن نسخر الميتافيزيقى للأخلاق . وإذا أردنا أن نناقش مناقشة مجدية ، فينبغى أن نحلل أحكامنا ونحدد المفردات التى نستعملها ، وندرك ما نتكلم عنه بالضبط . وينبغى أن نصنف الأشياء التى نعالجها ، فنحاول أن نعرف العلاقة بينها وبين الأشياء الأخرى ، وهذا يتطلب رسم كل لفظة وتحديدها . وعندها يمكننا أن نتقدم خطوة خطوة بالاستقراء (epagoge) ، أى بسرد جميع الجزئيات التى يجب معالجتها ، ونستخلص منها نتيجة منطقية . وقد دعا سقراط الفن الجدلى الذى كان يستعمله التوليد (maieutice)، ذكرى لمهنة أمه ، فكان يستخلص بواسطة أسئلته المحكمة من الناس الذين كان يحادثهم الاعتراف بأخطائهم والإقرار بالحقيقة . وفى حديثه مع الخليلة« ثيودوتى (Theodote) » يذهب إلى أبعد من ذلك ، ويدعو نفسه « قوادا » فى معرض شرحه لها كيف تصطاد الخلان[٦٤]، وهذه القصة شاهد حسن على سخريته وحماسته كمعلم . وما كان يرفض أن يتحدث مع كل من يصادفه فى الشوارع ، أو فى منزل أى صديق ، وأن يدخل معه فى النقاش عارضاً أحب آرائه إليه ؛ ومرغماً إياه على التسليم بصحتها .

كان سقراط أول علماء المعانى[٦٥]، فقد كان يشرح للناس الذين كان يتحدث إليهم خطر استعمال « الألفاظ الضخمة » ، أو الألفاظ المجردة التى لم يكونوا ليفقهوا لها معنى .

كان يؤكد أن الفضيلة ضرب من المعرفة، وأنه يمكن تعليمها ، والفضيلة



ΠΛΑΤΩΝΟΣ, ἈΠΟλογία Σωκράτους, — PLATONIS, APOlogia Socratis,

Ἠθικός. — Ad mores spectans.



Ὅ τι μὲν ὑμεῖς, ὦ ἄνδρες Ἀθηναῖοι, πεπόνθατε ὑπὸ τῶν ἐμῶν κατηγόρων, οὐκ οἶδα. ἐγὼ δ' οὖν καὶ αὐτὸς ὑπ' αὐτῶν ὀλίγου δεῖν ἐμαυτοῦ ἐπελαθόμην· οὕτω πιθανῶς ἔλεγον. καίτοι ἀληθές γε (ὡς ἔπος εἰπεῖν) οὐδὲν εἰρήκασι. μάλιστα δὲ αὐτῶν ἓν ἐθαύμασα τῶν πολλῶν ὧν ἐψεύσαντο, τοῦτο, ἐν ᾧ ἔλεγον ὡς χρῆν ὑμᾶς εὐλαβεῖσθαι μὴ ὑπ' ἐμοῦ ἐξαπατηθῆτε, ὡς δεινοῦ ὄντος λέγειν. τὸ γὰρ μὴ αἰσχυνθῆναι ὅτι αὐτίκα ὑπ' ἐμοῦ ἐξελεγχθήσονται ἔργῳ, ἐπειδὰν μηδ' ὁπωστιοῦν φαίνωμαι δεινὸς λέγειν, τοῦτό μοι ἔδοξεν αὐτῶν ἀναισχυντότατον εἶναι· εἰ μὴ ἄρα δεινὸν καλοῦσιν οὗτοι λέγειν τὸν τἀληθῆ λέγοντα. εἰ μὲν γὰρ τοῦτο λέγουσιν, ὁμολογοίην ἂν ἔγωγε οὐ κατὰ τούτους εἶναι ῥήτωρ. οὗτοι μὲν οὖν, ὥσπερ ἐγὼ λέγω, ἤ τι ἢ οὐδὲν ἀληθὲς εἰρήκασιν· ὑμεῖς δέ μου ἀκούσεσθε πᾶσαν τὴν ἀλήθειαν. οὐ μέντοι μὰ Δία, ὦ ἄνδρες Ἀθηναῖοι, κεκαλλιεπημένους γε λόγους (ὥσπερ οἱ τούτων) ῥήμασί τε καὶ ὀνόμασιν, οὐδὲ κεκοσμημένους, ἀλλ' ἀκούσεσθε εἰκῇ λεγόμενα τοῖς ἐπιτυχοῦσιν ὀνόμασι· πιστεύω γὰρ δίκαια εἶναι ἃ λέγω· καὶ μηδεὶς ὑμῶν προσδοκησάτω ἄλλως. οὐδὲ γὰρ ἂν δήπου πρέποι, ὦ ἄνδρες, τῇδε τῇ ἡλικίᾳ, ὥσπερ μειρακίῳ πλάττοντι λόγους, εἰς ὑμᾶς εἰσιέναι. καὶ μέντοι καὶ πάνυ, ὦ ἄνδρες Ἀθηναῖοι, τοῦτο ὑμῶν δέομαι καὶ παρίεμαι· ἐὰν διὰ τῶν αὐτῶν λόγων ἀκούητέ μου ἀπολογουμένου δι' ὧνπερ εἴωθα λέγειν καὶ ἐν ἀγορᾷ ἐπὶ τῶν τραπεζῶν (ἵνα ὑμῶν οἱ πολλοὶ ἀκηκόασι) καὶ ἄλλοθι, μήτε θαυμάζειν μήτε θορυβεῖν τούτου ἕνεκα. ἔχει γὰρ οὑτωσί. νῦν ἐγὼ πρῶτον ἐπὶ δικαστήριον ἀναβέβηκα, ἔτη γεγονὼς πλείω ἑβδομήκοντα· ἀτεχνῶς οὖν ξένως ἔχω τῆς ἐνθάδε λέξεως. ὥσπερ οὖν ἂν εἰ τῷ ὄντι ξένος ἐτύγχανον ὤν, συνεγιγνώσκετε δήπου ἄν μοι εἰ ἐν ἐκείνῃ τῇ φωνῇ τε καὶ τῷ τρόπῳ ἔλεγον

Me diuersum ab illis oratorē esse fatear. Nam illi &c.



QVONAM [a] modo, Athenienses, animi vestri accusatorum meorum oratione affecti fuerint atque comparati, nescio: equidē ipse illorum sermonibus ita sum concitatus, vt meipsius propemodum fuerim oblitus. ita accommodatè ad fidem & persuasionem dixerunt. quanquā nihil certè (vt vno verbo cōplectar) veri dixerunt. At inter multa quæ falsò protulerunt, illud vnum sum demiratus, quòd vos monuerint vt diligenter caueretis ne à me seduceremini, quasi dicendi facultate plurimùm valeam. Quòd autem minimè illos puduit eius rei, in cuius manifesto mendacio re ipsa à me continuò deprehendentur, vbi primùm à vobis ad dicēdum planè ineptus comperiar: illud verò omnium mihi visum est impudentissimū. Nisi fortè eum dicendi facultate valere dicant, qui verè dicit. Si enim huiusmodi intelligant, equidē (non ex illorum tamen sententia) me oratorem esse profitear. Atqui illi, quemadmodum prædixi, nihil veri dixerunt: [b] vos contrà à me omnem veritatem percipietis. Non tamen per Iouem, Athenienses, elegantibus verborum sententiarúmq; ornamentis contextam orationem meam (cuiusmodi est illorum oratio) sed temerè & de medio petitos vulgaribúsque vocabulis enuntiatos sermones audietis. Æqua tamen & iusta esse credo ea quæ sum dicturus: neque aliter vestrûm quisquā expectet. Neque enim consentaneum esset me, hac ætate, tanquam puerū fictis sermonibus ad vos prodire. [c] Verùm hoc vnum à vobis etiam atque etiam peto & efflagito, Athenienses, si eorundem illorum sermonū via & ratione qua cōsueui dicere & in foro & in nummulariorum mensis (quibus in locis & alibi vestrûm plerique me conspexerunt) defendentem me audiatis: illud, nec vobis mirū videatur, nec hac de causa tumultū excitetis. Sic enim omnino se res habet. nūc ego primùm in iudicium prodeo, annos plus sexaginta natus, vt in hoc quidem forensi genere dicendi planè sim peregrinus. Æquè igitur acsi reuera peregrinus essem, ita mihi veniam dandam statuitote, qui nimirum & iisdem verbis & eadem loquendi forma vtar, in

[a] Genus causæ iudiciale. Socrates enim in foro coram iudicibus capitis defensionem instituit. Suo tamen modo, vt nimirum philosophum, & quidem eum qui ab inflato & grandi dicendi genere & industria abhorreat. In procemio (vt in defensionibus, [illegible]) ipsius vi & natura, [illegible] statuendum est [illegible] aduersarios, qui non solum dolosa eloquentia auditorum animos percellerint, sed & impudenti mendacio conati sint ipsum ipsiúsque causam suspectam inuisamque reddere.

[b] Pollicetur se vera dicturum, et beneuolentiam attentionémque sibi conciliat.

[c] Προκατάληψις, qua veniam petit pro ea dicendi ratione, qua sit vsurus, foro quidem illa insolens, [illegible] tamen longo consuetudinis vsu molesta & familiari, quam quidem et necessariam excusationem prætexit, consuetudinem retinentes, quæ quasi legis habere valerem.

B.iii.

(الشكل ٥٩) مطلع دفاع سقراط فى الطبعة اليونانية اللاتينية (٣ مجلدات ، جنيف : هنريكوس ستيفانوس ١٥٧٨) (عن النسخة الموجودة فى مكتبة كلية هارفرد — Harvard Gollege
وناشر النص اليونانى هو هنرى إتين — هنريكوس ستيفانوس (١٥٢٨ — ١٥٩٨) . أما الترجمة اللاتينية فن عمل جان دى سير — يوهانس سيرادوس (١٥٤٠ — ١٥٩٨) . وهذان الكتابان مرتبان على ستة أعمدة ، وترقيم هذه الطبعة هو الترقيم الذى يرد فى كل طبعة علمية . مثلا : الصفحة أعلاه هى الصفحة ١٧ من المجلد الأول ، ونجد فى طبعة « مكتبة لويب (Lioeb Classcal Library) فى هامش مطلع « الدفاع » : St. 1, P, 17. راجع الشكل ٨١ من أجل صفحة العنوان .

الكبرى هي الاعتدال . وكانت فكرة الله عنده تختلف كل الاختلاف عن العقل المجرد (nus) عند أناكساجوراس ، وتقرب من فكرة العناية (pronoia) عندنا . وواجبنا أن نهتم بأنفسنا أولا، ونشكر العناية الإلهية عليها . فوعينا الذاتنا هو جوهر ذاتنا . والتقوى من الفضائل الأساسية ، وأول شروطها النزوع نحو ما هو إلهي . وهكذا كان عند سقراط قدر من الصوفية[٦٦]، التي ليست من الصنف الهنادى . بل من صنف آخر يحكمه العقل والروية . وكان فيه أيضاً خلة من خلال المبشرين : فكان يؤمن أنه عهد إليه برسالة واضحة . وهي الاهتمام بنفوس مواطنيه وتعليمهم الحق والخير . وكان لزاماً عليه أن يطيع تلك الأوامر . وهاك ما يقوله في « دفاعه » الأبي (رسم ٥٩) .

« اعلموا أن الله يأمرني أن أفعل ذلك . وأنا أومن أنه لم تصب المدينة قط خيراً أعظم من وقف حياتي على خدمة الله . فأنا أطوف بينكم ولا همّ لي إلا حثكم صغاراً وكباراً . ألاّ تحرصوا على سلامتكم أو على أموالكم فوق حرصكم على كمال ذواتكم حتى ولا مثل ذلك . وأنا أقول لكم إن الفضيلة لا تصدر عن المال . بل عنها يصدر المال وجميع النعم الأخرى : سواء أكانت للفرد أو للمجتمع . وإذ كنت أفسد الشبيبة من جراء قولي لهذه الأشياء فتلك أمور مضرة إذن . ولكن إذا زعم أحد أنني أقول غير ذلك فهو كاذب . لهذا أقول لكم . يا أهل أثينا . اعملوا بنصيحة أنيتوس[٦٧] أو لا تعملوا . وخلوا سبيلي أو لا تخلوه . ولكن ثقوا أنني لن أغير سيرتي حتى ولو مت مراراً وتكراراً[٦٨] . »

ويشرح سقراط في « جورجياس » أنه خير للمرء أن يُظلم من أن يَظلم ، وأن شقاء الرجل الظالم يهون إذا لحقه العقاب . وهذه المحاورة هي دفاع أفلاطون نفسه . ولا محل للشك في أصالة ما يعزوه فيها من أفكار لسقراط . وينبغي أن تقتصر شكوكنا على الفروع واللواحق . لأن الشاهد يصبغ شهادته بشعوره الخاص لا محالة .

كنا نحب أن نتابع سرد أقوال سقراط كما يقتبس المرء من الإنجيل . ولكن من الأفضل أن يرجع القارئ لمحاورات أفلاطون الأولى وإلى اكسينوفان : لأن

جميع هذه الأقوال أشد وضوحاً فى سياقها الخاص ، وينبغى أن نبرز شخصية سقراط كاملة . ونجد أنه يختلف اختلافاً تامًّا،لا عن السوفسطائيين وحسب ، بل عن الفلاسفة الذين سبقوه ، حتى وعن ديموكريتوس الحكيم . وقد أدخل شيئاً جديداً كل الجدة فى التجربة الإنسانية ، وهو الجمع بين الحكمةوالقداسة واعتبر الأخلاق والسياسة جزءاً من الدين .

كانت شخصيته شاذة بعض الشذوذ ، فكان خشناً وساخراً فى الأغلب ، عقلىّ المنحى رغم نزعته الصوفية الغريبة التى ذكرناها آنفاً ، وكثيراً ما كان يشير إلى الوحى الإلهى الذى كان يرشده . ورقته الفريدة وجاذبيته الخاصة إنما تبدو فى بعض ألفاظ صوفية . كما نجد مثلا فى خطاب الكيبياديس فى « المأدبة » ، وعلى وجه أوسع فى المحاورة الأفلاطونية « تياجس »[٦٩]. وخير وسيلة للتدليل على عظمته الخارقة هى رواية قصة مماته .

كانت أفعاله التى يوردها تلامذته بريئة جدًّا . ولكن من السهل أن نتصور كم كانت سخريته جارحة لكبرياء لفيف من الناس ، وكم كانت بساطة حياته استنكاراً صامتاً لحياة أولئك الذين كان غرضهم الأول فى الدنيا الثراء بشتى الوسائل الشريفة أو غير الشريفة ، والتمتع بالملذات . فكان سقراط بالفعل تقريعاً حيًّا لهم جميعاً ، ولا غرو إذا هم أبغضوه لذلك . ورغم حسن طويته كان له أعداء وطدوا العزم علىّ هلاكه . وكانت الديمقراطية الأثينية تتصف بالتقوى التى تقرب من الإيمان بالخرافات : ونزعة سقراط العقلية رغم الصوفية التى كانت تخفف من حدتها ، مقلقة للأثينيين ، خصوصاً،وصوفيته عينها تختلف كل الاختلاف عن تعصب مواطنيه بحيث كانت داعياً لشكوى أخرى . وقد رحب أعداء سقراط وحساده بافتراءات أريستوفانيس ، لأنهم لم يطيقوا استقامته ، ونمقوا هذه الافتراءات وروجوها . وسنة ٣٩٩ على أثر سقوط الطغاة الثلاثين وجه إليه الاتهام التالى : « إن سقراط آثم لإنكاره آلهة الدولة الرسميين وإقحام آلهة غريبة ، وهو آثم كذلك لإفساده الشبيبة » . وإزاء ذلك حكم عليه بتجرع السم وقتل نفسه بيده . وينبغى أن نضيف فى معرض الثناء على

الديمقراطية الأثينية ، أنه كاد يبرأ ، لأن الحكم بإدانته لم يفز إلا بأكثرية ٣٠ من ٥٠١ صوت . وكان من اليسير أن تصوت هذه الأكثرية فى مصلحته لو أنه حاول أن يكسب عطف « المجمع الأثينى » بالكلام اللبق ، أو لو أنه دافع عن نفسه دفاعاً جدياً . ولكنه فعل عكس ذلك: فكان دفاعه آية من آيات السخرية ، وخطابه كفيلا بتأليب ذوى العقول الضيقة عليه[٧٠].

وقد صدر الحكم غداة سفر السفن المقدسة إلى « ديلوس » ، ولم يكن من الممكن تنفيذه قبل عودتها ، أى بعد ذلك بشهر ، إلا بخرق الطقوس الدينية . وهكذا استطاع أن يبقى شهراً كاملا فى السجن تمكن ، بفضل رفق الأثينيين من قضاته ، من التحدث إلى عائلته وأصدقائه[٧١]. وقد حفظت أحاديثه هذه فى محاورات أفلاطون[٧٢]ــ لا سيما فى محاورتين خالدتين : « أقريطون » (فى الواجب) و « فيدون » (فى النفس) . كان أقريطون صديقاً حميماً لسقراط ، ورجلا من أصحاب اليسار ، وكان يزوره فى السجن ويحاول إقناعه بالهرب . ومن المحتمل أن القضاة أنفسهم كانوا يرحبون بهذا الحل ، لكنه رفضه . لأن واجب المواطن الأول ، عنده ، أن يطيع شرائع الدولة ولو كان تطبيقها مجحفاً ؛ وما كان الظلم ليقاوم بالظلم . وإذا كانت المدينة قد حكمت عليه بالموت فكل فرار من هذه البلية ضرب من الخيانة ، ولابد له أن يموت . هذه المحاورة أروع دفاع عن القوانين عرفه التاريخ . وهى من تأليف أفلاطون بالطبع ، ولكنها تمثل آراء سقراط لأنه فى الواقع لم يحاول الهرب .

نجد فى «فيدون» (رسم ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢) الحديث الذى دار بين ثمانية أشخاص فى السجن أثناء أيام سقراط الأخيرة وذكر عدد كبير غيرهم أن الفيلسوف سعيد بالموت ، لأن المثل أزلية ، ونفسه سوف تخلد بعد ذلك . وتنتهى « فيدون » بوصف لوفاته يقتضى إيراده هنا كاملا :

« ولما فرغ من هذه العبارة ، نهض ودخل غرفة الحمام ، يصحبه أقريطون ، الذى أشار إلينا بأن ننتظر ، فانتظرنا نتحدث ونفكر فى أمر الحوار وهول المصاب . وكنا كمن فقد أباه ، وقضى عليه أن يعيش ما بقى من أيامه كالأيتام ،

περὶ ἀδελφοὶ οἱ ἐν ᾅδου νόμοι, οὐκ εὐμενῶς σε ὑποδέξονται, εἰδότες ὅτι καὶ ἡμᾶς ἐπιχείρησας ἀπολέσαι τὸ σὸν μέρος. ἀλλὰ μή σε πείσῃ Κρίτων ποιεῖν ἃ λέγει μᾶλλον, ἢ ἡμεῖς. ταῦτα ὦ φίλε ἑταῖρε Κρίτων εὖ ἴσθι ὅτι ἐγὼ δοκῶ ἀκούειν ὥσπερ οἱ κορυβαντιῶντες τῶν αὐλῶν δοκοῦσιν ἀκούειν. καὶ ἐν ἐμοὶ αὕτη ἡ ἠχὴ τούτων τῶν λόγων βομβεῖ. καὶ ποιεῖ μὴ δύνασθαι τῶν ἄλλων ἀκούειν. ἀλλὰ ἴσθι ὅσα γε τὰ νῦν ἐμοὶ δοκοῦντα. ἐάν τι λέγῃς παρὰ ταῦτα, μάτην ἐρεῖς. ὅμως μέντοι εἴ τι οἴει πλέον ποιήσειν, λέγε. ΚΡ. Ἀλλ᾽ ὦ Σώκρατες οὐκ ἔχω λέγειν. ΣΩ. Ἔα τοίνυν ὦ Κρίτων καὶ πράττωμεν ταύτῃ. ἐπειδὴ ταύτῃ ὁ θεὸς ὑφηγεῖται.

τέλος τοῦ Κρίτωνος. ἢ περὶ πρακτοῦ.

ΦΑΙΔΩΝ, Η ΠΕΡΙ ΨΥΧΗΣ.

ΤΑ ΤΟΥ ΔΙΑΛΟΓΟΥ ΠΡΟΣΩΠΑ.

Ἐχεκράτης. Φαίδων. Ἀπολλόδωρος. Σωκράτης. Κέβης.
Σιμμίας. Κρίτων, ὁ τῶν ἕνδεκα ὑπηρέτης.

Αὐτὸς ὦ Φαίδων παρεγένου Σωκράτει ἐκείνῃ τῇ ἡμέρᾳ, ᾗ τὸ φάρμακον ἔπιεν ἐν τῷ δεσμωτηρίῳ, ἢ ἄλλου του ἤκουσας. ΦΑΙ. Αὐτὸς ὦ Ἐχέκρατες. ΕΧ. Τί οὖν δή ἐστιν ἅττα εἶπεν ὁ ἀνὴρ πρὸ τοῦ θανάτου, καὶ πῶς ἐτελεύτα. ἡδέως γὰρ ἂν ἀκούσαιμι. καὶ γὰρ οὔτε τῶν πολιτῶν Φλιασίων οὐδεὶς πάνυ τι ἐπιχωριάζει τὰ νῦν Ἀθήναζε, οὔτε τις ξένος ἀφῖκται χρόνου συχνοῦ ἐκεῖθεν, ὅστις ἂν ἡμῖν σαφές τι ἀγγεῖλαι οἷός τ᾽ ἦν περὶ τούτων. πλήν γε δὴ ὅτι φάρμακον πιὼν ἀποθάνοι, τῶν δὲ ἄλλων οὐδὲν εἶχε φράζειν. ΦΑΙ. Οὐδὲ τὰ περὶ τῆς δίκης ἄρα ἐπύθεσθε ὃν τρόπον ἐγένετο. ΕΧ. Ναί. ταῦτα μὲν ἡμῖν ἤγγειλέ τις. καὶ ἐθαυμάζομέν γε ὅτι πάλαι γενομένης αὐτῆς, πολλῷ ὕστερον φαίνεται ἀποθανών. τί οὖν ἦν τοῦτο ὦ Φαίδων. ΦΑΙ. Τύχη τις αὐτῷ ὦ Ἐχέκρατες συνέβη. ἔτυχε γὰρ τῇ προτεραίᾳ τῆς δίκης ἡ πρύμνα ἐστεμμένη τοῦ πλοίου ὃ εἰς Δῆλον Ἀθηναῖοι πέμπουσι κατ᾽ ἔτος. ΕΧ. Τοῦτο δὲ δὴ τί ἐστι. ΦΑΙ. Τοῦτό ἐστι τὸ πλοῖον ὥς φασιν Ἀθηναῖοι, ἐν ᾧ Θησεύς ποτε εἰς Κρήτην τοὺς δὶς ἑπτὰ ἐκείνους ᾤχετο ἄγων, καὶ ἔσωσέ τε καὶ αὐτὸς ἐσώθη. τῷ οὖν Ἀπόλλωνι ηὔξαντο ὡς λέγεται τότε εἰ σωθεῖεν ἑκάστου ἔτους θεωρίαν ἀπάξειν εἰς Δῆλον. ἣν δὴ ἀεὶ καὶ νῦν ἔτι ἐξ ἐκείνου κατ᾽ ἐνιαυτὸν τῷ θεῷ πέμπουσιν. ἐπειδὰν οὖν ἄρξωνται τῆς θεωρίας, νόμος ἐστὶν αὐτοῖς ἐν τῷ χρόνῳ τούτῳ καθαρεύειν τὴν πόλιν καὶ δημοσίᾳ μηδένα ἀποκτιννύναι, πρὶν ἂν εἰς Δῆλον ἀφίκηται τὸ πλοῖον, καὶ πάλιν δεῦρο. τοῦτο δ᾽ ἐνίοτε ἐν πολλῷ χρόνῳ γίνεται, ὅταν τύχωσιν οἱ ἄνεμοι ἀπολαβόντες αὐτούς. ἀρχὴ δ᾽ ἐστὶ τῆς θεωρίας, ἐπειδὰν ὁ ἱερεὺς τοῦ Ἀπόλλωνος στέψῃ τὴν πρύμναν τοῦ πλοίου. τοῦτο δ᾽ ἔτυχεν ὥσπερ λέγω τῇ προτεραίᾳ τῆς δίκης γεγονός. διὰ ταῦτα καὶ ὁ πολὺς χρόνος ἐγένετο τῷ Σωκράτει ἐν τῷ δεσμωτηρίῳ ὁ μεταξὺ τῆς δίκης τε καὶ τοῦ θανάτου. ΕΧ. Τί δὲ δὴ τὰ περὶ αὐτὸν τὸν θάνατον ὦ Φαίδων. τί ἦν τὰ λεχθέντα καὶ πραχθέντα. καὶ τίνες οἱ παραγενόμενοι τῶν ἐπιτηδείων τῷ ἀνδρί. ἢ οὐκ εἴων οἱ ἄρχοντες παρεῖναι. ἀλλ᾽ ἔρημος ἐτελεύτα φίλων. ΦΑΙ. Οὐδαμῶς. ἀλλὰ παρῆσάν τινες καὶ πολλοί γε. ΕΧ. Ταῦτα δὴ πάντα προθυμήθητι ὡς σαφέστατα ἡμῖν ἀπαγγεῖλαι, εἰ μή τίς σοι ἀσχολία τυγχάνει οὖσα. ΦΑΙ. Ἀλλὰ σχολάζω τε καὶ πειράσομαι ὑμῖν διηγήσασθαι. καὶ γὰρ τὸ μεμνῆσθαι Σωκράτους, καὶ αὐτὸν λέγοντα, καὶ ἄλλου ἀκούοντα, ἔμοιγε ἀεὶ πάντων ἥδιστον. ΕΧ. Ἀλλὰ μὴν ὦ Φαίδων καὶ τοὺς ἀκουσομένους γε τοιούτους ἑτέρους ἔχεις. ἀλλὰ πειρῶ ὡς ἂν δύνῃ, ἀκριβέστατα διεξελθεῖν πάντα. ΦΑΙ. Καὶ μὴν ἔγωγε θαυμάσια ἔπαθον παραγενόμενος. οὔτε γὰρ ὡς θανάτῳ παρόντα με ἀνδρὸς ἐπιτηδείου ἔλεος εἰσῄει. εὐδαίμων γάρ μοι ὁ ἀνὴρ ἐφαίνετο ὦ Ἐχέκρατες καὶ τοῦ τρόπου καὶ τῶν λόγων, ὡς ἀδεῶς καὶ γενναίως ἐτελεύτα. ὥστε μοι ἐκεῖνον παρίστασθαι, μηδ᾽ εἰς ᾅδου ἰόντα ἄνευ θείας μοίρας ἰέναι. ἀλλὰ καὶ ἐκεῖσε ἀφικόμενον εὖ πράξειν εἴπερ τις πώποτε καὶ ἄλλος. διὰ

(شكل ٦٠) أول « فيذون » ، ص ٢٩ من النص اليونانى لمؤلفات أفلاطون الرئيسية (مجلدان) فينيس : ألدوس ومرتوس موزوروس ١٥١٣) "عن النسخة الموجودة فى مكتبة كلية هارفرد" . وكل المحاورات مقسمة إلى أربعات ، والأربعة الأولى هى المحاورات السقراطية ، وتدور حول محاكمة سقراط وموته . انظر شكل ٨٠ .

فلما استحم جئ له بأبنائه — (وكانوا طفلين صغيرين ويافعاً) ، كما وفدت نساء أسرته ، فحادثهن وأوصاهن ببعض الوصايا على مسمع من أقريطون ، ثم صرف النساء وعاد إلينا .

وكانت قد دنت ساعة الغروب ، فقد قضى داخل الحمام وقتا طويلا ، وعاد بعد اغتساله فجلس إلينا ، ولكننا لم نفض فى الحديث . وما هى إلا أن جاء السجان ، وهو خادم الأحد عشر ، ووقف إلى جانبه وقال : لست أتهمك يا سقراط بما عهدته فى غيرك من الناس ، من سورة الغضب والصياح عندما آمرهم بتجرع السم ، انقياداً لإرادة أولى الأمر . أما أنت فقد رأيتك أنبل وأرق وأفضل رجل وفد على هذا المكان ، ولا يخامرنى شك أنك لن تنقم علىّ ، فليس الذنب ذنبى كما تعلم ، إنما هى جريرة سواى . والآن ؛ وأنت تعلم الرسالة التى أحملها إليك ، وداعاً ! وحاول أن تحتمل راضياً ما ليس من وقوعه بد ، ثم أدار ظهره وخرج منفجراً بالبكاء .

فنظر إليه سقراط وقال : وداعاً ! سوف أصنع ما تريد . ثم التفت إلينا وقال : يا له من رجل لطيف ! إنه ما انفك يزورنى فى السجن ، يحادثنى الحين بعد الحين ، ويعاملنى بالحسنى ما وسعته ، وانظروا إليه الآن كيف يبكى شهامة من أجلى ، فلازم علينا يا أقريطون أن نفعل ما يريد . مر أحداً أن يجىء بالكأس إن كان قد تم إعداد السم ، وإلا فليعده الرجل .

« فقال أقريطون : ولكن الشمس لا تزال ساطعة فوق التلاع ، وكثير ممن سبقوك لم يجرعوا السم إلا فى ساعة متأخرة بعد إنذارهم . إنهم كانوا يأكلون ويشربون وينعمون بصحبة أحبائهم فلا تتعجل إذن ، إذ لا يزال فى الوقت متسع .

« فقال سقراط : نعم يا أقريطون ، لقد أصاب من حدثنى عنهم فيما فعلوا ، لأنهم يحسبون أن وراء التأجيل نفعاً يجنونه ، أما أنا فلقد أكون مصيباً إذا لم أفعل كما فعلوا ؛ لأننى لا أظن أنى سأجنى من تأخير شراب السم نفعاً ما . ولو فعلت ذلك لسخرت من نفسى لتشبثها بالحياة ولم يعد فيها نفع يرتجى . أرجو إذن أن تفعل كما أشرت ، ولا تخالف رغبتى .



(شكل ٦١) غلاف الترجمة الإنجليزية الأولى "لدفاع سقراط" و "فيدون" (لندن ١٦٧٥) (عن النسخة الموجودة فى كلية هارفرد).

« فلما سمع أقريطون هذا ، أشار إلى الخادم فخرج ،ولم يلبث أن عاد بعد غياب طويل يصحبه السجان يحمل كأس السم ، فقال سقراط حين رآه : أى صديقى العزيز ، إنك عارف بهذه الأمور ، فأرشدنى ماذا أصنع ؟ فأجاب الرجل : تشرب السم وتسير قليلا حتى تثقل ساقاك ثم ترقد ، فيسرى السم . وهنا ناول سقراط الكأس فحدق فى الرجل بعينيه الواسعتين ، وأخذ القدح برفق دون أن يرتجف أو يمتقع لونه ، ثم قال : يا إخيكراتيس ماذا ترى إن أنا أرقت جرعة من هذه الكأس على اسم أحد الآلهة ، أفيجوز هذا أم لا يجوز ؟ فأجاب الرجل : إننا لا نعد السم يا سقراط إلا بمقدار ما نظنه كافياً . فقال : فهمت ، ومع ذلك يحق لى بل يجب علىّ أن أضرع إلى الآلهة أن تكون رحلتى عن هذا العالم ميمونة ،فعسى أن تجيب دعائى ! ثم رفع الكأس إلى شفتيه وشرب السم حتى الثمالة رابط الجأش مغتبطاً ، وقد استطاع معظمنا أن يكبح جماح حزنه حتى تلك الساعة ، أما وقد رأيناه يشرب السم ، وشهدناه يأتى على الجرعة كلها ، فلم يعد للصبر سبيل ، وانهمر منى الدمع مدراراً على الرغم منى ، وسترت وجهى بثوبى وأخذت أندب نفسى : حقاً إنى لم أكن أبكيه ، بل أبكى فجيعتى وفقدانى مثل هذا الرفيق . ولم أكن أول من فعل هذا ، فإن أقريطون لم يعد قادراً على حبس عبراته أيضاً ، فنهض وابتعد ، وهنا أجهش أبوللودورس الذى لم ينقطع نحيبه طول الوقت بالبكاء فأجهشنا جميعاً ؛ ولم يحتفظ منا بالهدوء سوى سقراط . وقال : ما هذا التصرف الغريب أيها الناس ؟ لقد صرفت النسوة خاصة لهذا السبب ، كى لا يتصرفن على هذا النحو المخزى ؛ وقد سمعت أنه خير للإنسان أن يسلم الروح فى صمت ، فهدئوا من روعكم واصبروا .

فلما سمعنا ذلك اعترانا الخجل وكفكفنا دموعنا . وأخذ سقراط يطوف حتى بدأت ساقاه تخوران — كما قال — ثم استلقى على ظهره ، كما أشار السجان عليه ، ولمسه الرجل الذى ناوله السم بيده ،وبعد حين فحص قدميه وساقيه ، ثم غمز قدمه بقوة وسأله : هل أحس ؟ فأجاب أن لا ؛ ثم غمز ساقه وما زال

PLATO his
APOLOGY of SOCRATES;
AND
PHÆDO or Dialogue concerning the
Immortality of Mans Soul,
AND
Manner of SOCRATES his Death:
Carefully translated from the Greek,
AND
Illustrated by Reflections upon both the *Athenian* Laws, and ancient Rites and Traditions concerning the Soul, therein mentioned.

Quintilianus institut. Orator. lib. 10 cap. 5.
Vertere Græca in Latinum *veteres nostri Oratores optimum judicabant.* *Id se* L. Crassus *in illis* Ciceronis *de Oratore libris dicit factitasse.* *Id* Cicero *sua ipse persona frequentissime præcipit: quin etiam libros* Platonis [Timæum *nempe, quem inscripsit* de Universitate] *atq;* Xenophontis *edidit hoc genere translatos.*

LONDON,
Printed by *T. R. & N. T.* for *James Magnes* and *Richard Bentley* at the *Post-Office* in *Russel-street* in *Covent-Garden*, 1675.

(شكل ٦٢) صفحة العنوان من الترجمة الإنجليزية الأولى " لدفاع سقراط " و " فيدون " ، والمترجم غير معروف (عن النسخة الموجودة فى كلية هارفرد) .

يرق عضواً عضواً ، مشيراً لنا كيف أخذ يبرد ويتصلب ؛ ثم لمس جسده وقال : ستكون الخاتمة حين يصل السم إلى القلب . فلما أخذت البرودة تتمشى فى أعلى فخذيه كشف سقراط عن وجهه ، إذ كان قد دثر بغطاء ، وقال : (وكانت هذه آخر كلماته) إننى يا أقريطون مدين بر بك لإيسكولا بيوس فهل أنت ذاكر أن ترد هذا الدين ؟ فأجاب أقريطون إنه سيوفى الدين . ثم سأله إن كانت لديه رغبة أخرى فلم يكن لهذا السؤال جواب ؛ وما هى إلا دقيقة أو دقيقتان حتى تحرك ؛ فكشف عنه الخادم ؛ وكانت عيناه قد جمدتا ؛ فأقفل أقريطون فمه وعينيه .

هكذا يا إخيكراتيس قضى صديقنا الذى أدعوه بحق خير من عرفت من الناس ، وأحكمهم وأعظمهم براً » .

وللمقارنة برواية أفلاطون هاكم إشادة اكسينوفان الأخيرة بمعلمهما :

« وكل من يعرف من أى نمط من الرجال كان سقراط . وكل من ينشد الفضيلة ما زال حتى اليوم يحزن لفقده أكثر من أى امرئ آخر ، لأنه كان أكبر عون فى البحث عن الفضيلة . أما أنا فقد وصفته كما كان : تقياً بحيث لم يصنع شيئاً إلا بمشورة الآلهة ، وعادلا بحيث لم ينزل أى أذى مهما صغر بأى إنسان — بل كان يغدق على كل من يعامله أعظم ضروب النفع ؛ ضابطاً لنفسه بحيث لم يختر قط السبيل الأسهل عوضاً عن السبيل الأفضل ، حكيماً بحيث لم يخطئ قط فى التمييز بين الأفضل والأسوأ ولم يحتج إلى مشير ، بل كان يعتمد على نفسه فى معرفتهما : حاذقاً فى شرح هذه الأشياء وتحديدها وامتحان الآخرين وإقناعهم بخطئهم وحثهم على اقتباس الفضيلة والرفق . وهكذا كان عندى مثالا للرجل العادل والسعيد حقاً . أما إذا شك شاك فليقارن خلق غيره من الرجال بهذه المزايا ثم دعه يحكم لنفسه(٧٤) » .

ولما كان هذا الكتاب موجهاً إلى رجال العلم فمن المفيد أن نضيف بعض الملاحظات الطبية : « يعد وصف أفلاطون لموت سقراط نموذجاً طبياً كلاسيكياً ،

فهو يتفق اتفاقاً تاماً مع ما يتوقعه المرء فى ظروف مماثلة اليوم . فالسم هو الشوكران : أى الثمرة المجففة والنامية غير اليانعة لشجرة (Conium meculatum) ويسحق عادة بعد التجفيف ، ويحوى نحو نصف فى المائة من مادة الكونيين . اكتشف « جيسكى » هذه المادة القلوية سنة ١٨٢٧ . وهى مادة « البروبيلبردين » (propylpyridine) الكيماوية البسيطة . ونجد فى ألكونيوم مواد قلوية أخرى من الأسرة ذاتها ، وفعلها البيولوجى كلها واحد : وينحصر فى شل الأطراف القصوى فى أعصاب الحركة . ويبدأ الفعل فى أقصى الأطراف ثم يمتد بسرعة إلى غشاء القلب ، وعندما يقف هذا الغشاء عن الحركة يصاب المرء بالاختناق . فالموت — وثمة أدلة تشير إلى أنه ينشأ عنه شل للأعصاب الحساسة ، إلا أن ذلك ليس واضحاً وضوح شل أعصاب الحركة . وقد أثبت هاياشى (Hyashi) وموتو (Muto) أن عصب غشاء القلب (Phrenic) أشد حساسية من سائر الأعصاب . وهذا العصب يشرف على حركة غشاء القلب (Arch. Exp. Path. Pharmakol 48, 1910) ، ونجد وصفاً لفعل الكونيوم فى أى مؤلف جيد فى علم الصيدلة [٧٥].

كانت إدانة سقراط عملا شائناً لا يغتفر ، وإن كانت طريقة إعدامه شريفة ورحيمة . وعندما نقارنها بطرق الإعدام الفظيعة السرية المتبعة فى عدد من البلدان فى زماننا هذا ، لا على يد أفراد مجرمين بل بأوامر الحكومات ، يندى جبيننا خجلا .

أما وفاته فكانت على غاية ما يكون من الجلال . فلم يكن فى كلامه مرارة أو غضب أو شتم ، بل كانت وفاة رجل فاضل ونبيل . وهى تختلف فى وقارها وروعتها عن الوفيات التى نجدها مرسومة على بعض نواويس ذلك العهد المنحوتة [٧٦] .

من الثابت أن ملابسات وفاة سقراط ساعدت كثيراً على ذيوع صيته . فقد أدت أولا إلى إكرام تلاميذه الأقربين وتقديسهم له ، وبعد ذلك إلى إلهاب حماسة أفلاطون واكسينوفانيس اللذين حفظا أفكاره ودفعا بها إلى السلف

ووفاة سقراط ما هى إلا خاتمة رائعة لجهود الفلاسفة اليونان الذين سعوا طيلة أكثر من قرن للوصول إلى الحقيقة . فقد أسبغت مسحة القداسة على الحكمة التى كشفها إلى حدما من خلال بحوثهم ، وبفضل عبقريته وقداسته هو .

وكان بين الأصدقاء الذين شهدوا اللحظات الأخيرة من حياته إخيكراتيس الفليوسى ، أحد متأخرى الفيثاغوريين وفيدون الأليسي وأبوللودورس الفليرونى ، وكيبس(٧٧) وسمياس وكلاهما من طيبة ، وأقريطون الأثينى وابنه أقريطوبولس وايسخينيس السقراطى وأنتنستانس الأثينى وأقليدس الميجارى . ومن المدهش أن خمسة من تلامذة سقراط المقربين (منهم ثلاثة كانوا بقربه عند وفاته) من مؤسسى مدارس فلسفية : أعنى فيدون الذى أسس مدرسة فى مسقط رأسه « أليس » ، وإقليدس مؤسس المدرسة الميجارية ، وأنتنستانس مؤسس المدرسة الكلبية (Cynic) والاثنان اللذان لم يشهدا الوفاة : أرستيبوس البرقاوى ، مؤسس المدرسة البرقاوية ، وأفلاطون ، وكانت علة غياب الأخير مرضه ، كما ذكر فى « فيدون » ، ولا داعى للشك فى كلامه . ويمكننا أن نقول إن الفلسفة اليونانية كلها بعد القرن الخامس كانت متأثرة بسقراط . وينبغى ألا ننسى أن سقراط ترك أثراً عميقاً ، خلال عمله الطويل ، كمعلم متجول ومرشد ، على عقول أناس لم يكونوا فلاسفة أو كتاباً ، واستطاعوا أن ينشروا آراءه ، ومنهم أشخاص شريرون أقوياء مثل كريتياس والكيبيادیس وعدد كبير غيرهما ممن لم يتميزوا بفضيلة أو رذيلة ولم تحفظ أسماؤهم . لقد كان سقراط أول واضع لنظام أخلاقى من فلاسفة اليونان، وأول من قدم القيم الأخلاقية على كل ما عداها . ومنذ ذلك الحين أخذت الأفكار السياسية والأخلاقية تحتل مكاناً أرفع . ولا نغالى إذا قلنا إن جميع المؤلفات الغربية فى هذا الموضوع تنبع مباشرة أو بالواسطة من تعاليمه . فهيمنت حياته ووفاته على الأخلاق فى العالم الغربى كله ، ولم يمح أثرهما أو يتضاءل من جراء ظهور المسيحية .

* * *

هذا تاريخ للعلم لا للفلسفة ، وقد قيل أحياناً إن أثر سقراط المبرور على

الفلسفة كان وبالا على العلم . وقد يدعوه بعض النقاد رجعياً من جراء ثورته على أصحاب الفلك والآثار العلوية وجميع الذين انصرفوا إلى النظر فى الأشياء السماوية وتحت الأرضية عوضاً عن الحياة البشرية العادية . ويذهب « أولمستيد » إلى أبعد من ذلك زاعماً أن تأثير سقراط على العلم كان كارثة [٧٨] . وهذا صحيح فى الظاهر فقط لا فى الواقع . فرجال العلم الذين رافقونى حتى هذه المرحلة وقرأوا سيرة الفلاسفة السابقين لسقراط أصبحوا فى الراجح متبرمين ومتمردين تمرد سقراط نفسه . لقد كان أسلوبهم العلمى فاسداً ، وتأملاتهم المبنية على معلومات غير وافية لا غناء فيها ، وكثيراً ما كانت نظرياتهم الفلكية سخيفة ، وبذا أخطأوا سواء السبيل جملة ، ولو أجيز (كما أجيز أنا) أن هذه المغامرات كانت ضرورية ولا مناص منها ، فإنها استمرت أمداً طويلا ، ويبدو أن فلاسفة القرن الخامس استنفدوا جميع التخيلات الممكنة فى عصرهم ، وكان فى جرأتهم شيء يدعو إلى الإعجاب وإن أسرفوا فى ذلك . وكان من اللازم التوقف ، وذلك ما دعا إليه سقراط ، وإذا كان قد تطرف فى ذلك ، فإنه لم يكن هناك مناص منه ، ولعله لم يكن فى وسع امرئ آخر أن يجيد ما فعله كما أجاد .

وفوق هذا ، بين أفكاره ما يعد مساهمة إيجابية ضرورية لتطور العلم فى المستقبل، فثمة أولا تمسكه بالتحديد والتصنيف الواضحين ، ولا جدوى فى المناقشة إذا لم نكن نعرف على أدق وجه ممكن الموضوع الذى نتكلم عنه ، وهذا شيء أساسى فى العلم أكثر منه فى الفلسفة . ثانياً : كان يستخدم أسلوباً جيداً للجدل والكشف المنطقى (وهو ما دعاه بفن التوليد) ، ويجب أن يتمرس العلماء بفن المناقشة الخالية من الأخطاء المنطقية، وإلا توصلوا إلى نتائج خاطئة . ثالثاً : كان يشعر شعوراً عميقاً بالواجب واحترام القانون ، وإن نمو العلم الصحيح يتطلب صفاء أخلاقياً وصدقاً وتربية فردية واجتماعية؛ ولا سبيل للمواطن الفاسد أن يكون عالماً صالحاً . رابعاً: إن شكه العقلى يكون نقطة ارتكاز البحث العلمى ، وعلى العالم أن يتأهب لاستئصال دعائم التعصب والخرافات قبل أن يشرع فى البناء . بالطبع لم يكن شك سقراط تاماً فلم يمتد مثلا إلى موضوعات كالكهانة ،

وما ذاك إلا لتأثير البيئة عليه . وشكوكنا متصلة دائماً بالعقائد التى تقبلها الكثرة الغالبة من جيراننا ، مهما بلغ من غرابتها .

لم يع الفلاسفة السابقون أهمية هذه النقاط الأربع . أما سقراط فقد وعاها وعياً تاماً وشدد عليها كل التشديد ، ولهذا السبب وحده يستحق أن يتبوأ مكاناً عالياً جداً فى تاريخ العلم . وإن ثورته على السفسطة والدعاوى الواهية على اختلاف أنواعها لثورة يتفق معه فيها كل العالم ، إذ أن رأس الحكمة العلمية ، على وجه التخصيص ، الإقلاع عن النطق بأقوال لا أساس لها .

لم تكن تفرقة سقراط بين المعرفة النافعة وغير النافعة موفقة كل التوفيق ، بل رجعية . فعندما زعم أنه من المضحك أن نفحص عن النجوم و « عما يدعى بعالم الأساتذة »(٧٩) ، فإنه إنما كان يقفل باباً ينبغى أن يترك مفتوحاً . قد ترفض بعض الأساليب العلمية الفاسدة أو المناقشات الباطلة ، ولكن من المستحيل القول اعتباطاً بأن بحوثاً مفيدة وأخرى غير مفيدة ، وتاريخ العلم كله يبرهن على ذلك . ولعل سقراط كان يستسخف كل الاستخفاف الفحص عما يتم للأشياء المجاورة لقطعة من الحديد الممغنط أو الكهرباء عند حكه ، إلا أن هذه هى السبيل إلى معرفة المغنطيس والكهرباء وجميع الصناعات الكهربائية التى غيرت وجه العالم . كان سقراط أول من أثار مشكلة النزاع الدائم بين « العلم النظرى والعلم التطبيقى » ، التى يمكن حلها بالإشارة إلى أن الأخير لا ينمو بل لا يوجد دون الأول . وكان أول من أثار أيضاً النزاع بين « الإدراك البدهى » و « الأحاجى » العلمية . ونعرف اليوم أنه كثيراً ما تكون الرواية خاطئة بينما تنطوى « الأحاجى » على الحقيقة . ولا محل للومه كثيراً ، لأنه وقع فى هذه الأخطاء فى زمن كانت فيه تجارب البشر العلمية لا تزال مبدئية .

كتاب أيوب :

طال هذا الفصل الذى كرسناه لفلسفة القرن الخامس كثيراً ، مع أننا قصرناه على ثمار أمة صغيرة نسبياً هى الأمة الناطقة باليونانية . وفى خلال قرن واحد صاغ الفلاسفة اليونان عدداً من أعمق المشاكل الفلسفية ، وإذا كانوا

لم يحلوها فإنها ما زالت تقلق الفكر البشرى حتى اليوم . ولعل من المجدى أن نفحص عن الأفكار الفلسفية التى كانت تعالج عند أمم أخرى من أبناء القرن ذاته، وإن أدى بنا ذلك إلى شيء من التطويل . ومن الممتع مثلا أن نعرج على « كونغ تشي » (القرن الخامس ق. م.) حفيد كنفوشيوس ومؤلف اثنين من « الكتب الأربعة »[٨٠] : « نظرية الوسيلة » و« العلم الأعظم » (على الغالب) ، وموتى فى (الخامس ق. م.) الذى جمع بين آراء نفعية وغيرية أخلاقية متطرفة، والذى يدعى أحياناً واضع المنطق الصينى . أما المقارنة بالفلسفة الهندية المعاصرة فمستحيلة ، رغم متعتها ، لاستحالة الاطمئنان إلى التوقيت الزمنى . وثمة مقارنة واحدة يمكننا أن نخوض فيها باختصار وهى المقارنة بـ« كتاب أيوب » .

وتبدو هذه المقارنة أقرب متناولا ، إذا ذكرنا أنها لا تستدعى التوغل فى بلاد بعيدة بعد الهند أو الصين ، ويكفى أن ننتقل ذهنيًّا إلى بلاد قريبة جداً من العالم اليونانى ، رغم بقائها منفصلة عنه انفصالا غريباً . وتاريخ تأليف كتاب أيوب غير ثابت ، وأغلب الظن أنه كتب فى القرن الخامس (أو الرابع)[٨١] ومؤلفه يهودى أو أدومى[٨٢] : أى فلسطينى على كل حال ، وكانت فلسطين أقرب إلى بلاد اليونان من عامة المستعمرات اليونانية . ولعله اطلع على المصادر البابلية[٨٣] ومن المحقق أنه اطلع على المصادر المصرية : فهل من المنابع نفسها التى نهل منها معاصروه اليونان ، إلا أن ثمرة تأملاته تختلف كل الاختلاف عن ثمرة تأملات هؤلاء . ولنفكر فى هذا اللغز لحظة واحدة : لقد قلد العبران واليونان نماذج مصرية، فأبدعوا فى صنع الآيات العبرانية واليونانية الرائعة . فما هو التقليد ؟ كل امرئ يقلد سابقيه ، والتعليم ، إلى حد بعيد ليس إلا ضرباً من المحاكاة لنماذج معترف بها ، لكن كلاً يقلد بحسب عبقريته؛ وإذا كان له حظ من العبقرية فهو يخلق جديداً .

إن كتاب أيوب[٨٤] آية من آيات الأدب العالمى . وقد عده تنيسون « أعظم شعر فى التاريخ » . وموضوعه من الأمور التى ما زالت تحير لب الإنسان وتقلق باله : كيف يمكننا أن نفسر العقوبة التى تلحق بمن لا يستحقها ؟ ولماذا يسعد

الشرير ويشقى الخيِّر ؟ تنطوى هذه الأسئلة على مشكلة الشر والعناية الإلهية (Theodicy) كما يدعوها ليبنتز ، أى إقرار عدالة الله رغم الشر الطبيعى أو الأخلاقى الذى تجيزه أحياناً . ولكن كيف يمكننا التوفيق بين وجود الشر وفضل الله وقدرته الكاملة ؟ لقد أدرك أيوب (أعنى مؤلف كتاب أيوب) أن المشكلة لا يمكن حلها ، نظراً إلى تعالى الله الذى لا يمكننا النفوذ إلى سره وإلى إدراك الإنسان السقيم . تأخذ نكبات المرء بمجامع عقله وقلبه ، ولكنها ليست بذات خطر فى سيرة الكون العامة . وكيف يمكننا أن نفصل فى الأمر ؟ إن تساؤل أيوب يهزنا حقاً لأننا لسنا نعرف عن المشكلة فوق ما كان يعرف .

إن صحة كتاب أيوب بأكمله مشكوك فيها وتكوينه غير متجانس الأجزاء[٨٥] . ولا يصح أن نعير الغموض والتناقض اللذين نجدهما فيه كبير اهتمام ، لأنهما طبيعيان فى لغة أصحاب العاطفة المشبوبة وفى النظم الشعرى الرائع : وكتاب أيوب قصيدة لا مقالة علمية . والرجل الذى كتبه شاعر عبقرى ، وصف بإحكام ودقة عجائب الكون وحكمة الله ، وقد جمع بين المعرفة والواقعية فى خيال بديع ولغة جميلة جداً ، وهو يستخدم استعارات قلما استعملها مؤلف آخر[٨٦] .

استخلص الأنبياء العبرانيون من حكمة الشرق العريق فى القدم فكرة التوحيد ، وأسبغوا على إلههم القومى السلطة الشاملة ، وجعلوه رمزاً حياً للكمال الأخلاقى والعدالة المطلقة . وبهذه الرغبة نفسها حاول الفلاسفة اليونان أن يفسروا وحدة العالم على أساس المعرفة الوضعية ، فكانت فكرة الله عندهم أقرب إلى الطبيعيات والكونيات منها إلى الأخلاق . ومن الغريب حقاً أن يكون إله أيوب أقرب إلى النماذج اليونانية من النموذج اليهودى ، فهو لا يشير إليه قط باسم خاص : وإله ليس إلهاً قومياً بل كونياً . ومع ذلك وقع هذا التطابق مصادفة ، ولا مبرر لافتراض أن مؤلف (كتاب) أيوب تأثر بالنماذج اليونانية ، أو العكس . ومن الجدير بالنظر أن يقارن كتاب « أيوب » « بروميثيوس الموثق » Prometheus bound لإيسخيلوس . وهذا يثبت مرة أخرى وحدة العبقرية البشرية التى هى مظهر لوحدة الطبيعة ، وصورة لوحدة الله .

تعليقات

(١) نعنى خاصة الأنبياء العبرانيين الذين جمعت أقوالهم فى العهد القديم والذين عاشوا على الأرجح فى الحقبة الواقعة بين القرنين السادس والتاسع . وقد قام فى آسيا عدد كبير من أنبياء آخرين مثل – زرادشت (القرن السابع ق . م . ؟) الذى تسربت آراؤه إلى آسيا الصغرى وبلغت العالم اليونانى عن طريق « المجوس » (راجع : J. Bidez & F. Cumont, *Les mages héllénisés*, Paris, Les Belles Lettres, 1938. ؛ ثم بوذا وماهافيرا فى الهند وكونفوشيوس ولاوتسو فى الصين – ومن الغريب أن جميع هؤلاء عاشوا فى القرن ذاته : أى السادس .

(٢) كان مؤرخو العقائد (doxographers) مصنفين دونوا لنا تاريخ الفلاسفة ومقتطفات من كتبهم . أهمهم أرسطو وثيوفراستوس ، إلا أن كتب الأخير التاريخية لم تصلنا مباشرة بل فى مقتطفات لاحقة . وقد نسب إلى بلوتارك (٢ – I) وستوبايوس (٢ – V) وسواهما مجموعات للآراء الفلسفية تعرف بالـ Placita philosophorum (مباهج الفلاسفة) . ولكن يرجح أن الراوية البارز بين هؤلاء كان « أيتيوس » ، الذى لا نكاد نعرف عنه شيئاً . ولعله عاش فى أواخر القرن الأول بعد المسيح . ومعظم هذه الآراء إنما وصلنا عن طريق غير مباشر فى مقتطفات من كتب مناهضى الفلسفة كالشكاك والمبشرين المسيحيين الذين حاولوا أن يحطوا من شأن الوثنية . وقد أوضح هذا الموضوع الصعب قدر المستطاع ، هرمان ديلز (١٨٤٨ – ١٩٢٢) فى Doxographi graeci (Berlin, 1879 Editio iterata, 864, pp. 1929) ومن أراد شرحا أوجز لهذه المشاكل التاريخية فليراجع راجع : P. Tannery, *Pour l'histoire de la Science helléne*, 1887, new ed., 1930. pp. 19-29. *Isis* 15, 179-180 (1931)

(٣) حول هيكل أرتميس (ديانا) راجع : G. Sarton & St. John Ervine, "John Turtle Wood, discoverer of the Artemision 1869", *Isis* 28, 376-384 (1938), 4 figures. كانت أفسوس من الأماكن المقدسة فى العصور القديمة ، وأصبحت بعد ذلك من أول المقدسات المسيحية . لاحظ زيارة القديس بولس لها ورسالته إلى أهل أفسوس .

(٤) توجد طبعة لكتاب هيراكليتوس On the Universe (حول الكون) ، وترجمة إنجليزية من عمل W.H. S. Jones فى آخر المجلد ٤ (١٩٣١) من طبعة Jones لأبقراط فى مكتبة لويب الكلاسيكية Loeb Classical Library ويحتوى ذلك المجلد على ترجمة حياة هيراكليتوس من تأليف ديوجنيس اللاترسى المذكور (١ – III) .

(٥) الشذرة ١٦ .

(٦) « لا يمكنك أن تخوض فى الجدول نفسه مرتين ، لأن مياهاً أخرى لا تلبث أن تجرى نحوك » ، شذرة ٤١ ، راجع أيضاً شذرة ٨١ .

(٧) إن الانسجام غير المرئى يفوق الانسجام المرئى (شذرة ٤٧) . نقش الأصل اليونانى لهذا المبدأ على مدالية تذكارية قدمتها الأكاديمية الفرنسية للعلوم لهنرى بوانكاريه (١٨٥٤–١٩١٢) الرياضى الكبير . وقد صورت المدالية ووضعت فى مجلة Isis ٩ ، ٤٢٠ – ٤٢١ (١٩٢٧) . قابل أيضاً الشذرة ٤٥ : « هم لا يفهمون كيف يتفق ما يناقض نفسه مع نفسه : انسجام التوتر ، كما فى الوتر والقيثارة » ، وأيضاً شذرة ٥٦ و ٥٩ .

(٨) هذه بداية الشذرة ٣٦ ، وينبغى أن أثبت هنا بقيتها لكى أدلل على طبيعة أقواله الغامضة : « إلا أنه (أى الله) خاضع للتقلبات ، كالنار فهى إذا امتزجت مع بهار ما دعيت باسم الطعم الخاص به » . وسائر ما وصلنا من كتاب « فى الكل » مجموعة من الأحاجى .

(٩) الشذرة ١٠٠ .

(١٠) Plutarch, *Life of Pericles*, IV, V, VIII, Translations by Bernadotte Perrin, Loeb Edition of the *Lives*, Vol. 3, pp. 11-21.

(١١) نجد خير تحديد «العقل» هذا عند هرمياس ، أحد النقاد المسيحيين للفلاسفة الوثنيين ، وقد ازدهر فى القرن الخامس أو بعده بقليل (راجع هرمياس فى (Diels, *Doxographi graeci*, 1879, p. 625) وهو يقول : « العقل (نوس) مبدأ الكون وعلته وحاكمه ، يمنح النظام للأشياء غير المنظمة ، والحركة للأشياء غير المتحركة ، ويفصل الأشياء المختلطة ويجعل من الفوضى (كاوس) عالماً منظماً (كوسموس) . ولو سلمنا بهذا التحديد الرائع ، الصادر عن خصم ، لاضطررنا للقول أن أناكساجوراس هو أبو الثنائية الفلسفية ، ولكنا لسنا واثقين من الأمر كما وثق هرمياس . ولو أردنا أن نذهب إلى الطرف الآخر لفسرنا « نوس » « بالطاقة » ، ولكن من الأفضل أن نحتفظ بالعبارة اليونانية ، ونعترف بأننا نجهل معناها الدقيق .

(١٢) راجع الشذرتين ١٥ ، ١٦ فى Tannery ، رقمى ٣ و ٦ فى طبعة Diels . لنكرر أن « البذور » ليست أبسط من سائر الأشياء ، ولا مختلفة عنها فى التركيب . ولو أردنا أن نشرح ذلك بالرجوع إلى صورة حديثة ، وهى محاولة خطرة فى رأيى ، نقول إن البذور هى نقاط التنظيم الأول (الحاصل بالمصادفة) التى تؤلف الخميرة للتنظيم العام . ويدعو لوكرتيوس (Lucretius) هذه البذور « هوموميريا » (Homoiomeria) (أجزاء متجانسة) – راجع .De rerum natura I, 830 ff

(١٣) الأولى فى Diels و Tannery . ولعلها كانت أول عبارة فى مقالة أناكساجوراس .

(١٤) ليس التمييز بين الهواء والأثير واضحاً جداً . كان أناكساجوراس يدرك أن الهواء جسم وأنه كالبخار نوعاً ما ، وأن الأثير ألطف منه ، يكاد يشبه مادة القبة السماوية الزرقاء اللامعة (empyros) وكلمة أثير مشتقة من الفعل « أيثو » (aitho) أى يضىء أو يحرق أو يلهب . ويظهر أن معظم الكون فى رأيه مؤلف من مادتين : إحداهما لطيفة أو خفيفة والأخرى أشد منها لطافة . وأشكال المادة الأخرى نتيجة لتكاثف غير عادى .

(١٥) يروى بلينى الأكبر (٢–I) فى «تاريخه الطبيعى» (١٤٩ ، II) أن أناكساجوراس استطاع ، لمعرفته بالفلك ، أن يتنبأ أن صخرة سوف تقع من الشمس بعد عدد من الأيام وكان هبوطها

نهاراً . . . . وهذا بالطبع كلام سخيف ، ولكن بلينى يضيف « أن الحجر لا يزال مشاهداً وأنه بحجم شحنة عربة وأنه أسمر اللون »

(qui lapis etiamnunc ostenditur magnitudine vehis, colore adusto)

وهكذا كان هذا الحجر مشاهداً فى أيام بلينى (٢٣ — ٧٩) .

(١٦) ليست الرواية مستبعدة ، ولكنها وصلتنا عن طريق شاهد متأخر ، فيتروفيوس (١ — ٢ ق . م) فى مقدمة الكتاب السابع الذى يبحث فى « التزويق الداخلى » من مؤلفه فى «فن العمارة » . وينسب « فيتروفيوس » مؤلفات رياضية عن قانون الظلال إلى ديمقريطس وأناكساجوراس معاً ، وما يقوله ينطبق على كليهما وينسب اختراع فن التصوير المسرحى إلى « أجاتارخوس » من أبناء جزيرة ساموس (القرن الخامس ق . م) أحد معاصريهما .

(١٧) H.F. Tozer, *History of Ancient Geography*, Cambridge University Press, 1935, p. 63, app. xi.

(١٨) دعاه الناس « نوس » (العقل) تهكماً ، كما يذكر بلوتارك فى النص الوارد أعلاه . وهذا ذو مغزى : فإشارات أناكساجوراس إلى « العقل » بدلا من آلهة المدينة كانت دليلا كافياً على كفره .

(١٩) هذا ما يقترحه ألمستيد فىتاريخ الفرس، A.T. Olmstead *History of Persia*, Chicago University of Chicago Press, 1943, p.328

(٢٠) فى مقالة ابقراط فى الطب القديم (Ancient medicine, I) ، إشارة غريبة إلى مليسوس : « وعندى أن هؤلاء الرجال (الفلاسفة) لضعف إدراكهم يناقضون أنفسهم فى أقوالهم عينها ، ويقرون بذلك نظرية مليسوس » (Ton de Melissu logon rthon) .

(٢١) تخطر للمرء هنا مقارنات مع الآراء الهندية التى يشار إليها عند استعمال كلمتى « مايا » و « أفيديا » ونكتفى بالإلماع إليها . تعنى مايا : الوهم أو عدم الحقيقة (الباطل) ، و أفيديا : الجهل الروحى أو الجهل إذا رافقه عدم الوجود أو الوهم (الذى يتمثل فى مايا) ويستعمل البوذيون والهندوس هاتين اللفظتين .

(٢٢) لا داعى للافتراض أن المذهب الذرى خطر لانبادوكليس أو أنه سمع به أصلا ، فأول الذريين عندنا هو لويكيبوس الذى ننسبه عادة إلى أواسط القرن أو ما بعده (راجع ما يلى) .

(٢٣) إن تبلور التفكير الغربى واليونانى حول الأربعة يزداد غرابة إذا قارناه بالنظريات الصينية الطبيعية التى تدور على الخمسة (راجع : (*Isis* 22, 270 (1934-35) ، والنظريات الهندوسية التى تدور على الثلاثة (tridosa) — (*Isis* 34, 174-177 (1942-43) وهذا التصنيف قد يستخدم كأساس لتأويل ثلاثة نماذج ثقافية كبرى : التثليثية (الهند) والتربيعية (أوربا وآسيا الإسلامية) ، والتخميسية (الشرق الأقصى) .

(٢٤) راجع : "A. Pogo, "Egyptian water clocks — فى *Isis* 25, 403-425 (1936), ill.

وحول الساعات المائية البابلية راجع ص٧٥ . ويروى ديوجنيس اللائرسى (IX, 46) أن بين كتب

ديموكريتوس « الرياضية » كتاباً عنوانه : النزاع بين الساعة المائية (والسماء) وقد فقد هذا الكتاب والعنوان غير واضح .

(٢٥) قامت مناقشات شبيهة بهذه عند الهندوس من مدرسة « نيايا » الفلسفية ، ولا داعى لافتراض أن هذه النظريات ، المحفوظة فى نصوص سنسكريتية ، أثرت فى المفكرين اليونان أو العكس ولاستحالة تأريخ هذه النصوص ، حتى فى إطار بضعة قرون ، يستحيل البرهنة على صحة أى من وجهى المسألة . راجع : D.N. Malik, *Optical theories* (Cambridge, 1917), pp. 1-2.

(٢٦) راجع : I. Bernard Cohen, "Roemer and the first determination of the speed of light, 1676," *Isis* 31, 326-379 (1940), iii.

(٢٧) De sensu, 446A26-B2; De anima, 418B21-23

(٢٨) أصبحت العناصر الأربعة بعد ذلك الكيفيات الأربع . فالأخلاط الأربعة ، فالطبائع الأربع من خلال هذه جميعها تستشف كبرياء بنادوفليس المتزيى بجميع هذه الأزياء — *Isis* 34, 205-208 (1943)

(٢٩) نسبت فكرة التناسخ أيضاً إلى الفيثاغوريين والأورفيين ،ويرجح أنها من أصل شرقى . ومن المحتمل أن تكون « السمسارات » الهندية قد وصلت اليونان عن طريق بلاد الفرس ، وتؤيدها أفكار مماثلة أخذت عن مصر أو مرت بطريقها . Cumont, *Lux Perpetua*, pp. 197-200, 408.

(٣٠) Joseph Bidez, *Biographie d'Empedocle* (176 pp., Gand, 1894)

(٣١) أحسن المراجع العامة فى مذهب الذريين هو كتاب :

Cyril Bailey, *The Greek atomists and Epicuros* (630 pp.; Oxford: Clarendon Press, 1926) [*Isis* 13, 123-125 (1929-30)].

"Uden Chrema maten ginetai, alla panta ec logu te cai hyp'anagces".

(٣٢) النص اليونانى أقرب متناولا : (والترجمة العربية الحرفية : لا يحدث شيء عبثاً بل الكل عن سبب ولضرورة — (المترجم) .

(٣٣) يوجد إنتاج أدبى غزير حول ديموكريتوس ، لأن المناقشات المستمرة حول « الذرية » و « المادية » التى تعود إلى الظهور بين قرن وآخر بشكل جديد تنتهى غالباً إليه . كتب كارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣) مثلا أطروحة فى شبابه عن الخلاف بين ديموكريتوس وابيقور (١٨٤١) ، ومن هنا الاهتمام الروسى العظيم بديموكريتوس — راجع : *Isis* 26, 456-457 (1936)

(٣٤) كانوا يتهكمون على الأبدريين والبوثيين لغباوتهم ، كما يتهكم الفرنسيون اليوم على أهل بونتواز وشارنتون ، والأمريكيون على أهل « بروكلين » و « كلامازو . »

(٣٥) ينسب أناكساجوراس إلى مدرسة ديموكريتوس ، يدل ذلك على أن هذه المدرسة استمرت برهة من الزمن بعد وفاة مؤسسها — وقد رافق الاسكندر فى حملاته الآسيوية ، وبعد وفاته (٣٢٣) أعدم بأمر من ملك سلاميس فى قبرص . وكان يدعى « بالمتفائل » (ho eudaimonicos) وهذا مما يثبت صحة انتسابه لديموكريتوس .

(٣٦) وصلنا ثبت مؤلفاته عن طريق « ديوجنيس اللاثرسى (٩ – ٤٦) وهو يشير إلى أن تقسيمها فى أربعات (tetralogies) من صنع رجل يدعى « تراسيلوس » الذى فعل بآثار أفلاطون مثل ذلك (وقد بقى هذا التقسيم فى أكثر طبعات مؤلفات أفلاطون) . ولعل تلك العادة كانت متصلة بتقاليد المسرح الاثينى القديم ، فقد كان على الروائى أن يتقدم بأربع مسرحيات فى الموسم الواحد : أما أربع مآس أو ثلاث ورواية هزلية satyric .

(٣٧) عقد الصلح مع الفرس سنة ٤٤٩ « كالياس بن هيبونيكوس » ، راجع :

Olmstead, *Histotry of Persia*, p. 332.

(٣٨) راجع : Armand Delatte, *Les conceptions de l'enthousiasme chez les philosophes présocratiques* (79 pp.; Paris : Les Belles Lettres, 1934);

Joseph Bidez, *Eos* (Brussels : Hayez, 1945), pp. 136 ff (*Isis* 37, 185 (1947)

(٣٩) أثبت هذا المثل وما يتلوه كما ورد فى ترجمة : Cyril Bailey, *The Greek atomists and Epicurus*, pp. 187-213 (*Isis* 13, 123, 1929-30)

أورد « بيلى » النص اليونانى أيضاً وطبيعى أن يكون وقعه أفضل من النص الإنجليزى لأن اليونانى هو الأصل بينما الإنجليزى نسخة باهتة .

(٤٠) وهكذا كان معاصراً أسن لأفلاطون الذى تأثر به مع أنه لا يذكره فى كتبه أبداً .

J. Bidez Eos. P. 134.

(٤١) أرسطو – « المتافيزيق » Metaphysica, 985 B 14 : « هذه الفروق عندهم ثلاثة : الشكل (schema) الترتيب (taxis) ، الوضع (thesis) . فهم (أى الذريون) يقولون إن الوجود يختلف فقط فى السباق (rhythmos) أو التماس (diatige) أو الدوران (trope) . وفى هذه الثلاثة : السياق هو الشكل ، والتماس الترتيب ، والدوران الوضع . لأن (أ) تختلف عن (ن) فى الشكل ، (أن) عن (نأ) فى الترتيب و ه عن ه فى الوضع . أما مشكلة الحركة من أين تلحق الأشياء ، وكيف تلحقها ، فقد أهملها هؤلاء المفكرون تكاسلا ، كسواهم » .

(٤٢) Bailey, *The Greek atomists and Epicurus*, p. 185.

(٤٣) راجع بحث « أرثر كيث » (Arthur Berriedale Keith) المسهب لهذه المسألة فى :

Indian logic and atomism. An exposition of the Nyaya and Vaiçesika systems (291 pp.; Oxford, 1921) (*Isis* 4, 535-536 (1921-22)).

(٤٤) نجد لعدد من النظريات اليونانية العلمية والفلسفية مثيلا فى الهند . ومن الممتع جداً أن نقابل بين هذه الأشكال المتشابهة ، وإن كان يعسر أن نثبت تقدم إحداها على الإخرى أو اعتماد إحداها على الأخرى . وهذا التشابه يساعد على التدليل على وحدة التفكير البشرى الأساسية . ولو افترضنا عدداً من المشاكل لا تحتمل إلا عدداً معينا من الحلول ، فليس من الغريب أن يعثر عليها الحكماء فى اليونان والهند أو الصين ، كل بذاته .

(٤٥) وهو يدعى أيضاً « هيرينيوس الجبيلى » : نحوى رومانى عاش فى جبيل من أعمال فينيقيا

فى عهد الأمبراطور ويسباسيانوس (٧٠ – ٧٩) وكتبه مفقودة .

(٤٦) سميراميس ملكة الآشوريين المشهورة فى الأساطير ، ولعلها هى سمورامات ، امرأة شمشى أداد الخامس (٨٢٤ – ٨١٢) .

(٤٧) راجع: Bailey, *The Greek Atomists & Epicurus* pp. 64-65 George Contenau; *Manuel d'archeologie orientale* (Paris, 1927), vol. 1, pp. 316-319. (*Isis* 20, 474-478 (1933-34). Per Collinder, *Historical origin of atomism* (Lund: Observatory, 1938) (*Isis* 32, 448 (1947-49)).

(٤٨) محاورة جورجياس (Gorgias) ، وهى نقد للبيان ، ومحاورة بروتاجوراس (Protagoras) وهى نقد للسوفسطائية . وكلاهما يرقيان إلى عهد نضج أفلاطون .

(٤٩) Pierre Maxime Schuhl, *Essai sur la formation de la pensée grecque* (Paris : Presses Universitaires, 1949), p. 368, (*Isis* 41, 227 (1950)).

(٥٠) هذه هى المرة الأولى التى دونها التاريخ لحرق الكتب ، وذلك سنة ٤١١ ، وهى تشير إلى أنه كان فى أثينا تجارة رائجة للكتب آنذاك . وتكررت هذه « الجريمة » بعد هذا فى بلاد مختلفة ، ويكفى أن نذكر المثلين الشائنين : حرق الكتب بأمر الأمبراطور الأول « شيه هوانك تى » (٢ – III ق . م) وفى الطرف الآخر الحريق الذى أمر به هتلر فى العاشر من مايو سنة ١٩٣٣ .

(٥١) استطعنا أن نكتب « ولادة النحو » ، لأن النحو اليونانى كان على الأرجح أول نحو ولد واكتمل ، ولعل منافسه الوحيد هو النحو السنسكريتى . ولسنا نعرف تاريخ بداية الوعى النحوى فى الهند إلا أن أول نحوى سنسكريتى هو « بانينى » (١ – IV ق . م) الذى عاش قبل قيام أى نحو يونانى . حول نزعة بروتاجوراس النحوية راجع : Gilbert Murray, *Greek Studies*, Oxford Clarendon Press, 1946) pp. 176-178 (*Isis* 38, 3 (1947-48)).

(٥٢) كان أقدم الخطباء العشرة الوارد ذكرهم فى الجدول الاسكندرى . وهؤلاء الخطباء حسب الترتيب التاريخى هم أنتيفون (٤٨٠ – ٤١١) ، ليسياس الأثينى (٤٥٩ – ٣٧٨) ، أندوكيدس (٤٤٠ – بعد ٣٩٠) ، ايسوقراط الأثينى (٤٣٦ – ٣٣٨) ، ايسايوس (٤٢٠ – ٣٤٨) ، هيبريدس (٤٠٠ – ٣٢٢) ، ليكورجوس الأثينى (٣٩٦–٣٢٣) ، ايسخينس (٣٨٩ – ٣١٤) ديموستين (٣٨٥ – ٣٢٢) دينارخوس الكورنثى (٣٦١ – مات متقدماً فى السن) ، وبعض هذه التواريخ تقريبية تستغرق أعمارهم مدة قرنين : الخامس والرابع .

(٥٣) لم يكن انتيفون أول الخطباء ، وأولهم كوراكس الصقلى الذى نبه ذكره فى سراقسة بعد نفى الطاغية ثراسيبولوس سنة ٤٦٧ . وقد ألف أول كتاب عن الخطابة دعاه (Techne) أو الفن) ويشير إليه أرسطو وشيشرون وكونتيليان .

(٥٤) يوشع لوث ليبان (١٩٠٨ – ١٩٤٨) حبر يهودى أمريكى ألف كتاباً اكتسح الأسواق عنوانه « طمأنينة الفكر » (Peace of mind)

New York, Simon and Schuster, 1946.

(٥٥) *Hocacodaimon Socrates* (*Clouds*, 104) . وسقراط هو أحد الأشخاص فى تلك المسرحية .

(٥٦) *Meteorosophistes*; (*Clousds*, 360)

(٥٧) George Sarton, *Portraits of ancient men of science* (Uppsala : Lychnos, 1945), p. 254.

(٥٨) راجع مقتطفات « فيدون » Phaidon المثبتة فيما بعد .

(٥٩) يمكننا أن نعتمد على المحاورات الأولى فقط . فى المحاورات اللاحقة يدخل أفلاطون سقراط كلسان حاله فقط . وكما شرحنا فى الفصل السادس عشر كان ذلك خيانة حقيقية .

(٦٠) أكسينوفان: Memorabilia I, I, 10-17 ترجمة

Edgar Cardew Marchant, Loeb Classical Library (1923), p. 7.

(٦١) إذا أردت أمثلة أخرى فراجع: A.J. Festugiére, "Trois rencontres entre la Grèce et l'Inde", *Revue de l'histoire des religions* 125, 32-57 (1942)

(٦٢) أفلاطون : *Alcibiades* I, 138 c.

(٦٣) Bidez, *Bos*, p. 122.

(٦٤) *Memorabilia*, III, XI.

(٦٥) يشرح س . ا . هاياكاوا (S.I. Hayakawa) وجهة النظر الخاصة بعلم المعانى (semantics) شرحاً بديعاً فى كتابه : *Language in action. A guide to accurate thinking, reading, and writing* (250 pp.; New York: Harcourt Brace, 1941) (*Isis* 34, 84 (1942-43). ولو عرف سقراط هذا الكتاب لشغف به .

(٦٦) على هامش ذلك ، من الطريف أن نتأمل فى عقيدة سقراط فى شيطانه (to daimonion) الذى كان يشير عليه — أو كما قد نقول اليوم الإلهام الإلهى الذى كان يقع إليه ، فكان صاحب عقيدة ومن المتحمسين لها . وينبغى أن نأخذ كذلك بعين الاعتبار إيمانه بالكهانة (mantice) الذى كان يشارك فيه عامة القدماء ، إلا أن ذلك قد يخرج بنا عن البحث كثيراً .

(٦٧) كان أنيتوس أهم متهمى سقراط الثلاثة وألد أعداء السوفسطائيين وكان الدور الذى لعبه فى طرد « الطغاة الثلاثين » قد زاد فى نفوذه ، ويدعو هوراس سقراط غريم أنيتوس «
"Anyti reus" (*Satirae*, II, IV, 3)

(٦٨) راجع : أفلاطون — دفاع سقراط (٣٠ أ) . *Apology of Socrates* (30 A) ترجمة Harold North Fowler (Loeb Classical Library).

(٦٩) « تياجيس (أو فى الحكمة : فن التوليد) ليست من تأليف أفلاطون ، وإنما كتبت متأخرة نوعاً (حوالى القرن الثانى قبل المسيح) ، إلا أنها وصلت إلى مكتبة الإسكندرية وأدرجت فى أقدم جدول لكتب أفلاطون من تصنيف المنجم تراسيللوس الإسكندرى (توفى سنة ٣٦ ميلادية) ، ومن ثم فى عدد من طبعات كتب أفلاطون (استفانوس ، ص ١٢١ — ١٣١ ، لويب Loeb مجلد ٨)

(٧٠) كان الحكم على سقراط فى أغلب الظن سياسياً . فلدى انتهاء حرب البيلوبونيز اتهم بتعليم الناس الذين جنحوا عن الديمقراطية وتآمروا مع العدو لكى يقوضوا أركان أثينا . ويكفى أن نذكر أسماء الحكام الخونة : الكيبياديس وكريتياس وخارميديس وجميعهم من تلامذته . ويزعم Popper أن سقراط لم يخلف سوى خليفة واحد جدير بالاكبار هو « انتستناس » ، راجع :

K.P. Popper, *The open society*, (London : Routledge, 1945), vol. 1, p. 168, 171.

وإذا أردت بحثاً قانونياً فى محاكمة سقراط . راجع : Sir John Macdonell, *Historical trials* (Oxford, 1927), pp. 1-18.

(٧١) هل يمكن أن نتصور أن أحداً من الدكتاتوريين المحدثين يبدى مثل هذه الشهامة نحو ضحاياه ؟ إنه لا شك فاعل عكس ذلك : « زاجاً بهم فى السجن المنفرد (الزنزانة) وموقعاً بهم ضروب العذاب والاستجواب » . وهذا يدل على مدى تقدمنا منذ سنة ٣٩٩ ق . م !

(٧٢) يدور حول محاكمة سقراط وموته أربع محاورات أفلاطونية أوطيفرون (Euthyphron) (فى القداسة) ، الدفاع (Apology) (الذود عن سقراط عند محاكمته) . أقريطون (Criton) و « فيدون » . (Phaidon)

(٧٣) ترجمة (Harold North Fowler) مأخوذة من طبعة لويب (Loeb) لكتب أفلاطون ، مجلد ١ ، ص ٣٩٥ — ٤٠٣ .

(استعنت فى نقل هذه الفقرة بترجمة زكى نجيب محمود لفيدون — فى « محاورات أفلاطون » ، مصر ١٩٤٥ ، ص ٢٩٨ — ٣٠٢ — المترجم) .

(٧٤) تلك الفقرة الأخيرة من « المذكرات ، Memorabilia كما ترد فى ص ٣٥٧ من ترجمة . E.C. Marchant (Loeb Classical Library, 1923, p. 347)

(٧٥) يعود الفضل فى نشر هذه الملاحظات إلى صديقى Dr. Chauncey D. Leake عالم صيدلى وعميد كلية الطب ، جامعة تكساس ، Galveston (عن رسالته المؤرخة ٢٢ أكتوبر ١٩٤٥) .

(٧٦) Percy Gardner, *Sculptured tombs of Hellas* (٢٧٨ صفحة و ٣٠ لوحة ، لندن ١٨٩٦) . Maxime Colignon, *Les statues funéraires dans l'art grec.* (٤١٢ صفحة ، بالرسوم ، باريس ١٩١١) . Alexander Conze, 1831-1914), *Die attischen Grabreliefs* أربعة مجلدات وأطلس ، برلين ١٨٩٣ — ١٩٢٢ . المجلدان الأولان سهلا القراءة جداً ومليئان بوصف مفصل للمقابر اليونانية عامة . أما مؤلف Conze فهو موسوعة للتوابيت اليونانية المنحوتة . ولسد حاجة القارئ يكفى أن يطالع الفصول المتعلقة بالموضوع فى كتاب Gardner أو Collignon

(٧٧) ليس كيبس هذا هو مؤلف لوحة بيناكس Tablet Pinax الرامزة إلى الحياة البشرية ، كما كان يعتقد سابقاً ، فقد كتب هذه اللوحة سمى له عاش بعده بزمن طويل وكان مطلعاً على تعاليم المشائين والرواقيين والفيثاغوريين. وكان لوسيان الساموسى أول من أشار إلى البيناكس واعتقد أنها قديمة مع أنها على الراجح لم تكن أقدم من زمنه بكثير .

(٧٨) Olmstead, *History of Persia* ص ٤٤٦ .

(٧٩) *Ho columenos hypo ton sophiston cosmos, Memorabilia,* quoted above

(٨٠) يرتكز التراث الكنفوشى على الروائع الخمس ، (ووتشنغ) والكتب الأربعة ، (سسوشو) . (تشير الأرقام الموضوعة بين هلالين فى اللائحة التى تلى صفحات « مقدمتى » ، المجلد ٣ ، حيث يجد القارئ ذكر الأشخاص الصينيين وكذلك إشارات إلى صفحات المقدمة حيث يجد المرء معلومات أوفى عن كل منهم) . الروائع الخمس هى : ١ . أى تشنغ أو كتاب التغيرات (٢١١٧) — ٢ . شو تشنغ أو كتاب التاريخ (٢١٢٩) ؛ ٣ — شيه تشنغ أوكتاب الشعر (٢١٢٨) ؛ ٤ — لى تشى أو سجل الطقوس (٢١٢١) — ٥ . تشؤن تشئيو أو الربيع والخريف (٢١١٠) . أما الكتب الأربعة فهى التالية : ١ . تاهسويه ، العلم الأكبر (٢١٣١) — ٢ . تشونغ يونغ ، نظرية الوسيلة (٢١١٠) — ٣ . لون يو ، مقتطفات الكنفوشية (٢١٢٣) — ٤ . منغ تسو ، منسيوس (٢١٢٣) . التاهسويه والشونغ يونغ هى أجزاء من اللى تشى . وقد طبعتا معها فى طبعة المجلدات ٢٧ — ٢٨ . *Sacred books of the East,* Legge توجد نشرة صينية — لاتينية فرنسية لهذين الكتابين من صنع Oxford 1885 Seraphin Couvreur, *Les quatre livres* (Ho Kien Fou: Mission Catholique, 1910).

(٨١) إن القصة الشعبية التى يرتكز عليها كتاب أيوب أقدم جداً ، أى إن أيوب قد يكون أقدم بألف سنة من « كتاب أيوب » .

(٨٢) الأدوميون أو الأيدوميون هم سلالة عيسو أو أدوم أخى يعقوب ، وهم قبيلة عبرانية مستقلة رحالة ، وثقافتها أدنى مستوى من الاسرائيليين ، وأرض أدوم جنوب البحر الميت .

(٨٣) ثمة أيوب « بابلى » — راجع عنه Robert William Rogers (1864-1930) *Cuneiform parallels to the Old Testament* (New York, 1912), pp. 164-169.

(٨٤) فى دراستى له استعنت كثيراً بكتاب : Robert H. Pfeiffer, *Introduction to the Old Testament* (New York : Harper, 1941), pp. 660-707 (*Isis* 34, 38 (1942-42)). وهو تحليل واف يشتمل على ثبت كامل بالمراجع .

(٨٥) يعالج Pfeiffer هذه القضية فى استقصاء (ص ٦٦٧ — ٦٧٥) . يحتوى كتاب أيوب على بعض المتناقضات التى قد تكون ناجمة عن التشويش فى الترتيب أو الحذف أو دس فصول مزيفة . مثلا يميل النقاد المحدثون إلى اعتبار القصيدة الرائعة فى الحكمة الإلهية (فصل ٢٨ : ٤٢) من هذا النوع . وليس فى وسعنا أن نتعمق فى هذا وينبغى أن نأخذ الكتاب على علاته مفترضين صحته كاملا .

(٨٦) لا أعرف العبرانية جيداً بحيث أتمكن من تذوق الأسلوب الأصلى ، لذلك أبنى أحكامى على الترجمات الإنجليزية . تأمل عبارات كهذه « أما أنا فقد علمت أن وليى حى (١٩:٢٥) ولا يرى هدب الصبح (٩ : ٣) ، « عندما رنمت كواكب الصبح معا وهتف جميع بنى الله (٧ : ٣٨ » . يستعمل المؤلف أغنى مجموعة مفردات نجدها عند أى مؤلف عبرانى آخر ، فيكون بحكم ذلك كما يقول بفايفر (Pfeiffer) شكسبير العهد القديم . ولم يتوافر لأى شاعر من شعراء العهد القديم مثل إساغته لجمال الطبيعة .

الفصل الحادى عشر

الرياضة والفلك والتكنولوجيا
فى القرن الخامس

لعل من الخير أن نقسم هذا الفصل إلى ثلاثة أجزاء : جزء للرياضة ، وجزء للفلك ، وثالث للتكنولوجيا ، على الرغم من أن هذا التقسيم قد يضطرنا للعودة إلى الشخصيات نفسها مرتين أو ثلاثاً .

الرياضة :

زينون الإيلى

إن دارسى الصورة الأولى للرياضيات عند اليونان لتتملكهم الدهشة على الدوام من حقيقتين متكاملتين (أو متناقضتين) وهما : إهمال الحساب البسيط ، والعمق النادر فى التفكير الرياضى . فالفيثاغوريون الأول لم يعنوا بالعمليات الحسابية العادية ، فى حين كانت آراؤهم الهندسية تعتمد إلى حد كبير على خصائص الأعداد . فالنقطة عندهم مجرد وحدة ذات وضع ؛ وأى شكل هندسى ، ابتداء من الخط المستقيم ، يمكن تصوره وتمثيله مؤلفاً من نقط عديدة . فيثير هذا التصور الذهنى مشكلة الاتصال ومشكلة قابلية التقسيم إلى ما لا نهاية ؛ وبعبارة أدق ، أثار ذلك التصور هاتين المشكلتين فى أذهان اليونان ، لأن تلك الأذهان كانت متهيئة للمناقشة الفلسفية . ولدينا شواهد كثيرة على النبوغ اليونانى ، ولكن لا يوجد شاهد أقوى وأشد إثارة للدهشة من التفكير الرياضى فى ذلك العصر . وقد كانت حوافزه مشكلات منطقية لا يكاد الرجل العادى فى أيامنا هذه (بعد خمسة وعشرين قرناً) يلاحظها . ويظن لأول وهلة أن أذكى الناس أسرعهم إدراكاً ، ولكن سرعان ما يعدل عن ذلك إلى عكسه

تقريباً . والحمق هم الذين يفهمون سريعاً ، أو يعتقدون ذلك، لأنهم لايقدرون على تخيل المصاعب ، ومن ثم لا يجدون أمامهم حواجز يقفزون فوقها . إن البون الشاسع بين المستوى الرياضي عند قدماء المصريين والبابليين من جهة ، وعند اليونان من جهة أخرى ، قوامه أن أولئك لم يفكروا حتى فى بعض المصاعب التى كان اليونان قد بدأوا فعلا فى مكافحتها .

ولعلنا نتذكر أن زينون زار أثينا مع أستاذه بارمينيديس (Parmenides) حوالى منتصف القرن . ولربما التقى إبان إقامته فيها برياضيين، مثل أبقراط ، كانوا إذ ذاك يحاولون حبك الآراء الهندسية فى نظام دقيق. وبما أن زينون كان. بنزعته الأولى فيلسوفاً ومنطقيا فإنه أدرك وجود مصاعب فكرية لم تكن لتخطر أبداً فى ذهن الرياضيين الفنيين ، الممارسين ، (وحتى الرياضيين اليونانيين) ! . كان هؤلاء يعتبرون الخط المستقيم مؤلفاً من نقط . فكيف نستطيع أن نوفق بين تلك الفكرة واتصال الخط المستقيم ؟ ليس المستقيم بسلسلة من نقط أو ، بعبارة أخرى ، بسلسلة من ثقوب . إنه كل متصل . فإليك ما يمكن أن يقوله الرياضى الفنى : إن فى إمكانك أن تقرب النقط كلا من الأخرى وأن تصغر الثقوب حسبما تشاء ، وإذا كان البعد بين نقطتين أكبر مما يرضيك فما عليك إلا أن تقسمه إلى ألف أو مليون قسم، وأن تتصور وجود نقط أخرى فى كل من هذه الأقسام . أما عالم المنطق فيمكن أن يعترض على هذا ويقول : إن المسافة بالذات بين أى نقطتين لا تؤثر فى جوهر النقاش ؛ إذ مهما صغرت تلك المسافة فإن النقطتين تبقيان منفصلتين ومختلفتين عن المستقيم أو الفراغ الذى يصل بينهما . وثمة أيضاً مصاعب مماثلة تعترض سبيل تقسيم الزمان، فهل نعتبره متصلا أو منفصلا ؟ وتعترض سبيل تقسيم الحركة (وهى انتقال جسم ما من موضع معين إلى موضع آخر فى زمن معين) . لقد عرفنا النتائج الخادعة التى أفضت إليها تأملات زينون فى مثل هذه الأحاجى من كتاب الطبيعة لأرسطو[١] ، وهو الذى دعا تلك النتائج بالمغالطات مع أنه لم يتمكن من دحضها : وعرفنا بعضها أيضاً من شرح سمبليكيوس (١—٧١) (Simplicios) على أرسطو، وإنها لتأملات

تغوص فى أعماق الفكر ، ذلك لأنها شغلت أذهان الفلاسفة والرياضيين إلى يومنا هذا. وبما أن تلك المسائل عويصة جدا فإن سردها كاملة على التدقيق يتطلب مجالا فسيحاً. فعلينا أن نكتفى هنا بالإشارة إلى طبيعتها العامة. وإذا اتبعنا نموذج كاجورى (Cajori) فإننا سندعو حجج زينون الأربع ضد الحركة ، بالأسماء الآتية : « القسمة الثنائية »، و « أخيل »، و « السهم »، و « الملعب »، وسنوجزها كما يفعل كاجورى :

١ — « القسمة الثنائية » : إنك لا تستطيع أن تمر بعدد لا متناه من النقط فى زمن محدود. فعليك أن تقطع نصف أية مسافة معينة قبل أن تقطع المسافة كلها ، وعليك أيضاً أن تقطع نصف هذا النصف قبل أن تقطعها .ويستمر هذا التقسيم إلى ما لا نهاية (إن كان الفراغ مؤلفاً من نقط) بحيث يفضى إلى عدد لا متناه فى فراغ معين فلا يمكن اجتيازه فى زمن محدود .

٢ — « أخيل » : وهى الحجة الثانية ، والمشهورة بأحجية أخيل والسلحفاة . وفيها ينبغى أن يصل أخيل أولا إلى الموضع الذى انطلقت منه السلحفاة . وفى أثناء ذلك تكون السلحفاة قد تقدمت قليلا من موضعها الأول . فعلى أخيل إذن أن يقطع المسافة الأولى التى قطعتها السلحفاة ، ولكن فى خلال ذلك تكون السلحفاة قد قطعت مسافة قليلة ولا تزال متقدمة عليه ؛ إن أخيل يقترب دائماً من السلحفاة أكثر فأكثر ولكنه لن يلحق بها .

٣ — « السهم » الحجة الثالثة ضد إمكان حدوث الحركة فى فراغ مؤلف من نقط هى أن سهماً ما ، بناء على هذا الفرض ، فى أية لحظة معينة إبان تحليقه لابد أن يكون ساكناً فى نقطة معينة من الفراغ .

٤ — « الملعب » : تصور ثلاثة صفوف متوازية من نقط متحاذية :

الشكل (١)		الشكل (٢)	
(ا)	....	(ا) →	....
(ب)	....	(ب)	....
(ج)	....	(ج) ←	....

إن (ب) وهو أحد هذه الصفوف غير قابل للحركة بينا يتحرك الصفان (ا) و (ج) فى اتجاهين متعاكسين وبسرعتين متساويتين بحيث تنتظم النقط فى الصفوف كما هو ممثل فى الشكل (٢) . إن سرعة النقط فى (ج) بالنسبة إلى سرعتها فى (ا) تساوى مثل سرعتها بالنسبة إلى (ب) ، وبعبارة أخرى إن أية نقطة فى (ج) تكون قد مرت بعدد من النقط فى (ا) يساوى مثل عدد النقط التى مرت بها فى (ب) . ولذلك لا يمكن أن يكون ثمة تناظر بين لحظة زمنية والانتقال فى الفراغ من نقطة إلى أخرى[٢] .

إن الحجج الأربع التى ذكرناها كانت فيما يبدو موجهة ضد العقيدة التى أقرها أكثر الناس فى ذلك العصر (وفى جملتهم الفيثاغوريون وأنبادوكليس) (Empedocles) والتى لا يزال يؤمن بها أكثر الناس فى عصرنا هذا ؛ وهى العقيدة التى تعتبر الفراغ حاصل جمع من النقط ، والزمان حاصل جمع من اللحظات. ولقد قدم زينون الحجج على أن حدوث الحركة على أساس الكثرة غير قابل للتصور .

ديموكريتوس الأبديرى

ولد ديموكريتوس بعد مولد زينون بنحو ثلاثين عاماً . وإن تاريخى مولده ووفاته ليسا ثابتين ، ولكننا لا نخطىء كثيراً إذا قلنا : حوالى عام ٤٦٠ ق.م. وعام ٣٧٠ ق. م. ولا يستنتج من هذا أن افتراضات ديموكريتوس الرياضية كانت أحدث عهداً من افتراضات زينون ، أو أن ديموكريتوس كان على علم بأحاجيه . ومهما يكن من أمر هذا فإنه حين بدأ الإنسان يفكر على التدقيق فى مشكلة الاتصال ومشكلة اللانهاية ، لم يكن ثمة مفر من تلك الأحاجى أو مما هو على شاكلتها ، واليونانيون — لا واحد منهم فحسب بل كثيرون — كانوا يفعلون ذلك بالذات . وقد ورد فى قائمة مؤلفات ديموكريتوس التى نشرها ديوجنيس اللائرسى (Diogenes Laertios) (١ — III) ذكر خمس وسائل فى الرياضيات : الأولى فى تماس الدائرة والكرة ، والثانية والثالثة فى الهندسة ،

والرابعة فى الأعداد ، والخامسة فى الأعداد اللامنطقية . وسوف نعود عما قريب إلى الرسالة الأخيرة حين نبحث فى ذلك الموضوع . على أن عناوين الرسائل من الثانية إلى الرابعة غامضة جداً ، فلافائدة ترجى منها . أما الرسالة الأولى ، فإذا افترضنا أن العنوان يعنى التماس بين كرة ما ومستوى مماس لها ، فإننا مسوقون إلى اعتبار زاوية لا متناهية فى الصغر . وإذا اعتبرنا القضية الأبسط من تلك ، (وهذا ما فعله ديموكريتوس على الراجح) وهى الزاوية بين دائرة ما ومماس لها ، فإن المصاعب الكامنة تعرض على عجل . أولا : كان تعريف المماس أمراً ضرورياً ، غير أن ذهن ديموكريتوس كان حاداً بالقدر الكافى كى يدرك أن للمماس وللدائرة نقطة وحيدة مشتركة فيما بينهما ؛ ولو أن هذا لم يكن فى الإمكان توضيحه بأية محاولة بالرسم . ثم لابد من اعتبار الزاوية ، فهذه كان ينبغى أن تكون صغيرة جداً ، وذلك لأنه إذا أدير المماس حول نقطة تماسه دوراناً طفيفاً جداً ، تشارك مع الدائرة فى نقطة ثانية ولم يعد بعد ذلك مماساً .

أغفل أفلاطون ذكر ديموكريتوس ، فى حين أن أرسطو تحدث بحماسة ، بالغة عن آرائه فى التغير والنمو . وأشار أرشيميدس بعد ذلك إلى أعظم كشوف ديموكريتوس الرياضية وهو : أن حجم مخروط ما يساوى ثلث حجم الأسطوانة التى تشاركه فى القاعدة والارتفاع ، وأن حجم هرم ما يساوى ثلث حجم المنشور الذى يشاركه فى القاعدة والارتفاع ، ثم أردف قائلا : إن ديموكريتوس لم يقدم برهانين على صحة نظريتيه بل قدمهما يودوكسوس[٣] (Eudoxos) فيما بعد . فكيف كشف ديموكريتوس هاتين النظريتين ؟ لقد استعمل على الراجح طريقة فجة وحدسية ، فقسم الهرم (أو المخروط) إلى شرائح متوازية . وسوف نعود إلى ذلك عندما نبحث فى كشف يودوكسوس لطريقة الاستقصاء (Method of Exhaustion) واستعماله إياها .

وينسب فيتروفيوس (Vitruvius) تطبيق بواكير فن المنظور على تصميم المناظر المسرحية إلى ديموكريتوس وإلى كل من أجاتارخوس (Agatharchos)

وأنا كساجوراس (Anaxagoras) . وهذه نسب محتملة ، ولكن لم يقم الدليل على صحتها . ومن المؤكد أنه كانت هناك مشاكل منظورية كان لابد لمخرجى المناظر من حلها . غير أن إيجاد حلول صحيحة يمكن أن يتم على نحو تجريبى .

هيبوكراتيس أو أبقراط الخيوسى

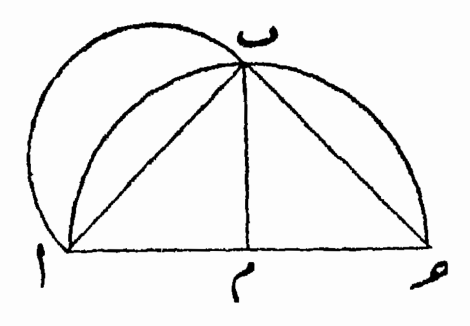
ولنأت الآن إلى أعظم الرياضيين فى القرن الخامس ، وهو أول رجل أسبغ الشهرة على اسم أبقراط . فكل مثقف تقريباً يألف ذلك الاسم ، وإن كان يثير فى ذهنه ذكرى رجل آخر هو أبو الطب ، أبقراط الكوسى (Hippocrates of Cos) . إن اسم أبقراط ليس بنادر فى بلاد اليونان[٤] ، ومما يسترعى النظر أن ألمع اثنين من حملة هذا الاسم كانا متعاصرين ونشأ فى مجموعة الجزر نفسها وهى سبوراديس (Sporades) القريبة من شاطئ آسيا الصغرى . وقد ولد الرياضى ، الذى كان أكبر سناً ، بخيوس وازدهر بأثينا فى الربع الثالث من القرن الخامس . أما الطبيب فكان من رجال الجيل التالى إذ كان لا يزال صبياً حين اكتمل نضج الرياضى ، وكان لا يزال يعمل عند دورة القرن . نشأ فى جزيرة كوس إحدى جزر سبوراديس الجنوبية التى تدعى أيضاً جزر الدوديكانيز (Dodecanese)[٥]. وسوف نخصص له فى باب آخر كل المكان الذى هو جدير به حقاً ، ولكن كان لزاماً علينا أن نعرفه للقارئ هنا وأن نضعه لحظة ما قرب معاصره الأكبر سناً . وإنى لآمل كثيراً أن يتذكر قارئو هذا الكتاب أن هناك أبقراطين كانت أعمالهما الجيدة بارزة على حد سواء ، ولكنها مختلفة جداً فلا يمكن المقارنة بينهما . ومن المؤكد أنا لا نستطيع القول بأن الثانى كان رجلا أعظم من الأول ، وإن كان أكثر الناس يذكرونه وحده ، وأما الأكبر سناً فيكاد يكون منسياً . ولكن لا علينا !

كان السبب فى مجئ أبقراط إلى أثينا حوالى منتصف القرن ، حسبما يروى ، هو ضياع ممتلكاته ، وسعيه من أجل استردادها . فنى إحدى الروايات كان أبقراط تاجراً وقد أسر القرصان سفينته ، وفى رواية أخرى (رواها أرسطو)[٦]

كان عالماً فى الهندسة وقد سلبه جباة المكس فى بيزنطة كثيراً من المال « بسبب غفلته » . لا ريب فى أن الناس كثيراً ما اتهموا الرياضيين (من طاليس إلى بوانكاريه (Poincaré) بأنهم ليسوا من أصحاب الكفاية فى معالجة أمور الحياة العادية ، وهذه قصص ممتعة من نواح أخرى ، لأنها تساعدنا على أن ندرك وجود جوانب أخرى للحياة اليونانية : فثمة التجار والقرصان ، وجباة المكس الأشرار . والظاهر أن أبقراط كان فى بادئ الأمر تاجراً كما كان رياضياً ولم يكن هذا التآلف مستهجناً فى المجتمع اليونانى . وقد تفرغ للرياضيات بعد أن فقد ما ملكت يداه فكان من أوائل الذين علموا لقاء أجر من المال ، ولم لا يكون قد أصاب من الأجر بقدر ما أصاب السوفسطائيون ، فهو نفسه يمكن أن يدعى سوفسطائياً ، مع أنه تخصص فى ميدان الرياضيات .

قبل أن نشرح عمله ، ينبغى أن نذكر قصة أخرى ذات طابع مميز للجو العقلى فى ذلك العهد . فقد شغلت أذهان الرياضيين الأثينيين حينذاك ثلاث مسائل شهيرة : الأولى تربيع الدائرة ، والثانية تثبيت الزاوية ، والثالثة مضاعفة المكعب . فكيف ظهرت هذه المسائل الثلاث ؟ إن الأولى قديمة جداً ، وكان من المستحيل أن يعرف الرياضيون حتى ذلك العهد إيجاد حل صحيح لها . أما الاثنتان الأخريان فإن ظهورهما ليس طبيعياً كما هى الحال فى المسألة الأولى . وهناك أسطورتان عن مصدر المسألة الثالثة رواهما إراتوستنيس (Eratosthenes) وتحدث بهما الرواة فيما بعد ، وسنكتفى بسرد واحدة منهما . حينما كان أهل ديلوس (Delos) يعانون من وطأة انتشار الطاعون فيما بينهم ، أمرتهم كاهنة دلفى بأن يضاعفوا حجم معبد معين كان مكعب الشكل ؛ ولذا دعيت تلك المسألة بالمسألة الديلية . وهذه أسطورة تقوم الدلائل كلها على أنها حادث سابق مختلق ، وبقدر ما أعلم ، لم يكن هناك أبداً معبد مكعب الشكل لا فى ديلوس ولا فى أى مكان آخر (٧). وثمة تفسير أبسط ، فلعل بعض الرياضيين رغب فى أن يصوغ مسألة معينة فى الهندسة المستوية صياغة عامة . فلمضاعفة مربع ما ، يكفى أن ننشئ على قطره مربعاً جديداً . فهل كان فى الإمكان

إيجاد صيغة مشابهة للمكعب ؟ إنها لم تكن مسألة سهلة بقدر ما بدت . وإن بروز هذه المسائل الثلاث من بين عدد لا متناه من مسائل أخرى ، لبرهان جديد على العبقرية الإغريقية ، فهى كلها تضم إلى بساطتها الظاهرة مصاعب خفية من الطراز الأعلى[٨] . إنها غير قابلة للحل إلا على وجه التقريب ؛ ولا يمكن حل الثانية والثالثة بالطرق الهندسية البسيطة . أى باستعمال المسطرة والبرجل (البركار) ؛ ومع هذا كله فقد أوجد الرياضيون اليونانيون فى القرن الخامس حلولا نظرية لتلك المسائل .



شكل ٦٣ – هلاليات أبقراط الخيوسى

لم يعالج أبقراط المسألة الثانية ، ولكنا مدينون له لتقديمه حلولا غير تامة للمسألتين الأخريين . وقد قادته محاولاته لتربيع الدائرة إلى كشف بعض الهلاليات التى يمكن أن تربع ؛ ومن الغريب حقًّا أنه كشف ثلاثة من أنواع الهلاليات الخمسة التى يمكن أن تربع بطريقة بسيطة . فكان كشفه مثيراً للحماسة كل الإثارة ، ذلك لأنه أثبت أن بعض الأشكال المنحنية على الأقل كان قابلا للتربيع .

وإليك المثال الأبسط من هلاليات أبقراط . اعتبر نصف المربع ا ب ح المحاط بنصف الدائرة التى مركزها (م) (الشكل ٦٣) . ولنرسم نصف دائرة قطرها ا ب . إن النسبة بين مساحتى نصفى دائرتين هى كالنسبة بين مربعى قطريهما . ثم إن $\overline{\text{اح}}^{2}$ ، ٢ $\overline{\text{اب}}^{2}$. إذن نصف الدائرة الكبرى يساوى نصف

الدائرة الصغرى . اطرح القطعة المشتركة بين المساحتين تجد أن المساحتين الباقيتين ، أى مساحة الهلالى ومساحة المثلث ا ب م ، متساويتان .

هذه قضية بسيطة ، ولكنها تتضمن معرفة النظرية الهندسية القائلة بأن النسبة بين مساحتى دائرتين كالنسبة بين مربعى قطريهما[٩] ، وإذا وجد أبقراط مساحة ذلك الهلالى وجب أن نفترض أنه عرف تلك النظرية . ولربما كانت معرفته بها بديهية ، وعند أوديموس أن أبقراط قد أثبت النظرية ، ولكن إن صح هذا الرأى ، فإننا لا نعلم كيف أقام البرهان .

إن رسالة أبقراط فى تربيع الهلاليات لفى غاية الأهمية من ناحية أخرى : إنها الشذرة الوحيدة من الرياضيات الهللينية (أى قبل العهد الإسكندرى) التى نقلت إلينا كاملة ، ولكن النقلة كانت بطيئة[١٠] وغير مباشرة . فهذا يوضح لنا مرة أخرى كم يصعب الحصول على معرفة الحقائق عن علم الرياضة الأول عند اليونان، وكم يجب أن يكون المؤرخ حصيفاً .

إن حل أبقراط[١١] للمسألة الثالثة ، وهى مضاعفة المكعب ، ممتع كالسابق على السواء وذلك بمايتضمنه ، لأنه يبين أن أبقراط كان ذا فهم واضح فى النسب المركبة . وقد استخرجت تلك المعرفة من خصائص الأعداد ثم طبقت بطريقة الحدس على المستقيمات .

إذا كان طول ضلع المكعب المعطى يساوى ا ، فإن المسألة تتطلب تعيين س بحيث يكون $س^٣ = ٢ ا^٣$. وتحل بإيجاد وسطين متناسبين فى تناسب مستمر بين الطول ا والطول ٢ ا : $\frac{ا}{س} = \frac{}{ص} = \frac{ص}{٢ا}$ ، فيستنتج من هذا أن $س^٢ = ا ص$ ، $ص^٢ = ٢ ا س$ ؛ إذن $س^٤ = ٢ ا^٣ س$ أو $س^٣ = ٢ ا^٣$.

وما إن أقبل منتصف القرن الخامس حتى كان عدد كبير من النظريات الهندسية قد قرر ، وعدد كبير من المسائل قد حل ، فقضت الضرورة الملحة بوضع هذه النتائج التى سبق تقريرها جميعها فى ترتيب منطقى قويم . على أن هذا لم يتطلب تصنيفها فحسب ، بل تطلب ما هو أهم من ذلك ألا وهو تدعيم

البراهين وتقويتها . ففي كثير من الحالات (كما أوضحنا فيما تقدم بشأن النظرية التي أوردها إقليدس) كانت المعرفة حدسية ، أو كان البرهان ، إن وجد ، قد أخفق في إيجاد سبيله إلى الانتشار .

إذا وضعت كل مادة في موضعها المنطقي ، كشف عن وجود الثغرات . وأصبح ما يمكن بناؤه من الصرح الهندسي أقوى ، وزادت الدقة في معرفة المرء بما ينبغي أن يعمل كي يرقى بهذا الصرح أكثر فأكثر نحو التمام والكمال المنطقي . ويبدو أن أبقراط كان أحد الأوائل الذين حاولوا القيام بتلك المهمة ، أي إنه كان الرائد الأول لإقليدس ، لا كمكتشف لنظريات منفردة فحسب ، بل كبناء في إقامة الصرح الهندسي الذي سمي فيما بعد « الأصول » .

وإذا كان النص الأبقراطي الذي نقله إلينا سمبليكيوس بخصوص تربيع الهلاليات هو حقيقة كما كتبه أبقراط ، فإنه أول رياضي ، حسبما نعلم ، استعمل حروف الهجاء في الأشكال الهندسية ، فجعل وصف هذه الأشكال بغير غموض أمراً ممكناً . وهكذا جرى العرف في كتابة المخطوطات في سهولة ويسر ، ذلك لأنه يمكن حذف الأشكال التي يصعب رسمها بإتقان . فهي ليست ضرورية ، لأن القارئ يستطيع أن يعيد إنشاءها بسهولة على أساس النص . ولسنا نستغرب حين نجد أن استعمال الحروف عند أبقراط لم يكن إذ ذاك واضحاً ويسيراً ، كما كانت الحال عند إقليدس ، غير أنها كانت بداية هامة كل الأهمية ، وتكاد تكون ضرورية لتقدم الرياضيات في المستقبل .

فبينما يكتب أبقراط « المستقيم الذي يقع عليه ا ب » أو « النقطة التي تقع عليها ك » يكتب إقليدس ببساطة وإيجاز ، ونحن أنفسنا كذلك : « المستقيم ا ب » و « النقطة ك » . كثيراً ما ترد فروق كهذه في تاريخ التعبير الرياضي بالرموز (الرمزيات الرياضية) . ويمكننا أن نقول بصورة أعم ، في تاريخ العلم . وقلما يتمكن المبتكر من التعبير عن ابتكاره بالشكل الأبسط ، فيقوم رجل آخر أو رجال عديدون ، أقل ذكاء ، ولكن أكثر ممارسة من المبتكر نفسه ، بإتمام الابتكار . ولعل ابتكار أبقراط ، على سبيل المثال ، قد اكتمل بأيدي بعض

المعلمين ، أو حتى بعض الطلبة الذين يؤثرون كتابة العبارة الموجزة : « المستقيم ا ب » بعامل الكسل المحض .

وإذا كان أبقراط قد كتب بالفعل أول كتاب فى الهندسة ، وهذا الأمر ليس ممكناً فحسب بل هو ظاهر الاحتمال ، فقد اضطر إلى إحكام البراهين ، ويمكننا أن نصدق قول بروكلوس Proclos بأنه ابتكر طريقة التنسيق الهندسى ، (Apagoge) وهى الانتقال من قضية أو نظرية إلى أخرى حيث يعتمد فى حل القضية اللاحقة على حل القضية السابقة . وسوف نبحث فى ذلك فيما بعد .

كانت أعمال أبقراط الخيوسى جديرة بالاعتبار ، فهى جليلة حقاً ويستحق من أجلها أن يسمى « أبا الهندسة » ، بقدر ما استحق أبقراط الكرسى أن يسمى « أبا الطب » . ومع ذلك ، فأولى بنا أن نتجنب مجازات كهذه لأنه لا يوجد آباء مطلقون إلا أبانا خالق السموات .

أينوبيديس الخيوسى[١٢]

كان أينوبيديس ، بناء على رواية بروكليس (٢ — ٧) ، أصغر سناً بقليل من أناكساجوراس ، والراوى يقدم تاريخه على أبقراط وثيودوروس . فيمكننا أن نفترض أن أينوبيديس كان معروفاً فى الربع الثالث من القرن الخامس . وجدير بنا أن نلاحظ أنه لم يكن معاصراً لأبقراط فحسب ، بل كان أيضاً من أبناء مدينته . فلا بد أنهما تعارفا بخيوس أو بأثينا . ويكاد لا يهمنا أكان أصغر سناً بقليل من أبقراط أم لم يكن ، والذى يعنينا هو الترتيب التاريخى للاكتشافات ، وهو يختلف عن الترتيب التاريخى للميلاد ؛ فبينا يقوم بعض الرجال بأجل أعمالهم فى شبابهم ، يقوم بها آخرون فى سن متأخرة .

إن مكانة أينوبيديس كعالم فلكى أجل من مكانته كعالم رياضى ، وسوف نفرد له مكاناً أكبر فى الجزء الثانى من هذا الفصل . إن أعماله الرياضية متواضعة ولكن لها دلالتها ، فهو أول من حل المسألتين الآتيتين : أولا : رسم عمود من

نقطة مفروضة على مستقيم معلوم ؛ وثانياً : إنشاء زاوية من نقطة مفروضة على مستقيم تساوى زاوية معلومة .

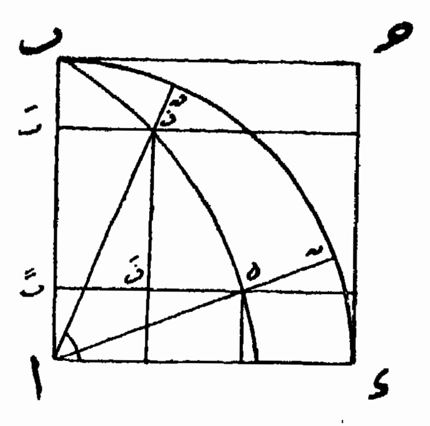
وبما أنه كان فى استطاعة كل امرئ حل هاتين المسألتين على وجه التقريب ، فإن نسبة حلهما إلى أينوبيديس تعنى أنه كان أول من أظهر كيفية حلهما على وجه التدقيق ، وذلك باستعمال المسطرة والبركار . وكان لابد من حل مسائل كهذه حتى يصبح تأليف « الأصول » أمراً ممكنا ، ولكن بروكليس يقول إن أينوبيديس حل المسألة الأولى لأسباب فلكية ، ويقول أيضاً إنه استعمل كلمة الشاخص القديمة (Cata gnomona) للدلالة على العمود (Orthios) . وكل هذا يوضح طور الانتقال فى ذلك العهد : فالمعرفة الهندسية تنسق وتأخذ فى التبلور تدريجيًّا ، وها هى ذى « الأصول » تصنع .

هيبياس الأيليسى

نشأ هيبياس فى إيليس[١٣]، وهى مقاطعة صغيرة فى الزاوية الشمالية الغربية من البيلوپونيز ، وقد اشتهرت بتربية الخيول وكادت ترقى إلى مرتبة القداسة لدى اليونان بسبب دورة الألعاب الأولمبية التى كانت تقام فى سهول أولمبيا كل أربع سنوات . وقد ولد حوالى سنة ٤٦٠ ق.م وما يعرف عنه يزيد كثيراً عما يعرف عن أبقراط وأينوبيديس اللذين يكبرانه سنًّا وذلك لأنه ساح كثيراً فى جميع أرجاء اليونان محاضراً فى الناس ومعلماً ، وكان سوفسطائيًّا جواباً فى الأرض يسيطر على ميدان نشاطه حب الشهرة والمال . ومع أنه كان على استعداد للبحث فى أى موضوع ، فقد كان ذا ولع خاص بالرياضة وعلم الطبيعة . وحين وصل إلى إسبرطة أصابته خيبة مريرة ، لأن الإسبرطيين لم يعنوا كثير العناية بعلم الطبيعة ، فلم يجزلوا له العطاء مكافأة على محاضراته العلمية . وتخلده محاورتان لأفلاطون وهما : هيبياس الأكبر ، وهيبياس الأصغر ، حيث يظهر فيهما سوفسطائيًّا مختالا فخوراً . إنها لصورة غير جذابة ، ولكن شهرته الرياضية وطيدة الأركان ، بسبب اكتشاف وجيد يثير الدهشة حقًّا .

لقد ابتكر هيبياس منحنياً جديداً كى يحل مسألة تثليث الزاوية ، فهو أول مثال فى التاريخ على منحن من مرتبة عليا ، إذ لا يمكن أن يرسم بأية آلة وإنما يرسم بيانياً بالانتقال من نقطة إلى أخرى . ويدلك هذا على أنه يملك الشجاعة الكافية كى يقفز خارج الصرح الهندسى ، الذى كان يعمل على تثبيت دعائمه وتنسيقه أقدر الرياضيين فى ذلك الحين ، ثم ينطلق فى استكشاف أسرار المجهول الواقع خارج ذلك الصرح .

وقد سمى المنحنى الذى اكتشفه هيبياس منحنى التربيع (Quadratrix) (وسوف نجد المبرر لهذا الاسم فيما بعد) . ويمكن تكوينه كما يأتى : فلنفرض أن لدينا المربع ا ب حـ د (وطول ضلعه س) وأن فى داخله ربع



شكل ٦٤ — منحنى التربيع لهيبياس الايليسى

الدائرة التى مركزها فى ا ، ونصف قطرها س ، ولنفرض أن نصف القطر يدور بسرعة ثابتة من الموضع ا ب ، إلى الموضع ا د ، وأن ب حـ يتحرك فى الوقت نفسه إلى أسفل بسرعة ثابتة إلى الموضع ا د ، حيث يبقى إبان حركته موازياً لموضعه الأول . فيكون المحل الهندسى للنقط التى يتقاطع فيها المستقيمان (مثل نقطة ف ، ونقطة ل) هو منحنى التربيع . والآن ، الزاوية ب ا د : الزاوية ق ا د تساوى القوس ب د : القوس ق د = ب ا : ف . هـ . ولنعتبر

الشعاع ا ف الذى يصل المركز ا مع نقطة ما على المنحنى مثل ف ؛ ولنفرض أن طول الشعاع هو (ر) وأن هـ هى الزاوية التى يميل بها على ا د ؛ فيستنتج مما تقدم أن $\frac{س}{ر حا هـ} = \frac{\frac{ط}{٢}}{هـ}$ ، وهذه هى معادلة المنحنى .

ويمكن استعمال المنحنى لتثبيت أية زاوية مثل هـ . فلنقسم المستقيم ف هـ إلى قسمين بنسبة ٢ : ١ ، حيث يكون ف $ف_١$ = ٢ ف هـ . ولنرسم بعد ذلك المستقيم بَ جَ فيقطع المستقيم ف هـ فى نقطة ف ويقطع المنحنى فى نقطة ل ، ولنرسم المستقيم ا ل . فتكون الزاوية ن ا د ثلث الزاوية هـ .

وكذلك يمكن استعمال المنحنى فى تقسيم زاوية ما بأية نسبة ؛ إذ يكفى (فى مثالنا) أن نقسم المستقيم ف هـ بتلك النسبة ونتمم الإنشاء كما فعلنا من قبل .

وبعد ذلك بقرن استعمل دينوستراتوس (Dinostratus) (٢٠٤ ق.م) وآخرون المنحنى نفسه لتربيع الدائرة ، ولهذا السبب سمى منحنى التربيع (Tetragonizusa)

ثيودوروس البرقاوى

إن ما نعلمه عن الرياضى ثيودوروس البرقاوى[١٤] يفوق ما نعلمه عن غيره من الرياضيين ، ذلك لأن أفلاطون يعرفه فى بداية محاورته تياتيتوس (Theaitetos) كمعلم شهير . وكان حينذاك (عام ٣٩٩)[١٥] رجلاً مسناً ، ولذا يمكننا القول إنه ولد حوالى عام (٤٧٠) . ويروى أن أفلاطون زاره فى قورينا ، لكن ثيودوروس ، على كل حال ، كان بأثينا حوالى نهاية القرن ، وانتسب إلى جماعة سقراط ، وكان (أو لعله كان) أستاذ الرياضة لأفلاطون . وينسب إليه كشف رياضى وحيد ، لكنه كشف رائع . فيقال إنه أثبت اللامنطقية فى الجذور التربيعية للأعداد : ٣ ، ٥ ، ٧ . . . . . ، ١٧ .

ومما له دلالته ، أن كشف اللامنطقية فى $\sqrt{٢}$ لا يعزى إليه ، فلا يستدل من ذلك إلا أن هذا الكشف كان سابقاً لعهده . والواقع هو أن هذه المعرفة

* أضفت العبارة الواردة بعد الفاصلة زيادة فى الإيضاح (المترجم) .

تنسب إلى الفيثاغوريين الأولين . لقد كان اكتشاف اللامنطقية فى $\sqrt{٢}$ مفاجأة رهيبة ، والفيثاغوريون على ما يبدو تصوروا إلى حين أنه كان حادثاً استثنائياً .

إن الجذر التربيعى للعدد ٢ يظهر فى مجال النظر الفكرى ببساطة وبصورة طبيعية جداً ، ذلك لأنه القطر فى مربع الوحدة (فالضلع والمساحة تساويان واحداً). فكيف كشف الفيثاغوريون الأولون وجود اللامنطقية فى $\sqrt{٢}$ ؟

علينا أولا أن نعرف للقارئ رجلا آخر من الفيثاغوريين الأولين وهو هيباسوس الميتابونتى [١٦] (Hippasos of Metapontum) الذى نسجت حوله قصص عجيبة . فقالوا إنه طرد من المدرسة الفيثاغورية لأنه باح بأسرار رياضية . وزعموا فى إحدى الروايات أنه أذاع إنشاء ذى الإثنى عشر وجهاً داخل كرة ما ، وادعى أن الإنشاء من عنده . وورد فى رواية أخرى أنه أذاع الكشف عن مقادير لامنطقية ــ وهذه تشير على الأرجح إلى $\sqrt{٢}$ أو إلى $\sqrt{٥}$. وثمة شىء رياضى آخر يمكن أن يقال عن هيباسوس قبل أن نتركه . لقد ميز الفيثاغوريون الأولون بين ثلاثة أنواع من الوسط : الوسط الحسابى ، والوسط الهندسى ، والوسط المعاكس الأدنى [١٧] . فاقترح هيباسوس أن يسمى الثالث منها الوسط التوافقى ، وهى تسمية مطابقة كل المطابقة ، وذلك لأهمية الأوساط التوافقية فى ميدان الموسيقى النظرية ، وقد عرف أيضاً ثلاثة أوساط أخرى . فلنعد الآن إلى الكشف عن وجود المقادير اللامنطقية ، وهو الكشف الذى اعتبره الرياضيون فى القرنين السادس والخامس نوعاً من الفضيحة لعلم المنطق .

إن العدد اللامنطقى alogos هو العدد الذى لا يمكن تقديره تماماً بدلالة أعداد أخرى ، وقد كشف عن اللامنطقية هندسياً حين وجد الإدراك باستحالة تقدير القطر فى مربع الوحدة بدلالة طول الضلع أو بدلالة أى جزء من الأجزاء المتساوية التى يمكن أن يقسم إليها ذلك الطول ، مهما صغرت .

فكيف كان فى استطاعة المرء إثبات تلك اللامنطقية ؟ لقد أشار أرسطو [١٨] إلى البرهان الذى تناقلته الأجيال ، وهو برهان يقوم على دليل الخلف .

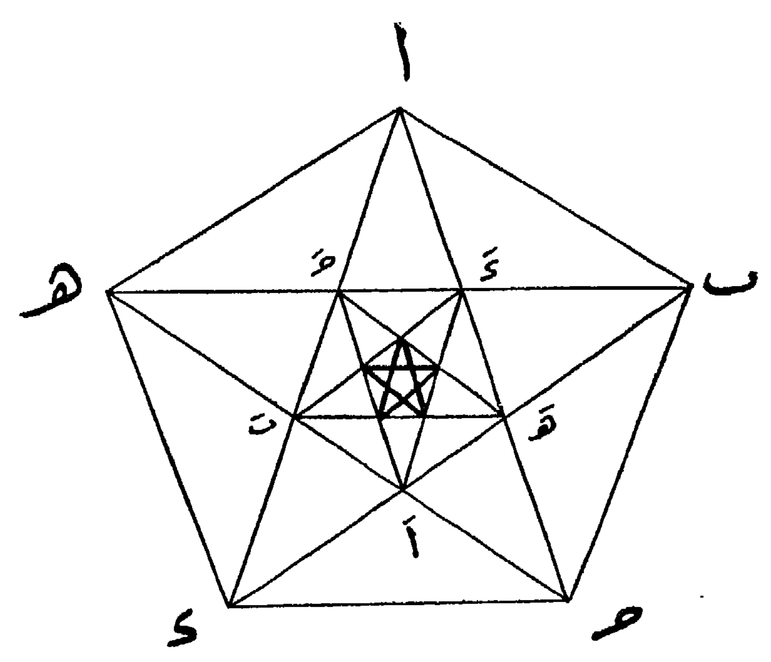
وبما أنه برهان قصير وفى غاية اليسر فإننا نورده فيما يأتى :

لنعتبر مربعاً طول ضلعه ا ، ونصف قطره حـ . ينبغى أن نبرهن أن (ا) و (حـ) هما عددان غير منسوبين . ولنفرض أنهما منسوبان ، وأن النسبة بينهما $\frac{\text{حـ}}{\text{ا}}$ تقدر بالشكل الأبسط $\frac{\text{ل}}{\text{م}}$ ، فلهذا يكون $\frac{\text{حـ}^{2}}{\text{ا}^{2}} = \frac{\text{ل}^{2}}{\text{م}^{2}}$ ؛ لكن حـ^{2} ، $= \text{٢ا}^{2}$ ؛ ولذلك $\text{ل}^{2} = \text{٢ م}^{2}$. إذن ل^{2} عدد زوجى ، ولذا فإن ل عدد زوجى ، ويجب أن يكون م عدداً فردياً . والآن ، إذا كان (ل) عدداً زوجياً فيمكننا أن نكتب ل = ٢ ن ؛ ولذا فإن $\text{ل}^{2} = \text{٤ ن}^{2} = \text{٢ م}^{2}$، أى أن $\text{م}^{2} = \text{٢ ن}^{2}$. إذن م^{2} عدد زوجى ، ولذا فإن م عدد زوجى .لقد وجدنا أن م هو عدد زوجى وفردى فى آن واحد ، وهذا مستحيل . إذن فالعددان (ا) و (حـ) هما غير منسوبين .

إن من الممكن أن يكون هيباسوس قد كشف المقدار اللامنطقى الأول (إن لم يكن قد كشف من قبل) ، غير أن المرء لا يستطيع إقامة الدليل على ذلك . وثمة ما يغرى المرء بهذا الافتراض ، ذلك لأن الرواية التى ذكرناها فيما تقدم تدعمه ، ولأنه يفسح فى مجال الزمن برهة وجيزة يمكن أن تتطور فى خلالها نظرية اللامنطقية . على أن برهان اللامنطقية فى $\sqrt{٢}$ الذى أوردناه منذ قليل ، على بساطته ، يتضمن درجة من التجريد يكاد يصعب إدراكها فى زمن مبكر كعهد هيباسوس ، ولنقل فى بداية القرن الخامس . ولكن هناك رواية أخرى تنسب إلى هيباسوس بعض المعرفة بذى الاثنى عشر وجهاً ، وهو مجسم منتظم أوجهه مخمسات منتظمة . إن عناية أحد الفيثاغوريين بالمخمس المنتظم لأمر طبيعى تماماً ، ذلك لأن شعار جماعته هو المخمس النجمى ، الكامل ، (وهو المخمس المنتظم الذى مدت أضلاعه حتى نقط التقاطع) .

ولقد تقدم كورت فون فريتز (Kurt Von Fritz) باقتراح يسترعى النظر وهو أن عناية هيباسوس بالمخمسات النجمية والمخمسات المنتظمة وبالأعداد والنسب التى تتضمنها تلك الأشكال يمكن أن تكون هى التى هدته إلى فكرة

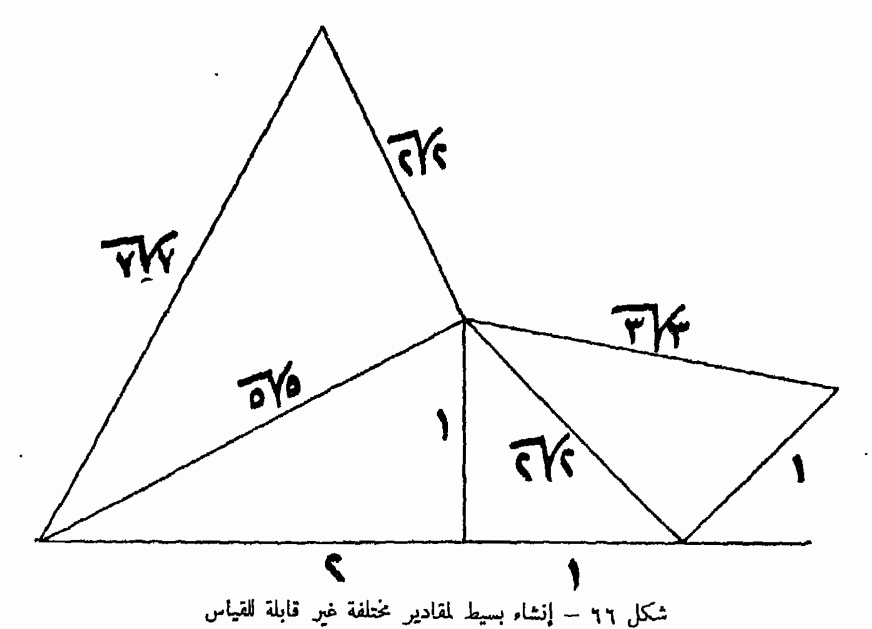
اللاقياس . إذ كيف يحاول صانع فى إيجاد المقدار المشترك بين المستقيمين (ا) و (ب) ؟ إنه يحاول أن يقيس الأطول (ا) بدلالة الأقصر (ب) ، وإذا ما أخفق ، فإنه يحاول أن يقيسه بدلالة كسور من (ب) . والآن ، إن طريقة كهذه لا يمكن استعمالها فى هذه الحالة ؛ ذلك لفقدان الدقة المثالية فى القياسات الآلية . ولكن ، لو اعتبر هيپاسوس المخمس المنتظم وقد رسمت جميع أقطاره ، لرأى أن الأقطار تؤلف مخمساً نجمياً وتحيط بمخمس منتظم أصغر من المخمس الأول (الشكل ٦٥) . إن متابعة العمل على النهج نفسه فى الإنشاء لأمر ممكن ، وإن فى ذلك لحافزاً كافياً . إن المرء لا يستطيع ، من الناحية العملية ، أن يستمر فى هذا التكرار إلى أمد طويل ، ولكن من الواضح ، نظرياً ، أن التكرار ممكن إلى ما لا نهاية ، وهذا يعنى أن القطر والضلع لا يقبلان التحويل إلى مقاس مشترك ، فهما إذن ، غير قابلين للقياس .



شكل ٦٥ — المخمسات المنتظمة والنجمية .

لعل الكشف الذى أجراه هيباسوس عن المقادير غير القابلة للقياس وقبل أن يقوم الدليل الكامل على وجودها كان بعامل الحدس ، حتى إنه لأمر ممكن أن الرياضيين اليونانيين بدأوا قبل نهاية القرن فى اعتبار حالات أكثر تعقيداً . فى محاورة هيبياس الأكبر (عام ٣٠٣ ق.م) ترد الملاحظة الآتية : كما أن عدداً زوجياً إما أن يكون مجموع عددين زوجيين وإما أن يكون مجموع عددين فرديين ، فكذلك إن مجموع عددين لا منطقيين ، إما أن يكون منطقياً ، وإما أن يكون لا منطقياً . وإليك مثالا طيباً : إذا قسم مستقيم ذو طول منطق قسمة ذات وسط وطرفين ، فإن النسب الثلاث * بين تلك الأجزاء والمستقيم كله جميعها نسب لامنطقية .

إذا افترضنا أن هيباسوس قد كشف اللامنطقية فى √٢ و √٥ ، فكيف وجد ثيودوروس الجذور الصماء الأخرى حتى √١٧ ؟ لربما أنشأ عدداً كبيراً منها بطريقة سهلة كما يظهر فى الشكل (٦٦) . وما إن أدرك وجود مقادير



شكل ٦٦ — إنشاء بسيط لمقادير مختلفة غير قابلة للقياس

* لقد قسم المستقيم من الداخل ومن الخارج أيضاً قسمة « ذهنية » (المترجم) .

لامنطقية وأصبح ذاك الإمكان مسلماً به ، لم يعد إيجاد مقادير جديدة أمراً عسيراً . إنما كانت المصاعب الرئيسية من نوع آخر : إذا كانت هناك أعداد لم يمكن تمثيلها بأية نسبة مثل ن : م ، فإن فكرة الفيثاغوريين عن وجود المحاكاة بين الأعداد والمستقيمات أو بين الحساب والهندسة لا يمكن أن تكون قد وجدت بعد ذاك من يدعمها – فهل وجدت ؟ ليس لدينا من سبب يحملنا على الظن بأن هذه المصاعب العميقة الأغوار قد حلت قبل القرن الرابع ، ولكن الحقبة الطويلة لاختمار تلك الآراء التى يمثلها هيباسوس وثيودوروس قد مهدت السبيل إلى عصر تيآتيتوس ويودوكسوس . وسوف نتابع مناقشاتنا فى هذا الموضوع عندما نصل إلى الحديث عن ذلك العصر .

كانت للعبقرية اليونانية إدراكات فطرية للحقائق الرياضية ، كما كانت لها تلك الإدراكات فى ميدان الجمال ، فقد أدركت فيما يظهر ، إن لم يكن فى البداية ذاتها ، فعلى أية حال فى وقت مبكر جداً ، أنه لا يمكن بناء علم الرياضة بدقة منطقية دون أن تحل تلك العبقرية مسائل عديدة تتضمن فكرة اللانهاية . ويمكننا تقدير الأعماق الفذة لتلك العبقرية تقديراً أحسن إذا ما تمثلنا فى أذهاننا أن ثمة مثقفين عديدين فى عصرنا الحاضر ، بل على حظ وافر من الثقافة ، من أمثال الأطباء ، أو علماء النحو ، يكادون لا يفقهون مثل هذه الأمور ، ناهيك عن اكتشافها . لقد قدمنا فى هذا الباب حتى الآن شواهد كثيرة على الإدراكات البدهية عند اليونان بخصوص فكرة اللانهاية ، ونخص بالذكر منها ما عرضناه من آراء زينون ، وديموكريتوس ، وهيباسوس ، وثيودوروس ، والآن نضيف إلى هؤلاء رجلين آخرين ، هما أنتيفون وبريسون .

أنتيفون السوفسطائى [٢١]

نشأ أنتيفون بأثينا ولمع فى العصر نفسه الذى اشتهر فيه سقراط ، فكان إلى حد ما منافساً له ، كمعلم للشباب. كان سوفسطائياً يعنى بعلوم عديدة كما عنى أيضاً بالكهانة . والتنبؤ بالغيب ، وتفسير الأحلام . وينبغى ألا ننسى

أبداً أن التنبؤ بالغيب وخاصة تفسير الأحلام[٢٢] كانا حينذاك جزأين أصيلين من العلوم الطبيعية تنجذب إليهما بدافع حب الاستطلاع طائفة من أفضل العقول، ذلك لأن الناس لم يدركوا حين ذاك بجلاء ، إدراكاً دقيقاً ، حدود المعرفة كما ندركها نحن فى عصرنا الحاضر . وعلى أية حال ، إن أنتيفون جدير باهتمامنا لأنه ابتكر طريقة جديدة لحل المسألة القديمة ، وهى مسألة تربيع الدائرة .

فقد اقترح إنشاء مضلع بسيط منتظم ، ولنقل مربعاً ، داخل الدائرة المعطاة . وكان من الممكن بعد ذاك إنشاء مثلث متساوى الساقين على كل من أضلاع المربع ، بحيث يكون رأسه على محيط الدائرة . فيكون قد تم بذلك إنشاء مثمن منتظم ، وإذا ما ثابر المرء على العمل بالطريقة نفسها فإنه ينشئ مضلعات منتظمة عدد أضلاعها : ١٦ ، ٣٢ ، ٦٤ . . . ضلعاً . ومن الواضح أن مساحة أى مضلع لاحق من تلك المضلعات المتتالية تكون أقرب إلى مساحة الدائرة من مساحة أى مضلع سابق ، وبعبارة أخرى إن مساحة الدائرة تستنفد تدريجيًّا بازدياد أضلاع المضلع المحوط بالدائرة نفسها . إن مساحات هذه المضلعات يمكن أن تحسب بالتمام ، أو أن المضلعات يمكن أن « تربع » ، فالمساحات تزداد تدريجيًّا إلا أنها لا يمكن أن تتجاوز نهاية معينة ، هى مساحة الدائرة نفسها .

وقد انتقد أرسطو ، وشراحه ، وآخرون ، هذه الطريقة فبينوا أنه مهما تكرر عدد المرات الذى يتضاعف فيه عدد أضلاع المضلع فى كل مرة ، فإن مساحة الدائرة لا يمكن أن تستنفد تماماً .

بريسون الهيراكلى[٢٣] :

ابن هيرودوروس من هيراكليا بونتيكا (Herodores of Heraclea Pontica) الذى عرف بإنشاء الخطب أو العناية بتدوين الأساطير ، وكان تلميذاً لسقراط ولتلميذه إقليدس الميجارى فهو من جيل لاحق لأنتيفون ولا بد أنه عاش

فى النصف الأول من القرن الرابع ، ولكن يجب أن نتحدث عنه هنا لأن عمله يتمم عمل أنتيفون إتماماً حسناً . فبينا كانت طريقة أنتيفون تستند إلى رسم سلسلة من المضلعات داخل الدائرة التى يكون عدد أضلاعها : ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ . . . ضلعاً ، اقترح بريسون إنشاء سلسلة من المضلعات خارج الدائرة نفسها . إن مساحات المضلعات المحيطة تتناقص تدريجيًّا . وإن مساحة الدائرة هى النهاية العليا لمساحات المضلعات المحاطة ، وهى النهاية الدنيا لمساحات المضلعات المحيطة . ومما لا شك فيه أن بريسون كان هدفاً للانتقادات نفسها التى وجهت إلى أنتيفون ، فقد انتقده بحق أرسطو ، وسمبليكيوس ، وكثيرون من مؤرخى الرياضيات .

ويظهر لى أن المؤرخين الحديثين (مثل روديو وهايبرج) [٢٥] (Rudio and Heiberg) اشتطوا فى قسوتهم على أنتيفون وبريسون . فقد كان منهج الأخير يفتقر إلى الدقة ولكنه صدر عن بديهة صحيحة ، وأدى فى النهاية إلى « طريقة الاستنفاد » التى صاغها يودوكسوس ، وإلى حساب التكامل .

ولا يستطيع المرء أن يجحد فضل برينسون فى القيام بكشف معين وهو أن مساحة الدائرة حد نهائى للمساحات المتزايدة للمضلعات المحوطة ، وأنها حد نهائى للمساحات المتناقضة للمضلعات المحيطة ، وأنه كلما ازداد عدد الأضلاع فى سلسلتى المضلعات اقتربت مساحاتها أكثر فأكثر من مساحة الدائرة عن جانبى هذه المساحة . وقد طبق أرشيميدس (٣—III ق.م) هذه الطريقة ، فقاس فعلا مساحتى مضلع محوط ومضلع محيط عدد أضلاع كل منهما ٩٦ ضلعاً وتوصل إلى الاستنتاج بأن $٣\frac{١}{٧}$ > ط > $٣\frac{١٠}{٧١}$ (٣,١٤٢ > ط > ٣,١٤١) .

ويحسن بنا أن نلاحظ قبل اختتام هذا الجزء أن الرجال الذين استعرضنا آراءهم الرياضية (مع إمكان استثناء أبقراط) لم يكونوا رياضيين بالمعنى المقصود من هذه الكلمة فى أيامنا ؛ بل كانوا فلاسفة وسوفسطائيين ، أدركوا الأهمية الأساسية للرياضة وحاولوا فهم هذا العلم فهماً حسناً بقدر الإمكان. ولنلاحظ أنهم أتوا إلى أثينا من جهات مختلفة من دنيا اليونان . فقد أتاها زينون من

المستعمرة اليونانية الكبرى فى جنوب إيطاليا ، وأبقراط وأينوبيديس من أيونيا ، وديموكريتوس من تراقيا ، وهيبياس من البيلوبونيز ، وثيودوروس من برقة ، وبريسون من شاطئ البحر الأسود ، وكان أنتيفون (بقدر ما نعلم) أثينيًّا ، وهو الأثيني الوحيد بينهم . ولو تحدثنا عن أرخيتاس (Archytas) الذى عاش فى القرنين [٢٦] ، وسوف نحدثك عنه فيما بعد ، لكان علينا أن نضيف إلى قائمة الأقطار المذكورة قطراً آخر هو صقلية . فيدل هذا على أن العبقرية الرياضية كانت موزعة فى أرجاء بلاد اليونان كما كانت العبقرية الفنية أو الأدبية . إن تلك العبقرية لم تكن أثينية ، أو محصورة فى أية منطقة ، بل كانت عبقرية بلاد اليونان .

الفلك

فى استعراضنا للآراء الفلكية فى القرن الخامس يمكننا أن نترك آراء الفلاسفة أمثال هيراكليتوس ، وأنبادوكليس ، وأناكساجوراس وأن نقتصر جل الاقتصار على آراء الفيثاغوريين . فمدرسة هؤلاء كانت فعلا أعظم المدارس الفلكية شأناً فى ذلك القرن وأكثرها تقدماً . وكان لصوفيتهم الرياضية وجه مفيد ، ذلك لأنها ساعدت على افتراض أدوار منتظمة فى حركة الأجرام السماوية وعلى كشف قوانين الأجرام السيارة . وقد قال أفلاطون [٢٧] : « كما أن العيون ابتدعت لتشخص إلى النجوم ، فقد ابتدعت الآذان لتسمع الحركات المنسجمة ، وهاتان أختان من علوم الطبيعة كما يقول الفيثاغوريون » . ويعبر هذا القول تعبيراً جميلا عن تصور الفيثاغوريين للوحدة التى تأتلف فى تكوينها علوم الرياضة والموسيقى والفلك ، ذلك التصور الذى أثر فى التفكير الفلكى على مر الزمان حتى عصر كبلر (Kepler) .

حين نتحدث عن فلكيين فيثاغوريين ، لا نقصد أولئك المريدين الذين خبروا جميع أسرار الأخوة الفيثاغورية فحسب ، بل نقصد أيضاً أولئك الذين تقبلوا الآراء الفيثاغورية فى النظام الكونى ، ولو جزءاً منها ؛ وهكذا فإننا سنبدأ بالحديث عن بارمينيديس (الذى لم يكن فيثاغوريًّا بل كان مؤسس المدرسة

الإيلية) ؛ ثم نتحدث عن فيلولاوس (Philolaos) ، وهيكيتاس (Hicetas) ، وبضعة أشخاص آخرين .

كان الفيثاغوريون أول من سمى العالم بلفظة كوسموس (Cosmos) (وفيها دلالة ضمنية على أنه نظام متجانس ومرتب فى أحسن ترتيب) ، وأول من قال باستدارة الأرض. وتنسب هذه الخصائص إلى فيثاغورس نفسه وإلى بارمينيديس أيضاً ، إذ ليس من السهل أن نفصل مبتكرات بارمينيديس من العقائد الفيثاغورية السابقة عليه ، ولا داعى لأن نقلق كثيراً من ذلك . ويمكن أخذ القسم الأول من حديثنا على أنه لا يمثل آراء بارمينيديس فحسب ، بل آراء الفيثاغوريين أيضاً حوالى منتصف القرن . فى ذلك الزمن كانت بعض النقاط فى علم الكون لدى الفيثاغوريين قد تقررت : فالكون نظام محكم الترتيب ، وأكمل الأشكال هو شكل الكرة ، والأرض مستديرة[٢٨] ، والأجرام السيارة ليست أجراماً هائمة ، بل هى ذات حركات منتظمة الأدوار . ومن الممكن أن آراء أخرى كانت مقبولة حينذاك ، كقدسية النجوم والسيارات ، والأثينية اللازمة فى خصائص الكون — ما فوق القمر (تام) وما دون القمر (غير تام)[٢٩]. إن آراء كهذه تبعدنا عن علم الفلك وتنقلنا إلى ميدانى الميثولوجيا والدين . على أن وجودها إلى جانب الآراء الأخرى ، التى هى أقرب إلى الطابع العلمى ، يوضح لنا التناقض الظاهر فى أن المدرسة الفيثاغورية كانت فى زمن ما مهداً لعلم الفلك الرياضى وعلم التنجيم فى آن واحد . ومع أن هاتين الوجهتين متناقضتان فيما يظهر ، فإنهما تعودان إلى الظهور تكراراً على مر تاريخ العلوم (حتى القرن السابع عشر على أقل تقدير) . ولا يستطيع المرء أن يفهم تطور علم الفلك فى العصور القديمة والعصور الوسطى ما لم يتمثل فى ذهنه على الدوام ذلك التقابل الأساسى بين تينك الوجهتين .

بارمينيديس الإيلى :

جاء بارمينيديس إلى أثينا حوالى منتصف القرن ، إلا أنه كان فى العقد السادس من عمره ، ولذا من الممكن أن تكون آراؤه الفلكية قد تبلورت قبل

ذاك . فكان أول من افترض أن الأرض الكروية الشكل انقسمت إلى خمس مناطق ، وإن لم تكن واضحة الحدود ، وتصور أن عرض المنطقة الوسطى ، وهى الحارة والمأهولة ، يبلغ ضعفى ما هو عليه فى الواقع . ولا يمكننا أن نعلق أهمية كبيرة على تلك المناطق لأنها كانت وليدة الظن إلى حد بعيد . أما فكرة الشكل الكروى للأرض فإنا لا نعلم كيف توصل الفيثاغوريون الأولون ، وبارمينيديس فى جملتهم، إلى ذلك الاستنتاج . والراجح أنه كان فى البدء تصوراً أولياً سابقاً على التجربة، وسرعان ما تأيد وتكرر تأييده بمراقبة النجوم . كانت الأرض المعروفة لدى اليونان تمتد على الأقل من دائرة العرض ٤٥° شمالا (شمالى البحر الأسود) إلى مدار السرطان أو حتى إلى أبعد من ذلك — أى إنها كانت تمتد فى نطاق يتراوح عرضه بين ٢٠ و ٢٥ درجة من درجات العرض . إن فى هذا الفرق فى درجات العرض ما يكفى وزيادة للملاحظة تغيرات هامة من حيث أوضاع النجوم فى السماء . فإذا ما ساح المرء شمالا أصبحت بعض النجوم قطبية ؛ ومن الناحية الأخرى ، إن نجماً ساطعاً (وهو سهيل) لا يرى فى بلاد اليونان بالذات ، ومن ذلك كان يلمح فوق الأفق فى جزيرة كريت ، وكان ارتفاعه يزداد إذا ما قصد المرء مصر وأقلع فى اتجاه أعلى النيل . وعلاوة على ذلك ، لابد أن السياح لاحظوا ازدياد طول النهار إذا ما سافر المرء شمالا ؛ فكانت هذه الملاحظة كافية لأن تهدى إلى فكرة المناطق . ولقد كان بارمينيديس أول من تصور الكون سلسلة متواصلة من الكرات أو التيجان (Stephanai) المتحدة المركز مع الأرض التى هى مستقرة فى مركز الكون . ولا حاجة بنا إلى التذكير بآرائه الفلكية الأخرى ، فبعضها لم يكن جديداً (مثال ذلك : أن القمر يستمد ضوءه من الشمس) أو كان محض أوهام (مثال ذلك : أن الشمس والقمر جزءان من المجرة) . إن ما يسترعى النظر ، على كل حال ، هو أن ميتافزيقيا صرفاً ، كما كان هو ، توصل عن طريق الحدس إلى الكثير من الحقائق ، ذلك لأن سبقه إلى فكرة وجود المناطق الجغرافية يكاد يضاهى فى روعته سبق ديموكريتوس إلى فكرة وجود الذرات .

فيلولاوس الكروتونى (٣٠)

نشأ فيلولاوس فى كروتون أو فى تارنت (والبلدتان فى منطقة خليج تارنت) . وبما أن فيثاغورس أسس مدرسته فى كروتون فليس بمستغرب إذن أن ينسب فيلولاوس إلى الفيثاغوريين . كان معاصراً لسقراط ، كما كان بارمينيديس ؛ ويمكننا أن نستنتج أنه كان أصغر من الأخير بكثير . فقد ولد على الراجح بعد بارمينيديس وقبل سقراط ، ذلك لأنه كان أستاذ آلكل من سيمياس (Simmias) وكيبيس (Cebes) فى مدينة طيبة (Thebes) ، وكان هذان من تلاميذ سقراط الأخيرين (٣١)

كانت آراؤه فى الفلك فيثاغورية ، وكثيراً ما يوصف بأنه أول شارح لآراء الفيثاغوريين فى علم الفلك ، على أن هذا القول يجب أن يعدل من ناحيتين . أولا : أن بارمينيديس ، الذى لم يكن على كل حال فيثاغورياً صرفاً ، كان على وجه الاحتمال أكبر من فيلولاوس سناً . ثانياً : أنه يمثل مرحلة أكثر تعقيداً ، فهى الثانية (أو الثالثة) من مراحل التطور فى علم الفلك لدى الفيثاغوريين . وقد فقدت لسوء الحظ جميع مؤلفاته ، ما عدا شذرات قليلة جداً .

سوف يظهر لنا فى فترة وجيزة كم كانت آراؤه معقدة . فهى توضح مرة أخرى الجرأة فى النظر الفكرى عند علماء الطبيعة من اليونانيين الأولين ، ذلك بأنهم كانوا متجردين عن الأهواء الدينية ومتحررين من قيود الإدراك العادى عند سواد الناس ، فالقضية كلها عندهم هى إعطاء تفسير منطقى للحقيقة فى عالم الطبيعة ، وما من فرض يعد مغرقاً فى الجرأة إذا ما أعطى مثل ذاك التفسير . فلم يتردد فيلولاوس فى رفض القول بوجود الأرض فى مركز الكون ، وهو فرض سلم به أسلافه من الفيثاغوريين . والرأى عنده أن الكون كروى محدود وفى مركزه تماماً توجد النار المركزية ، (موقد الكون ، أو برج المراقبة الخاص بزيوس ، إلخ . . .) والتى هى أيضاً القوة المركزية

أو المحرك المركزى . وتدور حول تلك النار عشرة أجسام : أولا ، الأرض المقابلة (Antichthon) التى ترافق الأرض دائماً وتحجب النار عنها ، ثانياً ، الأرض نفسها ، ثم القمر ، والشمس ، والسيارات الخمسة ، وأخيراً النجوم الثابتة . ولسنا نرى الأرض المقابلة ، ذلك لأن أرضنا تدير ظهرها إلى الأرض المقابلة على الدوام ، أى إنها تدير ظهرها إلى مركز الكون . فهذا يعنى ضمناً أن الأرض تدور على محورها هى ، بينما تدور هى حول مركز الكون[٣٢].

إن الجرأة فى ذلك التصور رائعة . فلم يرفض فيلولاوس القول بوجود الأرض فى مركز الكون فحسب ، بل لم يتردد فى اعتبار الأرض سيارة كبقية السيارات ، وفى افتراض أنها تدور حول مركز الكون وتدور أيضاً (ربما) على محورها هى . وفوق ذلك ، افترض حدساً وجود جرم سيار آخر يظل على الدوام خفياً . إن هذا التصور يبدو مصطنعاً كل الاصطناع ، فلماذا أدخل فيلولاوس الأرض المقابلة ؟ الرأى عند أرسطو أنه فعل ذلك ليعلل ظاهرتى الخسوف والكسوف وخاصة توارد الخسوف الكثير مقابلا لتوارد الكسوف[٣٢ ا] .

وإذا كانت الأرض تدور حول مركز الكون ، فإن الحركات الظاهرة للنجوم يمكن تعليلها بالدوران الذى تقوم به الأرض على محورها فى اتجاه مضاد . وبالرغم من ذلك افترض فيلولاوس أن كرة النجوم الثابتة تدور مثل الكرات الأخرى ، وهذا مثال طيب على جرأة عظيمة معروفة بالحذر (وهى ظاهرة كثيراً ماترد فى تاريخ العلوم ويمكننا أن نعتبرها القاعدة العامة لا الشذوذ) — فلو افترضنا أن الكرة الخارجية لم تتحرك ، لأصبح تصوره فعلا أبسط بكثير مما كان عليه . غير أن فيلولاوس لم يستطع إقناع نفسه بأن يفعل ذلك — لأن جميع الكرات تتحرك . . . ولأن الزيادة فى التعقيد ، التى أقحمها اعتباطاً فى تصوره لم تتعارض مع الواقع . وبما أن سرعة زاويا الكرات تناقصت بازدياد أنصاف أقطارها ، فقد كان فى مقدور المرء أن يعين دائماً سرعة الزاويتين لكرة الأرض ولكرة النجوم الثابتة بحيث أمكن تعليل الحركة الظاهرة للنجوم تعليلا تاماً . أما الحركة المنسوبة إلى الكرة الخارجية ، وهى البطيئة كل البطء

فربما أدخلت فى الافتراض لتعليل ظاهرة مبادرة الاعتدالين . على الرغم من ملاحظات المصريين والبابليين فى قرون طويلة ، فإن تلك الظاهرة كانت مجهولة إذ ذاك ؛ وبقيت مجهولة إلى زمن هيبارخوس (Hipparchos) (فى النصف الثانى من القرن الثانى[٣٣] ق.م) .

هيكيتاس السيراكوزى

إن النظام الكونى الذى كنا فى وصفه عزاه آيتيوس[٣٤] (Aetios) إلى فيلولاوس ، وعزاه ديوجينيس اللائرسى إلى هيكيتاس ، أما أرسطو فقد عزاه إلى الفيثاغوريين عامة .

وحتى ولو كان النظام من ابتكار فيلولاوس فإن من الممكن أن هيكيتاس حسنه . ولنضرب مثلا : أن هيكيتاس ربما استنتج أن الأرض تدور على محورها هى ، وتخلى عن ذلك التصور الوهمى الذى يفترض اعتباطاً وجود نار مركزية وأرض مقابلة . ويؤيد شيشرون (النصف الأول من القرن الأول ق. م) هذا الرأى ؛ ومع أنه شاهد من قرن لاحق ، إلا أنه كان يستند إلى نص لثيوفراستوس (Theophrastos) (النصف الثانى من القرن الرابع ق. م) ، الذى كان أقرب منه بكثير إلى زمان ذلك النظام . إن تاريخ هيكيتاس غير معروف ، ويمكننا الافتراض أنه أصغر من فيلولاوس ومعاصر له . « إن هيكيتاس السيراكوزى ، كما يقول ثيوفراستوس ، يعتقد أن السماء والشمس والقمر والنجوم ، وكل الأجرام السماوية فى اختصار ساكنة فاقدة الحركة ، وأنه لا يوجد جرم فى الكون — ما عدا الأرض — قد أوتى الحركة ، وأنه بينما تدور الأرض على محورها بسرعة عظيمة ، تأتى فى مجال النظر كل الظواهر التى يمكن أن تحدث كما لو كانت الأرض ساكنة هادئة والسماوات قد أوتيت الحركة[٣٥] » .

وعلى أية حال ، فإن شهادة شيشرون على أنه لا يتحرك شىء فى الكون ما عدا الأرض خاطئة ولا ريب ، ويمكن فهم هذه المبالغة من رجل لم يكن فلكيًّا ، فبالغ كثيراً فى توكيده الفكرة التى عبر عنها هيكيتاس وثيوفراستوس :

إنما الأرض هى التى تدور على محورها دورة فى كل يوم ، لا السماوات المرصعة بالنجوم.

فبناء على قوة تلك الشهادة التاريخية ، يسمح لنا أن نعزو إلى فيلولاوس النظام الذى يفترض أن الأرض سيارة كبقية السيارات تدور حول النار المركزية بالسرعة نفسها التى تدور بها الأرض المقابلة ، وأن نعزو إلى هيكيتاس النظام الذى يضع الأرض فى مركز الكون ويفسر الدوران الظاهرى للنجوم بافتراض دوران حقيقى للأرض حول محورها هى .

إكفانتوس السيراكوزى

إتماماً لهذه القصة ، يجب أن نقول بضع كلمات عن إكفانتوس ، مع أنه ينتمى على الراجح إلى القرن التالى. ولأنه كان سيراكوزيا وفيثاچوريا مثل هيكيتاس ، يمكننا أن نفترض أنه كان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة تلميذاً تابعاً للأخير . وبناء على ما رواه آيتيوس[٣٦] « فى الفروض المقبولة » (De Placita) ، « إن هيراكليديس البونتى وإكفانتوس الفيثاجورى يحركان الأرض ، لا حركة انتقالية بل حركة دورانية ، كدولاب مثبت على محوره ، من الغرب إلى الشرق ، حول مركزها هى » . وهكذا أكد إكفانتوس على الأقل (إن لم يكن هيكيتاس من قبله) تأكيداً لا إبهام فيه دوران الأرض على محورها يومياً . إن ما يذكره آيتيوس عن إكفانتوس مقروناً باسم هيراكليديس ، وحتى ذكره للأخير قبل الأول ، يدل على أنهما كانا متعاصرين (ولد هيراكليديس حوالى عام ٣٨٨ وتوفى فيما بين ٣١٥ — ٣١٠)[٣٧]. ويروى أن إكفانتوس جمع فى فلسفته بين عقائد الفيثاغوريين وعقائد الذريين ، ولهذا أيضاً يصح وضعه فى القرن الرابع ، بل وفى زمن هيراكليديس .

الآراء الفلكية للويكيپوس وديموكريتوس :

كان مؤسسا النظرية الذرية عالمين عظيمين فى الكون وفلكيين محدودين . ولندرس ديموكريتوس وحده :

« قال إن عدد الأكوان المرتبة غير محدود وأنها مختلفة حجماً ، وإنه لا يوجد فى بعضها

شمس ولا قمر ، وفى بعض آخر يوجدان معاً بحجم أكبر مما عندنا ، وفى بعض ثالث توجد عدة شموس وأقمار . وإن الأبعاد بين الأكوان المرتبة ليست متساوية فهنا تتزايد وهناك تتناقص ، وبعض الأكوان يتزايد وبعضها يزدهر وبعضها ينحل ويتلاشى ؛ وهنا تولد أكوان وهناك تختفى . إلا أنها تفنى من جراء اصطدام أحدها بالآخر . وبعض الأكوان المرتبة قاحل لا حيوان فيه ولا نبات ولا ماء إطلاقاً . وإن الأرض ولدت من النجوم فهى أول ما ولد من كوننا وإن القمر هو أقرب النجوم إلينا ، ثم تأتى بعده الشمس وبعدها النجوم الثابتة ، على أن السيارات ليست كلها على ارتفاع واحد . ولقد سخر من كل شىء وكأنما كل الأشياء بين الناس قمينة بالسخرية[٣٨] » .

صاغ هذه العبارات القديس هيبوليتوس (النصف الأول من القرن الثالث) (St. Hippolytos) ، وإذا افترضنا أنها تمثل أفكار ديموكريتوس فإنها تسترعى النظر، لجرأتها ولأنه لا يوجد ما يبررها . ومن الواضح أنه لم يكن لدى ديموكريتوس شىء يعتمد عليه فى تكوين مثل هذه الآراء، ومع ذلك أيد علم الطبيعة الحديث هواجسه الفطرية . ولنضرب مثلا : إننا نعلم الآن أن عدد الأكوان، إن لم يكن لا نهائياً ، فهو على أقل تقدير كبير كل الكبر إلى حد يروع الخيال ؛ ونعلم أيضاً أن ثمة أنواعاً من النجوم عديدة مختلفة وأنها فى أدوار شتى من التطور ، فبعضها فى تطور صاعد وبعضها نازل . لا ريب فى أن ذلك ليس بعلم طبيعى ، وإنما هو خيال شعرى . وعلى كل حال ، كانت بعض آرائه الكونية من وحى النبوة كما كانت نظريته الذرية . إذ كيف استطاع وضع مثل هذه التكهنات ؟ فى ذلك ما يدعو إلى العجب ؛ ثم لماذا أقحم نفسه ، وهو فى حالة لا قرار لها ، فى ميدان الرجم بالغيب بأمور كهذه ؟ .

ومن الجهة الأخرى ، لم يعتقد ديموكريتوس أن الأرض مستديرة الشكل (كان تصور كروية الأرض فيما يظهر احتكاراً فيثاغورياً لم يعن رجال المذاهب الأخرى بالتطفل عليه) . وقد أمضى بعض الوقت فى زيارة للشرق فكانت آراؤه فى الفلك بابلية على التأكيد . ويعالج ديموكريتوس فى أحد كتبه الأبواب

الأربعة ذاتها : الفلك الوصفى ، والجغرافيا ، وفن البولو ، وعلم الظواهر الجوية . ويمكن إعادة إنشاء البحث الأول مما ذكره فتروفيوس[٣٩]؛ وربما كان مقروناً بخرائط فلكية مزينة ، على الطراز البابلى ، بصور الآدميين والحيوانات التى أصبحت تمثل فيما بعد صور مجموعات[٤٠] من النجوم . وعلى الرغم من فكرته فى أن الأرض مسطحة « شبيهة بالقرص فى جوانبها ، ومجوفة فى الوسط[٤١] » ، فقد تقبل احتمال وجود « مناطق على سطحها » ، ولكن على الطراز البابلى . لقد قسم البابليون الكرة السماوية إلى ثلاث مناطق متحدة المركز : الأولى طريق آنو (Anu) وهى فوق القطب ، وطريق النجوم القطبية؛ والثانية طريق إنليل (Enlil) وهى الوسطى ، أو منطقة البروج ؛ والثالثة طريق إيا (Ea) وهو إله العمق ، بل العمق السحيق . لقد تخلى ديموكريتوس عن ذلك التقسيم الثلاثى وبدله بتقسيم ثنائى إلى نصفى كرة : نصف شمالى ونصف جنوبى . وكان القول بوجود مجموعات نجوم جنوبية تختلف عن المجموعات الشمالية يبدو معقولا ، ذلك لأنه إذا ما ساح المرء جنوباً ، وعبر البحر المتوسط ، واتجه نحو أعلى النيل ، ظهرت له تدريجياً مجموعة نجوم جديدة . ولكن كيف استطاع أن يوفق بين وجهات النظر هذه وفكرته فى تسطح الأرض ؟ الأرض عنده مسطحة ، ولكنها ليست عمودية مع محور الكرة السماوية . وهذا رأى لا يؤذن بشيء فى المستقبل ، إلا أن تصورات ديموكريتوس مهدت السبيل لآراء يودوكسوس (النصف الأول من القرن الرابع ق. م) ، وأراتوس السولى (Aratos of Soli) من بعده ؛ وهى التى ظلت شائعة زمناً طويلا[٤٢].

كان ديموكريتوس على علم بآراء اليونانيين فى الفلك . وخاصة آراء أناكساجوراس ، الذى سار ديموكريتوس على نهجه .. غير أن هناك فرقاً عجيباً بينهما من حيث ترتيب السيارات . فبينا وضعها أناكساجوراس بالترتيب الآتى : القمر ، فالشمس ، فالسيارات الخمس ثم النجوم ، وضع ديموكريتوس الزهرة بين القمر والشمس . وهذا يعنى أنه أدرك أن الزهرة سيارة سفلية ، ولكن لم يدرك عطارد ، فمهد الطريق بذلك القدر لهيراكليديس البونتى .

أينوبيديس الخيوسى :

يعزى إلى الرياضى أينوبيديس ، الذى كان أصغر من أناكساجوراس ومعاصراً له ، اكتشافان فلكيان . الأول هو ميل مستوى فلك البروج ، ميل السمت . وقد لمح أناكسيماندروس الميليتى (Anaximander of Miletos) من قبل فكرة الميل ، والواقع من الملاحظات التى أجراها باستعمال المزولة (وهى أبسط الآلات الفلكية) ، لم يكن فى الإمكان استنباط الفكرة فحسب ، بل كان قياس الميل ممكناً أيضاً. ولكن ، حتى لو قاس أناكسيماندروس الميل لمستوى الفلك ، لشق على المرء أن يقول إنه فهم هذا الميل حقاً . ومن جهة أخرى ، إذا كان أينوبيديس (وأغلب الظن أنه كان) على علم بآراء الفيثاجوريين فى الفلك فقد أصبح فى إمكانه أن يفهم حقاً ميل الفلك ، وأن يكشفه .

إن القياس الباكر لميل الفلك ، ميل السمت ، الذى عرفه إقليدس (وهو ٢٤° ، والقيمة الحقيقية : ٢٧ ٢٣ ٢٣°) لم يقم به أينوبيديس ، وإنما قام به فلكيون آخرون أتوا بعده . وقد اقترح البعض أن إقليدس اهتم بمسائل رياضية معينة لأن لها تطبيقات فى علم الفلك ، وكمثال على ذلك ، يقدم بروكلوس الإنشاء الهندسى الذى قام به إقليدس للمضلع المنتظم ذى الخمسة عشر ضلعاً[٤٣]. « لأننا حين ننتهى من رسم الشكل ذى الخمس عشرة زاوية داخل الدائرة التى تمر فى القطبين نحصل على بعد كل من دائرة الاستواء ومنطقة البروج عن القطبين ، ذلك لأنهما تبعدان الواحدة عن الأخرى بمقدار ضلع الشكل ذى الخمس عشرة زاوية . »[٤٤]

إن اكتشافه الثانى هو « السنة العظيمة » (Megas-eniautos) وطولها ٥٩ عاماً ، وربما اقتبسها من بابل . إذا افترضنا أن طول السنة وهو ٣٦٥ يوماً ، والشهر ٢٩ يوماً ونصف اليوم ، فإن العدد ٥٩ هو أصغر عدد صحيح من السنين يحوى عدداً صحيحاً (٧٣٠) من الشهور[٤٥]. وهذا أمر يحار فيه المرء كثيراً ، لأنه إن صح أن المصريين عرفوا طول السنة ذاك وهو ٣٦٥ يوماً ، منذ عهد

الأسرة الثالثة (فى القرن الثلاثين) ، فإن البابليين عرفوا دورة مداها ١٩ عاماً منذ عام ٧٤٧ . وحوت تلك الدورة شهوراً ناقصة وشهوراً كاملة طولها على التعاقب ٢٩ يوماً ، ٣٠ يوماً ، يضاف إليها سبعة شهور مضافة لضبط التقويم ، فكانت تلك السنة أدق من السنة المصرية[٤٦] . أما دورة السنوات الثمان (Octaeteris) لكليوستراتوس التنيدى (Cleostratos of Tenedos) فتضمنت أن طول السنة هو ٣٦٥ ١/٤ أو ٣٦٥ ٧/١٦ يوماً. فما الذى ساق أوينوبيديس إلى الإصرار على ٣٦٥ يوماً؟ الرأى عند كنسورينوس (النصف الأول من القرن الثالث)(Censorinos) أن أوينوبيديس جعل طول السنة ٣٦٥ ٢٢/٥٩ يوماً . أما تفسير تانيرى لذاك التناقض فهو كما يأتى : بعد أن وجد أوينوبيديس أن عدد الشهور فى السنة العظيمة يساوى ٧٣٠ (= ٣٦٥ × ٢) ، كان عليه أن يعين عدد الأيام، ففعل ذلك على أساس التقويم الأثينى ، مسجلا الأطوال الصحيحة للشهور القمرية الاقترانية (والشهر الاقترانى هو الزمن بين بدرين متعاقبين أو مطلعى هلالين متعاقبين) ، وكان هذا العدد يساوى ٢١٥٥٧ يوماً * ، وإذا قسم على ٥٩ يكون خارج القسمة ٣٦٥ ٢٢/٥٩ يوماً وهو طول السنة . ويجب التنويه إلى أن أوينوبيديس وفيلولاوس كانا على علم (مع خطأ بنسبة واحد فى المائة) بالأدوار الزمنية الصحيحة تقريباً لحركات السيارات الآتية : زحل ، والمشترى ، والمريخ ؛ وكان من الممكن الحصول على معرفة كهذه من بابل[٤٩].

سافر أوينوبيديس إلى مصر بعيد عام ٤٥٩ ، أما إصلاحه للتقويم، الذى أعاد به تثبيت السنة العظيمة التى ابتكرها الفيثاغوريون ومدتها ٥٩ سنة ، فقد نشر على لوحة كبيرة من البرنز عرضت فى أولمبيا عام ٤٥٦ . وهكذا فى استطاعة جميع زائرى الألعاب الأولمبية أن يعلموا بالإصلاح الذى قام به أوينوبيديس لو أنهم اهتموا به اهتماماً كافياً . ولكن إذا أخذنا بالنتائج حكمنا بأنهم لم يأبهوا له كثيراً .

* العدد المذكور حاصل ضرب ٧٣٠ فى طول الشهر الاقترانى وهو ٢٩,٥٣٠٦ يوماً شمسياً وسيطاً. (المترجم) .

ميتون ويوكتيمون :

أجرى ميتون ويوكتيمون الملاحظات الصحيحة الأولى للانقلابين الشمسيين بمدينة أثينا عام ٤٣٢ . واستطاعا بوساطة هذه الملاحظات أن يعينا أطوال الفصول تعييناً أدق من التعيينات السابقة . وأدخلا فى ذلك العام نفسه دورة جديدة ، تدعى الدورة الميتونية (Metonic) ومدتها ١٩ سنة شمسية ، أى ما يعادل ٢٣٥ شهراً قمرياً ؛ فيستدل ضمناً من هذا أن طول السنة يساوى $\frac{٥}{١٩}$٣٦٥ يوماً تقريباً . وهذا التقدير أطول من الطول الحقيقى بثلاثين دقيقة وعشر ثوان ، إلا أنه كتقدير تقريبى أفضل بكثير من تقديرات كليوستراتوس وأوينوبيديس ، كما يظهر من الجدول الآتى :

طول السنة

	يوماً	ساعة	دقيقة	ثانية
كليوستراتوس	٣٦٥	$\frac{١}{٢}$١٠		
أوينوبيديس	٣٦٥	٩		
ميتون	٣٦٥	٦	١٨	٥٦
السنة الاعتدالية الوسطى	٣٦٥	٥	٤٨	٤٦

إن معرفتنا بالملاحظات التى أجراها ميتون ويوكتيمون مستمدة من ورقة بردى (محفوظة الآن فى اللوفر) وتدعى الفن اليودوكسى The art of Eudoxos (أو ورقة البردى اليودوكسية) . وهى على الراجح مذكرات دارس أقام بالإسكندرية من عام ١٩٣ إلى عام ١٩٠ تقريباً . وليس لنا أن نتابع هذه القصة لأنه لا يمكننا أن نفسح للتقويم مكاناً كبيراً ، فإنه يبعدنا عن تاريخ الفلك ويجرنا إلى ميدان تسيطر فيه الاعتبارات[٤٨] الدينية والسياسية على المعرفة الفلكية .

التكنولوجيا والهندسة

يكاد تاريخ الفنون والصناعات وفروع مختلفة من الهندسة والهندسة المعمارية يكون قصة لا نهاية لها ، وينبغى أن نقتصر على أمثلة قليلة لها دلالتها .

أرتاخايس الفارسى

كان أحد الأعمال الهندسية البارزة التى شهدها القرن حفر قناة عبر شبه[٤٩] جزيرة آتوس (Athos) بأمر من كسركسيس (Xerxes) ملك الفرس ، (٤٨٥—٤٦٥) . ولما كانت الملاحة خطرة جداً حول شبه الجزيرة الجبلية تلك، فقد أمر الملك العظيم بحفر القناة حتى يطمئن إلى سلامة أسطوله . وإليك بعض التفاصيل التى أوردها هيرودوت[٥٠] : كلف بهذا المشروع (Epestasan tu ergu) الفارسيان بوباريس (Bubares) ابن ميجابازوس (Megabazos) وأرتاخايس بن أرتايوس (Artaios) ، وكان أرتاخايس ذا مكانة عالية عند الملك ، وذا طول فارع عندما ينتصب على قدميه ، فكان أطول رجل فى فارس (طوله ثمانى أقدام !) . وتوفى أثناء تنفيذ العمل أو بعد إنجازه ، فحزن عليه الملك والجيش وشيع جثمانه إلى مثواه باحتفال رائع مهيب . ويبلغ طول البرزخ ٢٥٠٠ ياردة ، ولا يزال فى الإمكان مشاهدة معالم الحفر فى الوقت الحاضر ، أو أنها كانت تشاهد قبل قرن : « تكون القناة سلسلة من الأحواض يتراوح عمقها بين قدمين وثمانى أقدام ، أما عرضها فمن ٦٠ إلى ٩٠ قدماً ، وقد شقت فى طبقات من الحجارة الكلسية ورمال تكونت فى العصر الجيولوجى الثالث ، وعمقها الأقصى على الراجح لا يزيد حيثما كان عن ٦٠ قدماً تحت السطح الطبيعى للأرض المجاورة التى يبلغ أقصى ارتفاعها عن سطح البحر ٥١ قدماً فقط » (رولنسون) (Rawlinson)[٥١] .

أجاتارخوس الساموسى (٥٢)

قيل عن أناكساجوراس (ص ٢٤٣) أنه ألف كتاباً في علم المناظر . وكان أجاتارخوس ، الذى ولد حوالى عام ٤٩٠ وأقام بأثينا من عام ٤٦٠ إلى عام ٤١٧ ، رساماً مارس الفن الجديد فعلا فأخرج مناظر أو مشاهد مسرحية للروائى أيسخيولوس (Aischylos) . وهو على ما نعلم أول رسام استعمل قواعد المنظور على مقياس واسع (أى فى الرسم على الجدران أو فى رسم المناظر ، خلافاً للرسم على الزهريات) . ولعله فعل ذلك قبل أن يؤلف أناكساجوراس كتابه وأخضع الفن لأحكام العقل ؛ وذلك لوجود الصلة بين أناكساجوراس والروائى يوريبيديس (Euripedes) . ولم يقتصر أجاتارخوس على ممارسة فن المنظور فحسب ، بل كتب فيه أيضاً مذكرة فنية (Hypomnemata) . ولسنا نستطيع الحكم على ما كتبه بمقارنته بكتابات أناكساجوراس وديموكريتوس لأن جميع كتاباتهم فقدت . ومما له دلالته على وجه ما ، أن ثلاثة رجال من ذاك الزمن وهم أجاتارخوس، وأناكساجوراس ، وديموكريتوس كانوا على صلة بفن المنظور ، ومن ثم يمكننا أن نفترض باطمئنان أن الفن بدأ فى ذاك الزمن ، وأن ذلك كان أمراً طبيعيًّا ، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنه كان العصر الذهبى للتراجيديا .

هيبوداموس الميليتى (٥٣)

ولدينا رمز آخر للنضج اليونانى جدير بالاعتبار ، ألا وهو ظهور أول مهندس لتخطيط المدن . كان هيبوداموس مهندساً معماريًّا ، وهو الذى وضع تخطيطاً لإنشاء ميناء أثينا ، بيرايوس (Peiraieus) (قبل عام ٤٦٦) ، ولإنشاء المستعمرة الأثينية تورى(٥٤) (Thurii) عام ٤٤٤ ، غير أنه لم يكن مسئولا عن بناء رودس (Rhodes) (عام ٤٠٨)، وهكذا يمكننا القول إنه اشتهر بعيد منتصف القرن .

ولم يعن بإنشاء المدن من الناحية البنائية المادية (الشوارع والساحات ، ومواضع المبانى العامة ، وما إليها) فحسب ، بل عنى أيضاً بإنشائها من الناحية الخلقية ، فكان فى تفكيره السياسى أحد السابقين على أفلاطون . وحاول أن يؤسس دستوراً مثاليًّا تناوله أرسطو بالنقد بلا هوادة . غير أن تعريف أرسطو به معبر وطريف :

« هيبوداموس بن يوريفون (Euryphon) ، من أهل ميليتوس، وهو الذى اخترع فن تخطيط المدن ، وأشرف على إنشاء بيرايوس ، — رجل غريب الأطوار ، قادته شهرته للظهور إلى شذوذ عام فى حياته ، مما جعل البعض يظنه متصنعاً فى تصرفه (ذلك أنه كان يتزين بالشعر المسترسل والحلى الثمينة ؛ وإن كان يلبسها على ثوب رخيص دافئ شتاء وصيفاً) ؛ وفيما عدا طموحه فى أن يكون ضليعاً فى علم الطبيعة ، فإنه كان أول من قام بتحريات عن أفضل أنواع الحكم وإن كان غير سياسى .

« كانت المدينة الهيبودامية تتألف من ١٠,٠٠٠ مواطن مقسومين إلى ثلاثة أقسام : قسم الصناع ، وقسم الزراع ، وثالث يتألف من حماة الدولة المسلحين . وقسم هيبوداموس الأرض كذلك إلى ثلاثة أقسام : قسم مقدس ، وقسم عمومى ، وثالث خصوصى : فالأول خصص لإقامة العبادة المعتادة للآلهة ، والثانى لعول المحاربين ، والثالث للمزارعين . وقسم القوانين أيضاً إلى ثلاثة أنواع ، لا أكثر ، لاعتقاده أن هناك ثلاثة موضوعات للمقاضاة : التحقير ، والأذى ، وقتل النفس[٥٥] (ويتلو ذلك وصف مسهب ومناقشة) .

وأشد ما روع أرسطو هو أن هيبوداموس لم يكن ذا خبرة سياسية أو إدارية كرجل دولة أو إدارة ، بل كان فيثاغوريًّا حالماً ، غير أن بعض أحلامه كانت قابلة للتطبيق أكثر مما قدر لها أرسطو . ولنضرب لذلك مثلا ، أراد هيبوداموس أن تحوى مدينته مزارعين يزرعون أراضيهم لمنفعتهم الخاصة ، فتساءل أرسطو : « وما نفع المزارعين للمدينة ؟ » . أجل ، لابد أن هيبوداموس

آمن بأن « مدينة ذات حدائق » لهى مكان أفضل صحياً لسكنى كل مواطن من مدينة تتألف من البيوت والمخازن، أو لم يكن هيبوداموس محقاً ؟ لقد كان فى الواقع حالماً ، ولكنه كان حالماً موفقاً ، بل كان السلف البعيد لرجال مثل باتريك جيديس (١٨٥٤ — ١٩٠٢) (Patrick Geddes) فى عصرنا نحن ، ممن حاولوا التوفيق بين المقتضيات المادية فى تخطيط المدن والوجهتين[٥٦] الخلقية والاجتماعية .

مناجم الفضة فى لوريون[٥٧]

قبيل الوصول إلى رأس سونيون (Sunion) وهو طرف أتيكا (Attica) الجنوبى ، يجتاز المرء منطقة لوريون (Laurion) الغنية بالمعادن . وقد جرى التعدين فيها ، وهى تبلغ قرابة ٨٠ كيلومتراً مربعاً ، من زمن موغل فى القدم ، (ولنقل منذ العصر الحديدى الباكر) . وكان اليونانيون يشتغلون بالتعدين ليحصلوا خاصة على جالينا (Galena) فضية ، وهى خامة تحوى ٦٥ فى المائة من الرصاص ، كان فى الإمكان الحصول على فلزات أخرى كالزنك والحديد ؛ بل والذهب ، ولكن بقلة لأنه كان يستخلص بالطرائق القديمة . وكانت أتيكا هى المنتج الوحيد للرصاص فى دنيا اليونان ، والفضل لمناجم لوريون . وكان مطلب الأثينيين الرئيسى الحصول على الفضة ، واكتشفت حول بداية القرن الخامس خامات أغنى بالفضة . فأخذت الدولة على عاتقها مهمة استغلال[٥٨] مناجمها ، وكان استغلالها مثمراً أيما إثمار ، إلى حد أن كل مواطن قبض منها حوالى عام ٤٨٣ منحة مالية . إلا أن ثميستوكليس ، الذى أحس بالخطر الفارسى قبل الآخرين وأدرك الحاجة إلى أسطول بحرى قوى ، أقنع الحكومة الأثينية بتخصيص دخل مناجم لوريون لذلك الغرض الملح . فكان النصر فى سلاميس (Salamis) عام ٤٨٠ ثمرة تلك السياسة . ومكنت هذه الفضة فيما بعد بركليس من إعادة بناء أثينا بصورة رائعة . وحين نعجب بالبارثينون (Parthenon) يجب أن نذكر دائماً مناجم لوريون وسخرة العبيد ، اللتين جعلتا من الممكن إقامة البنيان .

وقد لا يرضى أن نذكر أن العبقرية وحدها لم تكن كافية لخلق تلك التحفة الفنية ، بل لابد لها من التعدين والعبودية ، وفى وسعنا أن نطرد تلك الخواطر الأليمة فى غير خداع .

استغلت هذه المناجم فى القرن الخامس فوق طاقتها ، وكان العمل يجرى فيها إلى ما قبيل منتصف القرن التالى ، دون أن ينقب عن مناجم جديدة . وسبق لكسينوفون[٥٩] (Xenophon) أن أبدى هذه الملاحظة « واقترح نظاماً اشتراكياً لاستغلال المناجم ، فتقوم الدولة باستئجار العدد اللازم من العبيد ، لندرة رأس المال الخصوصى ، إلا أن الخطباء كانوا يرددون أن فى الإمكان تحصيل كثير من المال فى أثينا للاستثمار فى مغامرات تجارية وغيرها ، فتوقف التنقيب يرجع إذن إلى أن الربح من المناجم أصبح ضئيلا ، أو إلى أن أهم الرواسب المعدنية سبق استكشافه فزاد بذلك خطر الإخفاق فى حفر مناجم جديدة » . ولقد بذلت جهود لتنشيط العمل فى المناجم فى القرنين الثالث والثانى . ولكن عرقلتها مشاكل العمل وأوقفتها ثورة العبيد عام ١٠٣ . واضطر الأثينيون فى زمن سترابو (Strabo) (النصف الأول من القرن الثانى ق.م) إلى معالجة الحجارة والخبث اللذين كانا قد طرحا جانباً ؛ وفى زمن بوزانياس (Pausanias) (النصف الثانى من القرن الثانى) كانت المناجم مهجورة تماماً . ومنذ عام ١٨٦٠ أعيد استغلال المناجم ومحتوياتها بطرق أفضل ولأهداف جديدة ، وقد أثمر هذا الاستغلال ، لا لتعدين الفضة ، بل لتعدين الرصاص ، والزنك والمنجنيز . ويمكن مشاهدة آثار الاستغلال القديم فى أماكنها حتى الآن ، من منافذ ضيقة ، ودهاليز ، وأفران ، وصهاريج ، وموائد للغسل ، ومعدات أخرى .

لا ريب فى أن صناعة التعدين وصناعة القزات ليستا من مستحدثات القرن الخامس ، فقد مارسها المصريون وأقوام آخرون من قبل على مدى آلاف السنين . ولم يكن احتكار الدولة للصناعتين جديداً ، ولا استعمال الخامات فى صنع التماثيل والمعدات العسكرية حديثاً . وطبيعى أن الحكام إذا ما وجدوا

ثروات كهذه استعملوها وأساءوا استعمالها لقضاء حاجاتهم الخاصة . على كل حال ، كان استغلال مناجم لوريون فى القرن الخامس أول استغلال عرفت عنه بعض التفاصيل من النواحى الأثرية ، والسياسية والاقتصادية . وإنه لأمر هام جداً أن نذكر أن مجد أثينا لم يوطد على أساس العبقرية اليونانية فحسب، بل على استغلال مناجم الفضة أيضاً . ولن توجد الروح الإنسانية منفصلة عن الجسم ، ولا الجمال عن الكدح والألم ، ولا الاختراعات الروحية الأخرى عن الاسترقاق وعدد لا يحصى من الويلات .

كانت هناك مناجم أخرى فى بلاد اليونان عدا مناجم أتيكا . وقد أشار هيرودوت إلى مناجم بالقرب من جبل بانجايوس (Pangaios) (فى مقدونيا) ، وفى تراقيا (Thrace) ، وجزيرتى سفنوس (Siphnos) وثاسوس (Thasos) .

أما التعدين فى فلسطين وغربى آسيا فإنا نجد له صدى خافتاً فى سفر أيوب إذ يقول : « يوجد قطعاً عروق للفضة وموضع للذهب حيث يجدونهما . ويستخرج الحديد من التراب ، ويسكب الحجر نحاساً . كل ذلك وضع حداً للظلمة ، ويدفعنا إلى أن نبحث فى كل مكان عن الكمال ، عن حجر الظلمة ، وظل الموت »[٦٠] وهذا يتضمن وجود بعض الخبرة فى استخراج الخامات من المناجم ، بل وفى صناعة التعدين . وقد وجدت فى ذاك الزمن خبرة كهذه فى بلاد شتى ، فى جميع أرجاء العالم ، إلا أن عمال المناجم والتعدين كانوا أناساً أميين ممن تنقصهم الرغبة والقدرة على وصف خبراتهم . إن صناعة التعدين ، أكثر من أية صناعة أخرى ، كانت ولا تزال مقرونة بقدر هائل من الجهالة والخرافة[٦١].

تعليقات

(١) زينون هو أحد شخصيات الحوار فى «محاورة بارمينيديس» لأفلاطون . ومع ذلك لا يناقش أفلاطون مشاكل زينون الرياضية بل يناقش حججه ضد الكثرة فقط ، ويحاول أن يبخسه حقه عند مقارنته ببارمينيديس . وقد لاحظ أفلاطون فى محاورته فيدروس (Phaidros) ٢٦١د ، أن زينون عرف كيف يجعل الشيء والشيء نفسه يظهران متشابهين ومختلفين ، واحداً ومتعدداً ، ساكنين ومتحركين .

(٢) راجع مقالة فلوريان كاجورى : «الغاية من حجج زينون على الحركة» . فى مجلة ايزيس ٣ ، ٧ — ٢٠ ، ١٩٢٠

(Florian Cajori, The purpose of Zenon arguments on motion, Isis 3, 7-20, 1920).

وتلخص المقالة الجدل فى الموضوع إلى زمن بول تانيرى (Paul Tannery) الذى يشاركه كاجورى فى استنتاجاته . وعند تانيرى أن زينون قاوم الرأى القائل بأن النقطة وحدة ذات وضع . راجع أيضاً المصادر الآتية : (ا) فيليب . ى . ب جوردان ، «السهم الطائر . خطأ فى حساب الزمن»

Philip E.B. Jourdain, "The flying Arrow. An anachronism." Mind 25, 42-55 (Aberdeen 1916) (Isis, 3, 277-278 (1920)).

(ب) ت . ل . هيث ، تاريخ الرياضيات عند اليونان .

T.L. Heath, History of Greek Mathematics, Oxford 1921, Vol. 1 pp. 271-283. (Isis 4, 532-535 (1921-1922)).

(٣) يثنى أرسطو على ديموكريتوس فى كتاب : الكون والفساد ، ٣١٥ أ ٣٤ وما يليها ؛ أما أرشميدس فيذكر كشف ديموكريتوس فى كتابه «المنهج» . وقد اقتبس منه هيث النص المتعلق بالموضوع وأورده فى كتابه : «المختصر فى الرياضيات عند اليونان»

Heath Manual of Greek mathematics (Oxford 1931) p. 283.

(٤) الفعل Hippocrateo باليونانية يعنى : فرس أى كان حاذقاً فى أمر الخيل ؛ وربما كان الاسم Hippocrates ملائماً لضابط بسلاح الفرسان .

(٥) تبلغ مساحة خيوس ٣٣٥ ميلا مربعاً ، ولم يولد بها أحد أعاظم الرياضيين فحسب ، بل ولد بها أيضاً رياضى كبير هو أينوبيديس ، والمؤرخ تيوبومبوس (Theopompos) ويدعى أهل الجزيرة أن الشاعر هوميروس ولد بها أيضاً . ويزودنا فوستيل دى كولانج (Fustel de coulanges) بمعلومات وافرة فى مقالته : «مذكرة عن جزيرة خيوس» التى نشرت بالفرنسية فى Arch. Missions Scientifiques ، ٥ ، ٤٨١ (١٨٥٦) وأعيد طبعها فى كتابه : «مسائل تاريخية» (باريس ١٨٩٣) ، ص ٢١٣ — ٣٣٩ (Questions hitoriques, Paris 1893, pp. 213-339) ،

ولكنه يقع فى الخطأ الآتى (ص ٣١٨) : « كثيراً ما ذكر القدماء عن واحد اسمه أبقراط الخيوسى أنه كان رياضيا وفلكيا ومهندساً » . ويدل هذا على أن واحداً اسمه فوستيل دى كولانج مهما امتاز فى نواح أخرى ، فإنه لم يكن رياضيا ولا مؤرخاً للعلوم .

تقع جزيرة كوس جنوبى جزيرة خيوس. والأولى أصغر من الأخيرة بكثير ، وهى فى الواقع صغيرة جدا (ومساحتها ١١١ ميلا مربعاً) . وقد ولد بها رجل ألمعى وحيد هو « أبو الطب » أبقراط .

(٦) أرسطو ، كتاب الأخلاق إلى أوديموس ، ٧ — ١٤ ، ١٢٤٧ أ .

(٧) يذكر قسطنطين ج يافيس (Constantine G. Yavis) فى كتابه : Constantine G. Yavis, Greek altars, Saint-Louis; Saint Louis University Press, 1949, pp. 169-170, أن هذه المعابد كانت مكعبة الشكل تقريباً ولكنها على كل حال ليست فى ديلوس بل فى قبرص . معبدان منها فى فونى (Vouni) ، وربما يرجع تاريخهما إلى القرن الخامس فنازلا ، أما أبعاد قاعدتيهما فكما يأتى: ١,٥٩ ؛ ١,٧ متراً ، ٢,٧ ؛ ١,٥٤ متراً — وإذن هما بعيدتان كل البعد عن الشكل المربع .

(٨) أثبت يوهان هاينريخ لامبرت (Johann Heinrich Lambert) سنة ١٧٦٧ أن ط (نسبة محيط الدائرة إلى قطرها) عدد لا منطق ، وأثبت لوجاندر (Legendre) أن ط٢ ، أيضاً عدد لا منطق سنة ١٧٩٤ ؛ وأثبت فرديناند لندمان (Ferdinand Lindemann) سنة ١٨٨٢ ، أن ط عدد متسام ، (Transcendental) . راجع مجلة أوزيريس (Osiris) : ١ ، ٥٣٢ ، ١٩٣٦ .

وقد بحث فيليكس كلاين (Felix Klein) ١٨٤٩ — ١٩٢٥ المسائل الثلاث على ضوء الرياضيات الحديثة فى كتابه : « مناقشة مسائل مختارة فى الرياضيات الابتدائية » (Vortrage über ausgewahlte Fragen der Elementarmathematik) (ليبزج ١٨٩٥ ، الترجمة الإنجليزية ، بوسطن ١٨٩٧ ، المنقحة ، نيويورك ، ١٩٣٠ (ايزيس : ١٦ ، ٥٤٧ (١٩٣١) .

(٩) إقليدس ، ١٢ ، ٢ .

(١٠) وردت فى تاريخ الهندسة لأوديموس (٢ — IV : ق. م) وحفظت فىشرح سمبليكيوس (١ — VI) على كتاب الطبيعة لأرسطو . فثمة ألف سنة تقريباً بين سمبليكيوس وأبقراط ! ويمكن الحصول على النص بسهولة ، فقد نشره بول تانيرى بالفرنسية واليونانية فى « مذكرات الجمعية العلمية فى بوردو » : ٥ ، ٢١٧ — ٢٣٧ ، (١٨٨٣) ، وأعيد طبعه فى « مذكرات علمية » (تولوز ١٩١٢) ، الجزء الأول ص ٣٣٩ — ٣٧٠ . وقد نشر فرديناند روديو (Ferdinand Rudio) النص باليونانية والألمانية (١٩٤ ص ، ليبتزج ، ١٩٠٧) .

(١١) إن الخمس الفيثاغورى الذى رسمت عليه الأحرف (Hygieia) (ص ٤٣٢ ، جـ ١) سابق لأبقراط على الراجح ، ولكن استعمال الحروف فى الأشكال لتسهيل المناقشة الهندسية مختلف جداً عن استعمالها لغاية رمزية .

(١٢) كتب عنه كورت فون فريتز (Kurt-Von Fritz) مقالة قيمة فى دائرة معارف الآداب والعلوم الألمانية (Pauly Wissowa) (١٩٣٧ ، المجلد ٣٤ ، ٢٥٨ — ٢٢٧٢) .

(١٣) بيرون (Pyrrhon) ، وهو مؤسس مدرسة الشكاك ، نشأ أيضاً بإيليس .

(١٤) نقول ثيودوروس الرياضي لأن ثيودوروس البرقاوى يثير فى أذهان أكثر الناس ذكرى رجل آخر ، أشهر منه ، يدعى أحياناً ثيودوروس الملحد ، وهو تلميذ لأريستيبوس البرقاوى (Aristipos of Cyrene) الذى كان تلميذاً لسقراط . وقد نفى ثيودوروس الملحد من برقة وأقام مدة من الزمن بالإسكندرية ، وفى أخريات حياته سمح له بالعودة إلى بلدته التى نشأ فيها حيث توفى على الراجح فى نهاية القرن الرابع . وصفوة القول ، لم يكن الثيودوروسيان البرقاويان متعاصرين ، فالرياضى يرقى تاريخه إلى النصف الثانى من القرن الخامس ، بينما يرقى تاريخ الفيلسوف إلى النصف الثانى من القرن الرابع . وكانت برقة ، وهى أكبر مدينة فى ولاية برقة ، مركزاً ثقافياً هاماً إذ لم يولد بها أريستيبوس والثيودوروسيان فحسب ، بل ولد بها أيضاً الشاعر كاليماخوس (وقد توفى سنة ٢٤٠ تقريباً) (Callimachos) والمطران سينيسيوس (١ — V) (Synesios)

(١٥) جرى الحوار على ما يظن سنة وفاة سقراط ، فى عام ٣٩٩ ، ولم يكتب إلا بعد مضى ما يقرب من ثلاثين عاماً أى سنة ٣٦٨ — ٣٦٧ .

(١٦) لم أخصص له مقالة فى كتابى : « المقدمة » لأن تاريخه مبهم كل الإبهام . وربما كان من أهل القرن السادس أو القرن الذى يليه . وإنى أسميه هيباسوس الميتابونتى مع أن مولده ينسب إلى موطنين آخرين : سيباريس ، وكروتون . وعلى كل حال ، تقع البلدتان فى المنطقة نفسها حول خليج تارانتو (Taranto) ، عند كعب الحذاء فى خريطة إيطاليا .

(١٧) نذكر على سبيل تذكير القارئ أن العدد (ب) يكون الوسط الحسابى للعددين ا ، ح إذا كان $\text{ب} = \frac{\text{ا} + \text{ح}}{٢}$ ، ويكون وسطهما الهندسى إذا كان $\frac{\text{ا}}{\text{ب}} = \frac{\text{ب}}{\text{ح}}$ ، ويكون وسطهما التوافقى إذا كان $\frac{\text{ا}}{\text{ح}} = \frac{\text{ا} - \text{ب}}{\text{ب} - \text{ح}}$ ، أو إذا كان $\frac{١}{\text{ح}} - \frac{١}{\text{ب}} = \frac{١}{\text{ب}} - \frac{١}{\text{ا}}$. فيقال إن الأعداد الثلاثة ا ، ب ، ح تؤلف على التوالى متوالية عددية ، أو متوالية هندسية ، أو متوالية توافقية .

(١٨) أرسطو ، التحليلات الأولى ، ٤١ ا ، ٢٦ — ٣٠ .

(١٩) راجع مقالة كورت فون فريتز : « اكتشاف هيباسوس الميتابونتى للاقياس فى المجلة الرياضية الأمريكية : (Ann. Math.) ، ٤٦ ، ٢٤٢ — ٢٦٤ ، (١٩٤٥) ، وقد نقلنا الشكل من مقالته بعد الاستئذان من أولى الفضل .

(٢٠) حتى ديموكريتوس مهد لذلك ، لأنه عالج فى أحد كتبه المقادير اللامنطقية والأجسام الصلبة (الذرات ؟) ؛ (Peri alogon grammon cai naston) لكن ينبغى ألا ننسى أنه عاش فى أخريات القرن الرابع . إن العنوان يحيرنا ، فهل حاول أن يجد علاقة بين المقادير اللامنطقية والذرات ؟ .

(٢١) ينبغى ألا يخلط ، وكثيراً ما حدث ، بينه وبين معاصره الخطيب أنتيفون الذى عاش

بأثينا أيضاً حوالى (٤٨٠ – ٤١١) ، وهو أجل شأناً فى تاريخ الأدب والسياسة ، وإن كان لا يدخل فى دائرة اختصاص مؤرخ العلم إطلاقاً .

(٢٢) راجع مقالة آرثر ليزلى بيز (Arthur Leslie Pease) فى التنبؤ بالغيب فى قاموس أكسفورد الأدبى (اكسفورد مطبعة كلارندون ١٩٤٩) ومعها ثبت طويل للمصادر ، فإنها مقدمة عامة للموضوع .

إن المقالات العديدة فى دائرة معارف الدين والأخلاق (Encyc. of Religion and Ethics) تمكننا من القيام بدراسة مقارنة عن التنبؤ بالغيب فى عدة أقطار ؛ راجع المجلد الرابع (١٩١٢) ص ٧٧٥–٨٣٠ .

(٢٣) ينبغى ألا يخلط بينه وبين بريسون آخر ، من الفيثاغوريين المحدثين ، فالآخر أحدث عهداً بكثير ، وقد عاش فى الإسكندرية أوروما فى القرن الأول أو الثانى بعد المسيح . نشر له مارتن بليسنر (Martin Plessner) كتاباً آخر فى « الاقتصاد » سنة ١٩٢٨ ؛ راجع ايزيس : ١٣ ، ٥٢٩ (١٩٢٩ – ١٩٣٠) .

(٢٤) سميت عدة مدن يونانية فى أوربا وآسيا باسم هيراكليا ، لكن هذه المدنية على الخصوص قامت فى بيثنيا على الشاطئ الجنوبى الغربى للبحر الأسود . كانت موطن هيراكليدس البونتى (Heracleides of Pontus) (٤ – ٢ ق . م) وربما كانت أيضاً موطن الرسام زويكسيس (الذى ولد حوالى عام ٤٤٥) (Zeuxis) .

(٢٥) راجع كتاب فردينافدروديو (١٨٥٦ – ١٩٢٩) بالألمانية : « تقرير سمبليكيوس عن عملية التربيع عند أنتيفون وأبقراط . » (١٩٤ ص ، لايبزج ، ١٩٠٧) .

(Das bericht des simplicius uber die Quadraturen des Antiphon und des Hippokrates)

فالكتاب يحوى كل النصوص المتعلقة بالموضوع باللغتين اليونانية والألمانية .

(٢٦) ولد حوالى عام ٤٣٠ ، وكان لا يزال حياً فى عام ٣٦٠ .

(٢٧) أفلاطون ، كتاب الجمهورية ، ٧ ، ٥٣٠ .

(٢٨) إننى أستعمل كلمة « مستدير » للدلالة على معنى الكلمة اليونانية (Strongylos) وهو عكس المقصود من كلمة (Platys) أى « مسطح » ، وعكس المقصود من كلمة (euthys) أى « مستقيم » . إن كلمة « مستدير » أقل دقة من كلمة « كروى » ، غير أن الفكرة العامة هى نفسها .

(٢٩) إن بعض هذه الآراء على الأقل كان من أصل شرقى ، فهو مزدى ، أو بابلى ، أو لعله مصرى . راجع كتاب لويس روجيه (بالفرنسية) (Louis Rougier) : « الأصل الفلكى لاعتقاد الفيثاغوريين فى الخلود السماوى للارواح . (L'origine astronomique de la croyance pythagoricienne en l'immorralité célestes des âmes). (١٥٢ ص ، القاهرة : المعهد الفرنسى للاثار الشرقية ، ١٩٣٣) . (إيزيس ٢٦ ، ٤٩١ ، ١٩٣٦) .

(٣٠) إن ما نعرفه عنه مستمد من كتاب لأيتيوس عنوانه : «فى الفروض المقبولة ؛ (Ce placitis) وقد نشره هيرمان ديلز (Hermann Diels) فى كتابه : « النظريون من الإجريق » (Doxographigraci) (برلين ١٨٧٩ ص ٤٥ – ٦٩ ، ١٧٨ – ٢١٥ ، ٢٦٧ – ٤٤٤) . وتظهر « فروض » آيتيوس

و « مختارات » ستوبايوس (٥ — ٢) (Ecologue of stobaios).

مطبوعة في كتاب ديلز بأعمدة متوازية . إن تاريخ آيتيوس مبهم كل الإبهام ، وقد نسب كتابه المذكور إلى بلوتارك (٢ — I) (Plütarch) ، والراجح أنه متأخر عنه ، فيمكننا أن نضع تاريخه حدساً في نهاية القرن الأول أو في الربع الأول من القرن الثاني راجع الهامش (٢) (ص ٩٢).

(٣١) كان سيمياس وكيبس صديقين حميمين لسقراط وكلاهما من طيبة . وهما المتكلمان الرئيسيان ما عدا سقراط نفسه ، في محاورة فيدون (Phaidon) ؛ وقد ورد ذكرهما في محاورة كريتون (Criton) وذكر سيمياس وحده في محاورة فيدروس (Phaidros) . وليس كيبس المذكور هنا هو مؤلف كتاب « الصورة » (Pinax) الذي يدعى بالاسم نفسه (cebetos Thebaiu Pinax)

(٣٢) ليس محققاً ، على كل حال ، أن فيلولاوس كان يدرك ذاك الاستنتاج . مثال ذلك : أن القمر يوجه لنا دائماً نفس الجانب من سطحه وقد اعتبر القدماء أنه لا يدور على محوره ، فلم يدركوا التناقض الذي يترتب على هذا الاعتبار .

(٣٢ ا) الرأي عند بورش (Burch) هو أن « الأرض المقابلة » يمكن تفسيرها بأنها هي جانب الأرض الذي يقابلنا عند الطرف الآخر من قطرها (antipodes) راجع مقالة جورج بوسورث بورش : « الأرض المقابلة » ، أوزيريس ، ١١ ، ١٩٥٣ . (The counter-earth) (Osiris 11 1953)

(٣٣) راجع مقالة أوتونويجباور (Otto Neugebauer) : « الكشف البابلي المزعوم لمبادرة الاعتدالين » في مجلة (J. Am. Oriental Soc. 70-1-8 '1950') . كان يظن أن كيدينو (Cidenas) (Kidinnu) البابلي كشف ظاهرة مبادرة الاعتدالين حوالي عام ٣٤٣ ق . م . ولكن هذا التاريخ ، على أية حال ، يأتي بعد فيلولاوس بقرن من الزمن . راجع أيضاً مقالة بول شنابل (Paul Schnabel) « كيديناس ، هيبارخوس والكشف عن مبادرة الاعتدالين

"Kindenas, Hipparch und die entdeckung der prazcession" Z. Assyriologie, 3, 1-60 (1926) (Isis 10,107, 1928)

(٣٤) ترجم ت . هيث النص المنسوب لآيثيوس إلى الإنجليزية في كتابه : الفلك عند اليونان :

Greek Astronomy, (London, Dent, 1932,) P. 32-33, (Isis 22, 585 (1934-35)).

(٣٥) راجع كتاباً عنوانه « كتاب عن الأكاديميين الأول » ٢ ، ٣٩ ، ١٢٣ . نشره وترجمه جيمس . س . ريد .

Academicorum priorum liber, Edition by James S. Reid (London 1885) P. 322, Translation (London 1885), p. 81.

(٣٦) المرجع : « في الفروض المقبولة » III ، ١٣ ، ٣ .

(٣٧) وضعت إكفانتوس في كتابي : « مقدمة في تاريخ العلم » في الحقبة (١ — IV ق . م) وهيراكليدس في الحقبة (٢ — IV ق . م). وكان ذلك إلى حد ما تحكميا . فقد نشط هيراكليدس في منتصف القرن ، ونشط إكفانتوس على الراجح في الوقت نفسه ، ربما قبل ذلك بقليل .

(٣٨) القديس هيبوليتوس (١ — III) في كتاب له عنوانه « في الموضوعات الفلسفية »

(Philosophumena) ، ١ ، ١١ ، ترجمة ف . ليج . F. Legge, Philosophumena (London 1921) الجزء الأول ، ص ٤٨ . ولقد أبقيت على الجملة الأخيرة فى الاقتباس ، رغم قلة انسجامها مع باقى الكلام ، لأنها تردد صدى الرواية القديمة التى تصف ديموكريتوس بالفيلسوف الضاحك تمييزاً له عن هيراقليطس الحزين .

(٣٩) فتروفيوس ، ٩ ، ٤ .(Vitruvius, IX, 4).

(٤٠) راجع كتاب « تاريخ فارس » لمؤلفه أولمستد (A.T. Olmstead) ، ص ٣٣١ – ٣٤١ ، حيث تجد التفاصيل عن الأساس البابلى لآراء ديموكريتوس فى الفلك :
A.T. Olmstead, History of Persia

(٤١) هيث ، كتابه : « الفلك عند اليونان » ص ٣٨
(Heath, Greek astronomy, p. 38)

(٤٢) يمكن إنجاز ذكر الذين رووا عن أرالوس كما يأتى : هيبارخوس (٢ – II ق . م) ، شيشرون (١ – I ق . م) ، أخيل تاتيوس (١ – III) ، تيون الاسكندرى (٢ – IV) ، أفينوس (٥ – IV) ، سهل بن بشر (١ – IX) . راجع بصدد الأخير من هؤلاء مقالة أرنست هونيجمان (Ernest Honigmann) فى مجلة إيزيس ، ٤١ ، ٣٠ – ٣١ ، (١٩٥٠) .

(٤٣) إقليدس ، كتاب الأصول ، ٤ ، ٦ .

(٤٤) مقتبس من بروكلوس كما أورده هيث فى كتابه : « الأصول لإقليدس » (كمبردج ١٩٢٦) الجزء ٢ ، ص ١١١ ، (٢٤ × ١٥ = ٣٦٠) : Euclid's elements

(٤٥) إنه العدد (٧٣٠) لا (٧٢٩) كما تصد فيلولاوس (وأفلاطون) حين قالا إن مكعب العدد ٩ يساوى عدد الشهور فى السنة العظيمة (٩ ٣ = ٧٢٩) . وتطابقات عددية كهذه كانت تثير الحبور فى أذهان الفيثاغوريين .

(٤٦) لدينا تقويم بابلى يرقى إلى سنة ٤٢٥ ق . م ، وإن دقته لتسترعى النظر ، وكأنه « تقويم حديث » . راجع المصدر الآتى : Richard A. Parker and Waldo H. Dubberstein
Babylonian chronology 626 B.C. to A.D. 45.

ريتشارد ا . باركر ، والدو . ه . دوبرشتاين . التأريخ البابلى ، ٦٢٦ ق . م إلى ٤٥ ب . م . (شيكاجو ، مطبعة جامعة شيكاجو ، ١٩٤٦) . راجع أيضاً :

(ا) ايزيس ، ٣٤ ، ٤٤٢ (١٩٤٢ – ٤٣) ؛ ٣٩ ، ١٧٤ (١٩٤٨) .

(ب) أولمستيد ، تاريخ فارس ، ص ٣٢٩ (Olmstead, History of Persia, p. 329

(٤٧) راجع كتاب جيوفانى فرجينيوشيا بارلى (Giovanni Virginio Schiaparelli) وعنوانه : « أسلاف كوبرنيق فى العصور القديمة » . فقد قام المؤلف بإجراء العمليات الرياضية وأوجد القيم العددية لتعيينات فيلولاوس الفلكية : I precursori di Copermico nell'antichita) (ميلان ، ١٨٧٣) ص ٨٠ . راجع أيضاً كتاب هيث : « اريستارخيوس » (اكسفورد ، ١٩١٣) ، ص ١٠٢ وصفحة ١٣٢ .

(٤٨) إن المصادر الرياضية التى تعالج موضوع التقويم كثيرة للغاية ولا يزال المصدر الآتى المرجع الرئيسى فى هذا البحث : Friedrich Karl Ginsel (1850, 1926), Handbuch der mathematischen und technischen chronologie.

فردريخ كارل جنزل : « المختصر فى التقاويم الرياضية والفنية » (٣ أجزاء ، ليبزج ١٩٠٦ – ١٩١٤) . ويبحث المؤلف فى الجزء الثانى موضوع التقويم عند اليونان . وقد أورد هيث ملخص البحث فى كتابه : « أريستارخوس » ، ص ٢٨٤ – ٢٩٧ (Aristrachus, pp. 284-297) .

راجع أيضاً المصدر الآتى :

William Kendrick Pritchett and Otto Neugebauer, the Calenders of Athens.

وليم كندريك بريتشت ، واوتو نويجباور : « التقاويم الأثينية » (١٢٧ ص ، كبردج : مطبعة جامعة هارفرد ، ١٩٤٧) [ايزيس ٣٩ ، ٢٦١ (١٩٤٨)] .

(٤٩) تتألف الكالسيديس (Chalcidice) ، الشوكة ذات الفروع الثلاثة ، من أشباه جزر ثلاث ، إحداها شبه جزيرة آتوس وهى أكثر الفروع جنوحاً نحو الشرق . كانت ترعة اكسرسيس عند رأس آتوس وتجرى فى اتجاه الشمال والجنوب (لا شرقاً وغرباً) . وعلى شبه الجزيرة تلك ، وإلى الجنوب من الترعة ، شيدت أديرة جبل آتوس فى عهد البيزنطيين ، وأصبح هذا المكان يدعى بعد ذلك : « الجبل المقدس » .

(٥٠) هيرودوت ، VII ، ٢٢ ، وما يليها ، ١١٧ .

(٥١) ورد الاقتباس فى كتاب عنوانه : «تعليق على هيرودوت» لمؤلفيه : و . و . هاو ؛ ج . ويلز .
W.W. How and J. Wells, Commentary on Herodotus (Oxford, 1912). Vol. 2 p. 135.

ويضيف المؤلفان أن العمل فى شق القناة كان يسيراً ، ولذا فإن مقارنة شتاين (Stein) بين هذه القناة وقناة كورنث (Corinth) مضللة ، ذلك لأن الثانية شقت فى أرض فيها قطعة صخرية طولها ميل وتعلو عن سطح البحر ٢٥٥ قدماً . تدعى أطلال القناة الآن « الأخدود » (Provlaka) وهناك تل بالقرب من الأطلال هو على الراجح قبر أرتاخايس الذى أمر ببنائه كسركسيس . راجع أيضاً هـ . ف توزير .
H.F. Tozer, Researches in the Highlands of Turkey (London 1869), Vol. 1, p. 128.

(٥٢) راجع مقالة ج . سيكس .
J. Six, "Agatharchos", J. Hellenic studies 40, 180-189 (1920) (Isis 5, 204 '1923')

(٥٣) راجع كتاب « السياسة » لأرسطو : ٢ : ٨ ، ص ١٢٦٧ ب – ١٢٦٩ ب ،
راجع أيضاً مقالة بيربيز :

Pierre Bise, Hippodamos, Arch. Geshichte Philosophie35,13-42(1923).(Isis7,175 '1925')

(٥٤) نفذ تخطيطه للميناء بيرايوس ولمستعمرة تورى تحت رعاية بركليس (Pericles) وقد بنيت تورى بالقرب من سيباريس (Sybaris) القديمة (على خليج تارنتوم) (Tarentum, Lucania) ، التى كانت قد دمرت . وإلى أدعوها بمستعمرة أثينية لأن بركليس هو الذى حث على إنشائها ، لكن الغاية من إنشائها كانت هلينية بوجه عام . وكان من بين المستعمرين الأولين المؤرخ هيرودوت ،

والخطيب ليسياس (Lysias) ، وإخوته . وسرعان ما نمت توری أو ثوريوم وبلغت درجة عالية من الازدهار ؛ لأن موقعها كان رائعاً . وكان مما يميز الروح اليونانية أن المستعمرين الأولين أخذوا معهم خبيراً فى تخطيط المدن ، أما الآباء الحجاج (Pilgrim Fathers) الذين أقلعوا على الباخرة « ماى فلور » (Mayflower) سنة ١٦٢٠ (أى بعد ٢٠٦٣ سنة) ليؤسسوا مستعمرة فى أمريكا ، فإنهم لم يفكروا فى تخطيط المدن .

(٥٥) كتاب « السياسة » لأرسطو : ٢ ، ٨ ص ١٢٦٧ ب .

(٥٦) راجع كتاب فيليب بوردمان وعنوانه : باتريك جيديس ، صانع المستقبل .
Patrick Geddes, maker of the future. (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1944). (Isis 37, 91-92, '1947').

(٥٧) راجع مقالا مفصلا لادوارد أردايون ، وعنوانه : « مناجم لوريون فى العصور القديمة »
Edouard Ardaillon. Les mines du Laurion, dans l'antiquité (Bibliotheque des Ecoles françaises d'Athenes et de Rome, fasc. 77, 218 pp., ill., map; Paris 1897).

راجع أيضاً كتاب أوليفر دافيس وعنوانه : « المناجم الرومانية فى أوربا » . Oliver Davies, Roman mines in Europe. (Oxford press 1935), pp. 246-252 (Isis 25, 251, 1936).

(٥٨) تم ذلك بتوزيع المناجم على المتعهدين الذين كانوا يأتون بالعمال من طبقة العبيد ، غير المملوكين للدولة .

(٥٩) من كتاب لاكسينوفان كتبه وهو فى الشيخوخة حوالى سنة ٣٥٣ وعنوانه : « سبل لتحسين الدخل الأثينى » ، (On the means of improving of reveneues of Athene, IV. 3-4) ٤ ، ٣ — ٤ . والاقتباس من كتاب دافيس : « المناجم الرومانية فى أوربا » ص ٢٤٩ .

(٦٠) سفر أيوب ، ٢٨ : ١ — ٣ . (Job 28: 1-3)

(٦١) راجع مقالة كرولى (A.E. Crawley) وعنوانها : « الفلزات والمعدنيات » ، فى دائرة معارف الدين والأخلاق ، الجزء الثامن (١٩١٦) ، ص ٥٨٨ — ٥٩٢ . (Metals and minerals, Ency-of Rilig. and Ethics, vol. 8, pp. 588.592).

الفصل الثانى عشر

الجغرافيون والمؤرخون فى القرن الخامس

الجغرافيا[1]

إن كلمة «الجغرافيون» ، التى وردت فى العنوان ، قد تكون ، على صحتها ، مضللة إلى حد ما . ولذا فإنها تحتاج إلى مزيد بيان .

سنقصر بحثنا على أربعة رجال[2] ، هم قادة الحملات البحرية . ولم يكن هؤلاء الرجال ، جغرافيين بالمعنى الدقيق ، بل كانوا مكتشفين ومغامرين . وكانت الدوافع التى ساقتهم إلى هذه الحملات ، سياسية واقتصادية . والذى يعنينا من الأمر ، هو ما أدت إليه من زيادة معلوماتنا الخاصة عن سطح الأرض . وقد تكون هذه الحملات حقيقية . إلا أننا لا نستطيع أن نقطع فى الأمر بيقين .

وقد أقلع اثنان منهم، وهما سكيلاكس وستسبس Scylax and Sataspes ، تحت إشراف الفرس. أما الآخران، وهما هنون وهملكون (Hamon and Hinilcon) ، فقد كانا من القرطاجيين ، الذين كانوا فى الواقع إن لم يكونوا قانونا ، حلفاء للفرس ضد اليونانيين ، إذ كانت هنالك عداوة مستحكمة ، فى عرض البحر المتوسط وطوله ، بين المستعمرات اليونانية ، من ناحية ، والمستعمرات الفينيقية والقرطاجنية من ناحية أخرى . وهذه الاكتشافات ، التى سنتحدث عنها فيما يلى ، تمثل الجانب العلمى ، فى القرن الخامس ، من ذلك الصراع المتصل بين الشرق والغرب .

سكيلاكس الكاريندى

قال هيرودوت : « اكتشف دارا معظم آسيا . وهنالك حيث نهر " الهندوس " ، توجد أعداد كبيرة من التماسيح ، لا يفوقه فيها سوى

نهر واحد فى العالم . وعندما أراد دارا أن يكتشف مصبه فى البحر ، أرسل بعض السفن بقيادة سكيلاكس ، الذى ينتمى إلى بلدة كاريندة ، ومعه بعض الرجال الذين وكل أمرهم إليه . وهؤلاء أقلعوا من مدينة كاسپاتيروس، فى إقليم پاكتيك ، وساروا مع النهر فى اتجاه الشرق ، وعند الغروب وصلوا إلى البحر ، واتخذوا سبيلهم فيه نحو الغرب ، حتى بلغوا ، فى الشهر الثالث عشر ، المكان الذى أرسل منه ملك مصر ، الفينيقيين — الذين ذكروا آنفاً — ليبحروا حول ليبيا . وبعد هذه الرحلة البحرية ، أخضع دارا الهنود ، وأطلق يده فى هذا البحر . وهكذا عرف أن آسيا ، باستثناء الأجزاء التى تواجه الشمس ، كانت تشبه ليبيا »[٣] .

ومن هنا نعلم أن سكيلاكس هذا ، كان من أبناء كاريندة[٤] ، وأنه ظهر فى زمن دارا الأول (ملك الفرس من سنة ٥٢١ — ٤٨٥ ق.م) . ولعل المرء يتوق إلى معرفة الطريقة التى تمكن بها هذا الشخص ، من بلوغ أفغانستان (على بعدها الشاسع) ؛ ولكن الأمر لم يكن من الاستحالة بمكان .

فلعل الوالى الفارسى ، الذى كان يقيم فى إقليم الهندوس الأعلى ، رغب فى معرفة مصب النهر فى البحر ، وكيفية اتصاله بالعالم الغربى . فإذا الحظ أسعف سكيلاكس ، (فيما يختص بالرياح الموسمية)[٥] ، فالملاحة من دلتا الهندوس ، إلى رأس البحر الأحمر ، على الرغم من صعوبتها ومشقتها ، لم تكن مستعصية ، حتى على السفن الصغيرة جداً وكثيراً ما قطعتها السفن العربية[٦]. ومما أكد إمكان تحقيق رحلة سكيلاكس ، ذلك النقش الذى تركه دارا فى السويس ، وذكر فيه أنه شق قناة من النيل إلى البحر الأحمر ، وأمر السفن أن تقلع من السويس إلى فارس[٧].

إذن كانت رحلة سكيلاكس ، محتملة جداً ، والظاهر أن هنالك وصفاً كتب عنها ، وتداولته أيدى الكتاب المتأخرين ، ومنهم ، على سبيل المثال ، مؤلف كتاب (Periplus of Scylax of Caryanda) . وهذا الكتاب يتناول وصف الرحلة عبر البحر المتوسط والبحر الأسود إلخ . وفى استطاعتنا أن ندعو

المؤلف (سكيلاكس المدعى) ، لأنه من المؤكد أن الكتاب ألف فى زمن متأخر ، وقد يرجع تاريخه إلى سنة ٣٦٠ ـ ٣٧٠ م . ووجود مثل هذا الأثر المنحول ، يؤكد لنا وجود الأصل الذى تركه سكيلاكس ، كما يؤكد لنا رحلته عبر البحر العربى .

ونضيف إلى ذلك ، أن أى شك قد يخامر عقولنا ، فى هذا الشأن ، يجب أن يتعلق بسكيلاكس نفسه ، لا بوقوع هذه الرحلة فعلا . فنحن على يقين ، من أن نفراً كبيراً من الناس ، أبحروا من نهر الهندوس ، عبر البحر العربى ، حتى بلغوا البحر الأحمر ، وذلك قبل القرن الخامس . ويعتبر سكيلاكس أول هؤلاء الملاحين ، الذين حفظت لنا أسماؤهم .

ساتاسپيس الأخمينى

يذهب هيرودوت إلى أن ساتاسپيس كان فارسياً ، ينتمى إلى الأسرة المالكة ، وكانت أمه أخت دارا . وكان قد اغتصب فتاة من أسرة نبيلة ، فحكم عليه بأن يوضع على خازوق . لكن أمه تضرعت إلى الملك الجديد ، كسركسيس (ملك على الفرس ٤٨٥ ـ ٤٦٥ ق.م) أن يستبدل بهذا العقاب ، عقاباً آخر ، زعمت أنه أشد وطأة منه . « وهو يقضى عليه بأن يبحر حول شواطئ ليبيا ، حتى ينتهى من رحلته ويأتى إلى خليج العرب . وقد أقر كسركسيس هذا التعديل ، وأقلع ساتاسپيس إلى مصر ، حيث زوده المصريون بسفينة وببعض الملاحين . وسار حتى قطع أعمدة هرقل ، وعندما تم له ذلك ، ودار حول الرؤوس الليبية ، التى تدعى سولويس Soloeis (٨) ، انحدر نحو الجنوب . ولما كان قد قضى شهوراً عديدة ، يضرب فى عرض البحر ، وما تزال أمامه رقعة أكثر اتساعاً من التى قطعها ، عاد أدراجه إلى مصر ، وقصد كسركسيس ، وذكر له فى قصته التى رواها عن الرحلة ، أنه عندما بلغ غاية ما قطعه من هذه الرحلة ، مر على بلاد يعمرها أقزام ، وهم يرتدون ملابس حيكت من خوص النخيل . وعندما كان يلقى ، هو ورجاله ، مراسيهم ، كان هؤلاء الأقزام يفرون إلى

الجبال ، ولكنه ورجاله لم يقترفوا إساءة ما عندما نزلوا إلى البر ، ولم يسلبوا هؤلاء الناس شيئاً ، سوى ما يتبلغون به . وقد برر عدم مضيه فى رحلته ، حتى ينتهى من الدوران حول شواطئ ليبيا ، بأن السفينة تسمرت مكانها ، ولم يعد فى استطاعتها المضى قدماً . ولكن كسركسيس ، لم يصدق ما أدلى به ساتاسپيس ، ولما كان قد تخلف عن إنجاز المهمة التى طلب إليه تنفيذها ، وضعه على الخازوق ، (وعاقبه) على تلك التهمة التى رمى بها من قبل[٩] .

ورواية هيرودوت ، تشتمل على الكثير من التفاصيل المضللة . ففى المقام الأول ، نعتقد أن أم ساتاسپيس كانت تعنى قطعاً الطواف حول أفريقيا بحراً . ولم تبالغ حين قالت إنه عمل من الصعوبة بمكان عظيم ، فقد كان جميع ملاحى البحر المتوسط ، يفرقون من أخطار المحيط المجهولة . ومن ناحية أخرى ، قيل إن ساتاسپيس ، استأجر سفينة مصرية ومعها ملاحوها ، ومن المحتمل أنه استأجر فى مصر سفينة فينيقية ، بملاحيها . فقد كانت هنالك علاقات تجارية بين الشعبين منذ زمن لا يعرف أوله على وجه التحديد . وكانت الزوارق الفينيقية تمخر عباب النيل فى عهد تحتمس الثالث (القرن الخامس عشر) . ومن ناحية ثالثة ، إلى أى نقطة من ساحل أفريقيا الغربى، وصل ساتاسپيس فى رحلته تلك ؟ أضف إلى ذلك ، أنه بعد أن ترك السولويس ، سار إلى الجنوب واستمر عدة أشهر ، حتى تسمرت سفينته وعجزت عن المضى قدماً . فهل بلغ منطقة الرياح الاستوائية الساكنة ، عند خط عرض رأس (ڤرد) ؟ أم أنه توقف بسبب الرياح التجارية ، والتيار الذى يتجه من ساحل غينيا نحو الشمال ؟

ومما يدعونا إلى الاعتقاد بأنه بلغ ساحل غينيا ، ذلك الوصف الذى أورده عن هؤلاء الأقزام الذين اتخذوا من خوص النخيل لباساً . ومهما يكن من أمر ، فلو فرضنا أنه بلغ فى رحلته هذا المدى (ولنفرض أنه خط عرض ١٠) ، فقد كان ما يزال بينه وبين الهدف المعين ، أمد بعيد جداً . والظاهر أن القدامى ، كانوا لا يستطيعون تصور مدى اتساع القارة الإفريقية[١٠] .

وحوالى مطلع القرن الخامس ، عزمت حكومة قرطاجة على اكتشاف المحيط ، أو على الأصح سواحله فقط ، ولذا قررت إرسال حملتين تقلعان من مضيق جبل طارق ، وتتجه إحداهما نحو اليسار ، والأخرى نحو اليمين . وقد أسندت قيادة الحملة الأولى إلى هنون ، كما وكل هملكون بالحملة الثانية .

هنون القرطاجى

اتخذت رحلة ساتاسپيس سبيلها حول الساحل الغربى لأفريقيا ، فى عهد كسركسيس (سنة ٤٨٦ ــ٤٦٥ ق.م) ، ومما هو جدير بالذكر ، أن رحلة مشابهة حدثت فى ذلك الوقت أيضاً ــ أو قبله بقليل ــ ، وقد كانت تحت إشراف القرطاجيين [١١] .

غادر الحاكم (سوفيت)[١٢] هنون قرطاجة ، على رأس أسطول عدد قطعه ستون سفينة ، من ذوات الخمسين مجدافاً ، وكانت تقل ثلاثين ألفاً من الرجال والنساء[١٣] . ويتضح من ذلك ، أن غاية القرطاجيين لم تكن الاستكشاف فحسب ، بل الاستعمار أيضاً . ولعلهم أرادوا من ذلك ، أن ينهجوا نهجهم القديم فى إنشاء سلسلة من المحطات التجارية ، على الموانئ الملائمة ، لكى توفر لهم حاجاتهم التجارية ، وتؤمن سيادتهم[١٤] . وعندما عاد هنون إلى قرطاجة ، كتب تقريراً عن رحلته ، باللغة القرطاجية ، وقد نقش هذا التقرير على نصب أقيم فى معبد ملقارت ووصلت إلينا صورة منه ، كتبت باللغة اليونانية ، تحت اسم رحلة هنون Periplus of Hannon .

وأول مكان ذى أهمية ، ألقوا فيه مراسيهم ، كان جزيرة كرن Cerne التى كانت تبعد عن المضيق قدر بعد قرطاجة عنه . وهذا ما يساعدنا على تقدير مكانها اليوم ، وهى جزيرة هرن ، التى تقع عند مصب نهر الذهب .

وبعد أن أرسوا قاعدة فى كرن ، انطلقوا منها فى اتجاهين : أحدهما نهر السنغال ، والثانى رأس ڤرد (دكار) ، فنهر الجامبيا ، وخليج بساجوس ، فمضيق شربرو (فى سيراليون عند خط عرض ٣٠ : ٧ ش) . وأنا أذكر هنا

الأسماء الحديثة ، لا تلك الأسماء التى وردت فى النص المشار إليه ، إذ أن تحقيق كل اسم منها ، يتطلب بحثاً خاصاً . ونحن لا نعنى هنا بالتفاصيل الطبوجرافية . وأهم ما فى الأمر ، أن هنون سار على محاذاة شاطئ أفريقيا الغربى ، لمسافة تقرب من ٢٦٠٠ ميل ، حتى بلغ رأس بلمباس ، حيث ينحرف الشاطئ نحو الشرق . ولكن هل بلغ هنون ، فى مسيره نحو الجنوب ، أكثر مما بلغ ساتاسپيس؟ ربما تم له ذلك، لكن الأمر ليس ذا بال . وقد نعزو إلى هذين الملاحين ، أو إلى أحدهما على الأقل ، فضل استكشاف الساحل الشمالى الغربى من أفريقيا . ولكى نقدر النتائج التى حققاها حق قدرها ، يحسبنا أن نذكر أن التوغل جنوباً فى اكتشاف الساحل الأفريقى ، لم يتم إلا بعد انقضاء ما يقرب من ألفى سنة . وقد تحقق ذلك على أيدى الملاحين البرتغاليين ، حوالى منتصف القرن الخامس عشر .

ولكن ما الذى يحملنا على تصديق تقرير هنون ؟ الذى يدعونا إلى ذلك هو أنه يحتوى على حقائق تتفق مع المشاهدات الحديثة ، وعلى هذا لا يمكن أن تكون من نسج الخيال . ومن الحق أنه ليس هنالك تحديد دقيق للمواضع والأنهار ، ولكن هذه التحديدات تشكل وحدة متماسكة ، مما يدعونا إلى أن نثق بدقتها . والمعلومات الخاصة بالأجناس البشرية ، ليست فى مجموعها أقل إقناعاً . وهى تشير إلى حرق العليق ، وإلى أناس كثاث الشعر ، يدعون فى النص اليونانى بالغوريلا (أقزام أو عبيد أو قردة) . وقد قبضوا على ثلاث إناث ، وسلخوا جلودهن .

وكان هذا التقرير شديد الإيجاز ، وقد أخطأ الكتاب المتأخرون فى فهمه ، ومنهم بلينى ، (النصف الأول من القرن الثانى) الذى ذكر أن هنون قطع جميع الطريق إلى الجزيرة العربية ، وقد لاقى هذا الخطأ قبولا ، حتى عند بعض بعيدى النظر ، أمثال هنرى الملاح ورتشارد هلكويت[١٥].

هملكون القرطاجي

عرفنا هملكون ، من إشارة عابرة وردت فى كتاب بلينى (النصف الثانى من القرن الأول)[١٦] ، الذى يذكره جنباً إلى جنب مع هنون ، ومن قصيدة لاتينية ، للشاعر أفينوس (النصف الثانى من القرن الرابع) ، وهى منقولة عن القصيدة اليونانية ، التى نظمها « ديونيسيوس بيريجيتس » (النصف الثانى من القرن الأول) ، وبلينى وديونيسيوس ، يعودان بنا إلى القرن الأول ، مما يترك خلخلة واضحة فى التواتر . ومع هذا ، ليس هنالك ما يدعونا إلى الشك فى حقيقة رحلة هملكون .

ومن المصادر الرئيسية ، لأفينوس وديونيسيوس ، ذلك التقرير الذى كتبه قبطان مسيلى كان قد زار طرطسوس[١٧] ، حوالى نهاية القرن السادس ، وكان على علم بالساحل الإسبانى . وقد تمت رحلة هملكون ، بعد خراب طرطسوس مباشرة ، أى حوالى بداية القرن الخامس .

وكان قد أرسل لاستكشاف الساحل الغربى لأوربا . ووصل إلى مجموعة من الجزر تدعى جزر الأويستريمنيدس وبلغ رأساً يدعى بهذا الاسم أيضاً . وهو شبه الجزيرة الأرموريكية (بريتانى) ، وبعض الجزر التابعة لها . وقد أشار إلى نشاط سكان الجزر وذكائهم ، وإلى أنهم ملاحون مهرة ، على الرغم من أنه ليس لديهم سفن خشبية (كالفينيقيين) ، بل عندهم قوارب تصنع من الجلد المخيط . (Coracles) وهم يبحرون إلى جزر هيبرنيا والبيون (إيرلندة وإنجلترة) . وقد كان الملاحون الفينيقيون يبحرون إلى هذه الجزر للتجارة (تجارة القصدير)[١٨] ومن الجائز أن هملكون ، فى طريقه إلى بريتانى أو عقب ذلك أو فى طريقه للعودة ، قذف به إلى منطقة من المحيط ، حيث الرياح ساكنة ، « وحيث ترتفع الحشائش البحرية ، فى الدوامات المائية ، بحيث تعوق سير السفينة ، كما يعوقها دغل ملتف »[١٩] .

وقد قدر بعض المؤرخين ، أنه يشير بذلك إلى بحر السرجاسو ، وهو عبارة

عن منطقة متسعة من الماء الساكن ، نسبيًّا ، تقع فى المحيط الأطلسى ، وفيها تتجمع الحشائش ، كما تتجمع فى الأنهار ، تحت ظروف مشابهة . وليس من اليسير قبول هذا التفسير ، لأن بحر السرجاسو ، يبعد عن أوربا كثيراً[٢٠] . وربما كان الملاحون الفينيقيون قد بلغوا الجزر السعيدة[٢١] ، إلا أنه من العسير أن نصدق أنهم وصلوا ، إلى الأزور ثم إلى السرجاسو[٢٢] .

وإجمالا نقول : إن أوصاف هذه الرحلات البحرية الأربع ، عبر البحر العربى ، أو على محاذاة شاطئ أوربا من ناحية الأطلسى ، أو شاطئ شمالى أفريقيا ، تثير عنايتنا ، أكثر مما تثير دهشتنا . وأعمال كهذه ، كما وصفت سابقاً ، أكبر خطراً من تأملات اليونانيين فى اللانهاية ، أو فى اللامنطقية الحسابية ، وقد كان ما حققه اليونانيون فى حقل الرياضيات مدهشاً حقًّا . وقد تفوقوا فى ذلك ، لا على معاصريهم فحسب ، بل على الكثير من معاصرينا أيضاً . ولكننا ، من ناحية أخرى ، نقدر أن الملاحين القدامى ، وبوجه خاص الفينيقيين وخلفاءهم القرطاجيين ، اضطلعوا بأعمال من الممكن أن تقرن إلى ما ذكرنا ، أو بأعمال تحتاج إلى مزيد من الجرأة ، وذلك ليس فى القرن الخامس فحسب ، بل قبله بكثير .

وعند التأمل فى إبحارهم حول شواطئ مراكش ، وبنائهم المحطات التجارية فى السولويس ، وفى مواضع أخرى ، نرى أن ذلك يحتاج إلى الجرأة أكثر مما يحتاج إلى العلم . وقد كان فن الملاحة عند القرطاجيين ، كافياً لتحقيق مثل هذه الأغراض ، بل إنه كان يكفى أيضاً لنقلهم ، خطوة تلو الأخرى . إلى مدى أبعد على الشاطئ الإفريقى ، فى اتجاه الجنوب ، ومكنهم من التمهيد لتلك الأعمال التى حققها البرتغاليون فى القرن الخامس عشر . وقد توقفت حركات الاستعمار القرطاجى ، نتيجة لذلك الصراع الذى احتدم بين قرطاجة وروما ، وكان بالنسبة إليهم معركة حياة أو موت ، وقد شل حركة الأسطول القرطاجى فى البحر المتوسط أو قريباً منه ، إلى أن انتهى بفناء قرطاجة سنة ١٤٦ ق م .

ولابد لنا أن نلاحظ أخيراً ، أن الذى يدعو إلى الدهشة فى تلك التقارير

الأربعة ، ليس ما تصفه من أعمال ، بل هو مجرد وصولها إلينا . ولا مناص لنا من أن نفترض أنه قد جرت فى الأزمنة القديمة ، محاولات من هذا القبيل ، أو من نوع يفوقه ، ولكن أخبارها لم تصلنا ، لأن هؤلاء المغامرين قضوا نحبهم ، فلم يؤوبوا ، أو لأنهم كانوا ينفرون من الدعاية ، أو لأنهم لم يكونوا على حظ من البيان ييسر لهم رواية رحلتهم . ونفسية الملاحين ، والمغامرين ، تختلف كثيراً عن نفسية الكتاب . والحقيقة أن أكثرهم كانوا يجهلون الكتابة جهلا مطبقاً ، أو يعجزون عن تدبيج وصف واضح . وعلينا أن نعتبر سكيلاكس ، وساتاسپيس ، وهنون ، وهملكون ، قلة تمثل كثرة ، أو نماذج باقية من الملاحة فى العصر القديم[٢٣].

وقد انحدر إلينا اثنان من هذه التقارير . والفضل فى ذلك يعزى إلى هيرودوت ، ومصنفه يحوى الكثير من الحقائق التى تمتاز بأهميتها الجغرافية . وسنتناولها بالدرس فى حديثنا القريب عنه .

وأهم حادث جغرافى ، فى هذا القرن ، وقع فى نهايته (سنة ٤٠١ ق.م) عندما قاد كسينوفان ، عشرة آلاف من جنود اليونان المرتزقة ، الذين تشتتوا فى أعالى دجلة ، عبر جبال أرمينيا وقبادوسيا إلى طرابيزون (Trapezus) ، على البحر الأسود[٢٤] ، وهذا التقهقر الذى وصفه كسينوفان أبلغ وصف ، يعد من أخطر الأعمال التى وعتها ذاكرة الجنس البشرى ، من هذا القبيل .

و « صعود » كسينوفان Anabasis ، الذى كتب حوالى ٣٧٩ — ٣٧١ق.م. يعتبر من روائع الأدب التاريخى الجغرافى ، وهو أول وصف مسهب لمنطقة شاسعة ، وللسكان الذين يعمرونها ، على الرغم من أن الغاية منه ، لم تكن فى أصلها جغرافية ، وهو ، فضلا عن أنه من أحسن الكتب فى موضوعه ، يعتبر الأثر الأول فى هذا الباب[٢٥].

المؤرخون : هيرودوت ، ثوكسيديديس ، كتسياس

شهد النصف الثانى من هذا القرن ، مولد علم التدوين التاريخى ؛ أى نشوء

فرع جديد من فروع العلم ، يعنى بوصف تجارب الإنسان وصفاً دقيقاً . ويرى البعض أن تدوين التاريخ ، لا يصح أن يدعى علماً ، لأن المعلومات التاريخية ، تحتمل الكثير من الشك ، فوق أنها مضللة . وهكذا وجهوا إلى اللوم ، لأنني أفردت له جزءاً كبيراً فى مقدمتى Introduction . وأظن أن اعتراضاتهم لا تقوم على أساس ، لأن الجهود العلمية تتميز باتجاهها إلى البحث عن الحقيقة ، بالقدر الموجود منها ، وإلى التقرب من دائرتها ، بالقدر الذى تسمح به الظروف . وهذا التقرب الذى يمكن التوصل إليه ، أو الذى يتوصل إليه فعلا ، يختلف باختلاف الموضوعات العلمية ، والصفة العلمية التى تكتسبها جهودنا ، تعتمد على الغاية التى نسعى إليها ، وعلى نوع الأساليب التى نتبعها ، أكثر مما تعتمد على درجة تقربنا من الحقيقة ، فى النتائج التى نهتدى إليها . ولا ننكر أن الحقائق التاريخية لا يمكن أن تكون قاطعة ، ومع ذلك كانت فى القرن الخامس أقل غموضاً وتضليلا من معظم الحقائق الطبيعية .

هيرودوت الهاليكارناسى

ولد هيرودوت — ابن ليكسيس ودريو — فى هاليكارناسوس إحدى مدن كاريا ، حول سنة ٤٨٤ ق.م[٢٦]. وقد كانت كاريا (التى تقع فى الجنوب الغربى من آسيا الصغرى) ، إحدى مستعمرات الدوريين ، ولكنها كانت أكثر تأثراً بالثقافة التى ازدهرت فى المدن الأيونية المجاورة . وفى القرن الخامس ، كان سكان كاريا الذين يتكلمون اليونانية ، ينطقون باللهجة الأيونية . وفى طفولة هيرودوت ، كانت كاريا إقطاعية للإمبراطورية الفارسية . وقد اضطر هيرودوت ، وهو ما يزال حدثاً ، إلى مغادرة وطنه ، بسبب الاضطرابات السياسية . وقضى فترة من الزمن فى ساموس ، ثم أمعن فى الترحال . وزار أثينا ، حيث تعرف إلى بركليس وسوفوكليس ، وقضى باقى حياته فى تورى (أسست سنة ٤٤٣) ، حيث توفى فى بداية الحرب البيلوبونيزية (٤٣١ — ٤٠٤) ، أى حول سنة ٤٢٦ ق.م. وقد كان يدعى فى الزمن القديم (حتى القرن الثالث

من هذا العصر) ، بهيرودوت التورى .

وقد قام برحلات واسعة ، فزار مصر ، وأبحر فى النيل حتى بلغ أسوان والإلفنتين[٢٧] ولعله ذهب إلى برقة أيضاً . ومرّ بغزة وصور ، وأبحر فى الفرات حتى بلغ بابل . وتعرف إلى المنطقة الشمالية من بحر إيجه ، حتى مدينة طاسوس . وأهم ما فى رحلته ، أنه زار سكيتيا ، التى تقع على شمالى البحر الأسود ، ولابد من أن يكون قد قضى بعض الوقت فى أولبيا ، قرب مصب الهيبانس (Bug) وفى مكان يبعد عن المصب قليلا ، فى مجرى النهر .

وكثير من الحقائق التى ذكرها ، استمدها من مشاهداته الخاصة ، والبقية الباقية، حصل عليها عن طريق الرواية . ولابد أنه التقى فى بعض المواضع ، كأثينا ودلفى ، بأناس أتوا من جميع أجزاء العالم اليونانى .

وقد أطلق عليه شيشرون لقب « أبو التاريخ »[٢٨] . وعلق به هذا اللقب المشرف منذ ذلك الحين ، وهو فى الحقيقة أهل له . وإذا صرفنا النظر عن المؤرخين العبرانيين ، كمؤلف كتب صموئيل (فى القرن السابع قبل الميلاد) ، فلابد لنا من أن نذكر أنه كان فى بلاد اليونان عدد من مدونى الحوليات التاريخية . وقد سبق أن تحدثنا عن أحد الرعايا الفرس ، واسمه هيكاتيوس ، الذى ينتمى إلى ميليتوس ، وأباح هيرودوت لنفسه أن يتناوله بالتجريح ، حين كان يرجع إليه . كما أنه كان هنالك غيره من مدونى الحوليات . ولكن هيرودوت كان أول من وضع كتاباً محكم الأسلوب ، سهل القراءة . والحقيقة أنه ألف أول قطعة رائعة فى النثر اليونانى (شكل ٦٧)[٢٩].

* * *

ولنبحث الآن ، فى هذا الأثر العظيم .

إنه وصف لبلاد اليونان ومصر وآسيا الصغرى ، فى ماضيها وحاضرها . والغاية التى رمى إليها ، هى وصف ذلك الصراع العظيم الذى احتدم بين آسيا واليونان ، منذ زمن كروسوس (ملك ليديا من سنة ٥٦٠ ــ ٥٤٦ ق.م) ، حتى زمن كسركسيس ونهاية الحروب الفارسية ، أو بعبارة أدق ، حتى

ὀλίγον ἐόντες ὑπὲρ Αἰγὸς ποταμοῦ, ἀλεξόμενοι χρόνον ἐπὶ συχνὸν, οἱ μὲν, ἀπέθανον, οἱ δὲ, ζῶντες ἐλάμφθησαν· καὶ συνδήσαντές σφεας οἱ Ἕλληνες, ἦγον ἐς Σηστόν· μετ' αὐτῶν δὲ, καὶ Ἀρταΰκτην δεδεμένον, αὐτόν τε, καὶ τὸν παῖδα αὐτοῦ. καί τεῳ τῶν φυλασσόντων λέγεται ὑπὸ Χερσονησιτέων ταρίχους ὀπτῶντι, τέρας γενέσθαι τοιόνδε· οἱ τάριχοι ἐπὶ τῷ πυρὶ κείμενοι, ἐπάλλοντό τε, καὶ ἤσπαιρον, ὅκως περ ἰχθύες νεοάλωτοι· καὶ οἱ μὲν, περιχυθέντες, ἐθώμαζον. ὁ δὲ Ἀρταΰκτης ὡς εἶδε τὸ τέρας, καλέσας τὸν ὀπτῶντα τοὺς ταρίχους, ἔφη· ξεῖνε Ἀθηναῖε, μηδὲν φοβέο τὸ τέρας τοῦτο· οὐ γὰρ σοὶ πέφηνε, ἀλλ' ἐμοὶ σημαίνει ὁ ἐν Ἐλαιοῦντι Πρωτεσίλεως, ὅτι καὶ τεθνεὼς, καὶ τάριχος ἐὼν, δύναμιν πρὸς θεῶν ἔχει τὸν ἀδικέοντα τίνεσθαι. νῦν ὦν ἄποινά οἱ τάδε ἐθέλω ἐπιθεῖναι· ἀντὶ μὲν χρημάτων, τῶν ἔλαβον ἐκ τοῦ ἱροῦ, ἑκατὸν τάλαντα καταθεῖναι τῷ θεῷ· ἀντὶ δ' ἐμεωυτοῦ, καὶ τοῦ παιδὸς, ἀποδώσω τάλαντα διηκόσια, Ἀθηναίοισι περιγενόμενος. ταῦτα ὑπισχόμενος, τὸν στρατηγὸν Ξάνθιππον οὐκ ἔπειθε· οἱ γὰρ Ἐλαιούσιοι τῷ Πρωτεσίλεῳ τιμωρέοντες, ἐδέοντό μιν καταχρησθῆναι, καὶ αὐτοῦ τοῦ στρατηγοῦ ταύτῃ ὁ νόος ἔφερε. ἀπαγαγόντες δὲ αὐτὸν ἐς τὴν ἀκτὴν, ἐς τὴν Ξέρξης ἔζευξε τὸν πόρον, οἱ δὲ λέγουσι ἐπὶ τὸν κολωνὸν τὸν ὑπὲρ Μαδύτου πόλιος, σανίδι προσπασσαλεύσαντες, ἀνεκρέμασαν· τὸν δὲ παῖδα ἐν ὀφθαλμοῖσι τοῦ Ἀρταΰκτεω κατέλευσαν. ταῦτα δὲ ποιήσαντες, ἀπέπλεον ἐς τὴν Ἑλλάδα, τά τε ἄλλα χρήματα ἄγοντες, καὶ δὴ καὶ τὰ ὅπλα τῶν γεφυρέων, ὡς ἀναθήσοντες ἐς τὰ ἱρά· καὶ κατὰ τὸ ἔτος τοῦτο, οὐδὲν ἔτι πλέον τούτων ἐγένετο. τούτου δὲ τοῦ Ἀρταΰκτεω τοῦ ἀνακρεμασθέντος, προπάτωρ Ἀρτεμβάρης ἐστὶ, ὁ Πέρσῃσι ἐξηγησάμενος λόγον, τὸν ἐκεῖνοι ὑπολαβόντες, Κύρῳ προσήνεικαν, λέγοντα τάδε·

Ἐπεὶ Ζεὺς Πέρσῃσι ἡγεμονίην διδοῖ, ἀνδρῶν δὲ σοὶ Κῦρε, κατελὼν Ἀστυάγεα, φέρε, γῆν γὰρ ἐκτήμεθα ὀλίγην, καὶ ταύτην τρηχέην, μεταναστάντες ἐκ ταύτης, ἄλλην σχῶμεν ἀμείνω. εἰσὶ δὲ πολλαὶ μὲν ἀστυγείτονες, πολλαὶ δὲ καὶ ἑκαστέρω· τῶν, μίαν σχόντες, πλέοσι ἐσόμεθα θωμασιώτεροι. οἰκὸς δὲ ἄρχοντας ἄνδρας τοιαῦτα ποιέειν· κότε γὰρ δὴ καὶ παρέξει κάλλιον, ἢ ὅτε γε ἀνθρώπων τε πολλῶν ἄρχομεν, πάσης τε τῆς Ἀσίης;

Κῦρος δὲ ταῦτα ἀκούσας, καὶ οὐ θωμάσας τὸν λόγον, ἐκέλευε ποιέειν ταῦτα· οὕτω δὲ αὐτοῖσι παραίνεε, κελεύων παρασκευάζεσθαι, ὡς οὐκέτι ἄρξοντας, ἀλλ' ἀρξομένους· φιλέειν γὰρ ἐκ τῶν μαλακῶν χώρων, μαλακοὺς γίνεσθαι· οὐ γάρ τι τῆς αὐτῆς γῆς εἶναι, καρπόν τε θωμαστὸν φύειν, καὶ ἄνδρας ἀγαθοὺς τὰ πολέμια. ὥστε συγγνόντες Πέρσαι, οἴχοντο ἀποστάντες, ἑσσωθέντες τῇ γνώμῃ πρὸς Κύρου, ἄρχειν τε εἵλοντο, λυπρὴν οἰκέοντες μᾶλλον, ἢ πεδιάδα σπείροντες, ἄλλοισι δουλεύειν.

ΤΕΛΟΣ ΤΩΝ ΙΣΤΟΡΙΩΝ ΗΡΟΔΟΤΟΥ.

ΑΑ· ΒΒ. ΓΓ· ΔΔ· ΕΕ· ΖΖ· ΗΗ. ΘΘ· ΙΙ· ΚΚ· ΛΛ. ΜΜ· ΝΝ·
ΞΞ ΟΟ· ΠΠ· ΡΡ· ΣΣ·

Ἅπαντα τετράδια, πλὴν τοῦ τελευταίου, ὅπερ ἐστὶ δυάδιον.

Βενετίησι παρ' Ἄλδῳ τῷ Ῥωμαίῳ ἔτει χιλιοστῷ πεντακοσιοστῷ δευτέρῳ, μαιμακτηριῶνος τεσσαρεσκαιδεκάτῃ φθίνοντος, σύν γε αὐτῷ προνομίῳ.

AA. BB. CC. DD. EE. FF. GG. HH. II. KK. LL.
MM. NN. OO. PP. QQ. RR. SS.

Sunt Quaterniones omnes, praeter ultimum duernionem.

Venetiis in domo Aldi mense Septembri. M.D.II. et cum privilegio ut in ceteris.

« توضيح الشكل ٦٧ »

تاريخ هيرودوت ، الطبعة الأصلية (من القطع المزدوج — البندقية — الدومانوزيو ، سبتمبر ١٥٠٢) . وهذه الصفحة تشتمل على النهاية وفهرس المواد . وهي تدل على أن الكتاب مؤلف من ١٧ ملزمة كاملة ، رمز إليها ب : ا ا ، ب ب ، . ر ر . ومن ملزمة نصفية واحدة ، رمز إليها بـ س س . والمجموع هو (١٦ × ١٧) + (٨ × ١) = ٢٨٠ صفحة ، بما فيها صفحة العنوان والصفحة الأخيرة التي تحتوي اسم صاحب المطبعة وختمه . والصفحة المصورة هي الصفحة التي تسبق الأخيرة من الكتاب . (عن نسخة في مكتبة كلية هارفارد) .

الاستيلاء على سستوس (٤٧٩–٤٧٨)[٣٠] . وقد قسم هذا المصنف إلى تسعة كتب ، عنون كل منها باسم إحدى إلهات الشعر[٣١] . ووضع هذا التقسيم ، نحاة الإسكندرية ، وكان معروفاً على عهد لوسيانوس (١٢٠ – ٢٠٠) . ولكن هيرودوت عندما يشير إلى مصنفه هذا ، لا يذكر أى كتاب ، بل يدعوه بالتاريخ . (Logos)[٣٢]

ويظهر لنا غرضه بوضوح ، فيما قاله فى الفقرة الأولى منه :

« الذى تعلمه هيرودوت الهاليكارناسى عن طريق البحث ، تجده هنا ماثلا بين يديك ، وذلك حتى لا تنطمس ذكرى الماضى فى أذهان الرجال على مر الأيام . وحتى لا تفتقر تلك الأعمال العظيمة الرائعة التى اضطلع بها اليونانيون والأجانب – وخاصة أسباب نشوب الحرب بينهم – إلى من يظهرها للملأ » .

وهذه الفذلكة البسيطة ، لها تأثيرها ودلالتها فى آن واحد . فقد كانت غايته أن يسجل للأجيال التالية تلك الأعمال العظيمة ، التى قام بها اليونانيون والبرابرة[٣٣] (الأجانب) أيضاً .

وهذا أمر يسترعى الانتباه ، لأن بعض هؤلاء الأجانب ، الذين يشير إليهم ، كانوا إلى مدة قريبة ، أعداء لليونانيين ، فى حرب ضروس ، أوشكت على نهايتها فى ذلك الوقت ، الذى كان فيه هيرودوت عاكفاً على كتابة تاريخه . فما الذى حدث له ؟ هل كان يفتقر إلى الشعور الوطنى ؟ لقد كان رجلا متمدناً ، حاول أن يفهم بأمانة ولطف ، أبناء الأمم الأخرى . ويجب أن نضيف إلى ذلك ، أن تلك النظرة العالمية ، كانت أكثر ملاءمة له ، منها لرجل ينتمى إلى طيبة أو أثينا . لأنه كان ينتسب إلى كاريا ، التى مصرها الدوريون ، ولكنها كانت خاضعة لمؤثرات أيونية وفارسية ، وهكذا كانت شبه شرقية[٣٤] . ولم تكن الأسرة الحاكمة فيها هلينية ، فالملكة أرتميزيا الأولى ، التى يتحدث عنها هيرودوت حديثاً وديًّا[٣٥] ، كانت من أتباع كسركسيس . وقد رافقته فى حملته بخمس سفن ، كانت من أحسن سفن أسطوله ، ولم يتفوق

عليها إلا تلك السفن التي أتت من صيدا .

وقد كتب بلوتارك (النصف الثاني من القرن الأول) ، كتاباً دعاه (De malignitate Herodotis) « تحيز هيرودوت » اتهم فيه أبا التاريخ ، بأنه ميال إلى البرابرة (الأجانب) ، وهذه الصفة تقابل كلمة « العالمى » ، فى أمم الاتحاد السوفييتى اليوم . واتهمه بأنه مجحف ، وذلك لأنه لم يكن متحاملا . وهو بهذا يذكرنا ببعض المتعصبين فى أيامنا هذه ، الذين يرتابون فى كل إنسان لا يكون متبجحاً فى شعوره الوطنى مثلهم . ولنلحق هذه المعجزة أيضاً ، بسلسلة المعجزات اليونانية ؛ وهى أن أول مصنف يونانى فى التاريخ ، كتبه رجل شهد بأم عينه كثيراً من وقائع تلك الحرب الرهيبة التى دارت رحاها بين فارس واليونان ، ومع ذلك كله ، استطاع أن يتحدث عنها بدماثة وإنصاف ، دون أن يطوى نفسه على ضغينة عنصرية(٣٦). وبعد أن نوهنا بهذه الفضيلة الأساسية ، التى تكشف عنها عقل هيرودوت ، ننتقل إلى تأمل غايته ومنهجه بعناية أكبر .

وسنتحدث أولا ، حديثاً موجزاً عن مصادره . والمصدر الأول ، دون ريب ، هو تلك المعلومات التى جمعها من رحلاته فى القارات الثلاث(٣٧). وقد كان ناقداً ممحصاً ، إلى الغاية التى يتيحها عصر كعصره . فلم نكن نتوقع منه مثلا ، أن ينكر الكهانة ، وأن يبين أن اعتقاداً كهذا لا يمكن أن يتم إلا بشروط خاصة . ولم تكن النبوءات فى نظره مقبولة ، بقيمتها الظاهرة ، فالإنسان يستطيع أن يتعرف إلى عدد منها ، وأن يختار من بينها ما شاء له الاختيار . والتكهن إذن ، كما هو الآن ، ليس إلا نوعاً من التفكير بصوت عال أو من تبادل الآراء . وكان هيرودوت فى أغلب الأحيان يعبر عن شكه ، أو يحتاط لنفسه ببعض الملاحظات كقوله : « أنا أقص القصة كما رويت لى » ، وكان فى بعض الأحيان ، يورد عدة روايات ، ويتركها للقارئ ليميز خبيثها من طيبها . وكان بارعاً فى رواية القصص ، وقد قيل إنه كان يرتزق بهذه الوسيلة ، وإن كنا لا نجد ما يثبت ذلك . ولكننا بعد ، لا نعرف المورد الذى كان يأتيه منه الرزق . ولعله كان تاجراً ، ولا شك أن التجارة كانت تلذ له ، كما كانت

تلذ لأكثر اليونانيين[٣٨]. وكتابه يزخر بالحوادث والحكايات القصيرة ، التى يمكن أن تنحى منه جانباً ، كما أنه يغص بالاستطرادات الممتعة . التى كان يجب إيرادها ، على طريقة المحدثين البارعين . ولا يستبعد أن يكون قد قلب بعض الوثائق ، ورأى بعض النقوش ولكنه اعتمد على السماع فى المقام الأول ؛ وكان بارعاً فى المقارنة بين الشهود وتمحيص أخبارهم . وهو يتيح لنا رؤية هؤلاء الشهود ، وسماع أقوالهم بعينها ، إلا أنه بعد ذلك كله ، يدلى بخواطره وآرائه . التى غالباً ما تكون رقيقة دمثة ، تنبع من عقل ذكى ، وتفيض من فكر صائب ، وتجعلنا أحياناً نتذكر مونتينى .

ومصنفه يعتبر ذخيرة من الأساطير والخرافات الشعبية ، اليونانية والشرقية . وهو يقارن ، فى هذا الشأن ، بكتب الرحالة العظام ، أمثال ماركوبولو (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) ، وابن بطوطة (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) . كما أن مصيره لا يختلف عن مصيرهم . فقد كانت الحكايات التى قصوها ، من الغرابة بحيث أحجم كثير من الناس عن تصديقها ، يبتسمون منهم ساخرين ، ولسان حالهم يقول : «كل ذلك زور» . والقراء السذج ، يتقبلون عادة المعجزات والخرافات ، دون أن يساورهم تجاهها شىء من الشك أو الارتياب ، بينما لا يخفون شكهم فى الحكايات الحقيقية . وسنورد بعض الأمثلة فيما بعد .

وقد كان هيرودوت من أعلام النثر اليونانى المرسل . وكان أول مؤلف حمل اليونانيين على أن يعتقدوا أن النثر قد يحوى من الجمال والإثارة ما يحويه الشعر . وقد لاحظ ذلك أيضاً ، رجل آخر من هاليكارناس ، هو ديونيسيوس (النصف الثانى من القرن الأول) .

وأسلوبه بسيط كل البساطة ، لا يقوم على شىء من الصنعة ، وحكاياته ترد بطريقة مباشرة . وهو يميل إلى الاستطراد ، ويأتى به عمداً ، كما كان يفعل هوميروس . وقد تأثر به ، كما فعل كل يونانى ، إلا أنه تأثر ، فضلا عن ذلك ، بكتاب المآسى . وقد كان سمحاً مخلصاً ، معتدلا حكيماً ، وكان فى شذوذه

وسذاجته كالأطفال . وكانت التفاصيل القصصية تستهويه ، ولذا كان يمعن فيها فى بعض استطراداته ، وخاصة فى وصفه لجميع الأمم التى ضمها جيش كسركسيس وأسطوله . فقد كان هؤلاء الرجال ، يمتشقون أسلحة مختلفة ، ويرتدون ملابس متباينة ، كل بحسب جنسه وتقاليده . وهذا الوصف يقع فى ما لا يقل عن ثمانية وثلاثين فصلا(٣٩)، وقد استهله بالفرس ، وانتهى به عند الملكة أرتميزيا الأولى والسفن الكارية .

وكانت فلسفته فى التاريخ ، لا تختلف عن فلسفة كبار الشعراء والكتاب المسرحيين فى عصره . والفكرة الأساسية التى تقوم عليها ، هى « تغير الحظ » . وهى واضحة فى عرض كتابه ، الذى يبتدئ ابتداء مناسباً ، بتاريخ كروسوس ، وينتهى بتاريخ كسركسيس . ونحن نشاهد فى كل لحظة ، ذلك الانتقام الإلهى الذى لا يرحم ، والذى يطهر النفوس من كبريائها وصلفها . وفكرة العناية الإلهية ، ترد عنده أيضاً(٤٠)، كما ترد عند سوفوكليس ويوربيديس(٤١). وهكذا كان هيرودوت ، على الرغم من بساطته وطيبته ، جاداً كل الجد . وأود أن أكمل الصورة التى أعطيتها عنه ، بمقارنة أثارت الدهشة فى نفسى : « فقد لاقى هيرودوت نفس المصير الذى لاقاه موزار . حالت عذوبته وفكاهته وسهولته غير المتكلفة ، دون ظهور نغمة الحزن الممض والحسرة ، التى كانت تئن أحياناً بين سطور تاريخه »(٤٢). ومقارنة كهذه ، بين شخصين يفترقان فى الزمن والمكان والأخلاق ، كما هو الشأن فى هيرودوت وموزار ، لا تخلو من المصادفة ، ولكنها على كل حال ، مرت بخاطرى ، لأننى أحبهما معاً .

إن تاريخ الشرق الأدنى معقد ، حتى نحن الذين نملك الخرائط والجداول الموضحة والقواميس التى ترشدنا فى كل خطوة نخطوها يصعب علينا ، فى بعض الأحيان ، تفسير الوقائع المعقدة ، وتفهم ما وقع من أحداث . ولهذا لا ننتظر من مؤرخ مبكر ، أن يجلو لنا أموراً معقدة كهذه ، بوضوح ودقة . وتاريخ هيرودوت ، يشتمل على ذخيرة طيبة من المعلومات المهمة ، ولكنه لم يكن ، ولا يمكن أن يكون ، مصنفاً كهذه المصنفات التى نقع عليها اليوم ،

والتى هى ثمرة قرون عديدة . والقسم الخاص بمصر ، من تاريخه ، مشوش مضطرب ، إلا أن قيمته تزداد ، عندما يتناول تاريخ الأسرة السادسة والعشرين ، (الأسرة الصائية من سنة ٦٦٣ — ٥٢٥ ق.م) التى يستهلها بسماتيك الأول (٦٦٣ — ٦٠٩ ق.م) ، وكذلك عندما يتحدث عن الغزو الفارسى ، وقد ظلت مصر ولاية فارسية ، منذ سنة ٥٢٥ ق.م ، حتى عهد الإسكندر الأكبر (٣٣٢ ق.م) . وكان من الطبيعى أن يزور هيرودوت مصر ، وقد كان بحسب مولده مواطناً فارسياً ، وأن تثير الأعاجيب الكثيرة فى هذه البلاد اهتمامه . وقد أعجب بتلك المعابد الضخمة التى كانت تغطيها نقوش طويلة ، لم يتمكن من قراءتها ، وكان تحت رحمة التراجمة ، الذين كانوا بدورهم لا يستطيعون قراءتها أيضاً ، إلا أنهم كانوا مع ذلك ، على استعداد لتفسير ما غمض منها . ومهما يكن من أمر ، فقد كان وصفه لمصر ، بالغ الأهمية ، لأنه الوصف الوحيد ، الذى انتقل إلينا من شاهد يونانى ، أجنبى ذكى ، كانت نفسه تنطوى على عطف عظيم .

ووصفه لبابل يستحق مثل هذا النقد . ومعرفته لتاريخ بابل القديم ، لا تختلف عن معرفة أى بابلى مثقف عاش فى ذلك الحين ، وكانت لديه معلومات ضئيلة عن تراث قومه ، إلا أنه لا يلم بتواريخ الأسر الحاكمة القديمة ، إلمامنا به نحن اليوم .

والقصة التى يرويها هيرودوت عن بسماتيك[٤٣] ، نموذج من سرعة تصديقه ، وحرصه على التمحيص فى الوقت ذاته . فقد زعم البعض أن الحضارة الفريجية[٤٤] ، أقدم عهداً من المصرية . وفى سبيل إظهار الحقيقة ، عمد بسماتيك إلى وضع بعض الأطفال ، حديثى الولادة ، فى عهدة أحد الرعاة ، وطلب إليه أن ينشئهم مع قطيعه . وقد أمر بالعناية بتغذية هؤلاء الأطفال ، كما منع الناس من التحدث إليهم . وأخيراً تلفظ أحدهم بكلمة (becos) ، (وهى تعنى «الخبز» ، فى اللغة الفريجية) ، فاستنتج بسماتيك أن الحضارة الفريجية أعرق ، وجمع هيرودوت روايات أخرى تتصل بهذه الحادثة من ممفيس وطيبة وعين شمس .

ونمى إليه عدد من القصص التى تدور حول الآلهة ، وعلق عليها بقوله[٤٥] :

« لا أريد أن أقصها ، ولن ألقى بالا إلى أسماء الآلهة ، لأننى أعتقد أن الناس فى علمهم بالآلهة سواء » .

والأساس الفلسفى والدينى الذى كان يستند إليه عقل هيرودوت ، مزيج من الأفكار الفيثاجورية والشرقية . وكان يعزو الاعتقاد فى تناسخ الأرواح[٤٦] إلى المصريين . وزاد على ذلك ، أن بعض اليونانيين ، الذين فى استطاعته أن يذكر أسماءهم ، شاركوا المصريين فى هذا الاعتقاد . وهو أمر محتمل ، ولكن الأغلب أن يكون هؤلاء اليونانيون استقصوا علمهم هذا من الهند ، لا من مصر . وخلط فى حديثه بين « ديمتريا » و « ديونيسيوس » ، حاكمى العالم السفلى ، وكذلك كان شأنه مع إيزيس وأوزيريس ، إلا أن ذلك كان أمراً طبيعياً .

ولم تكن لديه خبرة بالرياضيات ، كما أن معلوماته الفلكية كانت هزيلة . ولاحظ معرفة المصريين الغزيرة بالتنجيم والكهانة[٤٧] ، كما أعجب بتقسيمهم للسنة : (٣٠ × ١٢) + ٥ = ٣٦٥ يوماً : ينقسم كل منها إلى ٢٤ ساعة[٤٨] . فى حين أن أحد تقسيماته الخاصة للسنة ، كان يجعلها تقع فى مايقرب من ٣٧٥ يوماً[٤٩] . وهو يصف كسوفاً وقع قبل معركة سلاميس ، مع أنه لم يقع كسوف ما فى تلك السنة (سنة ٤٨٠ ق.م)[٥٠] .

وبما أنه نهج نهجاً موسوعياً فى تصنيف تاريخه ، فإن الملاحظات التى يمكن أن نعلق بها على الأشياء التى ذكرها ، أو أهملها ، فيما يختص بممالك الطبيعة الثلاث[٥١] ، لا تنتهى . ولهذا يجب أن نقتصر على بعض الأمثلة .

فقد لاحظ مثلا طريقة البابليين فى تأبير أشجار النخيل ، كما لاحظ طريقتهم فى تلقيح أشجار التين . وعندما تقدم إلى وصفهما[٥٢] ، خلط بينهما . وهذا يدل على أنه سمع بهاتين الطريقتين ، أو أنه شاهدهما ، دون أن يفهمهما تمام الفهم ، ثم خانته ذاكرته[٥٣] . وكان شرح ثيوفراستوس (النصف الثانى من القرن الرابع ق.م) لهذا الموضوع ، أكثر وضوحاً . وهذه المسألة تعتبر من

أكثر المسائل إمتاعاً فى تاريخ العلوم . وقد اختلطت فيها الخرافات الشعبية بالدين ، وهى تقوم شاهداً على مرة العقل الإنسانى . ونكتفى هنا بالقول ، بأن النظرية الجنسية فى إخصاب النباتات العليا ، لم تشرح بطريقة علمية ، إلا سنة ١٦٩٤ . ولم تحز القبول عند العامة ، إلا بعد مقاومة شديدة . أما تلقيح شجرة التين ، فلم يشرح إلا بعد ذلك بزمن[٥٤].

وفى وصفه للأنهار السكيتية ، يتحدث[٥٥] عن « سمك الحفش[٥٦] العظيم الذى يخلو جسمه من السلسلة الفقرية » ، ويوجد عند مصب الهيبانس ، ويحفظ بالتمليح . ولم يذكر الكافيار الذى يستخرج منه ، مع أنه من الصعب أن نصدق أن السكيتيين ، أو سكان المستعمرات اليونانية ، لم يكتشفوا نوعاً من أنواعه .

وقد عنى هيرودوت بملاحظة النيل ، وأرض مصر ، وخرج من هذه الملاحظة بقولته المشهورة : مصر هبة النيل (doron tu potamu) . واستطاع أن يبرهن على هذا الرأى . ولم يستطع أن يعلل أسباب الفيضان السنوى تعليلا دقيقاً . ولكنه لاحظ رواسب الطمى السنوية . وشاهد الأصداف البحرية والمتحجرة على التلال . واستنتج منها ومن طبقة الأملاح التى كانت تغطى وجه الأرض ، أن هذه الأجزاء كانت فيما مضى مغمورة بماء البحر[٥٧]. وقد كانت مصر السفلى ، فى يوم من الأيام تحت الماء ، ولكن النهر أخذ يجرف معه بعض الرواسب ، هكذا نتأت الدلتا نحو البحر[٥٨] . ولاحظ تغير مواقع الماء واليابسة فى تساليا أيضاً ، وعزا نشوء مضيق تحب (شمالى تساليا) إلى إحدى الهزات الأرضية .

« ويذهب أهل تساليا إلى أن " بوسيدون " هو الذى شق هذا المضيق ، حيث يجرى نهر بينيوس . وهذا أمر معقول ، لأن الذى يعتقد أن بوسيدون يدك الأرض دكًّا ، وأن تلك الصدوع التى تحدثها الزلازل من صنعه لا بد أن يحكم ، لدى رؤيته ذلك المضيق ، بأنه من صنع بوسيدون ويتراءى لى أن هذه الجبال تمزقت بفعل زلزلة من الزلازل »[٥٩] .

وهذا تعليل جميل ، لأنه يكشف عن معرفة مبكرة بالجيولوجيا ، إلا أنها

مختلطة بالأساطير . وهو يعترف بأن شكل الأرض يتغير بفعل الزلازل ، وإن كان يرى أيضاً أن هذه الزلازل من صنع بوزيدون . وهذا أمر ربما تقل غرابته ، عندما يتأمل الإنسان الشذوذ الجيولوجى العجيب ، فى إقليم اليونان : الينابيع الحارة ، والمعدنية ، والشعاب الضيقة ، والأنهار الباطنية والزلازل — ولكن أكثر الناس يمرون بغرائب الطبيعة مرور الكرام ، ولا يحاولون لها تعليلا . وقد مزج هيرودوت بين التعليل العلمى ، والتعليل الميثولوجى ، وكثير من الناس فى أيامنا هذه يذهبون مذهبه ، إذ تكون تعليلاتهم العقلية ، دائماً مقيدة ومحدودة .

لم يكن هيرودوت عالماً جغرافيًّا بالمعنى الدقيق ، ولعل السبب الوحيد فى ذلك ، أن معلوماته الرياضية ، لم تكن من الغناء بحيث تيسر له تفهم الجغرافيا تفهماً صحيحاً . وكان عقله متجهاً وجهة أخرى ، ومع هذا أمعن فى تجواله فى القارات الثلاث ، ولهذا مكنته تجاربه ، بالإضافة إلى تجارب غيره ، من أن يكوّن فكرة واضحة ، إلى حدما ، عن العالم المأهول (oicumené) آنذاك ، ولم يكن راغباً فى تعميم هذه المعلومات وتسويغها للناس ، وقد لاحظ على ذلك بقوله :

« إننى أستغرق فى الضحك ، عندما أرى أن كثيراً من الناس ، رسموا خرائط عامة للأرض ، ولكن أحداً منهم ، لم يستطع حتى الآن ، أن يضع المسألة الوضع الصحيح ، لأنهم يرسمون المحيط ، وهو يجرى حول الأرض من جميع جهاتها ، تلك الأرض التى يرسمونها على هيئة دائرة ، وكأنها خططت بالفرجار . كما أنهم يرسمون آسيا مساوية فى حجمها لأوربا »(٦٠) .

وهذا الكتاب ، الذى يعتبر أول مصنف فى التاريخ ، هو أيضاً أول مصنف فى الجغرافيا البشرية . لأنه يحوى أوصافاً جغرافية للأرض المعروفة عامة ، ولأجزاء كثيرة منها . وهذه الأوصاف تعنى دائماً بالجنس البشرى ، لأن هيرودوت ، كان يعنى به عناية تفوق عنايته بالمجردات . وكان يهتم بالجغرافيا البشرية ، أكثر مما يهتم بالجغرافية الفلكية . كما كان يلتفت إلى التاريخ البشرى ، أكثر مما يلتفت إلى التاريخ الطبيعى . وبما أنه لم يكن فى حوزته

خرائط دقيقة ، فلا عجب إذا تكررت الأخطاء فى وصفه . ومما يدعو إلى الدهشة حقًا ، أن هذه الأخطاء لم تكن ، على كثرتها ، من الخطورة بمكان . وفى كثير من الأحيان ، كان يحس بحاجته إلى المعلومات ، ولهذا كان يخشى أن يورط نفسه ، وإليك مثلا على ذلك ، قوله :

« لا أستطيع أن أتحدث بدقة ، عن المناطق التى تقع فى أقصى غربى أوربا ، فأنا لا أعتقد أن هنالك نهراً يدعوه الأجانب (إريدانوس) ، يصب فى بحر الشمال ، وهو ، كما يقال ، المصدر الذى يأتينا منه العنبر . كما أننى لا أعرف شيئاً عن جزر القصدير ، التى يجلب إلينا منها القصدير . وإن لفظ إريدانوس نفسه ، يدل على أنه ليس اسماً أجنبيًا ، بل هو يونانى ، أبدعته مخيلة أحد الشعراء . وعلى الرغم من كل ما بذلته من مثابرة ونشاط ، لم ألق إنساناً رآه ، أو أقر بأن هنالك بحراً وراء أوربا . وكل ما نعرفه من الأمر ، أن ما نستهلكه من العنبر والقصدير ، يرد إلينا من مناطق بعيدة جدًا »[٦١].

وقد تردّى فى أخطاء فادحة عجيبة ، عندما تحدث عن مجرى الدانوب ومجرى النيل . وعندما رأى أن الدانوب يقطع أوربا من الغرب إلى الشرق ، ظن أن النيل الأعلى يسير فى هذا الاتجاه أيضاً . وبالإضافة إلى ذلك ، خلط بينه وبين نهر النيجر . ولعلنا نغتفر له هذه الزلة ، إذا تذكرنا أن هذا الخطأ ، ظهر على صور مختلفة ، حتى أواخر القرن الثامن عشر[٦٢]. ولعل قيمة الأطالس ، وما تحتوى عليه من معلومات ، لا تظهره بجلاء فى موضع خير من هذا . ففى وقتنا الحاضر ، يستطيع أى طفل ، بنظرة واحدة يلقيها على خريطة بسيطة متقنة لأفريقيا ، أن يتتبع مجارى الأنهار العظيمة — النيل والنيجر والكنغو — من منابعها حتى تصب فى البحر ، كما يستطيع أن يدرك على الفور ، علاقاتها المتبادلة . فليس أمامه فى ذلك أى شك أو التباس[٦٣].

وقد كانت الإمبراطورية الفارسية تنقسم إلى عشرين مقاطعة أو ولاية . ووصف هيرودوت بتفصيل ، الطريق الملكى (السلطانى) فى فارس ، الذى يصل بين سارديس وسوسه[٦٤]. وطوله يساوى ٤٥٠ فرسخاً ، أى ما يساوى

١٣٥٠٠ ستاديه (الفرسخ = ٣٠ ستاديه) ، أو مسيرة تسعين يوماً (بمعدل ١٥٠ ستاديه فى اليوم الواحد)(٦٥) . وكانت هنالك مراحل للراحة . والمسافة بين إفسوس وسارديس ، تبلغ ٤٥٠ ستاديه . وهكذا تكون المسافة بين البحر الهلينى والعاصمة ، ١٤٠٤٠ ستاديه . أى مسيرة ٩٣ يوماً . ووصف هيرودوت يحتوى على أخطاء كثيرة ، ولكننا إذا قبلناه على علاته ، نستنتج من نصه وجود طريق ملكى ، يقطع الإمبراطورية ، وينقسم إلى مراحل معينة ، وأنهم أقاموا نظاماً خاصا للبريد . والحقيقة أنه لولا قيام مثل هذه الخدمة ، التى كانت مقصورة على الأغراض الرسمية ، بالإضافة إلى أعمال التجسس ، لما أمكن وجود حكومة فى هذه الإمبراطورية الشاسعة الأطراف . والطريق التى وصفها هيرودوت ، كانت أكثر طولا وأشد تعرجاً مما كان يمكن أن تكون عليه ، ومرد ذلك إلى اتباعها لبعض الطرق القديمة (الحيثية)(٦٦) .

وقد اعتمد هيرودت فى وصفه للهند ، أشد المقاطعات الفارسية بعداً ، على مصادر غير مباشرة . إذ أنه لم يتجاوز فيه حدود نهر الهندوس ، وكان ناقصاً إلى حد بعيد . ولكن على الرغم من ذلك ، لا يخلو من فائدة ، إذ كان أول وصف عرفته المصادر اليونانية(٦٧) . ولعل أهم ما فيه ذكره للقطن لأول مرة فى التاريخ(٦٨). وقد قال فى وصفه : « تنبت بعض الأشجار البرية فى الهند، نوعاً من الصوف ، الذى يفوق فى جماله وجودته صوف الغنم . وهذه الأشجار تزوّد الهنود بملابسهم » . وقال أيضاً : « كان الهنود الذين انخرطوا فى جيش كسركسيس يرتدون نوعاً من الصوف النباتى » .

ولعل مفخرة هيرودوت الكبرى ، هى وصفه لشعوب الأمم المختلفة ، وطبائعهم وعاداتهم . وقد ننكر أنه كان أبا التاريخ ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر ، بحال من الأحوال ، أنه كان أبا علم خصائص الشعوب(٦٩). ولمصنفه قيمة إثنولوجية ، فى المقام الأول . لأننا إذا أعمنا النظر فى المصادر التى استقى منها معلوماته (الملاحظة المباشرة والرواية الشفوية) ، نجد أن مزالق الخطأ فيها ، فيما يتصل بهذا الموضوع ، أقل منها فيما يتصل بسرد الأحداث التاريخية القديمة ،

أو العلاقات الجغرافية المعقدة (كمواضع الأنهار والجبال) . وعندما يتحدث عن البرابرة (الأجانب) ، يلاحظ أنواع الطعام الذى يأكلون ، وزواجهم وعاداتهم الجنسية[٧٠]، وطبيعة مساكنهم ولغتهم ودينهم ، وخير مثل على الوصف الأثنولوجى ، هو حديثه عن السكيتيين ، الذين كانوا يقطنون شمالى البحر الأسود . وهذا الوصف المسهب ، يعد وثيقة أصيلة فى تاريخ روسيا ، لا يضاهيه فى ذلك، إلا الوصف الذى خلفه لنا تاكيتوس (النصف الثانى من القرن الأول)، بعد ذلك بخمسة قرون ونصف ، فيما يختص بتاريخ ألمانيا .

ويستهل هيرودوت وصفه بلمحة عامة عن البلاد والمناخ ، ثم ينتقل إلى الحديث عن آلهتهم ، ويذكر أسماءها باللغة السكيتية (ونحن لا نكاد نعرفها إلا عن هذا الطريق)[٧١]، ثم يصف الشعائر الدينية ، والأضاحى ، والتقاليد العسكرية ، وطرق الكهانة ، وعادات المطببين ، وإعدام المجرمين ، وشعائر دفن الموتى . وقد راجع أوصاف هيرودوت هذه ، بعض علماء خصائص الشعوب ، وعلماء الآثار ، ووافقوه على جميع ما جاء فيها . وبرهنت الحفريات الحديثة ، على صحة وصفه لشعائر دفن الملوك السكيتيين ، وما يودع معهم فى القبر . وقد كان السكيتيون ، يتعاطون الحشيش بكثرة ، كما يتعاطى غيرهم من الشعوب القنب . وكانوا يذرون بذور الحشيش على حجارة محماة ، ليستمتعوا بحمامات البخار المخدرة[٧٢] . وهذه أول إشارة إلى هذا النبات ، (Cannabis sativa indica) الذى طالما استعمله ، وأساء استعماله ، أبناء الشعوب المختلفة ، (وخاصة فى الشرقين الأدنى والأوسط) ، منذ أقدم الأزمنة ، حتى يومنا هذا . وتاريخ القنب ، يكوّن فصلا من أطول الفصول ، فى دراسة تاريخ ميل الإنسان إلى المواد المخدرة .

ولنورد بإيجاز ، بعض الأمثلة الأخرى : أدخل العالم السويسرى ، فرديناند كيلر ، فرعاً جديداً من فروع الآثار ، هو دراسة سكنى البحيرات[٧٣]. وقد وصف هيرودوت ، سكنى البحيرات ، كما تجلى فى بحيرة براسياد فى مقدونية ، ووصف طبائع سكان البحيرات وعاداتهم . وكتب معاصره أبقراط ،

الذى ينتمى إلى مدينة كوس[٧٤]، وصفاً موجزاً لسكان البحيرات فى كولخيس ، (فى الطرف الشرقى من البحر الأسود) .

ويذكر هيرودوت الأقزام فى ليبيا[٧٥] ، ولم يكن هذا الوصف جديداً ، إلا أنه يمتاز عما سبقه بأنه أكثر شمولا وأشد إقناعاً . وقد برهن المكتشفون المحدثون ، بدقة وإحاطة ، على وجود الأقزام ، وفعلوا ذلك عدة مرات (دوشلو ، وشفينفورت ، وستانلى)[٧٦].

وقد أشار إلى عهود الدم قال : « وهذه الشعوب — الليديون والميديون — تعقد عهوداً تقسم عليها ، كما يفعل اليونان . وبالإضافة إلى ذلك ، يجرحون أذرعهم ، ويلعق كل منهم دم صاحبه »[٧٧]. وكثيراً ما شاهد علماء الأجناس المحدثون ، هذه العادة[٧٨] .

وتحدث عن الوشم المقدس ، قال : « كان على الضفة (بقرب مصب الفرع الكانوبى للنيل) ، معبد لهرقل ، وهو ما يزال قائماً حتى اليوم . وكان إذا لجأ إليه أحد الخدم ، ووسم ببعض الإشارات المقدسة — دلالة على أنه وهب نفسه للإله — فإن هذا الشخص ، لا يمكن أن يناله أحد بسوء »[٧٩]. ويمكن أن نعترض على ذلك ، ونقول ، إنه يجب التمييز بين الوسم والوشم .

ووصف عبادة المصريين للحيوانات[٨٠]. والحكايات التى أوردها ، ليست من نوع الأساطير ، إذ قد ثبتت صحتها ، عن طريق علم الآثار والدراسات الخاصة بالطوطمية ، وهى فرع من علم خصائص الشعوب ، يرجع تاريخه إلى الربع الأخير من القرن الماضى فقط[٨١].

ولا حاجة بنا إلى الإسهاب فى إيراد مثل هذه الشواهد ، فالملاحظات الإثنولوجية ، أطرف ما فى مصنف هيرودوت ، وبلغت من طرافتها أنها لم تلاق ما تستحقه من التقدير حتى يومنا هذا . وقد تجاوزها أقدر الشراح فى القرن الماضى ، لأن علم خصائص الشعوب لم يكن قد عرف بعد ، أو أنه لم يكن قد بلغ درجة كافية من التنظيم ، وإن ما وجد منه لم يكن معروفاً لديهم فى ذلك الحين . وقد كانوا ، فى الأكثر ، من علماء الكلاسيكيات ،

أو من علماء الآثار ، أو من هؤلاء العلماء الذين وقفوا جهودهم على دراسة السياسة والدين فى العالم القديم ، وهكذا لم يدركوا أهمية الحقائق الإثنولوجية ، عندما عبروا بها .. والحقائق التى يصنفها علم الأجناس اليوم تحت عنوان : المذهب الروحى ، والمحرمات (تابو) ، والطوطمية ، و « سكنى البحيرات » ، وما إلى ذلك[٨٢] ، كانت تنبذ على أنها من الغرائب أو البدع .

وبهذا يكون هيرودوت قد أرسى قواعد هذا العلم ، الذى سرعان ما اندثر بعد وفاته . وهذا لا يعنى أن اليونانيين لم يكونوا يعنون بالإنسان ، إذ كانوا يبذلون أعظم العناية لتفهم لغز الحياة . إلا أنهم بتأثير سقراط وأفلاطون وجهوا عنايتهم الفائقة إلى طبيعة الإنسان الداخلية ؛ وإلى مشكلاته الخلقية والسياسية ، وأهملوا دراسة طبائعه وعاداته : كيف يعيش الناس ، وكيف يعالجون مشكلاتهم اليومية ؟ كيف يتغذون ؟ وما الملابس التى يخيطونها ويرتدونها ؟ وأى نوع من البيوت يبتنون لسكناهم ؟ وما علاقاتهم الجنسية وروابطهم العائلية ؟ ولماذا يسلكون فى حياتهم هذا المسلك الذى نراهم عليه ؟ وكيف ينتقلون من طور الطفولة إلى طور المراهقة ، ومن العزوبة إلى الزواج ، ومن الشباب إلى الشيخوخة؟ وكيف يعاملون المريض والمعتوه ؟ وكيف يتخلصون من جثث موتاهم ؟ . . . لقد حاول هيرودوت أن يجيب عن أسئلة كهذه ، وقلّ من عنى بها ممن جاءوا بعده .

ظهرت بعض العناية بدراسة خصائص الشعوب فى القرن الثامن عشر ، ولكن قواعد هذا العلم لم توضع إلا فى القرن الماضى ، وفى أوائل هذا القرن . ولقد استطاع علماء خصائص الشعوب المحدثون ، أن يبرهنوا على صحة كثير من تلك الحقائق التى رواها أبو التاريخ ، والتى لم يعرها أجدادنا أدنى التفات . وكانت لها قيمة كبيرة ، لأنها أول أمثلة من نوعها .

ولقد قال أحد كبار علماء خصائص الشعوب فى عصرنا « إن هيرودوت يزداد كسباً يوماً بعد يوم »[٨٣]. وكثيراً ما لقب أبو التاريخ ، بأبى الأكاذيب ، إلا أن أكثر هذه الأكاذيب التى تنسب إليه ، لم تكن من بنات أفكاره ،

ولكنها ما تزال ثغرات ماثلة فى معلوماتنا . وإن قامته لتزداد شموخاً ، كلما قلّ جهلنا بعلم خصائص الشعوب .

ثوكيديديس الأثينى

لم يجر على قلمنا ذكر إسبرطة ، لأن فى استطاعتنا أن نؤرخ للعلوم اليونانية ، دون أن نذكرها ، ولن تكون خسارتنا عظيمة حينئذ . ولكن من المستحسن أن نتحدث عنها بإيجاز ، لا من أجلها هى ، ولكن لنتمكن من إدراك أهمية منافستها وعدوتها العظيمة أثينا .

كانت إسبرطة (أو لقدمونيا) ، التى تقع فى لاكونيكا ، المركز الأول للبيلوبونيز . وقد أغار عليها الدوريون الذين أصبحوا فيما بعد الطبقة الحاكمة فيها ، وأزاحوا سكانها الأصليين عن مكان الصدارة ، وجعلوا أكثر أهلها عبيداً . وقد كانوا فى زمن الغزو الفارسى ، أقوى فئة بين اليونانيين . ولكن النصر يعزى فى الأكثر إلى جهود الأثينيين ، وأدى إلى ازدياد نمو أثينا . وقد ازدهرت الإمبراطورية الأثينية وارتفعت معنوياتها ، فى فترة السلم التى أعقبت معركة سلاميس (سنة ٤٨٠ ق.م) ، وامتدت نحواً من نصف القرن . وأورى ذلك زناد الإسبرطيين تدريجاً ، فكان السبب الأول فى نشوب الحرب البيلوبونيزية (سنة ٤٣١ — ٤٠٤ ق.م) .

وربما كان من الأصح ، أن نعزو هذه الحرب إلى سبب أعمق ، وهو التباين التام بين الطرفين ، من حيث المزاج والمثل العليا ، وذلك يعنى أن هذه الحرب ، كانت صراعاً بين الأيونيين والدوريين ، أى بين الديموقراطية والألجركية (حكم القلة) ، أو بين القوتين البحرية والبرية .

وقد حاول كل من الطرفين ، أن يدعم قوته ، وذلك بضم بعض جيرانه إليه كحلفاء . وهكذا انقسمت بلاد اليونان وأيونيا تدريجيًّا إلى فئتين من الأحلاف . وانقسم العالم بالتالى إلى قوتين متعاديتين ، كانت هوة الخلاف تزداد اتساعاً بينهما يوماً بعد يوم ، وكان لا مناص من أن يقع بينهما الاصطدام ،

إن عاجلا ، أو آجلا . وهكذا تنشب الحرب . وكانت معركة مدمرة ، شلت كلا من الطرفين المتخاصمين ، وأدت أخيراً إلى ضياع استقلال بلاد اليونان . ولا يتسع المجال للدخول فى التفاصيل ، ولكننا نستطيع أن نوجز قصة هذه الحرب على الوجه التالى :

كان يبدو ، فى بادئ الأمر ، أن أثينا تطبق يديها على جميع الأوراق الرابحة . فقد كانت أجزاء إمبراطوريتها ترتبط بأسطول عظيم . ولكنها فقدت المبادرة ، بسبب تفشى الطاعون (سنة ٤٣٠ ــ ٤٢٩ ق.م) ، الذى فتك بالأثينيين فتكاً ذريعاً ، وثبط عزائم من بقى منهم على قيد الحياة . وقد انتهت السنوات العشر الأولى من الحرب (سنة ٤٣١ــ٤٢١ ق.م) بصلح نيكياس[٨٤]. وقد تم الاتفاق بين الطرفين ، على أن يستمر هذا الصلح خمسين سنة . ولكن الأيام برهنت على أنه لم يكن أكثر من هدنة مريبة لا تؤمن عواقبها .

وانتهت الحملة الصقلية ، التى قام بها الأثينيون سنة ٤١٥ ق.م ، (كانت تضم ١٣٤ مركباً ، تحمل ٤٠٠٠ من الجنود المدججين بالسلاح) : بكارثة شاملة ، منى بها أسطول أثينا وجيشها ، وذلك فى معركة سرقسه سنة ٤١٣ ق.م . وأدت السنوات العشر الأخيرة من هذه الحرب (٤١٣ ــ ٤٠٤) إلى استسلام أثينا وإذلالها .

وهكذ اندحرت أثينا ، وانتصرت إسبرطة . وإن كانت فى نظر الخلود ، لم تنتصر ، فى حين أن أثينا كتب لها أن تظل خالدة . إذ أن فوز إسبرطة ، لم يحل دون تقدم أثينا العقلى (كما سنرى فى الفصول التالية) ، وقد ظلت أثينا ، مدرسة لليونان ولأوربا ، وكل ما ينسب إلى اليونان من مجد ، مرده إلى أثينا لا إلى إسبرطة .

أضف إلى ذلك ، أن أهل إسبرطة لم يحتفظوا بسيادتهم المادية أمداً طويلا ، إذ تغلب عليهم أهل طيبة فى معركة لوكترا سنة ٣٧١ ق.م ، وفى الجيل التالى ، اضطر اليونانيون المنقسمون على أنفسهم ، أن يخضعوا لسيادة المقدونيين . إذ انتصر عليهم فيليب الثانى ، فى معركة شيرونيا سنة ٣٣٨ ق.م .

وهكذا نستطيع أن نقول : إن الحروب الفارسية ، خلصت بلاد اليونان من الهمجية ، بينما كانت الحرب البيلوبونيزية ، الخطوة الأولى نحو تدهورهم وانهيارهم . وكانت الحرب الأولى ، مصدر إلهام هيرودوت ، أما الثانية ، فقد قدمت لنا مؤرخاً عظيماً آخر ، يعتبر من كبار المؤرخين فى كل زمان ، وهو ثوكيديديس .

كان ثوكيديديس بن أولوروس ، أثينى الأصل . ونحن نعرف شخصيته تمام المعرفة ، لكننا لا نعلم شيئاً عن تاريخ حياته ، حتى إننا لا نستطيع أن نعين بدقة تاريخ مولده ، ولا نعرف أين ومتى كانت وفاته . وأقرب هذه التواريخ إلى يقين المؤرخين ، هما حول سنة ٤٦٠ وسنة ٤٠٠ على التوالى . (أو بعد ذلك بقليل أى من سنة ٤٥٥ — ٣٩٥ ق.م) . وقد أصيب بالطاعون، ولكنه شفى منه ، وهذا يدلنا على أنه كان يقيم فى أثينا سنة ٤٣٠ — ٤٢٩ . ويمكننا أن نقدر أنه كان من ذوى الثراء ، لأنه استطاع أن يحصل على إذن باستغلال بعض مناجم الذهب فى تراقيا[٨٥]. ويظهر أنه كان يملك ثروة كبيرة خاصة به ، وهذا ما ساعده على التفرغ لكتابة مصنفه . ويظهر أيضاً أنه عنى بعض الوقت بالشئون السياسية والعسكرية ، إذ أنه عين قائداً للجيش (strategos) سنة ٤٢٤ ، ولكنه لم يحتفظ بهذا المنصب زمناً طويلا ، لأنه فى نفس هذه السنة عجز عن إنقاذ مدينة أمفيبوليس ، ونفى لمدة عشرين عاماً[٨٦] . وقد توافر له بذلك الفراغ إلى بحوثه التاريخية ، ولعله قضى بعض هذه السنوات العشرين ، فى التجوال بحثاً عن الوثائق . ولعله أيضاً قضى أكثر هذه الفترة فى « سكبت هايل» (Scapte Hyle) حيث شعر بالطمأنينة ، وكان بعيداً عن الحرب ، بحيث أتيح له أن ينظر إليها بشىء من الحياد ، كما يسر له العمل فى هدوء .

وإذا صح أنه كتب هنالك تاريخ الحرب الأهلية ، وهذا ما نعتقده ، فعلينا أن نعتبر « سكبت هايل » مكاناً مقدساً . ونستنتج من أقواله أنه استهل عمله عند بداية الحرب (سنة ٤٣١) ، وكان ما يزال عاكفاً عليه ، عندما حلت الكارثة بأثينا (سنة ٤٠٤) . وهذا لو فرضنا أنه قضى الفترة من سنة ٤٢٤

ουκυδίδης ἀθηναῖος ξυνέγραψε τὸν πόλεμον τῶν πελοποννησίων καὶ ἀθηναίων, ὡς ἐπολέμησαν πρὸς ἀλλήλους, ἀρξάμενος εὐθὺς καθισταμένου, καὶ ἐλπίσας μέγαν τε ἔσεσθαι, καὶ ἀξιολογώτατον τῶν προγεγενημένων, τεκμαιρόμενος ὅτι ἀκμάζοντές τε ᾖσαν ἐς αὐτὸν ἀμφότεροι παρασκευῇ τῇ πάσῃ, καὶ τὸ ἄλλο ἑλληνικὸν ὁρῶν ξυνιστάμενον πρὸς ἑκατέρους, τὸ μὲν εὐθύς, τὸ δὲ, καὶ διανοούμενον. κίνησις γὰρ αὕτη μεγίστη δὴ τοῖς ἕλλησιν ἐγένετο, καὶ μέρει τινὶ τῶν βαρβάρων· ὡς δὲ εἰπεῖν, καὶ ἐπὶ πλεῖστον ἀνθρώπων. τὰ γὰρ πρὸ αὐτῶν, καὶ τὰ ἔτι παλαιότερα, σαφῶς μὲν εὑρεῖν διὰ χρόνου πλῆθος, ἀδύνατα ἦν. ἐκ δὲ τεκμηρίων, ὧν ἐπὶ μακρότατον σκοποῦντί μοι πιστεῦσαι ξυμβαίνει, οὐ μεγάλα νομίζω γενέσθαι, οὔτε κατὰ τοὺς πολέμους, οὔτε ἐς τὰ ἄλλα. φαίνεται γὰρ ἡ νῦν ἑλλὰς καλουμένη, οὐ πάλαι βεβαίως οἰκουμένη, ἀλλὰ μεταναστάσεις τε οὖσαι τὰ πρότερα, καὶ ῥᾳδίως ἕκαστοι τὴν ἑαυτῶν ἀπολείποντες, βιαζόμενοι ὑπό τινων ἀεὶ πλειόνων. τῆς γὰρ ἐμπορίας οὐκ οὔσης, οὐδ᾽ ἐπιμιγνύντες ἀδεῶς ἀλλήλοις, οὔτε κατὰ γῆν, οὔτε διὰ θαλάσσης, νεμόμενοί τε τὰ αὐτῶν ἕκαστοι ὅσον ἀποζῆν, καὶ περιουσίαν χρημάτων οὐκ ἔχοντες, οὐδὲ γῆν φυτεύοντες, ἄδηλον ὂν ὁπότε τις ἐπελθὼν, καὶ ἀτειχίστων ἅμα ὄντων, ἄλλος ἀφαιρήσεται, τῆς τε καθ᾽ ἡμέραν ἀναγκαίου τροφῆς πανταχοῦ ἂν ἡγούμενοι ἐπικρατεῖν, οὐ χαλεπῶς ἀπανίσταντο. καὶ δι᾽ αὐτὸ, οὔτε μεγέθει πόλεων ἴσχυον, οὔτε τῇ ἄλλῃ παρασκευῇ. μάλιστα δὲ τῆς γῆς ἡ ἀρίστη ἀεὶ τὰς μεταβολὰς τῶν οἰκητόρων εἶχεν. ἥ τε νῦν θεσσαλία καλουμένη, καὶ βοιωτία, πελοποννήσου τε τὰ πολλὰ, πλὴν ἀρκαδίας, τῆς τε ἄλλης, ὅσα ἦν κράτιστα. διὰ γὰρ ἀρετὴν γῆς, αἵ τε δυνάμεις τισὶ μείζους ἐγγιγνόμεναι, στάσεις ἐνεποίουν, ἐξ ὧν ἐφθείροντο, καὶ ἅμα ὑπὸ ἀλλοφύλων μᾶλλον ἐπεβουλεύοντο. τὴν γοῦν ἀττικὴν ἐκ τοῦ ἐπὶ πλεῖστον διὰ τὸ λεπτόγεων ἀστασίαστον οὖσαν, ἄνθρωποι ᾤκουν οἱ αὐτοὶ ἀεί. καὶ παράδειγμα τόδε τοῦ λόγου οὐκ ἐλάχιστόν ἐστι, διὰ τὰς μετοικίας ἐς τὰ ἄλλα μὴ ὁμοίως αὐξηθῆναι. ἐκ γὰρ τῆς ἄλλης ἑλλάδος οἱ πολέμῳ ἢ στάσει ἐκπίπτοντες, παρ᾽ ἀθηναίους οἱ δυνατώτατοι, ὡς βέβαιον ὂν, ἀνεχώρουν· καὶ πολῖται γιγνόμενοι εὐθὺς ἀπὸ παλαιοῦ, μείζω ἔτι ἐποίησαν πλήθει ἀνθρώπων τὴν πόλιν, ὥστε καὶ ἐς ἰωνίαν ὕστερον, ὡς οὐχ ἱκανῆς οὔσης τῆς ἀττικῆς, ἀποικίας ἐξέπεμψαν. δηλοῖ δέ μοι καὶ τόδε τῶν παλαιῶν ἀσθένειαν οὐχ ἥκιστα· πρὸ γὰρ τῶν τρωικῶν, οὐδὲν φαίνεται πρότερον κοινῇ ἐργασαμένη ἡ ἑλλάς. δοκεῖ δέ μοι, οὐδὲ τοὔνομα τοῦτο ξύμπασά πω εἶχεν, ἀλλὰ τὰ μὲν πρὸ ἕλληνος τοῦ δευκαλίωνος, καὶ πάνυ οὐδὲ εἶναι ἡ ἐπίκλησις αὕτη, κατὰ ἔθνη δὲ ἄλλα τε, καὶ τὸ πελασγικὸν ἐπὶ πλεῖστον, ἀφ᾽ ἑαυτῶν τὴν ἐπωνυμίαν παρέχεσθαι. ἕλληνος δὲ καὶ τῶν παίδων αὐτοῦ ἐν τῇ φθιώτιδι ἰσχυσάντων, καὶ ἐπαγομένων αὐτοὺς ἐπ᾽ ὠφελείᾳ ἐς τὰς ἄλλας πόλεις, καθ᾽ ἑκάστους μὲν ἤδη τῇ ὁμιλίᾳ μᾶλλον καλεῖσθαι ἕλληνας· οὐ μέντοι πολλοῦ γε χρόνου ἐδύνατο καὶ ἅπασιν ἐκνικῆσαι. τεκμηριοῖ δὲ μάλιστα ὅμηρος· πολλῷ γὰρ ὕστερον ἔτι καὶ τῶν τρωικῶν γενόμενος, οὐδαμοῦ τοὺς ξύμπαντας ὠνόμασεν, οὐδ᾽ ἄλλους, ἢ τοὺς μετ᾽ ἀχιλλέως ἐκ τῆς φθιώτιδος, οἵπερ καὶ πρῶτοι ἕλληνες ἦσαν. δαναοὺς δὲ ἐν τοῖς ἔπεσι, καὶ ἀργείους, καὶ ἀχαιοὺς ἀνακαλεῖ. οὐ μὴν οὐδὲ βαρβάρους εἴρηκε, διὰ τὸ μηδὲ ἕλληνάς πω, ὡς ἐμοὶ δοκεῖ, ἀντίπαλον ἐς ἓν ὄνομα ἀποκεκρίσθαι. οἱ δ᾽ οὖν ὡς ἕκαστοι ἕλληνες κατὰ πόλεις τε ὅσοι ἀλλήλων ξυνίεσαν, καὶ ξύμπαντες ὕστερον κληθέντες, οὐδὲν πρὸ τῶν τρωικῶν δι᾽ ἀσθένειαν καὶ ἀμιξίαν ἀλλήλων ἀθρόοι ἔπραξαν. ἀλλὰ καὶ ταύτην τὴν στρατείαν, θαλάσσῃ ἤδη πλείω χρώμενοι, ξυνεξῆλθον. μίνως γὰρ παλαίτατος ὧν ἀκοῇ ἴσμεν, ναυτικὸν ἐκτήσατο, καὶ τῆς νῦν ἑλληνικῆς θαλάσσης ἐπὶ πλεῖστον ἐκράτησε, καὶ τῶν κυκλάδων νήσων ἦρξέ τε, καὶ οἰκιστὴς πρῶτος τῶν πλείστων ἐγένετο, κᾶρας ἐξελάσας, καὶ τοὺς ἑαυτοῦ παῖδας ἡγεμόνας ἐγκαταστήσας, τό τε λῃστικὸν, ὡς εἰκὸς, καθῄρει ἐκ τῆς θαλάσσης ἐφ᾽ ὅσον ἐδύνατο, τοῦ τὰς προσόδους μᾶλλον ἰέναι αὐτῷ. οἱ γὰρ ἕλληνες τὸ πάλαι, καὶ τῶν βαρβάρων, οἵ τε ἐν τῇ ἠπείρῳ παραθαλάσσιοι, καὶ ὅσοι νήσους εἶχον, ἐπειδὴ ἤρξαντο μᾶλλον περαιοῦ-

شكل رقم ٦٨ — تاريخ ثوكيديديس ، الطبعة الأصلية (من القطع المزدوج — البندقية — الدومانوزيو — مايو ١٥٠٢)
ومما هو جدير بالذكر أن الطبعة الأصلية من مصنفي هيرودوت وثوكيديديس ، نشرهما الدومانوزيو ، فى نفس السنة (١٥٠٢) . ونحن نثبت هنا الصفحة الأولى من الأصل ، وهى تبدأ بهذه العبارات المعروفة : « ثوكيديديس الأثيني كتب تاريخ الحرب . . . » أما الفراغ الذى يبدو فى أعلى الصفحة ، على الشمال ، فقد ترك ليملأه الرسام بصورة مزخرفة للحرف الأول . وقد وضعت علامة ثيتا (٥) صغيرة لهدايته (عن نسخة موجودة فى مكتبة كلية هارفارد) .

حتى سنة ٤٠٤ (أو الجزء الأكبر منها) ، فى سكبت هايل ، فمعنى هذا أنه بدأ فى كتابة تاريخه قبل النفى ، ثم أتمه بعده . والكتاب يبدأ على الوجه التالى (راجع الشكل رقم ٦٨) :

« ثوكيديديس الأثينى ، كتب تاريخ الحرب التى شبت بين البيلوپونيزيين والأثينيين ، وقد استهل عمله عند بداية الحرب ، لأنه اعتقد أنها ستكون أعظم وأهم من كل ما سبقها من حروب . وحمله على هذا الاعتقاد ، أن كلا من الطرفين أعد للحرب ما استطاع من قوة ، وأن الشعوب الهلينية جميعاً اشتركت فى هذه الحرب ، فانحازت إلى هذا الطرف أو ذاك . وبعضها سارع إلى هذا الانحياز ، والبعض الآخر عقد العزم على ذلك ، وكانت هذه الحرب ، أعظم حركة أثرت فى الهلينيين ، بل امتد أثرها إلى بعض الشعوب الأخرى . ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنها أثرت فى مجموعة كبيرة من الجنس البشرى » .

وقد أدرك المؤلف أهمية عمله هذا تمام الإدراك ، وتبين له وجه الحقيقة منذ البداية ، إذ أن الخصمين كانا يستعدان لخوض غمار هذه الحرب منذ أمد بعيد ، ولم تكن فى حقيقتها حرباً أهلية تنشب داخل أمة من الأمم فحسب ، بل جرت إليها أمماً أخرى (ولم ينتصر الإسبرطيون أخيراً إلا بمساعدة الفرس) .

* * *

وفى نظر الفيلسوف ، كل حرب هى فى حقيقتها حرب أهلية . وهذا الحكم يصح على الحرب البيلوپونيزية بوجه خاص ، تلك الحرب التى قسمت الجنس إلى معسكرين . وقد نقح ثوكيديديس مصنفه بعد سنة ٤٠٤ ، وكتب له مقدمة جديدة ، جاء فيها :

« كتب تاريخ هذه الحوادث ، ثوكيديديس الأثينى نفسه ، متتبعاً تسلسل الوقائع ، فى الصيف والشتاء ، حتى ذلك الوقت ، الذى تمكن فيه الإسبرطيون وحلفاؤهم ، من أن يضعوا حداً لحكم أثينا ، واستولوا على أسوار بيرايوس . وبهذا الحادث ، تكون الحرب قد استغرقت ، فى مجموعها ، سبعاً وعشرين

سنة . وإذا كان هنالك من لا يرى من الصواب إضافة فترة الهدنة ، إلى مدة الحرب ، فإن حكمه خاطئ . ولابد له أن ينظر إلى الأمور ، على ضوء الحقائق كما وقعت . حتى يتبين له أن تلك الهدنة لم تكن فى الحقيقة فترة سلم ، توقف فيها كل من الطرفين عن استعادة أو تسلم كل ما اتفق عليه . . . وهكذا إذا جمعنا مدة السنوات العشر الأولى ، التى استمرت فيها الحرب ، إلى مدة الهدنة المزعومة التى تلتها ، وحسبنا ذلك بحساب فصول السنة ، وجدنا أن عدد السنوات ، هو العدد الذى ذكرنا مضافاً إليه بضعة أيام . أما إذا نظرنا إلى الأمر بعين أولئك الذين تحققوا من وقوع المعجزات ، فإنه سيجد أن هذه الحقيقة بالذات كانت صحيحة . لأننى أذكر أنه كان يقال دائماً ، منذ بداية الحرب حتى نهايتها ، إن هذه الحرب ستستمر تسع سنوات مضاعفة ثلاث مرات . ولقد عاصرت هذه الحرب ، وكنت فى سن تسمح لى باستنتاج الأحكام ، كما أننى تتبعت حوادثها بدقة ، لكى أتمكن من جمع المعلومات الصحيحة »(٨٧) .

ولقد ظل مصنفه ناقصاً . لأنه على الرغم من هذا القول الذى اقتبسناه آنفاً ، لم يتعد ثوكيديديس فى كتابته سنة ٤١١ . أما تقسيم المصنف إلى ثمانية كتب ، فقد قام به على الأرجح علماء الإسكندرية . وأما نسبة الجزء الثامن إليه ، فهى موضع نظر . فقد نسب ، فى صورته التى وصلت إلينا ، إلى ابنة ثوكيديديس ، وإلى كسينوفون ، وكذلك إلى ثيوبومبوس الذى ينتمى إلى بلدة الخيوسى . ومن الثابت أن الاثنين الأخيرين ، كتبا « الهلينيكا » ، لتكملة كتاب ثوكيديديس . وكتاب ثيوبومبوس المفقود ، يكمل التاريخ من سنة ٤١١ حتى سنة ٣٩٤ . أما كتاب كسينوفون ، الذى بين أيدينا ، فإنه يتناول فترة أطول ، أى من ٤١١ حتى معركة منتينيا الثانية (Mantinea) ، سنة ٣٦٢ ق.م. ويعكس الكتاب الثامن ، جميع خصائص ثوكيديديس فى التأليف ، إلا أنه يخلو من الخطب .

وليست الفصول الثلاثة والعشرون الأولى ، من الكتاب الأول ، سوى مقدمة

تدور حول علم الآثار ، وتمر بالحوادث التى جرت من سنة ٤٧٩ إلى سنة ٤٤٠ مرًّا سريعاً . وبهذا يكون قد وصل تاريخه بتاريخ هيرودوت ، وشرح مقدمات الحزب الجديدة . ووقف بقية الكتاب على الحرب نفسها، حيث وصف أحداثها باعتدال وتجرد ، وأتى بها تبعاً لتسلسلها التاريخى . وحدد السنة الأولى من الحرب (سنة ٤٣١ ق.م) ، بذكر أسماء حكام أثينا وإسبرطة ، لكنه بعد ذلك كان يذكر السنوات بترتيبها ، أى السنة الأولى ، والسنة الثانية . . وهكذا ، ولم يكن يذكر الأشهر الأثينية . وكانت التقاويم المختلفة الشائعة فى عصره ، مصدر فوضى واضطراب ، ولهذا لم يعرها أدنى اهتمام . وكان يميز فى كل سنة ، بين الفصل المعتدل Theros ، والفصل الردىء (cheimon) . وعندما يحتاج إلى مزيد من الدقة ، كان يشير إلى الحوادث الزراعية ، كقدوم الربيع ، واستواء الحنطة على سوقها ، وتذريتها فى الهواء ، وجنى الكروم ، والأيام الجميلة الأخيرة . . وهكذا وضع وصفه للحرب ، فى هذا الإطار التاريخى المحكم . وكثيراً ما كان يضطر إلى الانتقال المفاجئ من أحد أجزاء بلاد اليونان ، إلى جزء آخر ، وهذا مما يضايق القارئ . إلا أننا لا نملك إلا أن نعترف له بسلامة المنهج ، إذ أنه كان يربط بين البيئة الجغرافية والحوادث التاريخية . وهذا خير ما يفعله المؤرخ العلمى ، حتى لا يضل سبيله وحتى يأمن الزلل والعثار . وأنا أستعمل كلمة « العلمى » عن قصد، لأن ثوكيديديس كان مؤرخاً علميًّا بالمعنى الدقيق للكلمة . وهو أول من يستحق هذا اللقب فى العالم . ويعتبر كتابه أول رائعة أدبية فى النثر الأتيكى (أما هيرودوت فقد كتب مصنفه باللهجة الأيونية) . بل هو فضلا عن ذلك ، أول محاولة لوصف الحرب ، أسبابها وتقلباتها ، بطريقة رجل العلم ، ذى الدربة والمران ، أو قل بطريقة الطبيب ، الذى يصف تقلبات المرض . وقد تجنب الخرافات والالتباسات ، وقال فى ذلك مفتخراً :

« قد يكون خلو كتابى من بعض الخرافات ، سبباً فى جعله منفراً للأذن . ولكن لعل هنالك من يرغب فى أن يلتقط فكرة واضحة عن الحوادث التى حدثت ،

أو التى يحتمل أن تحدث فى يوم من الأيام ، بنفس الطريقة ، أو بطريقة مشابهة لها . وحسبى أن يجد مثل هؤلاء الناس ، كتابى هذا مفيداً لهم »[٨٨].

والكلمات الأخيرة التى تنتهى بها الترجمة الإنكليزية يقابلها فى اليونانية (Ctema es aici) وكثيراً ما أشير إليها خطأ ، كأن كلمة ctema هى mnema (أى تذكارى) ، وكأنهم ظنوا أن ثوكيديديس ، قد قال متعجباً ، كما فعل هوراس : (Exegi monumentum aere perennius) لكن الأمر لم يكن كذلك . فإن ثوكيديديس لم يكن يفكر فى مجده الشخصى ، بل كان يفكر فى قيمة كتابه ، شأنه فى ذلك شأن كل عالم مخلص. وقد بذل جهوداً مضنية ، فى سبيل الحصول على نتائج لها قيمة خالدة .

أما المصادر التى اعتمد عليها ، فهى تجربته الخاصة ، ثم معلوماته التى استمدها من بعض الرواة . وكان فى بعض الحالات ، يعتمد على وثائق خاصة ، يدمجها فى روايته ، فمعاهدة نيكياس ، مقتبسة بحذافيرها[٨٩]، وكذلك نصوص الحلف الذى كان بين الأثينيين والأرجيفيين والمتينيين والإيليين . وقد عثرت الجمعية الأثرية فى أثينا على جزء من هذه المعاهدة ، سنة ١٨٧٧ ، على لوحة من الرخام قرب الأكروبول . ونص هذه النقوش يتفق والنص الذى أورده ثوكيديديس ، ويعد هذا دعماً عظيماً له . وقد كان ثوكيديديس لا ينتمى إلى حزب ما ، على الرغم من إخلاصه العظيم لبركليس . أو لنقل إنه كان معتدلاً فى تحيزه ، وإن كان دائماً مستعداً لأن يستمع إلى وجهات نظر الأطراف الأخرى ، وأن يتفهمها ويشرحها بأمانة وعطف . فقد دربت تعاليم السوفسطائيين الحرة الأثينيين على أن ينظروا إلى الموضوع من وجهيه المتقابلين ، وأن ينظروا إلى الشخصية ، من نواحيها المختلفة . ولا يعنى هذا أن جميع الأثينيين أفادوا من هذا التدريب ، إلا أن عقلية ثوكيديديس ، كانت على أتم الاستعداد للانتفاع به .

وقد كانت غايته الأولى دائماً ، أن يكون صادقاً ، قدر الإمكان ، مهما كانت الظروف . وكان يستشعر أحاسيس العالم الذى لابد له أن يصور

التجارب السيئة . والفشل مؤثر حقاً[٩٠] ، إلا أن هنالك لذة فى وصفه بصدق . وقد رسم صوراً دقيقة للزعماء والقادة . ووصفه لبركليس خير مصدر يعتمد عليه لدراسة شخصيته وسياسته ، وخاصة فى السنوات الأخيرة (من سنة ٤٣٣ — ٤٢٩ ق.م) . وهو يصور لنا رجلا كان فى استطاعته أن يعمل المستحيل ، إذ أنه كان قادراً على أن يكبح جماح الشعب، دون أن يحد من حريته[٩١]، أى إنه كان يحفزه على قبول النظام المفروض ، وكأنما اختاره بنفسه . وقد كان من دواعى سرور ثوكيديديس، أن يصف عبقرية بركليس السياسية ، إذكان معجباً به إلى حد بعيد ، إلا أنه استطاع أيضاً أن يكون منصفاً فى موقفه من بعض الرجال الذين كان لا يميل إليهم . وبهذه الروح ، وصف قسوة كليون وأمانة نيكياس التى يكتنفها الجبن وتختلط بها الأوهام، والتهور الرائع الذى أبداه ايكيبياديس . ولم يكن رأيه فى الرجال ، متوقفاً على نجاحهم أو عدمه ، فقد يخطىء الحظ الرجل الطيب ، ولكن شخصيته تنم عن جوهره .

ويظهر حياده وموضوعيته وأمانته ، على أحسن صورة ، عندما يتناول المسألة الأساسية ، وهى خصائص الديموقراطية الأثينية ، مقارنة بالحكم الاستبدادى فى إسبرطة وقد دافع عنها بركليس ، فى خطابه الجنائزى[٩٢] وهو يعد من أنبل الأحاديث السياسية . وذكرى خالدة لا تفنى ، لا لبركليس الذى ألقاه فحسب ، بل أيضاً لهؤلاء الأثينيين الذين استمعوا إليه ، ولأمهم مدينة أثينا . كم كانوا عظماء ، هؤلاء الرجال الذين استحقوا أن تتلى على مسامعهم مثل هذه الرسالة الكريمة . وهى طويلة إلى حد يحول دون اقتباسها كاملة ، وليس فى استطاعتى إلا أن أقدم نماذج منها . قال :

« إننا نحب الجمال ولكن دون إسراف ، ونحب الحكمة ولكن دون ضعف . أما الثروة فإننا نعتد بها لا لتكون موضع تفاخر ، ولكن لتعيننا على تحقيق أعمالنا . ونحن لا نعيب الرجل الذى يعترف بفقره ، ولكننا نعتبر العيب كل العيب ألا يسعى الرجل إلى اجتنابه . وستجدون فى بعض رجالنا اهتماماً بالشئون الخاصة ، وبالشئون العامة فى آن واحد . ولن تفتقدوا فى البعض

الآخرَ ، وخاصة هؤلاء الذين يعنون بالعمل ، نفاذ البصيرة فى الشئون السياسية . لأننا لا نعتبر الرجل الذى لا يسهم بنصيب فى الشئون العامة ، رجلا أنانياً يعنى بشئونه الخاصة فحسب ، بل رجلا لا يصلح لشىء من الأشياء »(٩٣).

وكلماته الأخيرة :

« لقد تحدثت إليكم الآن ، طبقاً للقانون ، بتلك الكلمات التى وجدتها صالحة للمناسبة . أما هؤلاء الذين جئنا لنواريهم التراب ، فقد نالوا من تقديرنا ما يستحقون . وزيادة على ذلك ، ستعول الدولة أطفالهم من الآن فصاعداً ، حتى يبلغوا طور الرجولة . وبهذا نكون قد توجنا الموتى وورثتهم بتاج ذى قيمة حقيقية ، مكافأة لهم على ما قدمت أيديهم فى هذا النضال . إذ أنه حيث تكون الجوائز التى تقدم مكافأة للفضيلة كبيرة ، نجد المواطنين الصالحين . والآن بعد أن ذرفتم على الموتى ما هم أهل له من دموع ، وبكى كل منكم موتاه ، لكم أن تنصرفوا »(٩٤).

والأمريكيون لا يستطيعون أن يقرأوا هذه الكلمات المشرقة ، دون أن يتذكروا خطاب لنكولن فى جتسبرغ . وإنه لمما يشرف هذين الزعيمين — على بعد ما بينهما فى الزمان والمكان — أن خطابيهما الجنائزيين ، متشابهان كل التشابه ، من حيث النبل والرصانة .

أما الرأى الآخر فى الموضوع ، فقد عرضه ثوكيديديس على لسان « كليون بن كلينيتوس الذى كان أول من وفق إلى إقناعهم بوجوب إفناء الميثيلينيين ، ولم يكن من أشد المواطنين قسوة فحسب ، بل كان فى ذلك الوقت أيضاً أبعدهم تأثيراً على الشعب »(٩٥).

قال كليون :

« لقد أدركت فى مناسبات كثيرة مرت بى أن الديموقراطية لا تصلح لحكم الشعوب الأخرى »(٩٦) ومضى كليون فى حديثه مبيناً أن الديموقراطية والسيادة الإمبراطورية لا يتفقان .

وهكذا كان الأثينيون ، حوالى نهاية القرن الخامس ، يمرون بالأزمة نفسها التى يمر بها البريطانيون والفرنسيون والهولنديون والأمريكيون اليوم .

ومن المؤلم حقاً ، أن نقرأ بركليس وكليون اليوم ، فى هذا الوقت الذى تمر فيه الديموقراطية بتجربة جديدة ، أعظم من كل تجربة سبق لها أن عانتها . وعلينا أن نتأمل جيداً كلمات بركليس الخالدة ، وأن نعير تحذيرات كليون أيضاً بعض الالتفات .

وقد ساعد ثوكيديديس معاصريه ، وما يزال يساعدنا نحن اليوم ، على تفهم الفروق الأساسية بين الرجال . وبعض هذه الفروق فطرى ، وبعضها الآخر نتيجة للظروف ، وإن كان راسخاً فى أعماقهم . وكان عمله الخاص ، أن يقارن بين الخصمين العنيدين ، أثينا وإسبرطة . فقد وُصف الأثينيون (فى الخطاب الجنائزى مثلا) ، بالرغبة فى العلم والتشوف إليه ، واتساع الأفق وحسن الضيافة ، والكياسة والذوق السليم والكرم ، والقلق . بينما يتصف الإسبرطيون ، بالضعة والحمية والأنانية والتوانى والهدوء والرجعية والحذر والغيرة والإصرار والصبر . وإنه لمن المزعج ، أن يكون خصمك من هذا النوع من البشر ، (الذين قد يكونون رجالا فضلاء ، ولكن بطريقتهم الخاصة) . وهذان النموذجان البشريان ما يزالان موجودين بين ظهرانينا حتى اليوم . والحرب بين أثينا وإسبرطة لم تنته بعد ، وقد لا تنتهى أبداً . وهذا الوصف العلمى الذى قدمه لنا ثوكيديديس ، كان أكثر تمثيلا وصدقاً مما لو حاول أن يجعله أشد تأثيراً ، فيصبح بذلك كمذكرات المحامين أقل موضوعية ، وأقل تجرداً . وليس هنالك ، على تراخى الزمن ، ما يوازى الحقيقة ، من حيث تأثيرها .

وقد يأسف الإنسان حقاً ، لأن ثوكيديديس كان حريصاً كل الحرص على التقيد بخطته ، ولذا نحى جانباً كل ما لا يدخل ضمن نطاق غرضه . فلم يصف لنا المجتمع فى ذلك الوقت ، كما لم يصف لنا تلك الآثار التى لا تبارى ، مما خلفه لنا أهل الفن والمفكرون من اليونانيين . لقد كان هذا العصر ، من العصور الذهبية ، وكم يكون قيماً وصف أحد المعاصرين له ، وخاصة إذا كان

هذا المعاصر على مثل ذكاء ثوكيديديس وحساسيته . ومهما يكن من أمر ، فلاشك أنه كان من رجال العلم (ولا أستطيع إلا أن أردد ذلك دائماً) ، إذ أنه أدرك أن البحث العلمى ، لابد أن يقتصر على موضوع ضيق النطاق واضح المعالم . ولم يقدم لنا ثوكيديديس صورة عن عصر أثينا الذهبى ، وبدلا من ذلك، استطاع أن يقدم لنا وصفاً أميناً دقيقاً ، ما أمكنه ذلك ، لمعركة الحياة والموت ، التى خاضتها أثينا ضد خصم حقود لا تهدأ ثائرته وكانت هذه غايته ، ولذا يجب ألا يصرفه عنها أمر من الأمور .

ولقد قيل إن أسلوب ثوكيديديس تغير ، أو ان نظرته اختلفت خلال الثلاثين سنة التى قضاها فى التأليف . وحاول علماء اللغة أن يثبتوا ذلك بواسطة النقد الداخلى . ولكن إذا عرف الإنسان أن ثوكيديديس ، كان ينقح كتابه دائماً ، وأنه من المحتمل أن يكون جزء من الكتاب الأول قد روجع فى الوقت الذى روجع فيه جزء من الكتاب السابع ، فإن مثل هذا النقد لا يركن إليه . وعلى الرغم من ذلك كله لابد لنا أن نتقبل هذا الرأى بوجه عام . فإن ثوكيديديس كان ، لاشك، ناضجاً عندما بدأ فى تأليف الكتاب،إلا أن خبرته أخذت فى الازدياد ، ولابد أن يكون لإخفاق صلح نيكياس والحملة الصقلية أثر فى تبدل نظرته . وليس من الطبيعى ، ألا تتغير شخصيته بعد هذه الوقائع الفظيعة . وطرأ عليه ، ما يطرأ عادة على كل عالم يشتغل بمشروع طويل الأمد . فهو لا يستطيع أن يدفع عن نفسه عوادى التغير ، كلما نما عمله بمرور الأيام .

ولنعد ثانية إلى الفصول الأولى من كتاب ثوكيديديس، وهى التى تضم المقدمة الأثرية . ومما هو جدير بالتنويه،أنه رأى ضرورة ملحة لكتابة مثل هذه المقدمة . والسبب فى ذلك أن ثوكيديديس كان عصرياً (شأنه فى ذلك شأن أبقراط الكوسى كما سنرى فيما بعد) . وكان شعوره بعصريته لا يقل عن شعورنا نحن بذلك . كما أنه كان يحس بأثر الماضى الطويل ، الذى أدى إلى خلق الحالة الحاضرة ، ولهذا كان لابد له أن يلخص تجارب الماضى . ومما يثير الدهشة فى نفوسنا ،

أنه استطاع أن يضطلع بهذا العمل (مع تقدير الوسائل المتاحة له) ، كما نضطلع به اليوم . مثال ذلك أنه افترض أن وصف هوميروس للحرب الطروادية لابد أن يكون مبنياً على بعض الحقائق ، مهما أسرف خياله الشعرى فى الزخرفة والتنميق . وعندما تحدث عن الجزر الإيجية قال :

« وسكان الجزر أشد تعلقاً بالقرصنة . ومنهم الكاريون والفينيقيون . ويظهر أن الكاريين كانوا يعمرون أكثر الجزر ، وهذا يتضح لنا من الحقيقة التالية : عندما طهر الأثينيون فى هذه الحرب جزيرة ديلوس ، ونقلت قبور جميع من ماتوا فى الجزيرة ، تبين أن أكثر من نصف الموتى كانوا من الكاريين. وقد استنتج ذلك من نوع الأسلحة التى دفنت معهم ، ومن طريقة الدفن ، التى ما تزال متبعة عندهم حتى الآن »(٩٧).

وثوكيديديس هو الوحيد بين الكتاب القدامى ، الذى إعتمد على الشواهد الأثرية ، لتبيان أصول اليونانيين . ويمكننا أن ندعوه « أبا علم الآثار » ، كما دعونا هيرودوت « أبا علم خصائص الشعوب » .

والمقدمة أيضاً تلقى ضوءاً على فلسفته التاريخية ، لأن وصفه يكشف عن فكرة تطورية ، على عكس الفكرة الرجعية التى عبر عنها هزيود ، والتى كانت سائدة حتى القرن السابع عشر . وروايته(٩٨) التى أوردناها سابقاً ، تنم عن إمكانية التكرار فى الشئون الإنسانية . ولكنه لم يتوسع فى شرح هذه الفكرة ، ولهذا ليس من حقنا أن نقارنها بفكرة أفلاطون عن تكرار الدورات أو العود المستمر . وربما عنى بذلك ، ببساطة ، ما يعنيه رجل العلم ، أى إذا تكررت الظروف المتشابهة فالنتائج قد تكون واحدة . ومن الظروف التى يترتب على المؤرخ أن يحسب حسابها الشهوات الإنسانية ، وهذه لا تتغير تغيراً كبيراً ، باختلاف الزمان والمكان . وهكذا قد تساعد دراسة الماضى المؤرخين على أن يتنبأوا بنتائج الصراع الذى يحتدم بين بنى الإنسان ، شأنها فى ذلك شأن التقارير الإكلينيكية ، التى تساعد الأطباء على التنبؤ بالتطورات المتوقعة التى قد تطرأ على الأمراض .

وقد طبق ثوكيديديس نزعته الحيادية الموضوعية على نفسه أيضاً . فهو لا يكاد يذكر إدانته ونفيه ، ولا يحاول أن يعتذر. فهل نعزو ذلك إلى شعوره بالازدراء ، أو إلى ضميره النقى ونفسه المتعالية ؟ أو إلى الموضوعية العلمية ؟ الأغلب أن ذلك كان نتيجة لهذه العوامل الثلاثة مجتمعة ، وخاصة العامل الأخير .

ولكن من أين توافرت هذه النظرة العلمية لثوكيديديس؟ . لاشك أن صفات الموضوعية والتجرد ، التى ساعدت على تكوين هذه النظرة ، كانت فطرية لديه . قد يكون هنالك بعض العوامل الخارجية التى تشجع على ظهور مثل هذه النزعة ، أو تعترض سبيلها . وساعدت ثقافته على توكيد مثل هذه الصفات . فقد جلس إلى أنتيفون الرمنوسى ، وغيره من السوفسطائيين . وإذا كانت السوفسطائية أصبحت مقيتة عندنا ، حتى إننا لا نستطيع أن ندرك ما كان لها من قيمة فى القرن الخامس . فعلينا أن نتذكر ، مبدئيًّا ، أن أكثر الأثينيين ، كانوا بالضرورة يعرفون معنى الحقيقة الجدلية . وكان لابد لأعضاء المحاكم الشعبية أن يقدروا القيم النسبية لمختلف المرافعات التى تلقى على مسامعهم ، فكيف يتيسر لهم ذلك ؟ كيف يتيسر لهم أن يفاضلوا بين خطيبين ، يدافع كل منهما عن وجهة نظره الخاصة فى إحدى الخصومات السياسية ؟ ومن النادر أن يكون أحد الحزبين نقيًّا نقاء لا تشوبه شائبة ، وأن يكون الثانى على العكس من ذلك ، فليست الأمور على مثل هذه البساطة . وهذا لا يمنع أن ينحاز أعضاء الحزب الواحد إلى حزبهم انحيازاً أعمى . وقد كان السوفسطائيون — وعلى الأقل النخبة الكريمة منهم — فى ذلك الحين ، يعلمون الشبان أن يتجنبوا الأهواء الحزبية والضغائن ، وأن يزدروا الأكاذيب والخرافات . وكان فى ذلك خير إعداد للتفكير المنطقى العلمى . وهؤلاء الرجال الذين كانوا يقولون إن الحق نسبى ، لم يكونوا ساخرين ولا متشككين . وبفضل خبرتهم السياسية ، كانوا يدركون تمام الإدراك تلك المشكلات التى كانت تنتج عن الهوى وضيق الأفق . وقد تتيسر معرفة الحق فى الخصومات العلمية المحض ، أما فى الشئون السياسية ، فإن أول شرط لكشف الحقيقة ، هو التمسك بموضوعية الشىء والتسامح واللين مع

الخصم . وكان ثوكيديديس على أتم الاستعداد لتفهم هذه التعاليم ، بفضل عبقريته . وقد بلغ الحد المستطاع من اتساع الأفق . والحرص على الناحية الموضوعية . ومكنه حبه للحق من أن يرى الوقائع ، وأن يسجلها بإخلاص ، وأن يصنفها ، (كما يصنف العالم ملاحظاته ، ويختزلها فى نظام) وكان قديراً على أن يرى الأشياء كما هى Sub specie aeternitatis ولم يعن ، بوجه عام ، بالناحية الخلقية للحوادث ، بل يكتفى بوصفها . وصف الفساد الذى تمخض عنه الطاعون ، الذى حدث نتيجة للاضطرابات الأخرى التى رافقت صراعاً لم تكن له نهاية . وهو موضوع يعرفه جيداً أولئك الذين يدرسون الحروب .

وكان أسلوبه ، كعقله ، أميناً وصارماً ، يكتب بحماسة وإيجاز ودقة ووضوح وحيوية . أورد التفاصيل بالدقة التى أمكنه الحصول عليها . وكان الوصف العام ، على حظ كبير من الاتزان . ولم يتردد ماكولى ، الذى كان من أعظم مؤرخى الإنجليز ، فى أن يقول : « ليس هناك أثر نثرى — حتى كتاب دى كورونا نفسه[٩٩] — يبلغ فى تقديرى كتاب ثوكيديديس السابع ، إنه الكتاب الذى لا يعلى عليه Ne plus ultra ، فى الفن البشرى » . (الكتاب السابع يتناول الحملة الصقلية المشئومة ، التى كانت السبب الأول للهزيمة الفادحة التى منيت بها أثينا) . وماذا يستطيع المرء أن يقول أكثر من ذلك ؟ ومن يستطيع أن يقول مثل هذا القول ، وله أعظم من هذه السلطة ؟

وقد هاجم جميع النقاد ، مكررين ومسهبين ، إحدى خصائص أسلوب ثوكيديديس فى الكتابة . ألا وهى عادته فى تضمين كتابته الأقوال الأصلية (وهى خاصة يشاركه فيها بعض المؤرخين القدماء) . فلنستمع إليه إذن :

« أما فيما يختص بتلك الخطب التى ألقاها بعض الرجال ، عندما أوشكت نيران الحرب أن تشتعل ، أو أثناء الحرب ، فقد كان من الصعب استعادة ألفاظها بدقة . والأمر سواء ، بالنسبة إلى الخطب التى سمعتها بنفسى ، أو تلك التى نقلها لى الرواة من مختلف المصادر . ولهذا فإننى أقدم هذه الخطب ، باللغة التى يلوح لى أن هؤلاء الخطباء عبروا بها ، فيما يتعلق بهذه الموضوعات ،

قيد البحث ، وبالعواطف التى تناسب المقام . ومع هذا حاولت أن أتقيد بالمعنى العام ، ما استطعت إلى ذلك سبيلا »(١٠٠).

أليس ذلك من الوضوح بمكان ؟ فعندما يستقر فى الذهن ، أن هذه الخطب لن تثبت حرفيًّا ، فليس هنالك كبير فرق بين كتابتها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، بإثبات علامات الاقتباس أو بالاستغناء عنها ، وكتابة الخطب ، على هذه الصورة ، كانت طريقة شائعة لا ينخدع بها أحد . وكانت طريقة ضرورية ، أو لها ما يبررها على الأقل ، لأن القدامى لم يكونوا يملكون الوسائل التى تمكنهم من استيعاب الخطب نفسها ، اللهم إلا إذا شهدوا الحفل بأنفسهم ، وكانت لهم ذاكرة قوية . وليس لهذه الطريقة ما يبررها اليوم ، لأنه من اليسير الحصول على النصوص الحرفية للخطب(١٠١) .

وهنالك سؤال أخير ، قد يجول فى خاطر القارئ المتأمل ، وهو : كيف استطاع أثينى وطنى أن يصف هذه الأحداث الفاجعة ، التى أدت إلى هزيمة بلاده ، بمثل هذا الحياد ؟ لقد سبق أن أجبنا على هذا السؤال ، أو عن جزء منه . فلاشك أن ثوكيديديس كان وطنيًّا ، شديد الحب لديموقراطية أثينا ، إلا أنه كان من ناحية رجل علم ، يضع إخلاصه للحقيقة فوق كل إخلاص . ومن ناحية أخرى ، كان إيمانه بالديموقراطية عميقاً ، حتى إنه كان لا يعترف بأن هزيمة أثينا كانت أبدية . فقد بقيت أثينا أو كان من الممكن أن تبقى — كما كانت سابقاً ، مدرسة اليونان (tês Hellados paideusis)(١٠٢) وقد بين بيركليس فى خطبة الجنازة ، أن الثمرة الأولى للديموقراطية ، هى التثقيف ، لا مجرد النجاح . وعلى الرغم من تلك التغيرات العظيمة ، تابعت أثينا حمل رسالتها فى تثقيف اليونانيين ، والعالم الغربى عامة . وبهذا برهنت برهنة تامة على ما كان يؤمن به بركليس وثوكيديديس .

طاعون أثينا (سنة ٤٣٠ — ٤٢٩ ق. م) :

بعد نشوب الحرب بعام واحد ، اضطر سكان أتيكا إلى اللجوء إلى أثينا ،

وذلك بسبب غزو الإسبرطيين لبلادهم . وهكذا اكتظت المدينة بالسكان ، وكانت العناية الصحية ضعيفة ، ولهذا كانت الظروف أشد ما تكون ملاءمة لانتشار الطاعون . وقد تفشى الطاعون فعلا ، وكان فتاكاً . ولنقتبس وصف ثوكيديديس له ، وهو أول وصف مفصل للطاعون ، فى الأدب العالمى ، قال :

« فى أول صيف سنة ٤٣٠ ، غزا البيلوبونيزيون وحلفاؤهم أتيكا ، بثلثى قواتهم السابقة ، تحت قيادة أرخيداموس بن زيوكسيداموس ملك اللقدمونيين . وبعد أن ثبتوا أقدامهم ، تقدموا إلى نهب البلاد . وقبل أن يقضوا فى أتيكا بضعة أيام ، ظهر الطاعون لأول مرة بين الأثينيين . وقيل إنه ظهر فى عدة أمكنة قبل ذلك ، فى ليمنوس مثلا ، وفى غيرها . ولم يعرف طاعون تفشى على هذا النطاق ، ولا كارثة فتكت بالأرواح هذا الفتك الذريع ، فى أى بلد من البلاد . فلم يكن هنالك أطباء يستطيعون مكافحة الداء ، إذ أنهم أقدموا فى بادئ الأمر على علاجه ، دون أن يعرفوا كنهه . وكثرت الوفيات بينهم ، لأنهم كانوا كثيرى التعرض له ، ولم يكن هنالك وسيلة بشرية أخرى . ولم تنفعهم الابتهالات فى المعابد ، ولم يجدهم اللجوء إلى المعجزات وما يشبهها فتيلا . وما لبثوا أن أشاحوا وجوههم عنها ، عندما قهرتهم الكارثة .

« وقد قيل إن الداء تفشى أولا فى إثيوبيا ، فيما وراء تخوم مصر ، ثم زحف على مصر وليبيا ، وانتشر فى معظم بلاد الملك . ثم ما لبث أن انقض ، على حين غرة ، على مدينة أثينا . وهاجم أولا سكان بيريه . وقال الناس هناك ، إن البيلوبونيزيين سمموا أحواض شربهم ، إذ لم يكن هناك ، حتى ذلك الوقت ، ينابيع عامة للشرب . ولم يلبث أن بلغ المدينة العليا أيضاً ، ومنذ ذلك الحين أخذ عدد الوفيات فى الازدياد . وهنا أصبح كل إنسان ، سواء أكان من الأطباء أم من العامة ، يدلى برأيه فيما يختص بالمصدر الذى تحدر منه ، ويذكر الأسباب التى يتراءى له أنها مبررات كافية لحدوث هذا الحدث الكبير الخارج على المألوف . ولكننى سأصف المجرى الحقيقى الذى سار فيه ، وأشرح أعراضه التى لو استوعبها إنسان ما ، لأصبح قادراً — بما يتوافر لديه

من معرفة سابقة به — على اكتشافه لو اتفق أن تفشى مرة ثانية ، وذلك لأننى شخصياً أصبت بالداء ، ورأيت أناساً أصيبوا به .

وقد أقر الجميع ، بأن هذه السنة كانت على غير العادة خلواً من أى مرض من الأمراض الأخرى . أما الأشخاص الذين صادف أن كانوا مصابين بمرض من الأمراض آنذاك ، فقد برئوا منه لدى هجوم الداء الجديد . وفى حالات أخرى ، كان الأصحاء يصابون فجأة ودون سبب ظاهر بحمى مرتفعة فى الرأس ، وباحمرار والتهاب فى العينين ، وباطن الشدقين . وسرعان ما يصبح الحلق واللسان فى لون الدم ، ويصعد المصاب أنفاساً غريبة كريهة الرائحة . وفى المرحلة الثانية يبدأ العطاس والبحة ، وفى وقت قصير ينتقل الاضطراب إلى الصدر ، ويصحبه سعال شديد . وعندما يستقر فى المعدة ، يختل نظامها ، ويتلو ذلك تقيؤ ، يلازمه جميع أنواع الصفراء التى يعدد الأطباء أسماءها . ويشعر المريض فى ذلك كله ببلاء عظيم . وفى أكثر الحالات يتلو هذا تجشؤ يسبب انتفاضات شديدة ، قد تزول بسرعة وفى أحيان أخرى تستمر فترة طويلة . وإذا جسست الجسد من الخارج ، لا تحس بحرارة شديدة . ولم يكن لون البشرة شاحباً ، بل أحمر ضارباً إلى الزرقة ، تتفجر منه بعض البثور والتقرحات ، ولكنه كان من الداخل ، يتأجج حرارة ، حتى إن المصابين لا يحتملون أن تغطى أجسامهم بأرق الدثر أو الأغطية الكتانية . ولهذا يؤثرون أن يظلوا دون غطاء ، بل يفضلون على ذلك أن يقذفوا بأنفسهم إلى الماء البارد — وقد رمى أكثر المرضى المهملين أنفسهم فى أحواض الماء بالفعل — وكم أضناهم سعار العطش الذى لا تنقع له غلة ، سواء شربوا كثيراً أم قليلا ، وكان الانزعاج والأرق اللذان لا ينقطعان ، يقضان مضاجعهم . ولم يكن الجسد يفنى ، والمرض فى أوج شدته ، بل كان يقاوم بدوات الداء مقاومة عجيبة ، حتى إن المريض عندما كان يسلم الروح ، بسبب الحرارة التى تتأجج فى داخله — فى اليوم السابع أو التاسع كما حدث لأكثرهم — كان لا يزال محتفظاً ببعض قوته . وعندما يجتازون الأزمة ، ينحدر المرض إلى

أحشائهم ، حيث يسبب تقرحاً شديداً ، ويؤدى إلى إسهال حاد . وأكثر المرضى ، يهلكون فى هذه المرحلة ، بسبب الهزال الذى ينتج عن الإسهال . لأن الداء الذى بدأ فى الرأس أولا ، أخذ يتحدر حتى انتشر فى جميع الجسم ، فإذا قدر للإنسان أن ينجو من هذا الخطر ، تمكن الداء من الأطراف على الأقل ، وترك آثاره هناك ؛ لأنه ينقض على العورات ؛ وعلى أصابع اليدين والقدمين ، وكثيراً ما يفتدى المريض نفسه بضياع هذه الأجزاء منه ، على أن بعضهم كان يفقد عينيه أيضاً . وفى بعض الحالات كان يفقد المريض ذاكرته عقب المرض مباشرة ، وينسى كل شىء حتى إنه لا يتعرف إلى نفسه أو إلى أصدقائه[١٠٢].

حقاً أثبتت طبيعة المرض ، أنه من النوع الذى يفوق حد الوصف . وقسوة الداء كانت فى كل مرة أكثر مما تحتمله الطبيعة الإنسانية . وفى حالة واحدة برهن ببساطة على أنه يختلف عن أى مرض من الأمراض المعروفة ، وذلك أن الجوارح والحيوانات التى تدب على أربع مما يغتذى عادة باللحوم البشرية ، كانت لا تقترب من الجثث ، مع أن أكثرها كان يطرح فى العراء دون دفن . وإذا حدث أن ذاقت منها شيئاً فإنها سرعان ما تموت[١٠٣] .

ولا ينتهى الوصف هنا ، ولكننا أوجزنا أهم ما جاء فيه مما يتعلق بالناحية الطبية . ولنلاحظ أن الأثينيين عزوا الطاعون فى بادئ الأمر ، إلى تسميم العدو لأحواض الشرب عمداً . وهذه الظاهرة تتجلى فى الأوصاف العديدة ، التى وصلتنا عن الطواعين . حتى القرن السابع عشر[١٠٤]. والوصف الذى جاء به ثوكيديديس ، يبدو واضحاً للعامة ، إلا أنه لا يعتبر كافياً من حيث التشخيص الطبى . وربما كان الداء جديداً ؛ أى إنه كان نتيجة لظهور بعض الميكروبات ، التى لم تكن أجسام الأثينيين مستعدة لمقاومتها ، ولعل هذا ما يبرر قسوته وفتكه (على الرغم من أن شدة الزحام والجوع والقذارة ، تبرر جزءاً كبيراً من ذلك ، حتى لو كان الميكروب قديماً) . ونحن نعلم أن الأوبئة ، إذا اجتاحت أرضاً بكراً ، فإنها تفتك بها فتكاً ذريعاً ، كما حدث فى الطاعون الأسود فى منتصف

القرن الرابع عشر ، والزهرى فى نهاية القرن الخامس عشر[١٠٥]، ووباء الجدرى الذى اجتاح الأزتكيين سنة ١٥٢٠[١٠٦]، والكوليرا الأوربية الوافدة سنة ١٨٣١ — ١٨٣٢ ، ووباء الحصبة فى جزائر الفيجى سنة ١٨٧٥ . ويمكننا أن نستشهدبأمثلة مشابهة نستمدها من تاريخ الأوبئة التى تغزو عالم النبات والحيوان، ككارثة الدودة الغجرية التى ظهرت فجأة فى ولاية ماساتشوستس سنة ١٨٨٩ ، وفلسة سان جوزيه فى ولاية أمريكا الشرقية سنة ١٨٩٣ ، ودودة القطن فى تكساس سنة ١٨٩٤ ، وما إلى ذلك .

وقد يكون طاعون أثينا الأول من نوعه ، ولم يتكرر ثانية فى التاريخ . ومن الطبيعى ألا يقاس رد فعل شعب لم يغزه الداء بعد ، إلى رد فعل شعب غزاه الداء ، وحصل على نوع من الاعتياد والمناعة .

وقد بذلت عدة محاولات لتحديد نوع طاعون أثينا ، إلا أن تكرار المحاولات يدل على شك العلماء فى النتيجة . ولم يكن شىء من تخميناتهم مقنعاً ، إذ أن النتيجة لم تكن قطعية ، ولم تعد طور التخمين والظن . فهل كان طاعوناً قرحيًّا ، أم مرض الجدرى ، أم حمى التيفوس أم حمى التيفوئيد ؟ لقد قدر شروزبرى ، عقب بحوثه الأخيرة ، أنه ليس إلا حصبة[١٠٧]، وذلك أمر محتمل . وتحتوى رسالته على ثبت طويل بالمراجع ، إلا أنه لم يذكر كتاب «ثوكيديديس» لفاينلى[١٠٨]. والمؤلف فى هذا الكتاب القيم ، يقدر (أو يكرر) أن الداء لم يكن من النوع المعدى ، بل كانا تسمماً تعفنيًّا[١٠٩]. ولعل الحصبة هى خير تخمين ، ولكن أنى للإنسان أن يتأكد من ذلك ؟

ومما يدل على افتقار أكثر المؤرخين (ومنهم المعاصرون أيضاً) ، إلى العقل العلمى ، أنهم اعتبروا وصف ثوكيديديس الطبى للمرض ، نوعاً من الاعتساف والرهق . ولكن ذلك لم يكن بالنسبة إلى عقل ثوكيديديس العلمى، تعسفاً أو رهقاً ، بل كان من صميم موضوعه ، فقد كانت الخسائر الصحية التى نتجت عن الطاعون فادحة . كما كانت النتائج المعنوية أشد فداحة . وباستطاعة الإنسان أن يقول إن الطاعون كان البداية التى أدت إلى الهزيمة النهائية ، التى منيت

بها أثينا . وبعد هذا كله ، ألا يستدعى الأمر معرفة كنه الطاعون ؟ وكيف تفشى ؟ وكيف تلاشى ؟ هذه قضية واضحة تحتاج إلى تقصى الأسباب والتحليل والدراسة (Prophasis, Diagnosis, Therapeia) . وليس لنا أن نتهم ثوكيديديس بالخطأ ، لأن تحليله لم يكن مفيداً ، إذ أنه أدى واجبه على كل حال ، أى واجب المؤرخ العلمى .

ومما هو جدير بالذكر أيضاً ، أن لوكريتيوس (النصف الأول من القرن الأول ق.م) ، أعظم شاعر فلسفى ظهر فى العصر القديم ، أدرك الأهمية الحقيقية لهذا الوصف ، وأعاده فى صورة مخيفة حين ختم به قصيدته « طبيعة الأشياء »[١١٠] . معتمداً على ما جاء فى كتاب ثوكيديديس .

أوردنا قصة الطاعون بشىء من الإسهاب ، وبلغة المؤلف نفسه ، لأنها تكاد تكون الجزء التاريخى الوحيد ، الذى يعنى مؤرخى العلوم مباشرة . أما وصفه للإشارات الضوئية التى كانت ترسل من قمم الجبال[١١١] ، فقد تهم مؤرخى التكنولوجيا . ولكن هذا النوع البدائى من الإشارات التلغرافية ، لابد أن يكون قد استعمل قبل ذلك الوقت بأمد طويل[١١٢] . إذ أننا نعلم أن كثيراً من الشعوب البدائية اعتادوا أن يبلغوا بعض رسائلهم بالمشاعل أو الطبول ، وقد كان قرع الطبول خاصة يمكنهم من إرسال إشارات غاية فى التعقيد .

ويحتوى مصنف ثوكيديديس أيضاً ، على إشارات إلى ثلاث حوادث كسوف وخسوف ، وهى : الكسوف الذى وقع فى ٣ أغسطس سنة ٤٣١[١١٣] ، والكسوف الحولى الذى وقع فى ٢١ مارس سنة ٤٢٤[١١٤] ، والخسوف الذى وقع فى ٢٧ أغسطس سنة ٤١٣[١١٥] . وهذه الحوادث التى وقعت فعلا تساعدنا على توكيد أمانة المؤلف .

هيرودوت وثوكيديديس :

بعد أن تعرفنا إلى أعظم رائدين من روّاد علم التاريخ عند اليونان ، نستطيع أن نقف لحظة لنقارن بينهما :

كان كل منهما نوعاً قائماً بذاته . ومما هو جدير بالملاحظة أن أمة واحدة استطاعت أن تهديهما للبشرية ، فى خلال نصف قرن واحد . وقد عاشا عمرين متقاربين (فقد توفى كل منهما وهو فى العقد السادس من عمره) ، وكانت الفترة التى تفصل بينهما عشرين سنة . وهكذا عاصر كل منهما الآخر ، ذلك النوع من المعاصرة الذى يكون بين الآباء والأبناء . وكانت فترة عشرين سنة تعتبر شيئاً ذا قيمة ، فى عصر البطولة ذاك وإن لم تكن شيئاً مذكوراً . والفرق الأساسى بينهما ، فيما يختص بالظروف المحيطة ، أن هيرودوت كان وليد الحرب الفارسية ، بينما شهد ثوكيديديس الحرب البيلوبونيزية . وكذلك كان هيرودوت كارياً ، يكتب باللغة الأيونية . بينما كان ثوكيديديس أثينياً أبدع النثر الأتيكى . انحدر الأول من تخوم الهلينية ، بينما كان الثانى من صميمها .

وكانت ثقافة هيرودوت فى صباه عملية تجارية ، بينما كان ثوكيديديس من تلامذة السفسطائيين الأثينيين ، وإذا ما قارناه بسلفه نستطيع أن نعتبره من خريجى الكليات .

لكن الفروق بين شخصيتيهما ، أكبر فى الحقيقة من الفروق بين الظروف التى أحاطت بهما . وأتيح لكل منهما أن يتمرس بنفس التجارب التى تمرس بها الآخر . فكانت تراقيا من بلاد التخوم : كما كانت كاريا . وكانت الحربان سواء من حيث الشدة ، وقد رحل كل منهما ، وتعرف إلى أصناف مختلفة من البشر .

ولكن هيرودوت طبعاً أتيح له أن يسافر أكثر من خلفه ، وكانت رحلاته هى الإطار الكبير الذى كون إطار مصنفه . وقد درس فترة أطول من التاريخ الماضى ، وعرف عالماً أكثر اتساعاً (جميع oicumene فى الواقع) ، ورسم على رقعة نطاق أوسع . ويعتبر ثوكيديديس بالنسبة إليه ، كراسم المنمنمات ، بالنسبة إلى راسم اللوحات الكبيرة ، إذ أنه عنى بالعالم اليونانى فقط ، وبفترة تقع فى سبعة وعشرين عاماً — وإذا حذفنا المقدمة فلا يتناول كتابه أكثر من

عشرين عاماً مقابل ألف عام . وببلاد اليونان ، مقابل العالم المأهول بأجمعه .

وقد كان هيرودوت قاصًا موهوباً مادته غزيرة ، وكان طلعة ، صبيانيًا ، فيثاجوريًا ، نصف شرقي ، يحب العجائب والغرائب . وكان أسلوبه سلساً متدفقاً طليًا . أما ثوكيديديس، فإنه لم يحصر جهده فى موضوع صغير فحسب، بل إنه تقيد به تمام التقيد . وكان عقله صارماً صرامة أسلوبه والضحك عنده غير مباح . وكان سياسيًا واقعيا ، إيجابيا فى تفكيره ، ورجل علم .

أما مقاييس الدقة عندهما فتباينة . فقد بذل هيرودوت شيئاً من الجهد فى البحث عن الحقيقة . وكان يقولها بإخلاص ، ولا يعفيها من النقد . ولكن أنى للإنسان أن يلم بالجغرافية البشرية لجميع العالم ، بالإضافة إلى تاريخ الشرق القديم ؟ ومن ناحية أخرى ، كان من الممكن إن لم نقل من السهل . أن يقص الإنسان بدقة الاضطرابات العسكرية والسياسية ، التى وقعت بين أكبر شعبين من شعوب اليونان ، فى فترة لا تتجاوز الثلاثين عاماً . وقد عنيا معاً بالإنسان . أما عناية هيرودوت فكانت عناية الرحالة المثقف . وأما ثوكيديديس فكان شأنه فى ذلك شأن السوفسطائى ورجل السياسة .

وفى النتيجة النهائية شيء من الغرابة . فمصنف هيرودوت يحتوى على مواد تهم مؤرخ العلوم ، بينما نجد أن كتاب ثوكيديديس أكثر أهمية فى نظر دارس التاريخ السياسى . وقد يروق لمؤرخ العلوم أن ينحيه جانباً . ولكن من الخطأ أن يفعل ذلك . وعلى وجه الإجمال ، يعتبر مصنف ثوكيديديس أثراً من آثار علم التاريخ ، واتجاهه إلى تطبيق الأسلوب العلمى فى دراسة الماضى يعتبر الأول من نوعه ، وهو من أهم الآثار فى نظرنا اليوم .

وإذا تركنا جانباً ، وصفه لبعض الأفكار الرياضية ، والبحوث الطبية ، لابد لنا أن نعتبر مصنفه أعظم أثر علمى ظهر فى ذلك العصر الذهبى .

كتيسياس الكنيدوسى :

من المستحسن أن نتحدث عن مؤرخ ثالث ، هو كتيسياس الذى ينتمى

إلى كنيدوس . وهو أقل أهمية من هيرودوت وثوكيديديس . وأقل شهرة منهما . لأن مصنفى هذين المؤرخين . وصلا إلينا كاملين . بينما لم يقع فى أيدينا إلا نتف من كتاب كتيسياس . ومع هذا تعتبر شخصيته فذة من عدة نواح . وأول ما يطالعنا فيه أنه يساعدنا على أن نفهم . أن فارس واليونان . على ما كان بينهما من الاختلاف : بل من العداء : لم تكونا منفصلتين تمام الانفصال . كما أن فارس لم تكن معزولة عن الهند . فقد كان الناس يمرون من بلد إلى بلد . كما يمرون اليوم . رغم القيود الموضوعة . من روسيا إلى الغرب وبالعكس .

وفوق ذلك . كان كتيسياس طبيباً . وقد ولد فى كنيدوس[116] ، حيث ازدهرت مدرسة طبية متألقة ؛ ولم يكن طبيباً فحسب ؛ بل كان أبوه وجده كذلك . وقد أسره الفرس ، حوالى سنة ٤١٧ ، وعين حاجباً فى البلاط الفارسى . وكان طبيباً لدارا الثانى (٤٢٤ — ٤٠٤) ولأرتاكسركسيس الثانى . منيمون (٤٠٤ — ٣٥٨) . وقد كانت باريساتس الملكة ، وأخت دارا ، حاميته الأولى . وظلت قوية فيما بعد ، إذ كانت الملكة الوالدة . وقد ساعد أرتاكسركسيس فى معركة كوناكسا[117] ، سنة ٤٠١ ، وعقب ذلك مباشرة أرسل مبعوثاً إلى حكام قبرص[118] اليونانيين . ولم يعد ثانية إلى فارس . إذ ولى وجهه شطر بلده كنيدوس (٣٩٨) ، التى لم تكن بعيدة جداً . وفى كنيدوس كتب آثاره . والأغلب أنه قضى الشطر الأخير من حياته أيضاً فيها . وهكذا تكون آثاره كتبت فى أوائل القرن الرابع ، ونتناوله بالحديث فى هذا الفصل لأن كتاباته نتيجة خبرته التى تمرس بها فى الشرق ، وقد جمع أكثرها فى القرن السابق .

وأهم آثاره « الفارسى » (Persica) ، ويدور حول تاريخ آشور وفارس ، ويقع فى ثلاثة وعشرين كتاباً ، و « الهندى » (Indica) ، وهو مجلد واحد يدور حول الهند ، (الشكل رقم ٦٩) . وقد حفظ ديودورس الصقلى (النصف الثانى من القرن الأول ق.م) ، أجزاء من هذه الكتب ، وكذلك

فعل نقولا الدمشقى (النصف الثانى من القرن الأول ق.م) وسواه . إلا أن فوتيوس القسطنطينى ، (النصف الثانى من القرن التاسع) هو خير من عنى به . وقد يعترض عليه بأنه راوية متأخر جداً . ولكن التأخير هنا لا يؤثر كثيراً ، إذ يظهر أن فوتيوس كان يحتفظ بالمخطوطات الأصلية فى حوزته . فى فهارسه (Bibliotheca or Myriobiblon) (التى أتمها قبل سنة ٨٥٧) ، جمع خلاصات ما يقرب من ٢٨٠ كتاباً ، ضاع أكثرها . فمقالته عن « الفارسى » مثلا تبدأ على الوجه التالى : « اقرأ مؤلفاً لكتيسياس الكنيدوسى ، اسمه " الفارسى " ، يقع فى ثلاثة وعشرين كتاباً . والسنة الأولى ، تتناول تاريخ آشور ، وتنبئ عن بعض الأحداث التى سبقت الوقائع الفارسية » . وهذا العرض ، فى نصه اليونانى ، يقع فيما يقرب من ٨٥٠ سطراً .

وعرضه للكتاب الثانى ، يبدأ على الصورة ذاتها : « اقرأ " الهندى " ، لنفس المؤلف ، وهو يقع فى جزء واحد . وقد استعمل اللهجة الأيونية فى كتابته » . وهذا العرض أصغر حجماً من السابق ، ويقع نصه اليونانى فى حوالى ٤٤٢ سطراً .

ولقد نشر ر . هنرى [١١٩] ، طبعة يونانية فرنسية متقنة لملخصات فوتيوس . ولكننا نحتاج حقا ، إلى طبعة جديدة مصححة ، لكل أقسام كتاب كتيسياس ولـ (the Doxography) التى تنسب إليه[١٢٠].

أما الكتب الستة الأولى من كتاب « الفارسى » ، التى خصصت للتاريخ الآشورى ، فقد حفظها لنا ديودورس الصقلى . ونحن مدينون لنقولا الدمشقى بوصف هزيمة أستياجس ، ملك ميديه ، التى أوقعها به قورش سنة ٥٤٩ ، وببداية السيطرة الفارسية . أما ما تبقى من تاريخ فارس (حتى سنة ٣٩٨) ، فقد لخصه فوتيوس الذى عزا المؤلف إلى هيرودوت .

وقد استقى كتيسياس معلوماته عن التاريخ الفارسى من هيرودوت ، الذى طالما تناوله بالنقد ، وأضاف إليها الكثير من المعلومات التى حصل عليها أثناء إقامته الطويلة فى البلاط الفارسى . ويمكننا أن نتصور أن الملك

ΕΚ ΤΩΝ ΚΤΗΣΙΟΥ, ΑΓΑΘΑΡ-
ΧΙΔΟΥ, ΜΕΜΝΟΝΟΣ
ἱστορικῶν ἐκλογαί.
ΑΠΠΙΑΝΟΥ Ἰβηρικὴ καὶ Ἀννιβαϊκή.

Ex Ctesia, Agatharchide, Memnone excerptæ historiæ.
Appiani Iberica. Item, De gestis Annibalis.

Omnia nunc primùm edita. Cum Henrici Stephani castigationibus



EX OFFICINA HENRICI
Stephani Parisiensis typographi.

AN. M. D. LVII.

شكل رقم ٦٩

مصنف كتيسياس ، الطبعة الأصلية (باريس ، هنرى ايتيين ١٥٥٧ Paris, Henri Estieune 1557) من القطع الصغير . وهذه هى صفحة العنوان ، وقد استطعنا أن نقرأ فيها : هذه هى الطبعة اليونانية الأولى ، لا لكتاب كتيسياس فحسب ، بل لمقطوعات من أجاثارخيديس الكنيدوسى (١ – II ق.م) أيضاً ، ولأخرى من ممنون الذى ينتمى إلى هرقلية بونطيقا (القرن الأول ؟) ، ولأخرى من إبيانوس الإسكندرى (٢ – II) . أما هنرى ايتيين الثانى (باريس ١٥٣١ – ليون ١٥٩٨) ، محقق الكتاب وناشره ، فإنه ينتمى إلى أسرة فرنسية شهيرة ، اشتغلت بالطباعة ، والحركة الإنسانية ، وبيع الكتب . (عن نسخة موجودة فى مكتبة كلية هارفارد) .

أو مساعديه كانوا يقصون عليه القصص ، أو أن الملكة المتغطرسة باريساتس ، ووصيفاتها كن يفعلن ذلك . وأكثر من هذا لم يكن سوى إشاعات ملفقة ، تحتاج إلى تمحيص كثير ، حتى إننا نستطيع أن ندعوه — لا أبا التاريخ كما دعونا قرانه — ولكن أبا الحكايات التاريخية ، وهو لقب لا يشرفه كثيراً .

وعلينا أن نستغل الحكايات التاريخية ، عندما تعوزنا المادة التاريخية النقية . والمعلومات التى جمعها كتيسياس ، كانت فى الغالب مفيدة جدا . وعندما نراه يناقض هيرودوت لا يحق لنا أن نتسرع ونحكم بأن ما أتى به هيرودوت هو الصحيح ، مع أنه ، على وجه العموم ، يمكن الاعتماد عليه أكثر من كتيسياس .

ويمكننا أن ندرك جيداً افتقاره التام إلى التمحيص من وصفه للنقش البهشتونى[١٢١] ، الذى أقيم سنة ٥١٦ ق.م . وهو يقص خبر انتصار دارا الأول على أتباعه العصاة . وقد كتب بالخط المسمارى ، بثلاث لغات هى الفارسية والعيلامية والأكادية . وهذا النقش له أهمية كبيرة فى نظر علماء اللغات ، لأن النقوش المتشابهة ، تساعد على حل رموز اللغات المجهولة . وقد دعى بحجر رشيد المسمارى (أو الأشورى) . أما كتيسياس الذى وجد بعد إقامة هذا النصب بقرن ، على الأكثر ، حين كانت الروايات المتداولة عنه لا تزال شائعة ، فقد قال إنه كتب بالأحرف الأشورية ، ونسبه إلى الملكة الآشورية سميراميس ! وقد يظن الإنسان أن معلومات البلاط الفارسى عن هذا الموضوع كانت أكثر دقة . إلا أن سميراميس الأسطورية ، كانت بطلة روايته الآشورية الرومانسية .

وقد وصف هيرودوت طريق الإمبراطورية الفارسية الرئيسى ، الذى يمتد من أفسوس إلى سوس ، إلا أن كيتسياس تابع الوصف حتى بلغ باكتريا والهند (ووصفه هذا مفقود) .

وهنالك قصة أخرى موثوقة رواها كتيسياس . وهى تلك التى تتعلق بوجود القار والنفط فى بابل :

« ومع أن المشاهد التى يمكن أن يقع عليها النظر فى بابل كثيرة ورائعة ، إلا أن كمية القار الهائلة التى تنتجها البلاد لا تقل روعة عن كل ذلك . وقد بلغ إنتاجه كمية عظيمة ، حتى إنه لا يكفى لإشادة أبنيتهم الكثيرة الضخمة فحسب ، بل إن عامة السكان الذين يقطنون تلك البقعة يستنبطونه دون قيد ، ويجففونه ليستعملوه وقوداً بدلا من الحطب . وعلى الرغم من أن عدد الأهالى الذين يستفيدون منه كبير جدا ، فإنه يبقى على حالته ، ولا ينضب له معين ، وكأنه يفيض من عين ثرة . ونجد إلى جانب هذا المنبع حفرة أخرى لا تقارب الأولى فى حجمها ، إلا أنها ذات أثر كبير ، إذ أنها تنفث بخاراً كبريتيا كثيفاً ، يقتل جميع المخلوقات الحية التى تقترب منه ، وهى تؤول إلى نهاية سريعة عجيبة . إذ أنها تفارق الحياة بعد أن تصاب بضيق النفس فترة من الزمن ، وكأن تلك الآفة التى طرأت على جهاز التنفس هى التى كانت تحول دون خروج النفس . وسرعان ما يتورم الجسم وينتفخ ، وخاصة فى المنطقة التى تحيط بالرئتين . وتقع على النهر أيضاً بحيرة ضفتها صلبة ، وإذا ما خاضها امرؤ ليس له بها سابق معرفة ، فإنه يستطيع أن يسبح فيها فترة قصيرة من الزمن ، ولكنه عندما يقترب من الوسط يأخذ فى التقهقر إلى الخلف ، وكأنه مدفوع بفعل قوة خفية ، وعندما يحاول أن يستجمع قواه ، ليعود إلى الشاطئ ثانية ، فإنه يشعر وكأن شيئاً ما يشده إلى الخلف شدا ، على الرغم من أنه يبذل جهده كى يفك إساره . ثم يصاب بالتشنج الذى يتسرب إلى قدميه أولا ، ثم يصعد إلى ساقيه حتى الحقوين ، ثم ما يلبث أن يتفشى فى جميع جسمه . فيغور إلى القاع ، ثم تقذفه الأمواج وقد أسلم الروح »(١٢٢).

وهذا الوصف يؤكد ما ذكره هيرودوت(١٢٣)، عن القار فى أيس(١٢٤). إلا أن وصفه للهند كان أكثر إمعاناً فى الخرافة من وصفه لفارس . فقد عاش كتيسياس فى فارس عدة سنوات قضاها بين ظهرانى الفرس . ولكنه لم يسبق له أن زار الهند ، ولهذا يبدو لنا فى أخباره عنها وكأنه ينظر إليها بمنظار فارسى . فالهند تعنى ، فى نظره ، إقليم الهندوس ، والهيداسبس . ومن العجيب

أن كتيسياس لم يتحدث عن تاكسيلا ، التى كانت حينئذ أعظم مدينة فى ذلك الإقليم (إقليم البنجاب) . ولكن هذا كله لا ينتقص من قيمة « الهندى » ، لأنه بقى عند الغربيين ، المصدر الوحيد للأساطير الهندية ، لفترة طويلة من الزمن .

ولنعد إلى الناحية الطبية . فهنالك فصل يتعلق بالخربق الأسود[١٢٥]، فى مجموعة أورباسيوس الطبية[١٢٦]، وهو منقول عن كتاب كتيسياس وفحواه ما يلى :

« كان ابى وجدى لا يجرؤان على وصف الخربق الأسود ، لأنهما لم يكونا يعرفان طريقة تجهيزه ، والكمية التى يجب أن تعطى للمريض . وكان الرجل إذا نصح المريض بتجرع الخربق يطلب إليه أن يكتب وصيته أولا . وكان يختنق عدد كبير من هؤلاء الذين يتجرعونه ، وقل من بقى منهم على قيد الحياة . ولكن استعماله اليوم أصبح مأمون العواقب » .

وهذا القول ينطوى على فائدة عظيمة ، لأنه يكشف لنا عن تطور علم الأقرباذين فى كنيدوس خلال انصرام أجيال ثلاثة . ويظهر أن أطباء كنيدوس كانوا يجرون بعض التجارب الطبية ، ويراقبون نتائجها .

ويستنتج من كثرة الرجوع إلى مصنف كتيسياس ، فى المصادر اليونانية والبيزنطية ، أنه كان مؤلفاً مرموقاً . ويظهر أن عدد الذين قرأوا كتابه يفوق عدد أولئك الذين قرأوا كتاب هيرودوت . حتى إن رجالا كأفلاطون وأرسطو كانوا على علم به . ويمكننا أن نفترض أيضاً ، أن الإسكندر الأكبر ، تلميذ أرسطو ، اطلع عليه . وينبئنا نيارخوس (٢ — ٦٧ ق.م) ، قائد أسطول الإسكندر ، أن الملك كان معجباً بالحكايات التى تروى عن سميراميس وقورش[١٢٧]. وخيال الرجال العمليين يتأثر عادة بالأساطير ، أكثر مما يتأثر بسرد الحقائق العلمية . ويظهر أن كتاب هيرودوت كان من الجفاف العلمى بحيث لا يروق للملك العظيم ، بينما كان كتاب كتيسياس أكثر جاذبية . وبهذا يتحمل كتيسياس طرفاً من المسئولية ، فى حملات الإسكندر الآسيوية .

تعليقات

(١) Henry Fanshawe Tozer (1829-1916), *History of ancient geography* (1897); second edition with notes by M. Cary (Cambridge: University Press, 1935) (Isis 26, 537 '1936'). E.H. Warmington, *Greek Geography* (London: Dent, 1934) (Isis 35, 250 '1944'), anthology of Greek and Latin Extracts translated into English J. Oliver Thomson, *History of ancient geography* (cambridge:University Press, 1948) (Isis 41, 244- '1950').

(٢) بالإضافة طبعاً إلى عالمين من علماء التاريخ هما هيرودوتس وكتيسياس . وآثارهما مليئة بالمعلومات الجغرافية .

(٣) هيرودوت الكتاب الرابع ، الفصل ٤٤ ؛ وما اقتبسناه فى هذا الفصل جميعه أخذناه من ترجمة.A.D.-Godley's (Loeb classical library vol. 2, p. 243) لأنه من خير ما يوضح هيرودوت ، كما أنه مرجعنا الوحيد فيما يتعلق بسكيلاكس . وقد كانت باكتيكا غربى الهندوس ، وهى المنطقة التى تدعى جلال أباد فى شمال شرقى أفغانستان . ولم يتمكن سكيلاكس من الإبحار فى الهندوس ، « فى اتجاه الشرق » ، لأن مجرى النهر يسير فى اتجاه الجنوب الغربى . وكانت جغرافية هيرودوت ، بوجه عام ، غامضة . وهل من الممكن أن تكون معلوماتنا عن المناطق النائية أكثر دقة إذا لم يكن لدينا خرائط ؟ وعبارة « الفينيقيون الذين ذكروا آنفاً » ، تعنى ستسبس الذى لم يكن فينيقياً ، والذى جاء بعد سكيلاكس . ولكن السنوات التى يذكرها هيرودوت كانت دائماً غير دقيقة . لأنه لم يكن لديه تقويم بالسنين .

(٤) فى كاريا التى تقع فى الزاوية الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى . وقد كانت كريندة ، على جزيرة صغيرة لا تبعد عن هاليكارناسوس ، مسقط رأس هيرودوت ، كثيراً . وربما كان هيرودوت قد متع بعض الروايات المحلية التى تدور حول سكيلاكس .

(٥) لم تعرف حقيقة الرياح الموسمية إلا فى زمن هبالوس ، الذى ظهر فى القرن الأول قبل المسيح أو بعده راجع : Tomson, *History of Ancient Geography* pp. 176;

(٦) Dhow or dow; See Henry Yule and A.C. Burnell, *Hobson Jobson, A glossary of colloquial Anglo-Indian words anal phrases* (new ed. by William Crooke, London 1903), p. 314. Dhow navigation as practiced to day has been beautifully described by Alan Villiers, *Sons of sinbad* (New York : Scribner 1940) See also Richard Le Baron Bowen, Jr., Arab dhows of Eastern Arabia (64 pp., 37 ills.;Rehoboth, Massachusetts: privately printed, 1949) (*Isis* 42; 357 '1951').

(٧) Claude Bourdon, *Anciens canaux, anciens sites et ports de Suez* (Cairo 1925), pp. 12-30, pl. 2. ونقش داريوس يوجد فى the stela of al Kabrit ، التى تقع الآن فى حدائق

هيئة قناة السويس بالاسماعيلية .

(٨) ربما كان رأس كانتين ، ٣٦َ ٣٢° شمالا ، وفى العربية رأس الحديق ؟ . ويقع على الساحل المراكشى على خط عرض جزائر المديرا (٤٠َ ٣٢° شمالا) .

(٩) هيرودوت الكتاب الرابع الفصل ٤٣ (الترجمة المشار إليها فى هامش رقم ٣ ج ٢ ص ٢٤١) .

(١٠) خط عرض رأس الرجاء الصالح هو ٢٢َ ٣٤° جنوباً . حتى هنرى الملاح نفسه (١٣٩٤ – ١٤٦٠) لم يستطع تصور حجم أفريقيا ، واعتقد أن القدماء استطاعوا أن يدوروا حولها .

(١١) أرسل القرطاجيون حملة مسلحة إلى صقلية بقيادة هملكار. وقد باءت بالإخفاق ، وقتل هملكار سنة ٤٨٠ . وقد كان المظنون أولاًأن هنون هو ابن هملكار ، وعلى أساس هذا أرخت حملته بسنة ٤٧٠ . إلا أن هذا الظن لا دليل عليه ، واسم « نون » شائع فى قرطاجة . والأفضل أن نتمسك بأن الحملتين كانتا متعاصرتين . وأن حملة هملكون وقعت فى أول القرن .

(١٢) suffete (سوفيت) ، اصطلاح بونى (قرطاجى) ، يعنى « الحاكم الأعلى » . انظر الكلمة العبرية (شوفيت) . والبونية إحدى اللهجات الفينيقية . والفينيقية والعبرية من أصل واحد.

(١٣) الرقمان ٦٠ ، و ٣٠,٠٠٠ لا يتطابقان . لأن هذه السفن ذوات الخمسين مجدافاً ، لا تستطيع واحدتها أن تحمل ٥٠٠ راكب .

(١٤) واصلت الأمم الأوربية هذه الطريقة نفسها فى أول فترة الاستعمار . وكانت البرتغال السابقة إلى ذلك . ولم تكن الإمبراطورية البرتغالية فى آسيا ، فى القرن السادس عشر ، سوى مجموعة من المحطات التجارية المنثورة على سواحل الهند ، وآسيا القصوى ، والصين ، والجزر .

(١٥) رتشارد هلكويت (١٥٥٢ – ١٦١٦) ، مؤرخ إنجليزى للملاحة . انظر : Isis 38, 130 (1947-48)

(١٦) Pliny, Natural history VII, 197.

(١٧) طرطسوس ، مستعمرة فينيقية عند فم الوادى الكبير فى الأندلس . ولعلها طرشيش (حزقيا ٢٧ : ١٢ ، أرميا ١٠ : ٩) ، وقد ظلت مستعمرة مزدهرة ، إلى أن خربت سنة ٥٠٠ ، وحلت محلها مستعمرة فينيقية أخرى ، فى نفس المنطقة ، وهى قادس .

(١٨) التفاصيل عن اتجار الفينيقيين بالقصدير غامضة جداً . وذلك يعود فى الأكثر إلى أن الفينيقيين كانوا يخفون سر تجارتهم . وموقع جزر القصدير (جزر كسيتريدس Cassiterides nesoi) موضع اختلاف كبير . فهل هى بعض الجزر الإنجليزية ، أم أنها جزر أخرى فى المحيط الأطلسى ؟

(١٩) R.F. Avienus (IV-2), in his poem "Ora maritima", Line 120

(٢٠) يقع بحر السرجاسو بين خطى عرض ٢٠ و ٣٥ شمالا ، وخطى طول ٤٠ و٧٠ غرباً . وهو محاط بتيارات تسير فى اتجاه عقرب الساعة . وجزر البرمودا تقع بالقرب من طرفه الغربى .

وجزر الأزور تقع على مسافة من الزاوية الشمالية الشرقية .

(٢١) *Fortunatorum insulae* (*ai ton macron nesoi*) ، أو الجزر المباركة وهى جزر الكنارى أو جزر المديرا .

(٢٢) الذى يدعونى إلى التردد فى الإنكار ، هو إشارة مشابهة وردت فى كتاب (Mirabilia) الذى ينسب إلى أرسطو (١٣٦ ، نهاية ٨٤٤ ا) ومهما يكن الأمر ، فإن أرسطو وأفينوس ، يشيران إلى مكان من البحر ماؤه وشل . ولا يمكن أن يكون ذلك بحر السرجاسو .

(٢٣) قد يكون من المفيد أن يحتوى هذا القسم الجغرافى على دراسة للآراء الأولى التى تدور حول فيضانات النيل . ولكننا تناولنا هذا الموضوع ، أثناء حديثنا عن أناكساجوراس .

(٢٤) هؤلاء العشرة آلاف كانوا من المرتزقة االيونان ، وقد استأجرهم قورش الصغير ، الذى كان ، أحد الولاة الفرس ، وقد تآمر على أخيه الملك أرتاكسركسيس منيمون (حكم من سنة ٤٠٥ — ٣٥٩) . وأقلع من سارديس ، فى ربيع سنة ٤٠١ ، وقد تغلب عليه أرتاكسركسيس وقتله فى سهل كوناكسا . شمالى بابل ، فيما بين النهرين . أما المرتزقة اليونان ، فقد حصلوا على عهد أمان من أرتاكسركسيس ، وساروا على نهر دجلة ، بمحاذاة ضفته اليسارية ، حتى وصلوا إلى رافده ، نهر الزاب الكبير ، وهناك قبض على قائدهم وضباطهم ، بخديعة ، فوجدوا أنفسهم دون رئيس أو مرشد . .واختير كسينوفون قائداً لهم ، فسار بأكثرهم حتى بلغ بهم أرض الوطن بأمان . أما عنوان الكتاب (Anabasis) ، فإنه مضلل إلى حد ما . لأن الرحلة اشتملت على انحدار وصعود ، وانحدارهم الأخير نحو البحر الأسود ، كان طويلا ، وقد درس الـ Aranbasis بعض الرحالين الذين حاولوا اقتفاء آثار كسينوفون ، ومنهم : (H.F. Tozer) الإنجليزى (سنة ١٨٨١) ، و (Eduard von Hoffmeister) الألمانى (سنة ١٩١١) ، و (Authur Boucher) الإفرنسى (سنة ١٩١٣) . وهذه التواريخ ، هى تواريخ نشر كتبهم . (راجع المقدمة ج ١ ص ١٢٣)

(٢٥) اعترض البعض ، بأن وصف كسينوفون لم يكن دقيقاً ، بحيث يمكن للإنسان ، أن يرسم خط سيره على الخريطة . وهذا القول فيه كثير من الإجحاف . لأن التجوال فى منطقة كجبال أرمينيا ، لا يمكن أن يوصف بدقة بالغة ، وذلك لانعدام علامات الحدود (الإنسانية) الدقيقة . أضف إلى ذلك ، أن كسينوفون وصف الإقليم الذى عبره مع جيشه وصفاً كافياً ، ولم يحاول وصف الشعاب . والإنسان لا يستطيع أن يرسم خط سيره على خريطة كبيرة ، ولكنه يستطيع أن يفعل ذلك على خريطة صغيرة . وقد حدث ذلك مراراً .

(٢٦) إن اسم هاليكارناسوس ، مألوف عند أكثر القراء ، وذلك بسبب النصب الذى فيه . وهذا النصب هو عبارة عن بناء ضخم ، أقامته الملكة أرتميزيا الثانية ، لإحياء ذكرى أخيها وزوجها موسولوس ، والى كاريا ، من سنة ٣٧٧ — ٣٥٣ ق . م ، وقد خرب الإسكندر المدينة سنة ٣٣٤ . أما بقايا هذا النصب ، التى اكتشفها السير شارلس نيوتن سنة ١٨٥٧ ، فهى محفوظة فى المتحف البريطانى وعلى الرغم من أن هذا النصب قد تهدم ، فإن أرتميزيا نجحت فى تحقيق غايتها ، وأصبحت كلمة

(موسوليوم) ، تعنى القبر الفخم . وكلما استعملنا هذه الكلمة ، إنحنينا إجلالا أمام موسولوس ، وأمامها .

وقد كانت هاليكارناسوس مسقط رأس عالمين من علماء التاريخ ، هما هيرودوت وديونيسيوس (١ — I ق. م) .

(٢٧) لم يذكر فيليه (Philae) ، التى تدعى درة مصر ، لأن أقدم آثارها يعود إلى سنة ٣٧٠ ق . م) .

(٢٨) *De legibus* I end of 1: "Quamquam et apud Herodotum, Patrem historia, et apud Theopompum sunt innumerabiles fabulae".

أما تيوبومبوس الذى ينتمى إلى خيوس (٢ — IV ق . م) ، فقد كان يدعى فى وقت من الأوقات رائد التاريخ النفسى ، وهو فى ذلك سلف المؤرخ اليونانى تاكيتوس (٢ — I)

(٢٩) من الممتع حقاً أن نلاحظ ، تأخر ظهور الرائعة النثرية الأولى ، عن الروائع الشعرية . أما تاريخ الإلياذة ، فإنه غير مؤكد . ولكن أجزاء منها وجدت قبل مصنف هيرودوث ، بثلاثة أو أربعة قرون .

(٣٠) سستوس هى خير موانىء الدردنيل ، وهى فى الطرف الشمالى (الأوربى) . ومن هناك استطاع كسركسيس أن ينقل جيشه من آسيا إلى أوربا ، على جسر من الزوارق . وكانت أول مدينة حررها الأسطول الأثينى من قبضة الفرس ، وكان ذلك سنة ٤٧٩ ، وقد بدأ ثوكيديديس وصفه التاريخى (*ta meta ta Medica*) ، فى ذلك الحين .

(٣١) إشاراتى إلى كتاب هيرودوث ، تكون عادة إلى الكتاب والفصل ، مثلا الكتاب السابع الفصل ١٠٣ ، وهذا ييسر للقارئ الاعتماد على أية طبعة أو ترجمة .

(٣٢) كلمة لوجوس logos التى تعنى قصة أو تاريخاً ، تتفق وكلمة logographos ، التى استعملت للدلالة على كتاب الحوليات التاريخية الأول .

(٣٣) الكلمة اليونانية barbaros ، لاتشير إلى هذا المعنى الذميم ، الذى اشتققناه نحن منها . وكلمة Barbaroi ، تقابل كلمة (Foreigner) الإنجليزية ، و (goyim) العبرية و (Gentiles) اللاتينية. وعندما تستعمل هذه الألفاظ للدلالة على شعب جاهل ضيق الأفق ، فإنها حينئذ تكون ذات معنى خاص . أما هيرودوت ، فقد استعملها ، كما يستعمل الأمريكى المهذب كلمة « أجنبى » ، دون أن يعنى بها أى ازدراء .

(٣٤) إن الاسمين المعروفين لأبوى هيرودوت ، كما ذكرهما سويداس (٢ — X) ، غريبان للغاية : ليكسيس ودريو . وهما أول اسمين من هذا النوع أمر بهما . وقد يكونان اسمين شرقيين ، صبغا بصبغة يونانية . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن هيرودوت نفسه يكون أجنبياً ، على الأقل من ناحية واحدة . ولنتذكر أن اليونانى المحض ، كان قلة فى آسيا .

(٣٥) هيرودوت الكتاب السابع الفصل ٩٩ ، والكتاب الثامن الفصل ١٠٣ .

(٣٦) هنالك تعليق طريف على تسامح هيرودوت وكرم نفسه كتبه : Theodore Johannes Haarhoff, *The Stranger at the gate* طبع فى (Oxford: Blackwell, 1938, 1948) ص ٢٠ ، ٢٢ .

راجع (1950) 75 ,41 Isis) والمؤلف يدرك جيداً معنى التعصب العنصرى ، لأنه أستاذ الكلاسيكيات فى جامعة وتووترزراند ، فى يوهانسبرج .

(٣٧) القارات الثلاث ، أو بالأحرى الأقسام الثلاثة — أوربا وآسيا وليبيا — عرفت فى أوائل القرن الخامس أو قبل ذلك . وقد اعترض هيرودوتس على ذلك (الكتاب الثانى الفصل ١٧) قائلا : « يجب علينا أن نضيف قسماً رابعاً وهو مصر . ذلك أن النيل يفصل آسيا عن ليبيا . وبهذا تصبح مصر نصف آسيوية ، ونصف ليبية . وآراؤه التى تتعلق بالمساحات النسبية لهذه الأقسام ، طبعاً خاطئة .

(٣٨) W.W. How and J. Wells: "*commentary on Herodotos*" (Oxford 1912) vol. 1 p.17 وفيه أسباب وجيهة تقنعنا بأن هيرودوت كان تاجراً .

(٣٩) هيرودوت الكتاب السابع ، الفصل ٦١ — ٩٩ .

(٤٠) المرجع السابق ، الكتاب الثالث ، الفصل ٨ .

(٤١) « تقلبات الحظوظ » كانت موضوعاً شائعاً فى الأدب الإغريقى . واستعارة « عجلة الحظ » وردت فى إحدى مخطوطات سوفوكليس (رقم ٨٨١ ، من طبعة A.C. Pearson ج ٣ ص ٧٠) . وفكرة العناية الإلهية تتضح لنا جيداً من الاسم الذى كان يطلق على أثينا . التى كانت تعبد فى دلفى ، وهو : *Pronoia Athena*

(٤٢) John Dewar Denniston, *Oxford classical dictionary* (Oxford: clarendon Press 1949) p. 423.

(٤٣) هيرودوت الكتاب الثانى الفصل ٢ .

(٤٤) فريجيا كانت الجزء الغربى من الهضبة الوسطى فى آسيا الصغرى . وخير من يمثل عظمتها ، الملك ميداس الأسطورى ، والملك ميداس الثانى ، الذى حكم من سنة ٧٣٨ — ٦٩٦ ق.م.

(٤٥) هيرودوت ، الكتاب الثانى ، الفصل ٣ .

(٤٦) هيرودوت ، الكتاب الثانى ، الفصل ١٢٣ .

(٤٧) هيرودوت ، الكتاب الثانى ، الفصل ٨٢ ، ٨٣ .

(٤٨) هيرودوت ، الكتاب الثانى ، الفصل ٤ .

(٤٩) هيرودوت ، الكتاب الأول ، الفصل ٣٢ .

(٥٠) هيرودوت ، الكتاب السابع ، الفصل ٣٧ .

(٥١) هنالك تحليل للمادة الكيماوية التى جاءت فى كتاب هيرودوت ، كتبه E.O. Von Lippmann فى مقالة : "Technologisches und Kulturgeschichtliches aus Herodot" *Chem. Zeit*, Nos 1, 7, 819 (1924)

وهو يقسمها إلى : العناصر ، والمواد المعدنية ، والمواد العضوية .

(٥٢) هيرودوت الكتاب الأول الفصل ١٩٣ .

(٥٣) راجع الفصل السادس ، حاشية رقم ٦ .

(٥٤) أول من شرح تلقيح النبات شرحاً علمياً هو رودلف يعقوب كيراريوس . (Rudolf Jacob Camerarius) سنة ١٦٩٤ . أول تفسير واف لتلقيح التين ، كتبه جورجيو جالسيو (Giorgio Gallesio) راجع: .Ira, J. Conduit, *The fig* (Waltham: Chronica Botanica, 1947) (*Isis* 40, 290 '1949').

(٥٥) هيرودوت الكتاب الرابع الفصل ٥٣ .

(٥٦) *Ceta te megala anacantha ta anatacaius caleusi*.. D'Arcy W. Thompson, Greek fishes (London: Oxford University Press 1947), p. 16 (*Isis* 38, 254 (1947-48)). For salted fish see Koehler: "*Tarichos*," *Mém. Acad. St. Pétersbourg* (1832), pp. 347-488. Article "Salgama (*halmaia*) in Daremberg and Saglio, *Dictionnaire des antiquités grecques et romaines* (Paris 1877-1919) vol. 4, p. 1014.

إن تاريخ كافيار لم يكتب بعد مع أن كوهلر خصص له فصلا قصيراً . وفى رأيه أن المؤلف القديم الوحيد الذى أشار إليه . كان دفلوس السيفنوسى Diphilos of Siphonos فى القرنين الرابع والثالث كما ذكره اثيناوس النقراطى .

(٥٧) هيرودوت الكتاب الثانى ، الفصل : ٥ والكتاب الثانى الفصل : ١٢ .

(٥٨) هيرودوت الكتاب الثانى ، الفصل ١٢ .

(٥٩) هيرودوت الكتاب السابع الفصل ١٢٩ .

(٦٠) هيرودوت الكتاب الرابع الفصل ٣٦ ، كما هو مترجم فى كتاب Greek Geography تأليف Eric Herbert Warmington ص ٢٢٩ . وهذه المجموعة تضم مختارات طويلة من هيرودوت ، توضح آراءه عن الحدود العامة ، للأقسام المأهولة من الأرض . وعن خصائص كل قسم من هذه الأقسام .

(٦١) هيرودوت الكتاب الثالث ، الفصل : ١١٥ . وتحقيق موضع نهر الأريدانوس ، وموضع جزر القصدير ، مثل جيد على تخبط الجغرافيا القديمة . وقد خلط بين نهر الأريدانوس والبو ، والرون والراين . كما اختلطت جزائر القصدير (جزائر الكسيتريدس) ، بجزر صقلية ، وكورنوال ، وبالجزر التى تقع على ساحل بريتانى ، أو على ساحل إسبانيا .

(٦٢) تقع فى المقدمة على خلاصة للآراء التى قيلت بشأن الأنهار الإفريقية الكبيرة ، كالنيل والنيجر والسينغال والكونغو أيضاً (المقدمة ج ٣ ص ١١٥٨ — ١١٦٠) . وقد ذكرت المراجع هناك .

(٦٣) إن الإنسان ، لديه وسائل أخرى . فهو يستطيع أن يتتبع ، فى طائرة ، مجرى نهر من الأنهار كالنيل مثلا من منبعه إلى مصبه ، فيراه على حقيقته بسرعة .

(٦٤) هيرودوت الكتاب الخامس ، الفصل : ٥٢ — ٥٣ .

(٦٥) هيرودوت هو الذى قال : ١٥٠ ستادية لليوم الواحد (الكتاب الخامس ، الفصل : ٥٣) وطول الستادية ، يختلف ، بين زمان وزمان ، ومن موضع إلى موضع آخر .

وإذا اعتبرنا أن طول الليل ٧,٥ أو ١٠ ستاديا ، فإن ١٥٠ ستاديا فى اليوم تساوى ٢٠ ، أو ١٥

ميلا فى اليوم ، على التوالى . ولمعرفة طول الستاديا راجع :

Aubrey Diller, "The ancient measurements of the earth," *Isis* 40, 6-10 (1949)

(٦٦) لبحث أمر الطريق انظر H.F. Tozer, *History of ancient geography* pp. 90-91, XIV.
ولأمر المصالح البريدية القديمة الشرقية انظر : Introduction vol. 3, p. 1786.

(٦٧) هيرودوت الكتاب الثالث ، الفصول : ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، والكتاب الرابع ، الفصل ٤٤ .

(٦٨) المرجع السابق الكتاب الثالث ، الفصل ١٠٦ ، والكتاب السابع ، الفصل ٦٥ .

(٦٩) تبعاً للاصطلاحات المستعملة فى مجلة *Isis* ، أفضل أن استعمل كلمة ethnology (علم خصائص الشعوب) ، للدلالة على دراسة أخلاق الجنس البشرى وعاداته . أما كلمة authropology (علم الأجناس البشرية) فإننى أشير بها إلى دراسة الجنس البشرى من الناحيتين التشريحية ، والجنسية .

(٧٠) كالزواج بالسبى والشراء والزواج الاشتراكى ، وقانون السيد ، والزواج بالأجنبيات (من غير العشيرة) ، وتعدد الأزواج ، والبغاء الدينى ، وعدم العفة قبل الزواج ، إلخ . . .

(٧١) اللغة السكيتية ، كانت فى الغالب فرعاً من اللغة الإيرانية ، الفرع الشمالى الغربى منها . راجع: A Meillet and Marcel Cohen, *Les langues du Monde* (Paris 1924) pp. 36, 42, 176, 185 (Isis 10, 298 (1928).

(٧٢) هيرودوت ، الكتاب الرابع ، الفصل : ٧٤ ، ٧٥ . وشجرة القنب ، تحدث اليوم اضطراباً شديداً فى بلادنا ؛ وهى تحمل الاسم المكسيكى : ماريجوانا : Marijuana

(٧٣) انظر : Ferdinand keller of Zurich (1800-1881); *Isis* 26, 308-311 (1934)
مع الرسم وأقدم تاريخ لسكنى البحيرات يعود إلى العصر الحجرى . وقد ظلت منتشرة ، فى بعض عصور ما قبل التاريخ ، وفى العصور التاريخية أيضاً .

(٧٤) راجع هيرودوت الكتاب الخامس الفصل : ١٦ . أبقراط : الرياح ، والمياه والأمكنة ، ١٥ . وكلا النصين موجود باللغة الإنجليزية ، فى ملاحظتى عن « أول عرض لبقايا منازل الركائز الخشبية ، فى عصور ما قبل التاريخ ، كما تتضح فى رسم كونراد وتز سنة ١٤٤٤ » ، راجع :
Isis 26, 449-451 (1936), 1 pl.; 32, 116 (1947-49). W.R. Halliday, "The first description of a lake-village," *Discovery* 1, 235-238 (1920) (*Isis* 4, 127 (1921-22) . Robert Munro, Encyclopedia of Releqion and Ethics, vol. 7 (1915), PP. 773-784.

(٧٥) هيرودوت الثانى ، الفصل : ٣٢ .

(٧٦) Paul Monceaux, "La légende des pygmées et nains de l'Afrique équatoriale." *Revue historique* 47, 1-64 (1891); *Introduction*, vol. 3, pp. 1227, 1860.

(٧٧) هيرودوت الكتاب الأول ، الفصل : ٧٤ .

(٧٨) P.J. Hamilton-Grierson, "Artificial brotherhood". *Encyclopedia of Relegion and Ethics*, vol. 2 (1910), pp. 857-871.

(٧٩) هيرودوث الكتاب الثانى ، الفصل : ١١٣ .

(٨٠) المرجع السابق ، الفصل ٦٤ — ٧٥ .

(٨١) لقد جلا هذه القضية John Ferguson McLennan (1827-1881), James George Frazer (1854-1941), Totemism (Edinburgh, 1887), Totemism and exogamy (4 vols. London, 1910).

لاحظ أن السير جيمس توفى فى سنة ١٩٤١ وانظر كم هى قريبة من زمننا

(٨٢) لمقدمات هذه المواضوعات انظر *Encyclopedia* of *Relegion and Ethics*. Goblet d'Alviella on Animism, vol. 1 (1908) pp. 535-537; R.R. Marett on tabu, vol. 12 (1922), pp. 181-185; E. Sidney Hartland on totemism vol. 12 (1922) pp. 393-407.

وإن هذه الموضوعات التى كان يختلف فى أمرها من نصف قرن أصبحت الآن أمراً مقبولا فى كل كتاب مدرسى فى علم خصائص الشعوب .

(٨٣) Arnold van Gennep, *Relegions, moeurs et légendes* (Paris 1909), vol. 2 p. 174.

(٨٤) نيكياس (١٣ — ٤٧٠) ، كان ارستقراطياً أثينياً ، وقائداً عاماً . وقد سعى للصلح ، واستطاع فى سنة ٤٢١ ، أن يحصل على معاهدة السلام تلك ، التى سميت باسمه . ولم يكن راضياً عن حملة صقلية ، إلا أنها قررت رغماً عنه ، وعين قائداً لها . وقد أعدمه السيراكوزيون سنة ٤١٣ .

(٨٥) نحن لا نعلم هل كانت له أملاك هناك أم لا . ولكنه منح امتيازاً لاستغلال بعض المناجم . وكانت هذه المناجم تقع فى سكبت هايل، على ساحل تراقيا، المقابل لجزيرة تاسوس . وتقع على بعد قليل منها ، إلى جهة الغرب، اسكى قولة الحديثة، أو قولة القديمة . ولنذكر أن قولة هذه ، كانت أول بقعة أوربية نزل فيها القديس بولس . ولد فيها محمد على سنة ١٧٦٩ ، وهو مؤسس الأسرة العلوية فى مصر . راجع : *Isis* 31, 97 (1939-40)

(٨٦) توكيديديس ، ٥/٢٦ .

(٨٧) المرجع السابق .

(٨٨) المرجع السابق ١/٢٢ .

(٨٩) المرجع السابق ٥/٢٣ .

(٩٠) المرجع السابق ٥/٤٧ .

(٩١) المرجع السابق ٢/٦٥ .

(٩٢) المرجع السابق ٢/٣٥ — ٤٦ .

(٩٣) المرجع السابق ٢/٤٠ .

(٩٤) المرجع السابق ٢/٤٦ .

(٩٥) المرجع السابق ٣/٣٦ .

(٩٦) المرجع السابق ٣/٣٧ .

(٩٧) المرجع السابق ١/٨ .

(٩٨) المرجع السابق ١/٢٢ .

(٩٩) The Peri Stephanu (حول التاج) ، هو أشهر خطاب لديموستين ، أعظم خطباء اليونان قاطبة (عاش من سنة ٣٨٥ – ٣٢٢) . وقد ألقاه سنة ٣٣٠ ، تبريراً لخصومته مع فيليب الثانى المقدونى ، التى استمرت أربعة عشر عاماً . وقد انتصر فيليب فى معركة شيرونيا (سنة ٣٣٨) ، التى كانت نهاية استقلال اليونان ، وتوفى سنة ٣٣٦ . وواصل ديموستين مقاومته للإسكندر ، ولكنه خسر المعركة .

(١٠٠) ثوكيديديس ١/٢٢ .

(١٠١) أصبح الآن من الممكن تسجيل الخطاب ، والاحتفاظ به كما لفظ للأجيال ، كأنه شىء حى .

(١٠٢) ثوكيديديس ٢/٤١ .

(١٠٣) ثوكيديديس ٢/٤٧ – ٤٩ .

(١٠٤) المقدمة ج ٣ ص ١٦٥٦ . Introduction etc.

(١٠٥) Isis 29. 406 (1938).

(١٠٦) Isis 37, 124 (1947)

(١٠٧) J.F.D. Shrewsbury "The plague of Athens", *Bull. History of Medicine* 4, 1-25 (1950); *Commentary* by William MacArthur, *ibid.* 51, 214-215 (1950)

(١٠٨) J.H. Finley, Jr., *Thucydides* (Cambridge: Harvard University Press, 1942)

(١٠٩) انظر لبحث ال Introduction vol. 3, pp. 1650, 1668, 1860, 1868; George Barger, *Ergot and ergotism* (London: Gurney and Jackson, 1931).

(١١٠) لوكريتيوس : « طبيعة الأشياء » . De rerum natura ج ٦–١١٣٨–١٢٨٦ .

(١١١) ثوكيديديس ٢/٩٤ .

(١١٢) هنا إشارات مشابهة فى هيرودوت ٣/٩ ، ٦/١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٤ . وعند كسينوفون وغيره من المؤرخين . راجع : Tozer. *History of ancient geography*, pp. 328-334. Wolfgang Riepl, *Das Nachrichtenwesen des Altertums* (492 pp; Leipzig, 1913). وهو يعالج بالأخص العصور الرومانية

(١١٣) ثوكيديديس ٢/٢٨ .

(١١٤) المرجع السابق ٤/٥٢ .

(١١٥) المرجع السابق ٧/٥٠ .

(١١٦) كنيدوس شبه جزيرة ضيقة فى الزاوية الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى وهى قريبة من هاليكارناسوس وكوس .

(١١٧) راجع بشأن معركة كوناكسا سنة ٤٠١ ، تعليق رقم ٢٤ . وقد شهد كسينوفون وكتيسياس المعركة ، وكان كل منهما فى طرف .

(١١٨) كان يحكم قبرص الفرس والفينيقيون . وفى سنة ٤١١ ، حدث انتعاش هلينى ، بقيادة

ايفاجوراس (٤٣٥ – ٣٧٤) ، الذى ينتمى إلى سلاميس (كانت سلاميس المدينة اليونانية الرئيسية فى قبرص . وكانت على الشاطىء الشرقى ، على مرأى النظر من سوريا) . وقد انضم إلى ايفاجوراس كثير من اللاجئين اليونانيين ، وكان أشهرهم أمير البحر كونون الأثينى (٤٤٤ – ٣٩٢) الذى أعاد تنظيم الأسطول اليونانى ، ودمر الأسطول الإسبرطى فى معركة كنيدوس سنة ٣٩٤ .

(١١٩) R. Henry, *Ctesias, la Perse, l'Inde, Les sommaires de Photius* (Brussels: Office des Publicité, 1947) (*Isis* 39, 242 '1948')

(١٢٠) إن أحسن طبعة لـ Persica وضعها جون جلمور John Gilmore London 1888 وهى باليونانية فقط ولكنها محشاة ومفهرسة ، أما بصدد Indica فانظر الترجمة لـ J. W. McCrindle (Calcutta, 1882) ولا نص يونانى معها ولكنها محشاة ومفهرسة .

(١٢١) ديودورس الصقلى ٢/١٣ . بهستون هى بيسوتون الحديثة (راجع دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول (١٩١٢) ، ص ٧٣٤) ، وهى تقع فى غربى ايران ، قرب كرمانشاه . والاسم الذى استعمله كتيسياس هو (Bagistanon oros) وهو مشتق من كلمة (Bagastana) ، بالفارسية القديمة ، وتعنى مكان الإله (وهو متراس) . وحل رموز الخط المسمارى ، الذى قام به سير هنرى رولنسون ، (١٨٤٧) . كان بداية علم الأشوريات ، راجع :

Leonard William King and Reginald Campbell Thompson, "*The Sculptures and Inscription of Darius the Great*" (London, British Museum, 1907)

(١٢٢) Diodoros of Sicily, ii, 12; translation by Charles Henry Oldfather, in Lock Classical Library.

(١٢٣) هيرودوت ١/١٧٩ .

(١٢٤) هى (هيت الحديثة) ، وكانت على مسير ثمانية أيام من بابل ، على مقربة من الفرات ، إلى جهة الغرب . وكانت محجراً للقار الذى استعمل فى بناء أسوار بابل .

(١٢٥) تلفظ كلمة elleboros فى اللهجة الأيونية بنفس هادئ ، وفى اللهجة الأتيكية بنفس غليظ . وهذا يفسر كتابتها فى الإنجليزية على صورتين ، هما ellebore و Hellebore والأولى منهما مهجورة الآن . وكانت العروق المجففة وجذور أنواع الملبور (الخربق الأسود) المختلفة تستعمل كثيراً عند اليونان والرومان كعقاقير . وهى تحتوى على أنواع مختلفة من شبه القلويات ، التى تعمل كمخدرات ومسكنات . وتستعمل من الخارج لقتل الحشرات . وهنالك إشارات كثيرة إلى الخربق الأسود فى مجموعة ابقراط . وهى أقل بكثير مما عند جالينوس راجع : Littré, *Oeuvres complètes d'Hippocrate*, vol. 10, pp. 628-630; See: K.G. Kuhn (20 vols.; Leipzig, 1821-1833) vol. 20, p. 296. وكان الأطباء الأبقراطيون يستعملونه لأغراض كثيرة مختلفة .

(١٢٦) Oribasios of Pergamon (IV-2), physician to Julian the Apostate.
والنص موجود فى Iatricai Synagogai, VIII, 8, وانظر أيضاً الطبعة الممتازة التى حررها Bussemaker and Daremberg (6 vols.; Paris 1851-1876), vol. 2 (1854), p. 182.

(١٢٧) كما جاء فى سترابون ١٥/١ ، ٥ ، ٤ ، ٢ ، ٥ .

الفصل الثالث عشر

الطب اليونانى فى القرن الخامس
وطابعه الأبقراطى

مع أن هذا الكتاب ليس تاريخاً للطب فقد سبقت فيه إشارات كثيرة إلى موضوعات طبية بحتة . ولعلنا نستغرب أن يكون الطب القديم ، قبل هذا الزمن ، قد بلغ أوجه على يد المصريين فى القرن السابع عشر وقبله ، أى قبل العصر الذى نحن بصدده بأكثر من ألف سنة . ووصلت شهرته إلى بلاد اليونان كما تشهد بذلك الأوديسا[١] وتاريخ هيرودوت[٢] والمصنفات الأبقراطية[٣]. نعم ، إن الأطباء المصريين فى عهد دارا (ملك فارس ومصر من ٥٢١ إلى ٤٨٥) لم يحتفظوا بالمكانة التى كانت لهم فى عهدهم الذهبى ، بل أوشك من اضطلع منهم بمعالجته أن يلاقوا حتوفهم لولا وساطة ديموسيدس[٤]. الذى ذكر أن دارا أعاد إنشاء معهد الطب المصرى فى سايس[٥] Sais . ومن الممكن أن يكون اليونان قد اقتبسوا شيئاً من المعارف الطبية البابلية ، إلا أنهم توصلوا ، منذ عهد هوميروس ، إلى استنباط الكثير من المعلومات بجهدهم الخاص . وما كاد القرن الخامس ينصرم حتى وصلوا بالطب إلى مستوى أرفع جدا مما كان عليه سابقاً فى مصر أو فى بلاد ما بين النهرين . ولكى نوضح أمر هذا الانقلاب—الانقلاب الأبقراطى — يتحتم علينا أن نلم موجزين بالتطور الطويل الذى أدى إليه .

من هوميروس إلى أبقراط :

تشير الإلياذة إلى كثير من المعلومات الطبية لا سيما ما اتصل منها بالجراحة . فتسمى لنا طبيبين قديمين[٦] ماهرين هما بوداليريوس Podaleirios ومخايون Machaon ابنا اسكلبيوس Asclepios ابن أبوللو Apollo . ويصعد بنا هذا إلى

الأصول الدينية التى انحدر منها التعليم الطبي . ففى عهد هوميروس لم يكن اسكليبيوس إلهاً بل طبيباً « لا يناله اللوم » ، وازدهرت تعاليمه فيما بعد فى عدد كبير من المعابد[٧] ، وعد منها فى العالم اليونانى نحو ٣٢٠ معبداً . واشتملت طقوس هذه التعاليم على اغتسال الطهر وحضانة روحية تتجلى فيها للمريض رؤى يساعد تعبيرها على شفائه مما ألم به . وحين رفع أسكليبيوس إلى مصاف الآلهة رمز إليه برأس أسوة بزيوس (Zeus) وجُعل فى يده صوبلجان التفت حوله حية واحدة . والحية رمز قديم لعبادة قوى الشر فى العالم : تلك العبادة التى قرن بها اسم اسكليبيوس نفسه[٨].

إن « الحضانة الروحية » طقس مارسه المصريون قديماً ، ولعل اليونان اقتبسوه منهم ، أو لعله نشأ عندهم نشأة مستقلة ، لأنه أمر طبيعى . فالمرضى أينما كانوا يتضرعون إلى معبوداتهم التماساً للصحة والإخصاب . وقد يغرون ، حيث المناخ حار ، بالنوم فى باحة المعبد . ومتى كان الكهنة الذين يتعهدونهم من ذوى النباهة ، بذلوا ما فى وسعهم لجعل الجو أشد ما يمكن ملاءمة لتحقيق « الحضانة الروحية » : من راحة وافية ونشاط روحى وافر ، إلى أمن تام وثقة أكيدة . وفى الصباح التالى يندفع المرضى فى التحدث عن اختبارهم وحكاية ما اعتورهم فى تلك الليلة العجيبة التى سنح لهم أن يقضوها فى المعبد المقدس . وأهم شيء هو الرؤى التى يجتهد الكهنة فى تفسيرها ، والتى تزيدهم معرفة بحاجات المريض . أما تفاصيل هذا الطقس فتختلف بين مكان وآخر . واستخدامه لشفاء الأمراض يتوقف على نباهة القائمين على المرضى . فقد تطغى الخرافة عليه فى بعض المعابد[٩] وتغلب عليه الصفة العلمية فى سواها ، إذ من الثابت أن مزاولة هذا الطقس فى أفضل حالته كان أمراً صالحاً . ذلك أنه يسّر لمقومات الإيحاء ، والإيحاء الذاتى ، أن تعبأ لهذا الغرض . وأى وسيلة أنجع من هذه فى إحياء معنويات المريض وتعزيز حالته النفسية .

ولم يعرف هذا الطقس إلا أخيراً نسبيا ، فظهر فيما يظن فى أبيداوروس[١٠] Epidauros قبيل سنة ٥٠٠ على أبعد تقدير . وبقى هذا المكان المقر الرئيسى

لعبادة أسكلبيوس ، ثم اشتهرت بالإضافة إليه بعد ذلك معابد كنيدوس Cnidos وكوس Cos ورودس Rhodes وبرقة Cyrene . ولهذه المعابد أهمية خاصة بالنسبة إلى النشأة الأولى للطب اليونانى ، فإنه حين تعذر وجود مطببين ، كان فى استطاعة النبهاء من الكهنة أن يجمعوا تباعاً بيانات تاريخية عن الحالات المرضية ، ولا يستبعد أنهم دونوها وحفظوها ، بل لعلهم أخذوا فى تصنيفها وتبويبها بقليل أو كثير من الوعى والتعهد ، حتى تم لهم تدريجيا تأليف مصنف فى الاختبارات الطبية . أما تعبير الرؤى فقد يتيح المجال لحديث شخصى بين الكاهن والعليل يشبه من وجوه ، فى العصر الحاضر ، التماس النصح من المرشد الدينى أو الطبى أو « الإخصائى » فى التحليل النفسى . ولا يفوتنا أن المعالجة بالأساليب الرشيدة يمكن أن يداخلها ، ولعله داخلها ، شىء من الممارسات السخيفة . إن الكثيرين من ذوى العلل يحتاجون إلى مثل هذه المعالجة ، فهم يطلبونها ويظفرون بها .

ثم إن معالجة المعبد مهما بلغ حظها من الأحكام قلما تجاوزت الوسائل النفسانية . وقد يشير الكهنة باستخدام بعض العقاقير ، ولكنهم لا يقدمون على شىء من عمليات الجراحة أو التوليد . وحتى وسائل العلاج الصغرى ، كالفصد والتدليك ونحر الضحية ، كانوا أميل إلى مجاوزتها والاشتغال عنها بسواها . فالتجارب الطبية التى توالت فى بعض المعابد تكاد تكون محصورة فى حقل علم النفس — وهو حقل فى غاية الاتساع طالما أعاره الأطباء اليونان الاهتمام اللائق .

إن التعليم الطبى الذى وصل إلينا يشبه أن يكون قد وقع أولا تحت تأثير أساليب المعابد فى العلاج . ولكن ينبغى أن نؤكد أن مصنفات العهد الأبقراطى تكاد تكون قطعاً علمية وعقلية ، لولا آثار من نزوات الخرافة وما لا يستحق الذكر من تلميح إلى الدين[١١] .

أما المعلومات الأساسية فى العقاقير فقد تجمعت طيلة قرون عديدة على يد جامعى الأعشاب ومقتلعى الجذور (rhizotomoi) ، وبناء على ما فى متناول يدنا من جملة المعلومات المتجمعة عن طريق التجربة ، وعلى ما نعرف من

بطء شديد فى هذا الطريق ، نستطيع أن نقرر أن ذلك استمر أجيالا لا تحصى . فقد اختبر عدد عظيم من النباتات وعرفت بعض منافعها وكشفت أخص مؤثراتها ، ثم استنبطت الوسائل الفعالة لجمع ما كان منها أكثر نفعاً . وإن لم يمكن تعليل منافعها تعليلا معترلا وجدت الخرافة والسحر مكانهما إلى استكمال ذلك . ولذا يتعذر علينا أن نخوض فى هذا دون أن نتوه فى مجاهل الخرافات : ونضل فى شعابها الكثيرة . وإزاء هذا نكتفى بإيراد الحقيقة التالية : وهى أن تأثير كثير من أنواع النبات كان معروفاً لدى مقتلعى الجذور قبل نشأة علم الطب بزمن طويل . فقد تلقى الأطباء الأبقراطيون من أسلافهم المجهولين كنوزاً من العقاقير . وكل ما احتاجوا إليه من الأعشاب جمعه لهم عشابون محترفون تقيدوا فى عملهم هذا بجميع الطقوس الخرافية المعهودة . وكان عليهم مثلا ، فى غضون عملهم هذا ، أن يكونوا فى حالة من الطهر ناتجة عن قيامهم ببعض الشعائر الدينية ، وإلا فلا تنفع الأعشاب المجموعة . وكان يشترط فى بعض أنواع الأعشاب أن تجمع فى الظلام ، أو فى أوان ازدياد القمر أو تناقصه . وأن ترتل أثناء جمعها بعض الآيات السحرية ، وتستخدم لذلك أدوات خاصة ، وتتناول الأعشاب المجموعة بحسب مراسم معينة ، ويجرى ذلك على وجوه شديدة التنوع ، ويهيمن على كل مرحلة من مراحله ضرب من المعانى السحرية . وكما ذكر كونواى زيركل Conway Zirkle « أن جمع الأعشاب أو اقتلاع الجذور من صدر الأرض الأم يشبه إجمالا اقتلاع الشعر من ظهر نمر راقد ، وهى مهمة خطرة ما لم تتخذ لها الاحتياطات اللازمة[١٢] » وعلى كل لم يكن لزاماً على أطباء العهد اللاحق أن يستكشفوا الأعشاب أو الجذور . بل كان يؤتى بها إليهم ، وكانت مهمتهم تقتصر على إعادة استطلاع خصائصها وتعيين طريقة الاستعمال ومقدار الجرعة ، على نحو أقرب إلى مقتضيات العلم .

وبينما كان حماة الطريقة الأسكلبية يزدادون علماً بطاقة الإنسان على الدفاع النفسانى ضد المرض ، ومقتلعو الجذور يمضون فى جمع الجذور والجذوع والأوراق والأزهار والثمار ويختبرون مفعولاتها . أخذ عدد من المدارس الفلسفية

فى استنباط النظريات . ولنستعد إلى الذاكرة بصورة خاطفة المؤثرات الفلسفية التى كان من المحتمل أن تجىء ، وقد جاءت فعلا ، من أربع مناطق من العالم اليونانى وهى : جنوبى إيطاليا (Magna Graccia) صقلية ، أيونية Ionia وتراقيا .

فمن جنوبى إيطاليا جاءت التعاليم الصوفية (فيثاجورس وأتباعه) وطبيب هذه المدرسة البارز الكمايون الكريتونى (Alcmaion of Croton) ، وكان على جانب من الفطنة ، فأدرك مثلا أهمية الدماغ من حيث هو مركز للحواس ، وأن العافية ضرب من التوازن بين القوى . وقد حمل ديموسيديس (Democedes) ما توصل إليه الكمايون إلى بلاط فارس فى سوس Susa . ومع أن فيلولاوس (Philolaos) كان معنيـاً خاصة بعلم الفلك فإنه عرف شيئاً من علم وظائف الأعضاء ، وكان السابق إلى التمييز بين الوظائف الحسية والحيوانية والنباتية . ملاحظاً أن مركزها على التوالى فى الدماغ والقلب والسرة (ولا بأس بهذا إلا فيما يتعلق بالنوع الثالث) . وكانت الأفكار العامة التى لم ينقطع سيلها فى وقت ما ، والتى طبعت بطابعها — قليلا أو كثيراً — تفكير الأطباء والفلاسفة على السواء ، تفوق مسائل الطب الخاصة تأثيراً .

و « نبى صقلية » هو إمبيدوكليس Empedocles . وكان شديد الرغبة فى الطب وعلم وظائف الأعضاء . وإن كان مغرماً بالشعر واستطلاع الغيب (وهو شبيه لباراكيلسوس Paracelsus) . وفى مقدمة أتباعه آكرون الأجريجنتى (Acron of Agrigentum) [١٣] (القرن الخامس ق.م.) . وبعده بقليل فيلستيون اللوكروى (Philistion of Locroi) (النصف الأول من القرن الرابع ق.م.) وقد علق كلاهما أهمية خاصة على الهواء داخل الجسم وخارجه . وميز أكرون بين مجارى الهواء المختلفة النافع منها للإنسان وغير النافع . ووضع — فيما ذكر سويداس (Suidas) — نظاماً لطعام (Regimen) الأصحاء من الناس (peri trophes hygieinon) . وعن پلوتارك (Plutarch) أنه أشار بإضرام النار لتنقية الهواء . عندما اجتاح الطاعون أثينا . وفى هذه الرواية ما يثير الشكوك لأن ثوكيديدس

لم يشر إليها ولا إلى أكرون . ومهما يكن من أمر فإن هذا الخاطر : وهو أن الطاعون قلم نقل بالهواء ، وأن فى الإمكان تفاديه بتطهير الهواء، لرائع حقاً . وقد تكرر وروده دورياً لدى انتشار كل وباء حتى القرن التاسع عشر .

وكانت أيونيا (أو آسيا الصغرى) المهد الثالث للبحث النظرى فى الطب . ويكفى شاهداً على ذلك أن نستعيد إلى الذاكرة أسماء أنكسيمنيس الميلينى Anaximenes of Miletos ، وأناكساجوراس الكلازوميني (Anaxagoras of Clazomenai) وهركليتوس الأفسوسى (Heracleitos of Ephesos) وأرخيلاوس المليايتى (Archelaos of Miletos) . ويجوز أن يلحق بهم — أخيراً ديوجنيس الأبوللونى[١٤] (Diogenes of Apollania) . وكان هؤلاء علماء فى الفسيولوجيا أى علم وظائف الأعضاء ، بالمعنى القديم ، بل كان بعضهم كذلك بالمعنى الحديث . ذلك أن نظرياتهم الكونية كانت ذات صلة تطبيقية بشؤون الأحياء فى عالم الطبيعة . فأنكساجوراس وديوجنيس قاما بعمليات تشريحية[١٥]، وعزز الأخير اتجاهات أناكسيمينيس وباقى الصقليين فيما يتعلق بصلات الآلهة بالشؤون البشرية .

وهنالك ، أخيراً ، المؤثرات المنبعثة من تراقيا (Thrace) على يد ديموكريتوس الأبدرى (Democritos of Abdera) الذى عرفه أبقراط معرفة شخصية ، وعلى يد هيروديكوس السلمبرى[١٦] (Herodicos of Selymbria) الذى كان فيما يقال ، معلمه . كان هيروديكوس يعلق أهمية كبيرة على الألعاب الرياضية ملاحظاً أن النشاط الجسدى والتقنين الغذائى ينبغى أن يتمم أحدهما الآخر ويوازنه (وهذه إحدى النظريات الأبقراطية الأساسية) . أما ديموكريتوس فلدينا بعض المراسلات الغريبة التى جرت بينه وبين أبقراط[١٧] . ومع أن نسبتها غير ثابتة فإنها تدل على الشعبية التى كانا يتمتعان بها . هذا إلى أنها وثائق لدراسة الأسطورة الأبقراطية التى أخذت تتكون فى عهد عريق فى القدم . وتبحث هذه الرسائل فى الاختلال العقلى ومعالجته بالنبات الطبى المعروف بالخربق الأسود . ومن الثابت أن ديموكريتوس كان شديد التعلق بما يمكن أن يسمى القضايا النفسانية الطبية ، أو بتعبير حديث ناب : الطب الروحانى الجسمانى .

ولا شك فى أن هذا الطب كان خير ما عرف فى دراسات اليونان الطبية . ولا غرابة فى ذلك إن أخذنا فى الاعتبار الأصول التى سبق بسطها : (الحضانة الروحية ، والفلسفة) . إن معارف ديموكريتوس المستفيضة تبدو فى اتساع مدى دراساته الطبية ، وقد نسبت إليه ضروب كثيرة من البحوث التشريحية .وحاول أن يعلل الالتهاب والصرع وانتشار الأوبئة بالعدوى ، ولمس كثيراً من المسائل المستعصية ، مثل طبيعة الحماسة ، والخلق الفنى والعبقرية والعته . ويبدو أن جهوداً بذلت فى ذلك العهد (فى معابد الاستشفاء فى الغالب) لشفاء المرضى عن طريق الموسيقى ، وحاول ديموكريتوس أن يعلل الشفاء عن هذه الطريق . وقد استخدمت الموسيقى خاصة فى معالجة الاضطرابات النفسية ، واستخدمت أيضاً فى حالات أخرى كالتسمم الناتج عن لذع الأفاعى . والراجح أن الأعراض النفسية التى ترافق حالة التسمم هى التى أوحت إليهم بالعلاج الموسيقى[١٨]. على أن محاولات ديمقريتوس لتوضيح أحوال الحياة النفسية وأسرارها لم تكن ناضجة ، ولا يزال جهلنا بهذه الأمور عظيماً حتى اليوم ، على أن الجهود العلمية اليونانية فى عهده كانت جميعها كذلك . وكان طرح الأسئلة أيسر عليهم من الإجابة عنها ، ومع ذلك مجرد طرح تلك الأسئلة اقتضى قسطاً غير عادى من الخيال والحكمة ، والاستعداد لطرح الأسئلة العويصة ، والرغبة الملحة فى ذلك من خصائص العبقرية اليونانية ، وهذا بالذات ما فعلته .

والآن لنتحدث عن الموضعين اللذين نضج فيهما الفكر الطبي : أعنى كنيدوس وكوس ، وهما فى منطقة واحدة هى مقاطعة كاريا Caria الواقعة فى للزاوية الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى[١٩]. إن وقوع المدرستين الرئيسيتين للطب فى تلك الزاوية الصغيرة لم يجئ اتفاقاً . فنظرة إلى الخريطة ترينا أننا لو أردنا الإبحار فى اتجاه شمال غربى كوس وقعت جزر أيونيا ثانية فى مجال أنظارنا ، ولو اتجهنا جنوباً لانتهينا ، بعد اجتياز مسافة قصيرة ، إلى رودس . ونستطيع من رودس أن نبحر فى خط منحن إلى قبرص ففينيقيا فمصر فالقيروان ، ثم نعود إلى كريت ، ومن هنا تسلمنا جزر سيكلاديس كل واحدة إلى الأخرى حتى

نبلغ أرض اليونان . والمسافر بحراً يستطيع أن يجتاز بحر إيجة واليابسة تكاد لا تغيب عن نظره إطلاقاً . وأهم ما فى الأمر أن كاريا ، وظهرها إلى روسيا ، أقرب نسبيا إلى كريت وقبرص ومصر . ومن ثم كانت ذات موقع استراتيجى للتبادل الفكرى . وليس ثمة ما يدعو إلى تجاور مدرستى كنيدوس وكوس هذا التجاور ، الأمر الذى يتعذر تفسيره ، وربما تفرعت إحداهما عن الأخرى ، وإن عز علينا القطع بذلك ، لا سيما وقد بزغ نجم المدرستين فى أفق الطب فى آن واحد ، بعد عهد غامض من التهيؤ خلال جيلين أو ثلاثة لكلتا المدرستين ، ولا سبيل إلى تحديد ذلك بالدقة .

وبما أن معظم هذا الفصل والفصل الذى يليه سيخصص للبحث فى شئون مدرسة قوس فلنبدأ بمنافستها المعاصرة .

مدرسة كنيدوس

إن الفارق الأساسى بين مدرسة كنيدوس ومدرسة كوس هو أن الثانية عنيت بالمرض عامة ، فى حين عنيت الأولى ببعض الأمراض الخاصة . ويمكن أن نقول ، بلغة الطب الحديث ، إن مدرسة كوس كانت تمارس الطب العام (الباثولوجيا العامة) . بينما اقتصرت مدرسة كنيدوس على الطب الخاص (الباثولوجيا الخاصة) . ولكل من الاتجاهين ما يبرره . وقد يذهب البعض إلى أن الثانى لا يقل ضرورة عن الأول ، ولكن حتى مع التسليم بذلك . يعد الثانى سابقاً لأوانه . ويذكر جالينوس أن أطباء كنيدوس عرفوا سبعة من أمراض المرارة ، واثنى عشر من أمراض المثانة . وهو قول ظاهر البطلان . ذلك أن وسائل التشخيص المرضى الدقيق لم تكن كافية لكشف الأعراض النوعية للأمراض ، أعنى للتمييز بين الأعراض ذات الدلالات التفاضلية ، وسواها من الأعراض التى ليس لها مثل هذه الدلالات . فأطباء كنيدوس كانوا عاجزين عن تحقيق فروق كهذه . وقد أسرفوا فى الاهتمام بالتفاصيل العرضية حتى انتهى ذلك بهم إلى اختلاق أوهام من التصنيفيات المرضية

(وهذا هو خلاصة نقد مدرسة كوس لهم) .

عرفنا ، حتى الآن ، واحداً من أطباء كنيدوس هو المؤرخ كتسياس (Ctesias) الذى اشتهر فى البلاط الفارسى . وطبيبهم الأشهر هو يوريفون الكنيدى (Euryphon of Cnidos) ، ولعله ، مؤلف أو ناسخ مجموعة من الأقوال المأثورة هى « الأقوال الكنيدية » (Cinidiai Gnomai) ورسائل كنيدية أخرى محفوظة فى مجموع المصنفات الأبقراطية[٢٠]. وقد فقدت « الأقوال المأثورة » لسوء الحظ ، وحسر بفقدها وسيلة كان يمكن أن نستعين بها على التمييز بين المدرستين ، وهو أمر ليس بالهين ، لأن الفارق بينهما كمىّ لا نوعىّ ، هذا إلى أن المدارس الطبية المتنافسة لا يمكن أن تكون متباينة كل التباين ، وبالعكس مواطن الاتفاق بينها أكثر بحكم الضرورة من مواطن الخلاف . فأطباء كنيدوس مثلا كانوا — فيما يبدو — أكثر اهتماماً بشؤون التوليد وأمراض النساء من زملائهم الكوسيين ، ومع ذلك لا يمكن أن يكون هؤلاء قد تخلوا تماماً عن معالجة النساء[٢١].

قام يوريفون بأبحاث تشريحية ، ووضع كتاباً فى « الحمى الزرقاء » (pelie nosos) ، وشرح ذات الجنب على أنه علة فى الرئة ، وعالج السل باللبن والكى بالحديد المحمى . واشتهر ، بعد ذلك بقليل ، طبيب كنيدى ثالث هو خريسيبوس (Chrysippos) الذى كان تلميذاً لفيلستيون (Philistion) ويودكسوس[٢٢] وقد جمع فى شخصه بين نظريات كوس وصقلية .

لم تقتصر كنيدوس على إنجاب يوريفون وكتيسياس وخريسيبوس من الأطباء ، بل أنتجت أيضاً المهندس المعمارى سوستراتوس (Sostratos) (النصف الأول من القرن الثالث ق.م.) بانى منارة الإسكندرية ، والجغرافى أجاثارخيديس (Agatharchides) (النصف الأول من القرن الثانى ق.م.) . وأنجب أبنائها على الإطلاق يودوكسوس (Eudoxos) النصف الأول من القرن الرابع ق.م.) . وفى النصف الثانى من القرن الرابع تقاطر الحجاج مزدحمين إلى معبد كنيدوس ليشاهدوا تمثال أفروديت ، وهو إحدى روائع براكسيتيلس (Praxiteles) الفنية .

مدرسة كوس

بينما كان أطباء كنيدوس يطبون ويبحثون على رأس من رؤوس هذه الجزيرة ، ظهرت مدرسة أخرى إلى الوجود فى جزيرة دانية الجوار . ونظرة ثانية إلى الخريطة ترينا أن جزيرة كوس تقع عند مدخل خليج [كيراميكوس سينوس Ceramicus Sinus] ، وأن الملاح الداخل إلى هذا الخليج يجد هاليكارناسوس (Halicarnassos) إلى يساره وكنيدوس إلى يمينه . وإذن كان هيرودوت ويوريفون وأبقراط ، فى وقت ما ، على مقربة تامة . وكوس جزيرة صغيرة (١١١ ميلا مربعاً) ، ولكنها خصبة جميلة ورائعة الموقع . تنتج الخمور والدهون (الطيوب) والحرير . وتعيش دودة القز الكوسية (bombyx of Cos) على ورق السنديان والدردار والسرو ، لا على ورق التوت كدودة القز الحقيقية . وهكذا كان الحرير الذى تنتجه مختلفاً عن الحرير الصينى . واستنبطت امرأة كوسية ، هى بانفيلا ابنة بلاتيوس (Pamphila-Plateus)[٢٣] ، طرقاً لإنتاج الحرير المحلى وحياكته فصنعت منه أنسجة بلغت من الرقة أن كادت تغدو شفافة ، وصارت من أظهر كماليات العهد الأوغسطينى[٢٤] . وكما كانت كوس غنية بالعنب والحرير ، كانت ذات حظ فى رجالها ، فهى مسقط رأس (أو الموطن الرئيسى) لثلاثة من شعراء القرن الثالث ق.م. هم فيلتاس (Philetas) وهيرو داس (Herodas) وثيوكريتوس (Theocritos) والفنان المبدع أبلايس Appelles (اشتهر ٣٣٦ — ٣٠٦) الذى رسم لمعبد الجزيرة صورة شهيرة لأفروديت تمثلها خارجة من البحر (he anadyomene Aphrodite) . ومن دواعى الانشراح أن نتصور أبقراط وأتباعه فى وسط كروم العنب وحقول التوت ، وأن نقرن ذكراه بذكرى مصور لامع وشعراء أفذاذ . وأن نتصور كذلك أسكلبيوس يباهى أفروديت فيغرى الحجاج بزيارة الجزيرة[٢٥] . وفيما يعنينا الآن ، تعد جزيرة كوس قبل كل شىء ، مقر أعظم مدرسة من مدارس الطب فى التاريخ القديم . وإذا كان أبقراط لم يؤسس هذه المدرسة ، فإنه بلغ من التفوق على جميع أطباء تلك الجزيرة بحيث

غدا « الطب الكوسى » و « الطب الأبقراطى » اليوم تعبيرين متعادلين . فمن هو أبقراط هذا ؟

أبقراط الكوسى

إن سرد كل ما نعرفه عن أبقراط لا يستغرق وقتاً طويلا . ولد فى جزيرة كوس حوالى سنة ٤٦٠ ، وتعلم الطب على والده هراكليديس (Heraclides) وهيروديكوس السليمبرى (Herodicos of Selymbria) وساح فى بلاد اليونان سياحة واسعة ، والحالات المرضية التى وصفها فى الجزءين الأول والثالث من كتاب الأوبئة Epidemics ، مثلا ، تتصل بجزيرة تاسوس Thasos ، ومدينة لاريسا فى تساليا (Larissa in Thessaly) ومدينة أبديرا فى تراقيا (Abdera in Thrace) والراجح أنه تعرف بديموكريتوس فى هذه المدينة أو فى أثينا (؟) ، ومدينة ماليبوا (Maliboea) فى ماجنيزيا (Magnesia) (شرقى تساليا) ومدينة سيزيكوس (Cyzicos) إلى الجنوب من بحر مرمرة ، وأماكن أخرى . واستشاره طبيباً برديكاس الثانى Perdicas II (ملك مقدونيا حوالى سنة ٤٥٠ — ٤٠٣) ، وأرتاكسركسيس الثانى منيمون Artaxerxes II Mnemon (ملك فارس ٤٠٥ — ٣٥٩) ، وتوفى فى لاريسا بعد أن عمر طويلا . وإذا كان تاريخ ولادته حوالى ٤٦٠ صحيحاً ، وعاش ما يقرب من خمس وثمانين سنة ، كانت وفاته حوالى سنة ٣٧٥ ، ويكون قد أوغل فى القرن الرابع [٢٦] .

لدينا ثلاث ترجمات لحياة أبقراط ، أقدمها من وضع سورانوس (Soranos) (النصف الأول من القرن الثانى) ، ولكن هناك إشارات إلى وجوده تسبق ذلك بكثير . فذكره أولا معاصره الأصغر أفلاطون ، تحدث فى كتابه بروتاجوراس [٢٧] (Protagoras) عن شاب قصد إلى أبقراط طبيب كوس ليأخذ عنه علم الطب ، وفى فيدروس [٢٨] (Phaidros) يناقش ناحية من التعليم الأبقراطى ، وهى الحاجة إلى فهم الطبيعة تمهيداً لتفهم جسد الإنسان ونفسه . ويسوغ لنا أن نستخلص من هذين الشاهدين أن أبقراط الكوسى ينتمى إلى أسرة من الأطباء الأسكلبيين

(سنشرح المقصود بذلك الآن) ، وأنه عنى بتدريس الطب وبلغ فيه شهرة ما فى غضون حياته .

ويتحدث أرسطو فى كتاب السياسة[٢٩] (Politica) عن عظمة أبقراط الطبيب . وأى حاجة بنا إلى شهادات أخرى بعد شهادات أفلاطون وأرسطو ؟

ومن مظاهر التعارض المستغرب ألا يشير أحد القدماء إلى مؤلفاته[٣٠] ، حتى يستطيع و يلاموفتز مولندورف (Wilamowitz Moellendorff) أن يتحدث عنه « كرجل بلا مؤلفات » . ولكن لاشك فى وجود عدد وافر من المؤلفات الأبقراطية . وستناقش صحة نسبة هذه المؤلفات إليه فى الفصل التالى .

ينتسب أبقراط إلى أسرة ذات شهرة واسعة فى الطب الأسكليبى . فجده أبقراط ووالده هراكليديس (Heraclides) مارسا معاً الطب قبله ، وكان ثانيهما ، بطبيعة الحال ، معلمه الأول . وتلاه ابناه تسالوس (Thessalos) ودراكون (Dracon) . وصهره بوليبوس الكوسى .

إن الرسالتين الجراحيتين رسالة الكسر (Fracture) ورسالة المفاصل (Joints) ، وهما من مفاخر الطب الأبقراطى . سبقت نسبتهما إلى جده أبقراط بن جنوسيديكوس (Gnosidicos) . وهذه النسبة وإن رفضت بوجه عام ، تدل على أن الجد كان طبيباً ذا مكانة مرموقة .

واشتهر تسالوس فى بلاط أرخيلاوس ملك مقدونيا بين سنتى ٤١٣ و ٣٩٩ ، وكان أحد مؤسسى المدرسة الجزمية فى الطب (Dogmatic School) . ونسب إليه تحرير القسم الثانى والسادس بل والرابع من كتاب الأوبئة (Epidemics) فى غير ما دليل . وقال عنه جالينوس إنه ألمع أبناء أبقراط[٣١] .

أما بوليبوس (النصف الأول من القرن الرابع ق.م.) فكان أبرز خلفاء أبقراط . ولعله واضع رسالة « طبيعة الإنسان » على نحو ما أشار به أرسطو .

وكل ما نعلم عن شكل أبقراط الخارجى أنه كان قصير القامة مثل كثير من عظماء الرجال .

الطب الأبقراطي

الأولى بنا أن نبدأ بالمصنفات الأبقراطية كما فعلنا بالإلياذة والأوديسا . فندرس مشتملاتها واتجاهاتها ، ونرجئ النظر فى مؤلفيها . والواقع أن الحقيقة الأساسية التى نحن بصددها هى هذه المؤلفات ، وهى بحكم طبيعتها خالدة : فى حين أن مؤلفيها أيًّا كانوا زالوا كالأشباح ، ورغبة فى الوضوح سنعالج الآراء الأبقراطية فى سلسلة من الموضوعات المحددة .

١ – علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء

كان علم التشريح بدائيًّا . وربما كان الأطباء الأبقراطيون على شىء واف من العلم بالعظام وخاصة الجراحين منهم ، وإن كان إلمامهم بالأعضاء الداخلية والأوعية الدموية والعضلات والأعصاب مبهماً للغاية . ومع هذا كانوا مفتقرين إلى شىء من الإرشاد فى التشريح ووظائف الأعضاء . وقد لجأوا إلى ما لجأ إليه سواهم من الأطباء الضليعين ، فى مثل ظروفهم . فاستنبطوا أو افترضوا نظاماً عامًّا لوظائف الأعضاء . وكان سبيلهم فى هذا المنحدر الخطر . لحسن الحظ . مشفوعاً ببعض الاحتياطات . وقيدت تصوراتهم الجامحة بما عرف به اليونان من بديهة سليمة واعتدال فى الحكم . ولولا ذلك لوقعوا فيما وقع فيه الطب الهندى والطب الصينى فى نشأته وتطوره[٣٢].

يتلخص علمهم بوظائف الأعضاء فى نظرية الأخلاط التى سبق أن ألمع إليها القدماء قبل ذلك بقرون كثيرة . ومن الواضح أن أجسام البشر (أو أجساد الحيوانات الأخرى التى هى أسهل للملاحظة المباشرة) . تشتمل على سوائل ذات أهمية بالغة ، كالدم والبلغم المائع والصفراء . وتتميز بعض حالات الاعتدال وتتحقق بما يرافقها من إفرازات سائلة ، ومثال ذلك السائل المخاطى اللزج الذى يسيل من الأنف على أثر الزكام ، والبصاق ، والإسهال . وكان العالم الفيثاجورى الكمايون الكريتونى (القرن السادس ق.م.) أول من اعتبر العافية حالة من

التوازن فى البدن) والمرض اختلالا فى هذا التوازن (isonomia as against monarchia) مثل هذا الاعتبار إنما يركز ، بطبيعة الحال ، على طبيعة السوائل الجسدية ، والمواطن القابلة للتغير فى الجسم ، أكثر منه على الأعضاء الثابتة . وقد ردد إمپيدوكليس هذه الآراء بصورة أوضح وأدق فذكر أن الصحة (أو المرض) تابعة بدورها للتوازن (أو عدم التوازن) الناجم عن حال العناصر الأربعة (النار والهواء والماء والتراب) التى منها تتألف الأجساد البشرية (وكل شىء سواها) . وقد استتبعت نظرية العناصر الأربعة نظرية الطبائع الأربع[٣٣] المتممة لها (اليبوسة والرطوبة والحرارة والبرودة) التى أشير إليها فى كتاب « الطب القديم »[٣٤] وكتاب الصرع (المرض المقدس)[٣٥] . ثم استتبعت ، فيما بعد ، نظرية الأخلاط الأربعة (البلغم والدم والمرارة السوداء والمرارة الصفراء) . وأول شرح لنظرية الأخلاط الأربعة (يعنى العناصر الأربعة والطبائع الأربع وحتى الفصول الأربعة) يقع فى رسالة « طبيعة الإنسان » التى نسبها أرسطو إلى بوليبوس . ومما يدعو إلى الاستغراب أن نظرية الأخلاط هذه لم يرد شرحها فى رسالة الأخلاط الأبقراطية (Peri chymon) .

ثم نشأت نظرية الأمزجة الأربعة استكمالا لهذا الهرم من الرباعيات ، وشرحت لأول مرة على يد جالينوس (النصف الثانى من القرن الثانى)[٣٦] . واستمرت النظرية الأساسية فى التعليم الطبى الجالينوسى حتى القرن التاسع عشر ، ولا تزال حية إلى اليوم — على الأقل — خارج نطاق الطب ، كما يشهد بذلك كثير من التعابير فى معظم لغات العالم .

إلا أن هنالك فرقاً أساسياً بين نظرية الأمزجة الأربعة المتأخرة والنظريات السابقة . فالعناصر الأربعة والطبائع الأربع والأخلاط الأربعة موجودة فى كل جسم . والعافية تستتبع قيام توازن بينها فى كل واحد على انفراد . أما نظرية الأمزجة فهى نظرية أنثروبولوجية تعين على تصنيف البشر . وكل فرد من الناس مميز بمزاج خاص . ولا معنى للقول بتوازن الأمزجة ، إلا بالمعنى الاجتماعى والسياسى[٣٧]

ومقابلة هذه الرباعيات بسواها من النظريات الفسيولوجية مثل الثلاثيات

(tridosha) (الأخلاط الثلاثة) والمحاسيات (Pancamahabhuta) (العناصر الخمسة) في نظرية ايورفيدا . والنظرية البوذية في العناصر الأربعة . والفكرة الصينية عن ين (yin) ويانغ (yang) — أقول : إن المقابلة بينها من البحوث الشائقة حقاً ، وكلها تمثل الرغبة العقلية الملحة في تحقيق التناسق . الأمر الذى أرشد رجال العلم (وأحياناً أضلهم) فى العالم أجمع .

٢ — التكهن فى مقابل « التشخيص »

كان الأطباء الكنيديون ، كما سبقت الإشارة ، يحاولون أن يشخصوا أو يميزوا أمراضاً خاصة . فى حين كان منافسوهم فى كوس أكثر توفراً على العناية بالحالة المرضية بوجه عام . وكان همهم أن يردوا جميع الأمراض إلى إحدى فئتين (انظر الفقرة الرابعة فيما يأتى :) بل إلى فئة واحدة . بحيث أصبح عماد الأمر عندهم التكهن (Prognosis) وهو القدرة على التنبؤ بكيفية نشأة المرض ووجهة تطوره وعاقبة أمره . وما إذا كان من المحتمل أن تكون الإصابة قاضية أم لا . وينبغى ألا يغيب عنا أن أطباء القرن الخامس قلما تهيأ لهم — إن كان قد تهيأ — أن يصيبوا فى تشخيص الأمراض ، وإن الذى كان يهم المرضى إنما هو العافية لا أنواع العلل وأعراضها ذلك أنهم كانوا يلوذون بالطبيب على نحو ما يلوذون بالكاهن . وكانت الأسئلة التى تشغلهم : هل يقدر لهم أن يعيشوا ؟ وهل يسترجعون العافية ؟ وكم يتوقع أن يطول زمن مرضهم ؟ تلك كانت أسئلتهم .

وبفضل التكهن تمكن الطبيب من أن يميز مراحل المرض المختلفة فى كل علة ، وتيسر له بزيادة الخبرة ، أن يتنبأ بها . ففى مرحلة المرض الأولى (تلك التى قد ندعوها اليوم بدور الحضانة) تضطرب نسبة الأخلاط تدريجياً ويختل توازنها . وقد دعا أبقراط هذه المرحلة مرحلة « النضج المرضى » (Pepsis) وهو مجاز ناب مستعار من طهو الطعام أو تخمير المشروبات الروحية . وبعد عدد معين من الأيام تتم عملية « الطهو » وتتجلى الأزمة المرضية أو بكلام آخر يتضح المصير ويتقرر الحكم . على أن هذا الحكم لم يكن دائماً حاسماً . حتى حين

تكون الأزمة ملائمة ، أى فى الحالات التى تدعو إلى التفاؤل ، فإنه ربما عقبها انتكاس (hypostrophe) أو إفراز أو احتقان (apostasis) لمادة متقيحة (بصورة خراج أو دمل) . زد على هذا أنه لما كان الكثير من الأمراض التى تعهدها الأطباء اليونان من حميات الملاريا ، فإنها تتطور تطوراً منتظماً ، وضرورى أن يكون هذا قد عرف من عهد قديم جداً . ولوحظ أن الأزمات المرضية الجديدة تتكرر دورياً فى أيام معينة هى «أيام المرض الحرجة» (crisimos hemera)[٣٨].
فجدول الأيام الحرجة على ما فى « كتاب التكهن بالمرض » Prognostic هى الـ ٤ ، ٧ ، ١١ ، ١٤ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٦٠ ؛ وهى فى «كتاب الأوبئة » Epidemics[٣٩] الـ ٤ ، ٦ ، ٨ ، ١٠ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٤٠ ، ٦٠ ، ٨٠ ، ١٢٠ (وجميعها أيام شفعية) أو الـ ٣ ، ٥ ، ٧ ، ٩ ، ١١ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٣١ (وجميعها أيام وترية) .

إن الطبيب البارع هو الذى يستطيع أن يكون فكرة عامة عن المرض فى عهده الباكر ؛ ويتمكن من أن يستشف الأخطار (الأيام الحرجة) قبل وقوعها ، فيعمل على تقوية إرادة المريض كى يصمد لها .

٣ — ماذا عرف الأطباء الأبقراطيون من أمراض ؟

عرفوا أولا الأعراض الأساسية لاختلال التوازن فى أجسام البشر ، وهى ارتفاع حرارتها . ومع أنهم لم يتمكنوا من قياس درجة الحرارة كما نفعل نحن اليوم فإنهم تمكنوا من أن يتحسسوها . وربما كانوا فى ذلك أبرع منا نحن اليوم . لقد تيسر لهم أن يراقبوا الجلد واللسان والعينين ، ويلاحظوا العرق والبول والبراز ، وأن يقروا الكثير من الفوارق التى تتميز بها الحميات بأنواعها . وربما كان بعض تلك الفوارق زائفاً ، لكن الراجح أن كثيراً منها كان ذا دلالة تفاضلية صحيحة . هل لاحظوا سرعة النبض ؟ يبدو أنهم لم يصلوا إلى ذلك ؛ أو أنهم لم يلاحظوه بوضوح ، وهو من الألغاز المحيرة فى المصنفات الأبقراطية . فإنها تكاد تخلو من أى ذكر للنبض . وإننا لنشعر أنه بعيد عن التصديق ألا يكون أطباء اليونان الأولون قد جسوا نبض مرضاهم . فإن ملاحظة حركة النبض (فى

الساعد أو الساق) مما لا يمكن أن يفوت الرجل النبيه عاجلا أو آجلا .

وهذا الأمر من الغرابة بحيث يضطرنا إلى أن نقف حياله برهة نتفحصه عن كثب . إن أطباء مصر القدماء كانوا على بينة من أمر النبض[٤٠] فكيف طمست معالم هذه المعرفة ؟ نعم إن ديموكريتوس يذكر ضربات النبض (phlebopalia) وفى مجموع المصنفات الأبقراطية إشارة واحدة إليه لا غير ، وذلك فى كتاب الغذاء Nutriment[٤١] وهى : « نبضان العروق (الأوردة) وتنفس الرئتين تبعاً للسن ، واتساق الحركة فى كل منهما أو عدم اتساقها ، وكل تلك دلائل المرض والعافية ، وهى دلائل على العافية أكثر منها على المرض ، أو على المرض أكثر منها على العافية » . وهذه إشارة غير وافية ، فالخلط فيها بين النبضان والتنفس واضح ، والإيهام فى التعبير مزعج[٤٢]. وهنالك دراسة فى النبض منسوبة إلى طبيب مغمور من أطباء العهد الأبقراطى هو أيجيميوس الاليسى Aigimios of Elis [٤٣] . وإلى بروكساجوراس الكوسى Proxagoras of Cos (النصف الثانى من القرن الرابع ق.م.) .

على أننا لا نستشعر الثقة إلا حين نوافى الهيلينى الإخصائى فى التشريح ، وهو هيروفيلوس الكلسيدونى (النصف الأول من القرن الثالث ق.م.) . فمنذ ذلك العهد (ونحن الآن فى عالم آخر مختلف عن الأول كل الاختلاف ، وهو العصر الهيلينى الناشئ فى الإسكندرية) . أخذت معرفة اليونان بالنبض تتقدم بخطى واسعة . وكانت نتائجها ، كما دونها جالينوس (النصف الثانى من القرن الثانى) فى مؤلفه (Synopsis peri sphygmon) أساساً لعلم النبضان حتى العصر الحديث[٤٤].

ولنعد الآن إلى الأطباء الأبقراطيين . فإنهم كانوا على علم بوقوع إصابات فى الحميات على اختلافها ، وإن عجزوا عن قياس درجة الحرارة وإحصاء نبضات القلب ، كما نفعل اليوم . ذلك أن أنواع الحميات كانت شديدة التباين من حيث مقدماتها ، ولكل نوع منها سيره الخاص ، ودورته المعينة ، وأيامه الحرجة . وإليك هذا التفصيل فى كتاب الأوبئة (Epidemics) :

« يلازم بعض الحميات المريض باستمرار ، وبعضها الآخر يلازمه فى

النهار ويفارقه فى الليل . أو بالعكس . ومنها « حمى شبه الثلث » « وحمى الثلث » « وحمى الربع » « وحمى السبع » « وحمى التسع » .

وأكثر الأمراض حدة . وأشدها وطأة . وأعصاها علاجاً . وأكثرها خطراً على الحياة . إنما هو الحميات المستمرة . وأقلها خطراً . وأيسرها علاجاً ، هو حمى الربع . وإن كان أطولها مدى . ولا تقف حمى الربع عند هذا . بل قد تساعد على إزالة أمراض أخرى ، بعضها خطير . والحمى المعروفة « بشبه الثلث » ، وهى أشد خطراً على الحياة من سواها . قد تستتبع أمراضاً حادة . وتسبق على الأخص الأمراض الصدرية . وتداهم الذين يعانون أمراضاً أطول أجلا وأبطأ زوالا . أما الحمى الليلية فليست شديدة الخطر . وإن كانت تلازم المريض طويلا . والنهارية تلازم المريض مدة أطول . وتؤدى ببعضهم إلى داء السل . وحمى السبع طويلة الأمد وإن كانت غير مميتة . وحمى التسع أطول أمداً ، وغير مميتة أيضاً . و « حمى الثلث » الحقيقية تشتد سريعاً ولكنها غير مميتة . وحمى الخمس أخبث الجميع لأنها إذا سبقت داء السل . أو نزلت فى غضونه ، قضت على المريض[٤٥].

وقد شرح و. هـ . جونز (W.H. Jones) المقصود بذلك كله شرحاً وافياً فى الكتب التى وضعها فى الملاريا وتاريخ اليونان[٤٦] . وكانت الملاريا والأمراض الصدرية أوسع الأمراض انتشاراً فى عهد الأبقراطيين وفى مواطنهم . وكانت الأخلاط فى كلتا الحالتين من أوضح ما تتجلى فيه الأعراض المرضية . والأخلاط هى : البلغم (فى المخاطيات . والنخاميات) والدم فى (حالة النزيف) والمرارة السوداء والمرارة الصفراء (فى نوبات التقيؤ فى الملاريا الدورية — المترددة) . وكانت الملاريا هى الباعث الغالب على ذلك كما يشير جونز حيث يقول :

« إن البلدان الموبوءة بالملاريا يغلب على سائر الأمراض فيها — لا على الملاريا وحدها — أن تشتد بقسوة فى مواسم خاصة . والملاريا الكامنة تؤثر فى الواقع على كل الأمراض »[٤٧] .

وهذا يساعد على تعليل اهتمام أبقراط بالتكهن (فى مقابل التشخيص) .

ذلك أن الطبيب المجرب يستطيع تمييز الملابسات فى أكثر الأوجاع على الرغم من اختلاف دورانها ، وتباين فروقها الأخرى . وهذا ما حدا بأبقراط إلى أن يعنى بالمرض بوجه عام (فى مقابل الصحة) أكثر من عنايته بأنواعه المختلفة .

إن الحميات التى تناولتها المصنفات الأبقراطية بالبحث كانت فى جملتها حميات ملارية(٤٨). أو من تلك التى تلازم ذات الرئة . وذات الجنب وداء السل . ولا ذكر هنالك للجدرى والحصبة والحمى القرمزية والخناق والطاعون الدملى والزهرى . نعم ، إننا على شبه يقين من أن الزهرى إنما وفد من أمريكا فى آخر القرن الخامس عشر ، ولكن ماذا يقال بشأن الأمراض الأخرى ؟ ألم يكن لها وجود فى الزمان القديم ؟ وإذا تحقق وجودها فكيف فات قدماء الأطباء أن يلاحظوا بعض أعراضها الواضحة ؟ إن ذلك لمما يوقع فى حيرة شديدة ، كما هى الحال دائماً حين يشوب المعرفة والفطنة جهل بعيد الغور .

وهنالك لغز آخر هو سكوت المؤلفات الطبية عن الطاعون الذى اجتاح مدينة أثينا . فإن نحن أخذنا بعين الاعتبار الكارثة التى سببها هذا الوباء الوبيل تعذر علينا أن نعلل إعراض تلك المؤلفات عن وصفه بصورة واضحة ، فضلا عن إضرابها عن ذكره بتاتاً . ولولا أن ذكره ثوكيديديس — وهو ليس بطبيب — لكنا اليوم فى غفلة من أمر وقوعه .

وهنالك إشارات كثيرة إلى داء الرمد . وليس هذا بغريب ، لأن أنواعاً عديدة من أمراض العين كانت ولا تزال واسعة الانتشار فى الشرق الأدنى . ومع ذلك لا نجد منها ما هو من قبيل العلم الفنى إلا ما ندر . وبعكس هذا وصفت الحميات الملارية وصفاً وافياً ، وصف ما كانت تؤدى إليه أحياناً من انحطاط صحى عام ، وانهيار فى الحالة المعنوية . وما يعرف بالهزال الملارى الذى يتميز بضعف البنية ، وفقر الدم ، وقتوم البشرة ، وتضخم الطحال : وورد كذلك وصف لحالات الهذيان وغير الهذيان من الاضطربات العقلية . ومثل هذه الأمراض لا يمكن أن يغفل عنها لأنها تعلن عن نفسها .

٤ ـــ علم الصحة وفن العلاج

إن الطابع العلمى الذى يميز جهود الأطباء الأبقراطيين يظهر جلياً فى كيفية علاجهم للمرض . ذلك أن الفارق الأساسى بين العالم وغير العالم ، أكثر ما يتجلى، فى أن الأول يكون غالباً على بينة من أمر جهله ، فى حين أن الآخر « تام المعرفة » . (وبهذا الاعتبار كان سقراط من رجال العلم) . إن القول « أنا عالم بكل شىء » عنوان الجهل الفاضح . وقياساً على ما تقدم يسوغ لنا أن نقول إن الفارق الأساسى بين الطبيب المستقيم والمطبب المشعوذ هو أن الثانى يقطع وعداً بالشفاء ، بينما يكون الأول أكثر تحفظاً وأوفر رصانة . وليس صحيحاً أن جميع الدجالين محتالون همهم ابتزاز الأموال لا غير ، فإن بعض الأطباء البارزين لا يقلون عن الدجالين طمعاً . والفرق بين الفئتين لا يقوم على درجة الطمع بمقدار ما يقوم على قلة النقد . والدجال فى الغالب ، كريم النفس مؤثر للخير ، ينشط لإغاثة جميع من يستطيع إغاثتهم من جيرانه . وهو حريص على تحقيق الشفاء للمريض ، حرص الرجل العادى على التماس المعرفة . والفكرة فى كلتا الحالتين هى وليدة الرغبة . ولقد كان أبقراط شديد الرصانة كثير التحفظ بالغ التواضع . وكانت وسائل العلاج الفنية المتوافرة لديه قليلة الجدوى ضعيفة الأثر ، وكان على علم بذلك . وقد لجأ فى علاجه إلى استخدام المسهلات ، والمقيئات والمنعشات ، والمحيضات ، والحقن الشرجية والجلدية ، والفصد[٤٩] . واستعان على إخلاء الجسم بالتقنين الصارم المسغب للطعام ، وعمد إلى المسكنات والحمامات ، والفرك والتدليك ، ووصف ماء الشعير « نقيع الشعير » و « حساء الشعير » (ptisane) ومنها اللفظة الإنجليزية (ptisan) ، والفرنسية (tisane) التى تطلق على أنواع النقيع كافة، والخمر وشراب العسل (عسل محلول بالماء) والعسل المخلل (عسل محلول بالخل) . ولنتذكر أن اليونان عرفوا العسل لا السكر[٥٠]. وكان أكثر ما استطاع الطبيب أن يرجوه فى علاج المريض أن يلطف ألمه ما أمكن ، وينشط جسمه ، ويقوى معنوياته .

إن الألفاظ اللاتينية (vis medicatrix naturae) (قوة الطبيعة الشفائية)[٥١]

تعبر تعبيراً أنيقاً عن الفكرة الأساسية فى التعليم الأبقراطى . وهى فى التعبير الطبيعى الحديث « أن العافية حالة من التوازن المستقر ، والعلة تصدع فى ذلك التوازن . وحيث لا يكون التصدع بالغ العمق ، لا يلبث التوازن أن يستعيد مكانته من تلقاء نفسه . فينبغى ، والحالة هذه ، أن يوفر للمريض من الراحة الجسدية وهدوء النفس ما يتسنى معه للطبيعة تحقيق قوتها الشفائية ، ومزاولة مهمتها دون أن تقوم فى سبيلها العقبات ، ثم إعادة العافية (إرجاع حالة التوازن) فوراً إلى ما كانت عليه . وواجب الطبيب الأول أن يرعى المريض ويعين الطبيعة فى عملها .

وإذن علم العلاج أمر أقرب إلى تنظيم الغذاء منه إلى وصف العقاقير ، والضمان الرئيسى للعافية فى تدبير صالح يجمع بين كمية معتدلة من الغذاء ومقدار موافق من الرياضة . مع العلم بأن المشى من خيرة أنواع الرياضة لمن ألف الجلوس . وقد بسطت هذه الآراء فى الفصلين الثالث والرابع من كتاب « التدبير » (Regimen) ووردت متفرقة فى مصنفات أبقراطية أخرى .

٥ — علم المناخ الطبى

بين الرسائل الأبقراطية رسالة ، لم يخامر أحد الشك فى صحتها ، وعنوانها « الأهوية والأمواه والأماكن » (Peri aeron hydaton topon) ، وهى بلا ريب أول رسالة فى علم المناخ الطبى ، وتصف أثر طبيعة الأرض والمناخ فى الصحة والأخلاق.

وإذا استثنينا الأخصائيين فى منافع الحمامات وسواهم من الأطباء المتصلين بمناطق الاستحمام؛ فإننا نجد أن الأطباء الحديثين لا يعيرون عوامل المناخ من الالتفات ما أعارها زملاؤهم فى العصور القديمة والوسيطة . وذلك لأسباب منها أن أسلافنا القدماء كانوا أكثر خضوعاً لعوامل المناخ منا نحن اليوم ، لا سيما فى المدن حيث يعيش أحدنا — إذا صح التعبير — فى مناخ مصطنع . وقد يكون ذلك تحت تأثير الإهمال التدريجى والجهل المتزايد بمؤثرات المناخ الناجم عما لكثير من العوامل الأخرى من استهواء . ولعل الأولى بنا أن نعير عامل المناخ

نصيباً أوفر من عنايتنا؛ فمن الراجح جداً أن شفاء بعض المرضى يتم فى مكان ما أيسر مما يتم فى سواه من الأمكنة[٥٢] .

إن درس الصلات بين المناخ والحالة الصحية طالما كان موضوع عناية خاصة لدى مؤرخى الطب . وذلك جرياً على المنهج الأبقراطى من جهة ، واتباعاً لتقليد « الاستحمام »[٥٣] من جهة ثانية . على أن العامل الأساسى فى ذلك إنما هو تأثير المناخ وطبيعة الأرض فى انتشار الأوبئة . ونجد ، من ناحية أخرى ، أن القائمين على التعليم فى أوربا كانوا ، وما زالوا حتى الأمس القريب ، يعتبرون التاريخ والجغرافيا موضوعين متوازيين ، وعليه ليس مستغرباً أن يعمد العلماء الذين عالجوا تاريخ الطب إلى درس جغرافيته[٥٤] .

٦ ـ المظاهر العلمية فى المذهب الأبقراطى

تبين لنا من الأبواب السابقة بعض هذه المظاهر ، ولكن لابد لنا أن نعود إلى ذلك لأنه من صميم الموضوع الذى نحن بصدده . وإذا طلب إلينا تعريف الطب الأبقراطى بأخص مميزاته وبأوجز تعبير كان الجواب : إنه الطب العلمى . وهو الأول من نوعه فى اليونان إن لم يكن فى العالم أجمع[٥٥] .

أخذ أبقراط على عاتقه أن يحل المعضلات الطبية بطريقة معقولة ، بل إنه عرض نفسه أحياناً لاتهام طالما تعرض له الخبراء المعاصرون . وهو أنه كان أقل اهتماماً بشفاء الحالات المرضية الفردية منه بالمعرفة نفسها . وليس ثمة ما يثبت قلة اكتراثه بمرضاه إلا تلك القصص الإكلينيكية التى تصوره متبلد الشعور ـ وكذلك ينبغى أن يكون . على أن تقصير هذه الحكايات فى إبراز عواطفه لا يثبت أنه كان فاقد الشعور ، وأنه لم يكن يتألم لموت مرضاه . وسيرد لنا فى الفصل التالى نماذج من هذه القصص وهى مدهشة حقاً . ففى الفصلين الأول والثالث من كتاب الأوبئة يصف أبقراط حالات مرضية على نحو ما يفعل أطباؤنا اليوم مشيراً إلى ما يعتبره جوهرياً لا أقل ولا أكثر . فقد وصف اثنتين وأربعين إصابة انتهت منها خمس وعشرون بالوفاة . ووثق أبقراط ـ شأن العالم

الحق – أن الصدق ينبغي أن يقدم على كل اعتبار آخر . ولذا دون حوادث إخفاقه بالدقة التي اعتمدها في تسجيل ما حالفه فيه النجاح . (والطبيب الدجال هو الذي يحرص على أن يخفي إخفاقه . وليس بلازم أن يكون ذلك لأنه مخادع ، بل لأن مهنة الشعوذة الطبية في جملتها تستتبع ضمناً الإغراق في الثقة) .

إن مزايا عبقرية أبقراط العلمية تتجلى في ملاحظاته الدقيقة وأحكامه المعتدلة وحبه للحق ، وبصورة غير مباشرة في رفضه للخزعبلات والأباطيل الفلسفية والخطابية[٥٦].

٧ – الطب الروحاني

عندما أوضح أبقراط أن واجب الطبيب الأول وضع قوة الطبيعة الشفائية في الاعتبار ، كان على بينة من أن الوسائل المساعدة على تحقيق ذلك نفسية ومادية . وغير كاف أن يتاح للجسم استيفاء أتم ما يمكن من الراحة (كأن يلزم المريض الفراش ، ويقتصر على الأغذية الخفيفة جداً) بل ينبغي للنفس أيضاً أن تأخذ حظها من الراحة (الهدوء) وأن تنشط بالتشجيع والتعليل بالأمل . وواجب الطبيب أن يعالج مرضاه بالرفق الشديد .

وهاهو ذا فصل نموذجي في النصائح مستخرج من مجموعة متأخرة ، وإن كانت ترجع إلى أصول أبقراطية وثيقة :

« ألح عليك ألا تكون بالغ الجفاء بل خذ بعين الاعتبار – جدياً – موارد مريضك القليلة أو الكثيرة . امنح خدماتك بغير مقابل أحياناً ، ذاكراً إحساناً سابقاً أو رضا تناله في الحال . وإذا عرضت لك فرصة لخدمة غريب معسر فابذل معونتك لكل من هذه حاله . وحيث يكون الحب الإنساني يتجلى أيضاً حب الفن نفسه . ذلك لأن بعض المرضى ، وإن كانوا على علم بخطورة حالتهم ، يستعيدون العافية بمجرد شعورهم بعطف الطبيب . من الخير أن نراعي المرضى لكي يظفروا بالشفاء ، وأن نعتني بالأصحاء لتدوم لهم العافية ، وينبغي أن يعتني المرء بأمر نفسه ، فيلزم ما هو لائق به » .

إن اهتمام أبقراط بالعلاج الروحانى أمر طبيعى مقبول على افتراض أنه عاين (وهو أمر راجح) ممارسة الحضانة الروحية فى المعابد الأسكليبية أو سواها. وإذا كان كذلك فقد سمع ، قطعاً ، بحوادث الشفاء العجيبة التى عمل الكهنة والحجاج ، ولا ريب ، على إذاعتها والإعلان عنها ، وتحققت عنده جدوى العلاج بهذه الأساليب . إن بين الجسد والنفس علاقة وثيقة متبادلة إلى أبعد غاية : ولا يمكن أن يكون أحدهما معافى إذا كان الآخر سقيماً . ويتعذر على الطبيب شفاء أحدهما إذا أهمل الآخر ، وينبغى أن يجتهد فى تقويتهما كليهما .

ومن المغرى جداً أن نطبق هذه الآراء على نص لأفلاطون مقتبس من محاورة خرميديس حيث يتحدث سقراط عن واحد من أطباء تراقيا الزلموكيسيين : « الذين قيل عنهم إنهم من المقدرة بحيث يستطيعون تخليد الإنسان . «قال الرجل التراقى إن اليونان كانوا على حق فيما ادعوه ، كما حدثتك الآن ، قال: « ولكن، يا زلموكيس ، إن ملكنا الذى هو إله يقول : كما أنه يجب عليك ألا تحاول شفاء عينين بلا رأس ، أو رأس بلا جسد ، كذلك يجب عليك ألا تعالج جسداً بلا روح » . ولقد كان هذا هو السبب فى أن كثيراً من الأمراض أفلت من أطباء اليونان – لأنهم غفلوا عن « الكل » وهو الحرى بأن يستنفد عناءهم . ومتى تطرق الخلل إلى « الكل » فمن المحال أن يكون الجزء سليماً . وعلة ذلك ، كما قال ، إن كل ما فى الجسد ، بل وفى الإنسان جملة ، من خير وشر نشأ من النفس ، وجرى من ثم كما جرى من الرأس إلى العين . وعليه فإيثار ذلك الجزء بالمعالجة واجب فقط متى كان الرأس وسائر الجسم سليماً[٥٧] .

هذا الانتقاد الذى رواه سقراط عن الأطباء الزلموكيسيين ، إن صدق على بعض أطباء اليونان : فإنه لا ينطبق قطعاً على أبقراط .

الثمار الأبقراطية

إن ثمرة أبقراط الرئيسية هى إدخال الاعتبار والمنهج العلمى فى شفاء الأمراض ، والسبق إلى إنشاء الأدب الطبى العلمى ووضع أول الوثائق

الإكلينيكية . وهذا الأمر من الأهمية بحيث لا يفى به الإطراء مهما عظم . إن شخصية أبقراط ، على ما هى عليه من الغموض ، من أعظم الشخصيات إبداعاً فى تاريخ البشرية . ويكفى أن يقال ، وفاء بحقه، إنه قام بكل ما كان يمكن القيام به فى عصره استناداً إلى الذكاء وحده ، دون الاستعانة بالعقاقير والأجهزة التى عرفت بعده . ومن الملاحظ حقاً أن فكرة تدوين الحالات الإكلينيكية وجمعها ، كما حققها هو فى كتاب « الأوبئة » (Epidemics) ، لم تستأنف من بعده . أما القصص التى رواها جالينوس فهى فى روحها دون إكلينيكيات أبقراط ، وهى أقرب إلى الإعلان عن النفس منها إلى تقارير صادقة سهلة على الطريقة الأبقراطية ، ذلك لأن جالينوس كان يهمه تمجيد اسمه وإذاعة شهرته أكثر مما يهمه نشر الحقيقة . ولا نعثر بعد جالينوس على تقارير إكلينيكية حتى عهد الرازى (النصف الثانى من القرن التاسع) . ولا أستطيع أن أذكر ، من بعد هذا ، إلا شذرات قليلة مما خلفته العصور الوسطى فى نظام الأكل (regiminna) والإرشاد الصحى (consilia) ، وتحليل أنطونيو بنيفينى الفلورنسى (المتوفى سنة ١٥٠٢) للحالة المرضية بعد الوفاة . إلا أن الفاصل الزمنى بين أبقراط وبنيفينى يبلغ نحواً من ألفى عام[٥٨] .

ومع أن أبقراط كان معنياً أكثر بعلاج المرض عامة منه بأمراض خاصة ، فإنه ترك لنا صوراً إكلينيكية لداء السل والتشنج المخاضى وداء الصرع ، وسجل الملامح المعتادة التى تعلو سحنة المحتضر أو الميت ، ووجه من أهزله الجوع أو أعياه الإسهال أو أسقمه الألم واستمرار المرض . ولا تزال هذه المظاهر تعرف بالوجوه الأبقراطية (facies Hippocratica) وهنالك ما يعرف « بالأصابع الأبقراطية » وهى أعراض خاصة ببعض أمراض القلب المزمنة : إذ تتضخم مفاصل الأطراف حتى لتغدو كالنبابيت ، وذلك لعدم استكمال احتراق الأكسجين فى الجسم .

وتأمل هذه الحال التى ورد وصفها فى كتاب الأوبئة (Epidemics) .

« إن زوجة دلرسيس ، فى تاسوس ألزمها المرض الفراش . ونزل بها مكروه

فأصابتها حمى عنيفة صاحبتها رعشة شديدة . وكانت من أول الأمر تلتف جملة ثم تأخذ — دون أن تنبس ببنت شفة — فى تحسس الأشياء ، وتعبث بكل ما تقع عليه يدها . فتجذب الأشياء وتخدش وتقتلع الشعر . وتبكى ثم تضحك ، ولم تكن تنام : مع أن الأمعاء عولجت بالمسهلات ولم تخرج شيئاً . وكانت تشرب شيئاً يسيراً لأن المساعدين الملازمين يشيرون عليها بذلك . وكان البول رقيقاً وقليلا . والحرارة قليلة الارتفاع فى اللمس . والبرودة بادية فى الأطراف

وفى اليوم التاسع : أصابها شرود عقلى كبير تلاه وعى وصمت .

وفى اليوم الرابع عشر : تنفس خفيف وعميق فى فترات طويلة ثم قصيرة بعد قليل [٥٩].

هذا التنفس الموصوف فى السطور الأخيرة يعرف اليوم إجمالا بتنفس تشينى — ستوكس (Cheyne-Stokes) نسبة إلى طبيبين من دبلن (١٨١٨) ، كما يعرف لدى طلبة الطب بـ « النبض المتحول [٦٠]» .

إن إفراط جالينوس ، ثم أطباء العرب ، فى الاحتكام إلى العقل ، وإغراقهم فى الزهو ، أنسى الناس أحياناً نباهة أبقراط الفطرية . وحجب حكمته ووداعته عن أنظارهم . لكن أفذاذ الرجال فى كل عصر كانوا دائماً على استعداد ليؤدوا إلى شيخ الطب ما يستحق من الإكرام ، ولأن يحاولوا النسج على منواله . ولست أقصد الآن علماء فقه اللغة الطبى مثل أينوس فويس (١٥٢٨ — ١٥٩١) (Anuce Foes of Metz) . أو العالم الهولندى ڤان درلندن (Van der Linden) ، اللذين نشرا مؤلفات أبقراط (سنة ١٥٩٥ و ١٦٦٥) على التوالى . وتداولها طلاب الطب على نطاق واسع ، بل أقصد — بالأحرى — الأطباء الإكلينيكيين أمثال توماس سيدنهام (Thomas Sydenham) (١٦٢٤ — ١٦٨٩) . ولقد نشأت فى آخر القرن الماضى موجة جديدة من الزهو الطبى عقب انتصارات علم الجراثيم . ومرّ وقت أخذ فيه كثير من الأطباء بسحر الجراثيم بحيث فاتهم النظر إلى المريض فى جملته . وهذا الاتجاه دعا ، بالاشتراك مع عوامل أخرى ، إلى إحياء المبدأ الأبقراطى من جديد ، وربما فى شىء من المغالاة أحياناً [٦١] .

إلا أن أفذاذ الأطباء يحسنون التمييز بين العلم والحكمة ، ولذلك يسلمون ، برغم التقدم العجيب الذى أحرزه علم الطب اليوم ، بأن فى الإنتاج الأبقراطى ما لا يعلى عليه .

الطب الاسكلبيادى

من الأمور النادرة التى نعرفها عن أبقراط أنه كان من أتباع الأسكلبياديين Asclepiadi (ذكر ذلك أفلاطون) . ونعرف فوق هذا أن هناك هياكل مكرسة لأسكلبيوس إله الطب وراعيه . فمن هم هؤلاء الأسكلبيون ؟ أول ما يتبادر إلى الذهن أنهم كانوا كهنة هذه المعابد . وقد يعمل الكهنة النبهاء ، فى معابد الاستشفاء ، على جمع أشتات التجارب الطبية من غير كبير عناء وبدافع شبه بديهى . ولكن الراجح أنه إلى جانب هؤلاء الرجال الذين كانوا نصف كهنة ونصف أطباء توجد مراكز طبية مشهورة مثل كنيدوس وكوس وفيها أطباء محترفون وصفوا بأنهم « أسكلبيون » ، إما لأنهم من سلالة الإله أو البطل أسكلبيوس : (Asclepios) أو لأن واجباتهم كانت بإلهام من ذلك الإله .

وحرفة كهذه جديرة بأن تنحصر فى أسر معينة ، ومن الطبيعى أن يدرب الوالد ولده ويورثه تجاربه وأسرار صناعته . ولقد تحدثنا فيما سبق عن أسرتين طبيتين — أسرة كتسياس (Ctesias) فى كنيدوس ، وأسرة أبقراط فى كوس . أما أبقراط فقد دربه والده هراكليدس على هذه الحرفة . واستأنف ممارستها ابنه وصهره من بعده .

وكان يجمع بين هاتين الأسرتين جامع المصلحة . ومن المحتمل أن تكون هذه الرابطة تجلت . ولو فى بعض المواضع ، بصورة قوانين وأنظمة مدونة أو غير مدونة . ومن المحتمل أن يكون الأسكلبيون : فى منطقة ما ، قد ألفوا ما هو شبيه بالنقابة[٦٢] : أى جمعية مهنية ذات كيان يتكيف من حيث القوة والضعف تبعاً لمشيئة أبنائه ، وذات حافز ربما كان اقتصادياً محضاً أو اجتماعياً أو علمياً أو دينياً ؛ وربما كان ملوناً بألوان عدة من هذه المؤثرات .

إن وجود كتب عديدة فى مؤلفات أبقراط تعالج موضوع واجبات المهنة لا يستلزم وجود النقابات الطبية . وإذا صح وجود مثل هذه النقابات كان من المحتمل أن ندعو إلى العمل على تأليف كتب تتولى تحديد واجبات الأطباء وإيضاح عوائدهم ومسلكهم . وكتب واجبات المهنة هى أولا : كتاب «القسم » الطبي (Oath)، وكتاب «القانون» (Law)، وكتاب «اللياقة» (Decorum) وكتاب «النصائح» (Precepts) والفصل الأول من كتاب « الطبيب» (Physician) وإذا كان بعض هذه المؤلفات متأخراً فإنها تضم نصوصاً قديمة ، وهى التى تعنينا فى الوقت الحاضر .

والنص الموجز الوارد تحت عنوان « القسم » (Oath) يشتمل على اليمين المهنية ، وعلى شبه ميثاق (syngraphe) يقيد الطلاب بأساتذتهم . ودستور نقابة ، أيًّا كان نوعها ، لابد أن يشتمل على هذين الأمرين . فيجب أن يضم أعضاء النقابة بعضهم إلى بعض ، ويهيئ للمرشحين سبيل التحصيل . والالتحاق بالنقابة ، ويعمل على صون تقاليد المهنة وضمانة استمرارها . وقد تكون النقابة سرية ، ولكنها منظمة خاصة على كل حال ؛ تفرض نظمها على أعضائها لا غير ، وتيسر حمايتهم ضد هيئات أخرى أو فى وجه الدخلاء غير ذوى الكفاية . على أنه ينبغى أن نحتاط فلا نأخذ هذه الأمور بمفاهيمها الحديثة الخالصة . فإن جميع وجوه النشاط فى النقابة الحديثة ؛ موجودة بالقوة (in potentia) فى النقابة القديمة ، إلا أنها لم توضع فى نظم معينة ، ولم تصغ فى قالب قانونى . مثال ذلك أنه قد يكون للنقابة شعار أو طقس ، يقتضى إجراؤه فى مناسبات خاصة ، كالاحتفال بقبول الأعضاء أو تشييع جثمانهم .

ولسنا نعرف عن ذلك شيئاً محققاً كل التحقيق . وعدم وجود الوثائق يدل على أنه حتى لو كان الأطباء الأسكلبيون قد انتظموا فى نقابات ؛ فإن نقاباتهم هذه لم تكن ، فيما يظن ، بالغة الخطورة . ولئن صح وجود نقابات طبية فى بعض المناطق ، مثل جزيرة كوس ، فأهميتها كانت محصورة فى منطقة صغيرة . وفى عهد قصير المدى [٦٣].

تعليقات

(١) الأوديسا بالفصل الرابع ٢٢٧ – ٢٣٢. Odyssey, IV, 227-232.

(٢) هيرودوت ، الفصل الثانى ص ٨٤ .

(٣) فى مجموع مصنفات ابقراط احالات كثيرة إلى الطب المصرى ، راجع : ليتّريه (Littré), *Oeuvres completes d'Hippocrate,* (10 vols; Paris, 1839-1961) المجلد العاشر ص ٥٧٢ .

(٤) هيرودوت ، الفصل الثالث ص ١٢٩ ، ١٣٢ .

(٥) Heinrich Schofer "Die Widereinrichtung einer Arzteschule in Sais unter Konig Darius I," *Z. Aegyplische Sprache* 37, 72-74 (1899)

مقتبس من نقش على « تمثال ناوفر » المحفوظ فى الفاتيكان ، وهو النص الوحيد من نوعه فى العاديات المصرية .

(٦) الإلياذة ، الفصل الثانى ص ٧٣١ – ٧٣٢ .

(٧) Emma J. Edelstein and Ludwig Edelstein *Asclepius, a collection and interpretation of the testimonies* (2 vols.; Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1945) (إيزيس ٣٧ ، ٩٨ « ١٩٤٧ ») .

(٨) فيما يختص بعبادة الحية راجع : دائرة معارف الدين والأخلاق ، المجلد الثانى (١٩٢١) ص ٣٩٦ – ٤٢٣ ، M. Oldfield Howey, The encircled serpent. A study of serpent symbolism in all countries and ages. (422 pp., ill.; London, 1926).

راجع أيضاً: J.P. Vogel. *Indian serpent lore or the Nagas in Hindu legend and art* (quarto 332 pp., 30 pls.; London, 1926) (Isis 10, 234 '1938').

(٩) من كانوا أكثر تشبثاً بالخرافات لم يقصدوا إلى المعابد الأسكليبية ، بل توجهوا إلى حيث تقام الشعائر الروحانية الخفية ، أو إلى أماكن أخرى مثل معبد أمفياراوس (Amphiaraos) المجاور لاوروبوس Oropos (قرب تخوم بويوتيا Boeotia واتيكا Attica ، على شاطىء البحر ، فى مواجهة أيوبوا (Euboea) ، أو إلى هيكل تروفونيوس (Trophonios) بكهف فى لباديا (Lebadeia) [فى بويوتيا (Boeotia)] .

(١٠) تقع أبيدوروس (Epidauros) على شاطىء الخليج السارونى (Saronis gulf) إلى الشمال الشرقى من بيلوبونيز (Peloponnesos) .

(١١) المرجع الوحيد الذى يحضرنى هو فى De decenti habitu VI; vol. 9, p. 235 .

(١٢) لارماند ديلات فى كتابه « جامع الأعشاب (Herbarius) بحث مستقص رائع للغاية

فى هذا الموضوع تحت عنوان "Recherches sur le cérémonial usité chez les anciens pour la cueillette des simples et des plantes magiques" نشرته الأكاديمية الملكية البلجيكية فى بروكسل ١٩٣٦ (المجلد السابع والعشرون من مجلة إزيس Isis سنة ١٩٣٧ ص ٥٣١ — ٥٣٢) . وأعيد نشره منقحاً فى ١٨٠ صفحة وأربع لوحات فى لييج بعناية جامعة لييج سنة ١٩٣٨ (مجلة إزيس Isis : المجلد الثلاثون ص ٣٩٥ سنة ١٩٣٩) .

(١٣) أجريجنتوم (هى اكراجاس باليونانية ، وجيرجنتى بالإيطالية) مدينة تقع قريباً من منتصف ساحل صقلية الجنوبى .

(١٤) ورد فى كتاب : « المدخل إلى تاريخ العلم » ، المجلد الأول ص ٩٦ « أبولونيا فى كريت » . والواقع أن هنالك مواضع كثيرة عرفت بأبولونيا ، وهذه المدينة على الأرجح « أبولونيا فى فريجيا » . ذلك أن جزيرة كريت كانت دورية » ، فى حين أن ديوجينيس وضع مؤلفاته فى أيونيا . وهذا لا يثبت أنه لم يكن كريتيا ، وأنه كانت نسبته إلى فريجيا أيسر محملا . ماذا أقول ؟ سآخذ فى الشك . راجع : Pauly Wissowa, vol. 9 (1903) 763. وعلى كل فإن ديوجينيس يعتبر ، بوجه الإجمال ، آخر ممثل الفلسفة الأيونية .

(١٥) لم يذكر شىء من ذلك فى مجموع المصنفات الأبقراطية(على ما فى فهرس ليتريه) Littré .

(١٦) تقع سلمبريا على الشاطىء الشمالى لبحر مرمرة .

(١٧) راجع : Littré المجلد التاسع ، ص ٣٨١ — ٣٩٩ .

(١٨) Armand Delatte, "Les conceptions de l'enthousiasme chez les philosophes presocratiques" (٨٨ صفحة باريس ١٩٣٤) . طبعة ثانية مستخرجة من العدد الثالث من مجلة L'antiquité Classique وليس هنالك ذكر للعلاج الموسيقى فى مجموع المصنفات الأبقراطية (انظر فهرس ليتّريه).

(١٩) « كوس » جزيرة ، أما كنيدوس فتقع فى نهاية رأس بالغ الامتداد فى البحر ، فتكاد لا تختلف ، من ناحية عملية عن الجزيرة .

(٢٠) يجوز اعتبار المباحث التالية كنيدية الأصل بدرجات متفاوتة فى الأقسام الثانى والثالث والرابع من كتاب الأمراض ، وهى العلل النفسية (Affections) العلل الباطنية (Internal Affections) التوليد (generation) طبيعة الطفل ، أمراض النساء ، والعقم ، وهذا الجدول غير شامل . ثم إن نص هذه المباحث مثبت فى المجلدات السادس والسابع والثامن من مجموع ليتّريه .

(٢١) إن عدداً وافراً من المأثورات الأبقراطية تتصل بأمراض النساء وعلم التوليد وطب الأطفال. وهنالك إشارات كثيرة إلى هذه الموضوعات فى مصنفات أبقراطية أخرى .

(٢٢) لعل ورود ذكر يودكسوس هنا غير متوقع ، لأنه كان رياضياً وفلكياً . وسنناقش مؤلفاته الأساسية فى فصل آخر . على أنه حصل شيئاً من التدريب الطبي على يد فيلستيون .

(٢٣) يأتى أرسطو على ذكرها فى (Historia animalium) (الفصل الخامس الفقرة ١٥

ص ٥٥١ ، عمود ٢) لكنه لا يشير إلى الزمن الذى عاشت فيه .

(٢٤) إن الملابس الكوسية (Coae vestes) كانت ذات شهرة فى العصور القديمة وإن كانت تختلف عن الملابس الصينية (vestes sinicae) المصنوعة من الحرير الصينى . والفرق بين الحرير الحقيقى (nema sericon, metaxa) (من أصل صينى) والحرير الغريب (الزائف) (من أصل هندى ؟ أو كوسى) يتعذر بسطه هنا ، انظر (F. Warre Cornish) ف . واركورنيش . محرر المعجم فى العاديات اليونانية والرومانية . (Concise dictionary of Greek and Roman antiquities) لندن سنة ١٨٩٨ ص ٥٧٤ ، وراجع البرت نوبرجر The technical arts and sciences of the ancients (Albert Neuburger) لندن سنة ١٩٣٠ ص ١٦٥ — و١٦٧ . « القدماء فى مهنهم وعلومهم الفنية » .

(٢٥) من الأمور المثيرة أنه كان بين كوس وكنيدوس منافسة فى عبادة أفروديت فى أسكلبيوس . ففى حين كانت الأولى تفاخر برسم للآلهة من صنع أبليس (Apelles)، كان فى حوزة الثانية تمثال لأسكلبيوس من تحت براكسيتليس (Praxiteles) وليت مدننا الأمريكية تتمكن من أن تتعهد منافسات كهذه .

(٢٦) لعل من الأسلم أن نقول إنه توفى بين السنتين ٣٨٠ و ٣٧٠ . ويذكر سدهوف Sudhoff أن أبقراط توفى سنة ٣٩٠ فى السبعين من عمره . على أن ذلك كله من باب التخمين . انظر Ann. Medical History 2, 18 (1930)

(٢٧) أفلاطون ، محاورة بروتاجوراس (Protagoras) ص ٣١١ الفقرة الثانية .

(٢٨) أفلاطون : محاورة فيدروس (Phaidros) ص ٢٧٠ الفقرات الثالثة والرابعة والخامسة.

(٢٩) أرسطو : كتاب السياسة (Politica) ص ١٣٢٦ الفقرة الأولى .

(٣٠) يستشهد أرسطو برسالة « طبيعة الإنسان » .Nature of man وينسبها إلى بوليبوس (Polybos) وربما وردت فى محاورة فيدروس Phaidros إشارات ضمنية إلى هذه الرسالة ، أو إلى كتاب « الطب القديم » Ancient Medicine ومن المتعذر أن نعرف بالضبط أى الكتب كان مينون (النصف الثانى من القرن الرابع) يقصد على وجه اليقين .

(٣١) جالينوس الفصل الخامس عشر ص ٤٥٦ .

(٣٢) انظر فيما يتعلق بالطب الهندى ، مجلة إيزيس (Isis) المجلد ٣٤ ص ١٧٤ — ١٧٧ (سنة ١٩٤٢ — ١٩٤٣) ، والمجلد ٤١ ، ص ١٢٠ — ١٢٣ (سنة ١٩٥٠) ، وفيما يتصل بالطب راجع مجلة إيزيس : المجلد العشرين ص ٤٨٠ — ٤٨٢ (سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٤) والمجلد الثانى والعشرين ، ص ٢٦٧ — ٢٧٣ (سنة ١٩٣٤ — ١٩٣٥) ، والمجلد ٢٧ ص ٣٤١ — ٣٤٣ (سنة ١٩٣٧) ، والمجلد ٣٣ ص ٢٧٧ — ٢٧٨ (سنة ١٩٤١ — ١٩٤٢) ، والمجلد ٤١ ص ٢٣٠ (سنة ١٩٥٠) ، والمجلد ٤٢ ، ص ٢٦٥ — ٢٦٦ (سنة ١٩٥١) .

(٣٣) سمى إمبيدوكليس العناصر الأربعة rhizomata ، وسماها بعد ذلك أفلاطون (Stoicheia) وقد غلبت عليها التسمية الثانية . وهى لا تزال محفوظة فى مصطلحاتنا الحالية مثل (Stoichiology) (علم

عناصر الأنسجة الحيوانية) و (Stoichiometry) و (علم مبادىء المركبات العنصرية) .

أما الطبائع الأربع (الخصائص أو القوى) فدعاها أبقراط أو من سبقه dynameis ، وبقى هذا اللفظ شائعاً زمناً طويلا فى اليونانية واللاتينية (dinamidia) ، واللفظة الإنكليزية (Pharmaco-dynamics) لا تزال تذكرنا بهذا الأصل .

وقد شرح نظرية الأمزجة الأربعة كوينتوس Quintos المختص فى علم التشريح والذى اشتهر فى مدينة روما فى عهد هادريان (١١٥ — ١٣٧) ، وأسس مدرسة للطب التى ينسب إليها أساتذة جالينوس . وقد نفى إلى برجامة Pergamon ومات فيها سنة ١٤٨ . ووضع جالينوس كتاباً انتقد فيه آراء كوينتوس فى الأمزجة الأربعة . انظر مجلة إيزيس (Isis) المجلد الثامن ص ٦٩٩ والعدد ١٠٥ (١٩٢٦) ، وأيضاً كتاب « مقدمة فى تاريخ العلم » المجلد الأول ص ٢٨١ (Introduction) .

(٣٤) الطب القديم : الفصل الخامس عشر .

(٣٥) الصرع : الفصل الحادى والعشرون .

(٣٦) انظر مقال سارتون « ملاحظات على نظرية الأمزجة » فى مجلة إيزيس المجلد الرابع والثلاثين ص ٢٠٥ — ٢٠٧ (١٩٤٢ — ١٩٤٣) .

(٣٧) إن الفوارق فى الأمزجة ، أو فى تركيب الأجسام ، الناجمة عن عوامل المناخ أو خصائص الجنس ، بينها أبقراط بوضوح فى رسالة «الأهوية والأمواه والأماكن» ، ولم يورد شيئاً عن الأمزجة الأربعة . واللفظ اليونانى « للمزاج » هو Crasis (مزج) ، ذلك لأن أى مزاج إنما ينجم عن امتزاج خاص للعناصر والطبائع والأخلاط الأربعة . وعنوانه رسالة جالينوس هو : Peri crason, De temperamentis; انظر كتاب ك . ج . كون : المجلد الأول ص ٥٠٩ — ٦٩٤ .
(K.G. Kühn, Galeni opera omnia) vol. 1, pp. 509-694.

(٣٨) « أقوال مأثورة (Aphorisms) » الفصل السابع ص ٨٥ .

(٣٩) كتاب « التكهن بالمرض » (prognostic) الفصل العشرون ، وكتاب « الأوبئة » (Epidemics) المجلد الأول ، الفصل السادس والعشرون .

(٤٠) James Henry Breasted the Edwin. Smith surgical papyrus (Chicago: University of Chicago Press, 1930), Vol. I (*Isis* 15, 355-367 (1931)

(٤١) كتاب الأغذية الفصل الثامن والأربعون (Nutriment)

(٤٢) لا نعثر فى فهرس ليتريه على مادة (pouls) (النبض) و (sphygmologie) (علم النبضان) ، لكن انظر مادة (battements) (النبضان العنيف فى الصدغ) . وقد خصص الفهرس المفصل لكتاب جالينوس الذى نشره كون (Kühn) مجالا رحباً (ص ٢٠ ، ٥٠٦ — ٥١٦) لأنواع النبض واختلافاتها . وهذا يعيننا على تقدير التقدم الطبى الذى أحرزه هذا الموضوع بين القرن الخامس ق . م . والثانى للميلاد .

(٤٣) وضع أجيميوس Aegimios كتاباً فى خفقان القلب ، أو حركة النبض ، Peri palmon اعتمده جالينوس وأشار إليه . ولولا ذلك لبقى مجهولا . راجع Biographisches Lexikion der her-

المجلد vorragenden Aerzte *aller zeiten* und Volker (ed. 2, 6 Vols.; Berlin, 1929-1935) الأول ص ٣٧ .

(٤٤) Emmet Field Horine, "Epitome of ancient pulse lore, « خلاصة علم القدماء بالنبض» نشرة تاريخ الطب (Bull. History of Medicine) المجلد العاشر ص ٢٠٩-٢٤٩ (١٩٤١).

(٤٥) كتاب الأوبئة (Epidemics) المجلد الأول ، الفصل الرابع والعشرون .

وفى الفصل الخامس والعشرون والسادس والعشرون معلومات إضافية لا مجال لذكرها هنا عن نشوء مختلف الحميات وتطور حالاتها مثل : « الأيام الحرجة ».

(٤٦) و.ه. س. جونز .Malaria a neglected factor in the history of Greece and Rome « الملاريا عامل مغفل فى تاريخ اليونان وروما (١١٤ صفحة كمبردج ١٩٠٧) ؛ الملاريا وتاريخ اليونان » Malaria and Greek History (١٨٤ صفحة ، مانشستر ١٩٠٩) (مجلة إيزيس ، المجلد السادس ، والعدد ٤٨ (١٩٢٤ - ١٩٢٥) .

يدعى جونز أن انحطاط اليونان ثم روما وسقوطهما يرجع فى الأغلب إلى الملاريا . إذا كان من المتعذر إثبات افتراضه هذا بالدليل الناجع ، فإنه - والحق يقال - ساعدنا على تحقيق الأهمية الكبرى التى كانت للملاريا فى التاريخ القديم . ولا يزال هذا المرض ، فى كثير من أقطار العالم ، العامل الطاغى على مسرح الحوادث - وهو السبب الرئيسى لتأخر بعض البلاد الشرقية . انظر إيزيس المجلد الحادى والأربعين والعدد ٣٨٠ (١٩٥٠) . وهناك خلاصة جيدة لتاريخ الملاريا ولطبيعة هذا المرض المشئومة حتى الوقت الحاضر فى كتاب نورمان تيلور : « خشب الكينا فى جاوا» (Cinchona in Java) (نيويورك : جرينبرج ١٩٤٥) (ايزيس ، المجلد السادس والثلاثون والعدد ٢٣٠ «١٩٤٦»)

(٤٧) جونز « أبقراط » (Loeb Classical Library) المجلد الأول ص ٤ من المقدمة .

(٤٨) نعم ، لم يتمكن الأطباء الأبقراطيون من أن يفهموا الطبيعة الأساسية للأمراض الملارية ، ولا استطاعوا أن يعرفوا دواءها الخاص «خشب الكينا» وهو نبات موطنه أمريكا الجنوبية - ذلك النبات الذى كشف للعالم فاعليته العجيبة هنود بيرو فى القرن السابع عشر . أما استخراج الكينا منه فتم على يد بليتيه (Pelletier) وكافنتو (Caventou) سنة ١٨٢٠ . وفيما يلى خلاصة الخطوات الأولى التى خطاها البحث العلمى فى معرفة الملايا . فى سنة ١٨٨٠ عثر لافيران Laveran على البسيط الحيوانى (protozoans) الخاص بفصيلة الطفيليات الملارية (Plasmodium). وذلك فى الكريات الحمراء فى دم المصابين بالملاريا . وفى سنة ١٨٩٧ وجد السير رونالدروس (Sir Ronald Ross) هذه الطفيليات الملارية فى أمعاء البعوض . وأظهر جيوفانى باتستاجراسى سنة ١٨٩٨ أن الذى يحمل طفيليات الملاريا من البعوض فصيلة هى المعروفة بالأنوفيليس (Anopheles) . وحرى بالملاحظة أن هذه الكشوف تحققت فى مواضع مختلفة . فكشف لافيران تم فى قسنطنطينة الجزائر ، وروس فى بيجومبت سيكلوندرأباد قرب حيدرأباد وجراسى فى روما . أما قصة الكينا فتجرى على مسرح يمتد إلى جاوا ، وكل ذلك بعيد كل البعد عن جزيرة كوس ، مكاناً وزماناً .

(٤٩) انظر فيما يتعلق بالفصد « المقدمة فى تاريخ العلم » المجلد الثانى ص ٧٦. مارس أبقراط الفصادة والحجامة ولم يستخدم العلق ، والإشارة الوحيدة إلى العلق (bdella) فى مجموع المصنفات الأبقراطية وردت فى الفصل الثانى من البحث التمهيدى ص ١٧ (Prorrhetic II, 17)، وهى إشارة عارضة ، مؤداها أن امتلاء الزور بالدم ربما كان ناجماً عن وجود علقة خافية فيه . ويبدو من ذلك أن قدماء الأطباء لم يكتشفوا العلق، بل الأحرى أن يكون العلق هو الذى اكتشفهم . والعلق، فى مراحله الطبيعية من أسباب الإزعاج الشديد . على أنه قد بان لبعض الأطباء النبهاء أن هذا الانزعاج من المستطاع تحويله إلى وجه من المنفعة . وفى مؤلفات جالينوس إشارات كثيرة إلى العلق . راجع فهرس الطبعة التى أعدها كون (Kuhn) (s.v. hirudines)

(٥٠) أدموند و . فون لبمان (Edmond O. von Lippmann, *Geschichte des Zuckers*) (برلين ١٩٢٩) مجلة إيزيس المجلد الثالث عشر ص ٣٩٣ — ٣٩٥ (١٩٢٩ — ١٩٣٠) . ولم يكن قصب السكر معروفاً غربى الهند قبل الفتوحات الإسلامية الأولى إلا فيما قل وندر (النصف الأول من القرن السابع) . انظر « المقدمة » . Introduction المجلد الأول ص ٤٦٥ . وظهر فى مصر سنة ٦٤٣ ، وفى سوريا (دمشق) سنة ٦٨٠ ، وفى قبرص سنة ٧٠٠ ، وفى إسبانيا سنة ٧١٤ ، وفى بروفانسيا سنة ٧٥٠ ، وجزيرة كريت سنة ٨١٨ وجزيرة صقلية سنة ٨٢٧ .

(٥١) للاطلاع على تاريخ هذه الفكرة راجع كتاب ماكس نوبرجر Max Neuburger نظرية قوة الطبيعة الشفائية عبر الزمان » (The Doctrine of the healing power of nature throughout the course of time Am. Inst. Homeapathy New-York 1932). ويجوز أن نعتبر فكرة « قوة الطبيعة الشفائية » vis medicatrix naturae الشاهد الأول على التنظيم الذاتى فى الأجسام الحية . قابل الـ melieu interieur لكلود برنارد . برأى ولتر براد فورد كانون (١٨٧١ — ١٩٤٥) فى نظرية المداواة بالداء ، فى مجلة إيزيس المجلد السادس والثلاثين ص ٢٥٨ — ٢٦٠ (١٩٤٦) وهو أكثر إسهابا . وقد تكون هذه الفكرة ذات اتصال بالناموس العام الذى قرره هنرى لوشاتليه (Henri Le Chatelier) (١٨٥٠ — ١٩٣٦) فى سنة ١٨٨٧ . وهو أن الاتزان فى جهاز ما ، إذا أزاحه عن مكانه ضغط عارض ، فإن انحرافه يجرى على نحو يميل معه إلى إزالة ذلك الضغط .

(٥٢) هذا معروف ومتفق عليه بشأن مرض واحد على الأقل هو داء السل .

(٥٣) انظر المقدمة Introduction المجلد الثالث ص ٢٨٦ ، ١٢٤٠.

(٥٤) مثال ذلك أن العنوان الفرعى لكتاب جانوس (Janus) الثالث هو « الوثائق الدولية لتاريخ الطب والجغرافية الطبية » .

(٥٥) نذكر له هذه المأثرة منوهين بما للطب المصرى من فضل سبق وصفه فى الفصل الثانى .

(٥٦) انظر كتاب (الطب القديم) . Ancient medicine

(٥٧) أفلاطون : محاورة جرميدس ١٥٦ . Charmides

(٥٨) انظر مقال : ماكس مايرهوف « ثلاث وثلاثون ملاحظة اكلينيكية للرازى (حوالى

٩٠٠ ب . م .) » فى مجلة Isis ، المجلد الثالث والعشرون ص ٣٢١ – ٣٧٢ (١٩٣٥)
مشتملا على النص العربى فى ١٤ صفحة . وقد نشر ما يرهوف على حدة صفحتين فى تصحيح الخطأ
الوارد فى النص . وفى حوزتى نسخ من هذا التصحيح . وفيما يتعلق بنصوص نظام الأكل (regimina)
والإرشاد الصحى (consilia) راجع المقدمة « المجلد الثالث ص ٢٨٥ – ٢٨٦ و ١٢٣٨ – ١٢٤٠ .
أما كتاب بنيفينى Dc abditis nonnullis ac mirandis morborum et sanationum causis.
الصغير والواسع الشهرة (البندقية ١٥٠٧ ، وطبعات أخرى منه سنة ١٥٢١ ، ١٥٢٨ ، ١٥٢٩ ،
١٥٨١) فإنه يشتمل على وصف عملية من عمليات التشريح ، عدد من الحالات الاكلينيكية .

(٥٩) كتاب الأوبئة Epidemics ، الفصل الثالث ، الحالة الخامسة عشرة .

(٦٠) جان تشين (١٧٧٧ – ١٨٣٦) وصف هذا النوع من التنفس فى التقرير الثانى من
تقارير مستشفى دبلين ص ٢١٦ (١٨١٨) Dublin Hospital Reports, 2, 216 1818 .
ووصف وليم ستوك (William Stocke) (١٨٠٤ – ١٨٧٨) حالات أخرى سنة ١٩٤٦ .

(٦١) Isis المجلد الرابع والثلاثون ص ٢٠٦ (١٩٤٢ – ١٩٤٣) .

(٦٢) انظر مادة Guilds فى دائرة معارف الدين والأخلاق المجلد السادس (١٩١٤)
ص ٢١٤ – ٢٢١ بقلم أ . أ . كراولى (A.E. Crawley) و . ج . س . ريد (J.S. Reid)
وانظر أيضاً : « المقدمة » المجلد الثالث ص ١٥٢ – ١٥٦ .

(٦٣) انظر مقال و . هـ . س . جونز (W.H.S. Jones) : « الجمعيات السرية والمصنفات
الأبقراطية » "Secret societies and the Hippocratic writings"
(نشر مكتبة لويب Loeb الكلاسيكية) المجلد الثانى (١٩٢٣) ص ٣٣٣ – ٣٣٦ .

الفصل الرابع عشر

مجموع المصنفات الأبقراطية

سأتولى مناقشة التقاليد الأبقراطية بإيجاز فى آخر هذا الفصل . أما الآن فلابدّ لى من الاعتراف بأن معرفتى بنصوص أبقراط كانت، حتى وقت قريب ، مستمدة فى الأغلب من الطبعة الأنيقة التى أعدها إميل ليتريه Emile Littré وألحق بمجلدها العاشر فهرساً دقيقاً مفصلا[١] . إن علماء اللغة « الفيلولوجيين » الذين عانوا كثيراً فى إعداد الطبعة التاسعة للنص الأبقراطى يمكنهم أن يطعنوا فى عمل ليتريه ؛ إلا أن أمثال هذه المطاعن لا تنقص من مكانته العالية ؛ ولا ترفع منزلتهم الوضيعة قيد أنملة . ولقد مر بين يدى ، خلال السنين الثلاثين الماضية ، عدد من طبعات هذا النص ، وترجماته ومختصراته ، وحلل بعضها فى مجلة إيزيس . وحين كنت أعد هذا الفصل أخذت ، حرصاً منى على تحديد معلوماتى ، أتفحص فى كثير من الدقة ، المختارات التى نشرها باليونانية والإنجليزية وليم هنرى William Henry وصموئيل جونز Samuel Jones وإدوارد تيودور وتينجتون[٢] Edward Theodore Withington فى مكتبة لويب للكلاسيكيات . لم يكن ليتريه من اللغويين المدعين ، بل أجاد اليونانية وأحاط بعلم الطب ، وهو حيث واتاه التوفيق مرشد ممتاز . أما جونز وتينجتون فقد كان من حظهما أن أديا نصيبهما اليسير من هذا العمل بعده بثلاثة أرباع القرن . وأنا أميل إليهما وأرغب بوجه عام فى الأخذ بتوجيهاتهما فى المسائل المختلف فيها ؛ كنظرية جونز مثلا فى نتائج الملاريا الوبيلة والبالغة الأثر فى العالم القديم ، أما ويتنجتون فأنا مدين بصورة مباشرة لكثير من دراساته فى تاريخ الطب ، وبصورة غير مباشرة لمساهمته الطبية فى مراجعة معجم لدل Liddell وسكوت Scott اليونانى — الإنجليزى[٣] .

أصالة كل أو بعض المؤلفات الأبقراطية

لا يعرف على وجه التحقيق مؤلفو تلك الكتب التى أشار إليها أفلاطون ومينونMenon ، ومن هنا دعوى المشككين بأن « أبقراط » « اسم بلا مؤلفات» وأن ليس ثمة مؤلف أبقراطى أصيل . وموضوع أصالة مؤلفات أبقراط يختلف اختلافاً جوهرياً عما يقال عن أصالة مؤلفات أفلاطون وأرسطو ، لأن بين أيدينا من مؤلفات هذين قدراً كافياً ثبتت أصالته ، ويمكن أن يتخذ مقياساً للحكم على غيره . والمسألة التى نحن بصددها أقرب إلى معضلة مؤلف الإلياذة والأوديسا. ونستطيع أن نسلم بصحة كثير من المصنفات الأبقراطية بالروح نفسها وبالتحفظات عينها التى نسلم على أساسها بصحة أشعار هوميروس . على أن شخصية أبقراط ملموسة أكثر جداً من شخصية هوميروس .

وهذا القدر كاف من الناحية العلمية ، لكن ينبغى أن نكون حذرين . فإن الروح والمنهج الأبقراطى تحددا بالاستناد إلى مجموع من المؤلفات الأبقراطية ، ومن المتعذر علينا الادعاء بأن فئة معينة من هذه المؤلفات صحيحة بالضرورة ، لأنها تتميز بالطابع الأبقراطى لا غير ، وإلا وقعنا فى حلقة مفرغة . على أن ما أورده أفلاطون ومينون كان لتحديد المميزات الأساسية للتعليم الأبقراطى، وربما ساعد على تنظيم المصنفات الأبقراطية فى جدول تبعاً لأرجحية أصالتها . وليس فى وسعنا أكثر من ذلك ، وفيه ما يفى بالغرض الرئيسى الذى نقصد إليه .

وبصرف النظر عن ترجيح الباحثين لصحة نسبة المصنفات الأبقراطية فإن الموجود منها لدينا فى مراتب مختلفة من مراحل التأليف وجودة الحفظ . وبعضها جيد التأليف ، وبعضها الآخر أقل جودة ، وبعض ثالث ما زال على صورة مسودة أو ملاحظات أولية لم يقدر لها أن تحرر كما ينبغى . ومنها (ككتاب الأخلاط مثلا) ما جاء تأليفه بمحض المصادفة . وفوق هذا منها ما لم يصل إلينا بنصه الأصلى الكامل. لأن أقدم هذه المؤلفات نقل إلينا على صورة أدراج

(volumina) فكانت بذلك أكثر تعرضاً للعطب من تلك التى وصلت بالشكل المعهود . وأطراف الدرج واهية جداً لا تلبث أن تتكسر وتتساقط ، الأمر الذى يوضح السبب فى أن الكثير من المخطوطات القديمة (لا الأبقراطية وحدها) وصلنا بلا أول ولا آخر . ولم يؤثر هذا على النصوص الأدبية ، لأنه عرف فيها وكانت محترمة ، فلم يعتد عليها ، وأما المصنفات الطبية التى لم يتيسر دائماً لأمناء المكتبات أو للناشرين الوقوف على معانيها والتثبت من تراكيبها فإن أقسامها المفقودة عرضت أحياناً بنص آخر . وقد يقسم الدرج الواحد إلى قسمين أو أكثر ، وقد تجمع أقسام من أدراج مختلفة فى درج واحد . والواقع أن تأليف بعض الكتب الأبقراطية يتعذر تفسيره على غير هذا النحو . وباختصار فإن بعض هذه النصوص سيئ التأليف ، وبعضها الآخر — سواء أكان حسن التأليف أم سيئه — لم يصل إلينا بنصه الأصلى . وكانت الأدراج تتمزق عرضاً فيتولى جمع أطرافها المتباينة قوم مهملون .

وتختلف مشتملات المؤلفات الأبقراطية بقدر ما تختلف أشكالها . فبعضها موضوع للأطباء أو لطلاب الطب ، وبعضها لغير المختصين ، وبعضها الآخر دونه المدرسون ليستعينوا به فقط على تنسيق محاضراتهم ، أو الطلاب تحت التمرين ليعززوا به ذاكراتهم . ومنها مذكرات دون فيها الطبيب نتائج اختباره ، أو مقالات وبحوث كتبت بعناية خاصة لأغراض إقناعية أو بيانية . وإذا كانت أكثر الكتب تمثل تعاليم مدرسة كوس فإن بعضها يعكس تعاليم المدرسة المجاورة والمنافسة فى كنيدوس ، وبعض آراء لعلماء آخرين . ويسهل علينا إدراك ذلك كله إن لاحظنا أن المجموعة التى انتهت إلينا كانت فى الأصل مكتبة كوس (أو قسما منها مع زيادات محتملة من الخارج) . فقد كان لمعبد كوس أو لمدرستها أو لنقابتها مكتبة تجمع فيها كتب المؤلفين الكوسيين وغير الكوسيين إهداء أو شراء ، وحرص على ذلك أطباء كوس أنفسهم حبا فى الاستطلاع أو رغبة فى الدرس ، أو أحرزها لها أطباء كوس من أجل الدرس أو بدافع الفضول .

وإزاء هذه الفوارق فى الأشكال والمشتملات تتجلى للباحث الصعوبة البالغة ، أو بالأحرى الاستحالة ، التى تقوم دون تحرى أصالة كل نص . هل من المستطاع أن ينسب هذا النص أو ذاك إلى أبقراط ، أو إلى أحد أتباعه الأدنين أو الأباعد ؟ أو أن كاتبه أحد المغالطين المعنيين بأمر الطب ، أو أحد الفلاسفة الذين هم أقل احتفالاً بالطب منهم بالأفكار العامة ؟ وعما يتعلق بالناحية الأخيرة يثبت الطابع الخاص — كأن يكون أبيقورياً أو رواقياً — تأخر عهد التأليف . وهنا يغدو التحقق من صحة النسبة إلى المؤلف بالذات مسألة قليلة الخطر نسبياً . ذلك أن الذى يعنينا خاصة إنما هو تمييز المصنفات الأبقراطية من مصنفات المدارس الأخرى ، وترتيبها ، من ثم ، فى سياق تاريخى تدريجى . إن جانباً من هذه المصنفات قديم واضح القدم ، سابق للعهد الأبقراطى ، وبعضها يعود إلى العهد الأبقراطى والمدرسة الأبقراطية ، سواء أكان أبقراط بالذات هو واضعه أم كان سواه . والبعض الآخر متأخر عن العهد الأبقراطى ، لكنه مع ذلك استمرار للتعليم الأبقراطى . ومما يزيد المشكلة تعقيداً أن بعض المصنفات المتأخرة قد نسجت فى كيانه نواة تعليم قديم . ذلك أن الكثير من الكتب يشبه المبانى التاريخية التى بنيت أجزاؤها ثم رممت فى عهود مختلفة ، حتى ليكاد السؤال عن تاريخ بنائها يغدو بلا معنى ، إذ على الباحث أن يحقق ، قدر الإمكان ، تاريخ كل طبقة على حدة . ومع ذلك فالباحث الذى يجهد فى تعيين تاريخ كل واحدمن الكتب الأبقراطية لا يلبث أن يجد أن الظفر بحلول تامة دقيقة أمر بعيد المنال . وينبغى ألا نحاول المستحيل بل نبذل غاية الجهد ونقنع بذلك .

إن علماء اللغة يأملون أن يحلوا مثل هذه المعضلات عن طريق نقد النصوص ، أى عن طريق البحث اللغوى . إلا أن ذلك يعرض الباحث لشبهات مماثلة . إذ كيف السبيل إلى التثبت من أن اللغة التى بلغتنا هى لغة الأصل ؟ إن الحرص على استخراج كل الخصائص اللغوية التى يتميز بها نص ما ضرب من الغرور لدى المحدثين . وكان قدماء الناشرين (كالهيلينيين مثلا) أكثر

عناية بالمادة الطبية منهم بأسلوب التعبير[٤]، فلم يترددوا فى تجديده إذا ما خطر لهم ذلك . وغالب الظن أن فتور الهمة أو ازدياد العمل قعد بهم — ولحسن الحظ — عن أن يقدموا على ذلك ، وآثروا أن يحافظوا فى نسخهم ، قليلا أو كثيراً ، على النص الأصلى أخذا بأهون السبل .

وهنالك ظاهرة غريبة فى جميع النصوص الطبية القديمة ، وهى أنها كلها مكتوبة باللهجة الأيونية . وهذا أمر مدهش لأن جزيرة كوس (وكذلك كنيدوس) اجتاحتهما جيوش الدوريين Dorians وبسطت عليهما سلطانها ، ومع هذا بلغ الصيت الثقافى للمستعمرات الأيونية المجاورة حدا غدت معه اللهجة الأيونية رمزاً للعلم والنبل « والأناقة والكياسة » . ولنذكر أن هيرودوت الذى لم يكن أعرق فى نسبته الأيونية من أبقراط كتب هو الآخر باللهجة الأيونية ، وهذا مما يساعد الباحث ولو إلى مدى محدود ، لأن مجرد وجود الكتاب الطبى باللغة الأيونية لا يثبت ضرورة أنه تابع للعهد الأبقراطى ، لأن اللغة إذا اقترنت بموضوع ما درج استخدامها فى كل المؤلفات المتصلة به[٥] . على أن اللغة الأيونية التى دونت بها المصنفات الأبقراطية ليست واحدة ، بل هى فروع من الأيونية الأم ، ويكاد يكون ذلك شبيهاً باختلاف اللهجات فى مؤلفات هيرودوت ، لأن اللغة كانت بالنسبة إلى المؤلفين مصطنعة تختلف عن اللغة التى كانوا يتكلمون[٦] . والكتاب الذين كانوا يقيمون فى تلك الزاوية الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى خضعوا لمؤثرات كثيرة (دورية وكريتية وكارية وأيونية وأتيكية) بحيث غدت لهجتهم تقبل فى يسر مؤثرات وخصائص متنوعة .

الشروح الأولى

إن ما قام به الشراح الأولون سهل علينا درس المصنفات الأبقراطية ، ولكن لسوء الحظ أقدمهم إطلاقاً : وهو هيروفيلوس الخلقدونى Herophilos of Chalcedon (النصف الأول من القرن الثالث ق.م.) ، متأخر ، بل متأخر جداً بحيث لا يمكننا من التفريق بين مصنفات القرن الرابع وتلك التى تقدمتها فى

القرن السابق . هذا إلى أنه لم يكن شارحاً فحسب بل كان خبيراً فى علم التشريح ومن أعظم المشتغلين به فى التاريخ القديم . ويليه من الشراح اثنان من تلاميذه هما باخيوس التناجرى[٧] Bacchios of Tanagra وفيلينوس الكوسى[٨] Philinos of Cos أما باخيوس فقد نشر كتاب الأوبئة الثالث Epidemics III وعلق على ثلاثة من المصنفات الأبقراطية الأخرى ، وألف معجماً للألفاظ العويصة . وأما فيلينوس (ويعتبر مؤسس مدرسة الطب التجريبى) فقد قيل إنه وضع بعض الشروح الأبقراطية ، وألف ستة كتب عارض بها باخيوس . وغنى عن البيان أن تصفح الآراء المتباينة التى خلفها الشراح الأبقراطيون فى القرن الثالث من الأمور المفيدة ، لكن هذه النصوص ضاعت كلها .

واشتهر فى النصف الأول من القرن الأول ق.م . ثلاثة من الشراح البارزين هم هيرقليديس التارنتى Heraclides of Tarentum وجلوسياس التارنتى Glaucias of Tarentum وأبوللونيوس الكيتيونى Apollonios of Cition وفى القرن الأول للميلاد كان كلسوس Celsus (النصف الأول من القرن الأول)[٩] كثير الاعتماد على المصنفات الأبقراطية . وعمد ايروتيانوس (النصف الثانى من القرن الأول) وهيرودوت (النصف الثانى من القرن الأول)[١٠] ، وكلاهما من روما ، إلى وضع بعض الحواشى التوضيحية . وأهم الشراح القدماء وأوسعهم عملا هو جالينوس (النصف الثانى من القرن الثانى) . فقد وضع من الشروح على مؤلفات أبقراط ما قرن بين الاسمين . حتى غدا الكثيرون من العلماء (غير الواقفين على تاريخ الطب) يتحدثون عنهما معاً — أبقراط وجالينوس — كما لو كانا أخوين توأمين وكأنهما يمثلان عصراً واحداً ومدرسة واحدة . وهذا أمر فى غاية السخف لأنه يفصل بين الرجلين ستة قرون من الزمان . فقرب جالينوس من أبى الطب شبيه بقربنا نحن من أبى الشعر الإنجليزى — جيوفرى تشوسر Geoffrey Chaucer .

وبين المؤلفات التى وضعها جالينوس كتاب يبحث فى الصحيح والمتحول من كتب أبقراط ، De genuinis scriptis Hippocratis : وقد فقد ، وأشار إليه

حنين بن إسحق (النصف الثانى من القرن التاسع)[١١] فى فهرسه ، مقرراً أنه كانت لديه نسخة منه ، وأنه أعد له ترجمة وخلاصة بالسريانية خص بها عيسى بن يحيي ، ونقل هذه الترجمة السريانية إلى العربية ابنه اسحق بن حنين (النصف الثانى من القرن التاسع) وقدمها لعلى بن يحيي[١٢]، وعنوانها «كتاب فى كتب أبقراط الصحيحة وغير الصحيحة» ، والظفر بهذا الكتاب ونشر نصه العربى أو ترجمته أمر مرغوب فيه للغاية .

عرف باخيوس ثلاثة وعشرين مصنفاً تقريباً من المصنفات الأبقراطية ، وعرف منها إيروتيانوس تسعة وأربعين . ويشتمل الفهرس الملحق بطبعة ليتريه على سبعين . وإذا كان ما عرفه إيروتيانوس قد بلغ تسعة وأربعين ، ففى هذا ما يؤذن بأن زمانه عرف نوعاً من القانون الأبقراطى . ولعل كلمة « قانون » أقوى قليلا مما ينبغى أن نقول ، لأنه لا سبيل إلى قانون إلا إن كانت هنالك سلطة تتولى إصداره . والراجح أن المجموع الأبقراطى ، فى ذلك الزمن القديم ، لم يزد كثيراً عن مجموعة من المجلدات شبيهة بتلك المجموعات ذات الموضوع الواحد التى تنسق على أساسها بعض المكتبات . وقد عرف علماء البيزنطيين فى القرن السابع ، أو قبل ذلك بكثير[١٣]، بعض أمثال هذه المجموعات ، ثم ترجمت فيما بعد — كلها أو بعضها — إلى السريانية والعربية .

ولنعد الآن إلى التقاليد اليونانية ، وتستطيع المخطوطات أن تمدنا بأوثق المعلومات منها . لكن هذه المخطوطات تصعد لسوء الحظ ، إلى عصر متأخر ، ولا يتخطى شيء منها القرن العاشر . وتشتمل المخطوطات القديمة على قوائم للمصنفات الأبقراطية ، وأقدمها مخطوط فندوبنسيس Vindobensis med. IV من القرن العاشر ، وفيه اثنا عشر مصنفاً لاغير . ويشتمل مخطوط ماركيانوس فنيتوس Marcianus Venetus 269 فى القرن الحادى عشر على ثمانية وخمسين . ويصعد مخطوط فاتيكانوس جرايكوس Vaticanus Graecus 276, فى القرن الثانى عشر إلى اثنين وستين[١٤] .

النسخ المطبوعة

كان أول ما طبع من مؤلفات أبقراط ترجمات لاتينية لبعض مقالاته المتفرقة ، أو بحوثه القليلة . وخير مثل لذلك طبعات أرتسيلا Articella (١٤٧٦– ١٥٠٠)[١٥] . وهناك طبعات قديمة أخرى ، ارجع فيها إلى مقال كلبس Klebs وما أثبتناه فى تعليقاتنا هنا . وبالجملة مصنفات أبقراط هى أشهر المطبوعات العلمية القديمة ، لأنه كان ثالث ثلاثة اشتهروا بين المؤلفين القدامى ، وأولهم وثانيهم – وهما أسبق منه بشوط بعيد – البير الكبير وأرسطو[١٦].

وأول نشر عام لمؤلفات أبقراط هو تلك الطبعة اللاتينية التى أعدها فابيوس كالفوس Fabius Calvus (٧٢٣ ص ، روما ١٥٢٥) ، والطبعة اليونانية التى أخرجتها مؤسسة ألدين Greek Aldine (٢٣٣ ص ، البندقية ١٥٢٦) ، وكلتاهما على أوراق ذات قطع كبير ، folio volumes والثانية هى الطبعة الأولى الحقيقية (شكل ٧٠) وهذه هى الحلقة الأولى لسلسلة طويلة من النشر . وأهم الطبعات القديمة الطبعة اليونانية الثانية التى أعدها جانوس كروناريوس Janus Cornarius (بال ١٥٣٨) (شكل ٧١) ، واليونانية – اللاتينية التى أخرجها أنيوس فوس Anuce Foes (على أوراق كبيرة القطع folio فرانكفورت ١٥٩٥ ، وقد تكرر طبعها مرات كثيرة) على أن يرجع عند استعمالها إلى معجم فوس Oeconomia Hippocratis alphabeti serie distincta ، (على أوراق كبيرة القطع folio ، فرانكفورت ١٥٨٨) (شكل ٧٢) ، واليونانية اللاتينية التى قام بها جوان أنطونيوس فان درلندن Joan. Antonides Van der Linden (مجلدان من قطع الثمن octavo ، ليدن ١٦٦٥)[١٧]. ويكفى أن نذكر من بين ما نشر أخيراً الطبعة اليونانية الفرنسية التى أعدها ليتريه E. Littré (عشرة مجلدات ، باريس ١٨٣٩ – ١٨٦١) (شكل ٧٣) ، والطبعة اليونانية التى أخرجها فرانسيسكوس زخارياس أرمرنس Franciscus Zacharias Ermerins (ثلاثة مجلدات ، أوترخت ١٨٥٩ – ١٨٦٤) ، والطبعة اليونانية لهيجو كوليڤاين Hugo Kuhlewein (مجلدان ، ١٨٩٤ – ١٩٠٢)

إن مجموع مؤلفات الطب اليونانى Corpus medicorum graecorum الذى ترعاه الأكاديميات الألمانية يضم ، ولا عجب ، المؤلفات الأبقراطية ، ولم يظهر منها إلا قسم واحد يشتمل على اثنى عشر كتاباً حررها هرمان ديلز Hermann Diels وج.ل. هايبرج J.L. Heiberg ، المجلد الأول القسم الأول (١٥٨ ص . ليبزج ١٩٢٧)[١٨]. وهذا المجموع يلتزم ترقيم صفحات طبعة ليتريه ، وفى ذلك اعتراف لها بفضل عظيم .

والترجمتان الإنجليزيتان البارزتان تمت أولاهما على يد فرانسيس ادمز Francis Adams (فى مجلدين ، لندن جمعية سيدنهام ، ١٨٤٩) ، والثانية ، وهى أحدث ، على يد و. هـ. س. جونز W.H.S. Jones أ . ت . ويتنجتون E.T. Withington (فى أربعة مجلدات ؟ مكتبة لويب للآداب القديمة ، ١٩٢٣ — ١٩٣١) ، التى سبق لنا أن أشرنا إليها .

وخلاصة القول أن ليس هنالك قانون أبقراطى ، بل جل ما عندنا مجموعات من المؤلفات تختلف مشتملاتها بين مخطوط وآخر ، وبين طبعة وسواها . وينبغى أن يناقش حظ هذه المؤلفات من الصحة على انفراد ، وليس من بينها ماهو موثوق به قطعاً ، بل كثير منها بلاريب منحول ، ودرجة صحة نسبتها إلى مؤلفها تختلف من الصغر إلى ما يقرب من مائة فى المائة .

وعندما عرضنا لرجال أمثال هيرودوت وثوكيديديس ممن لم يخلف أحدهم سوى كتاب واحد ، كان كل ما أوردناه من أحكام عامة منطبقاً ضرورة على ذلك الكتاب بالذات . أما فيما يتعلق بأبقراط فالأمر مختلف كل الاختلاف . إن الكتب المنسوبة إليه أو إلى مدرسته ، حقًّا أو باطلا ، كثيرة جداً . وهذه الكتب تختلف من وجوه كثيرة بحيث يصبح لزاماً علينا أن نبحثها واحداً بعد الآخر ، وليس فى وسعنا أن نبحثها جميعاً لأن ذلك أمر يطول ، وغير ضرورى ، وسنبحث ثلاثين منها فقط ، وفى وسع القارئ الذى يتابعنى فى تحليلى الموجز أن يكون به لنفسه عن هذا المجموع الأبقراطى فكرة أصح مما قد يتيسر له عن طريق العرض الإجمالى .

ἍΠΑΝΤΑ ΤᾺ ΤΟΥ͂ ἹΠΠΟΚΡΆΤΟΥΣ.

OMNIA OPERA HIPPOCRATIS.





Ne quis alius impune, aut Venetiis, aut usquam locorum hos Hippocratis libros imprimat, & Clementis VII. Pont. Max. & Senatus Veneti decreto cautum est.

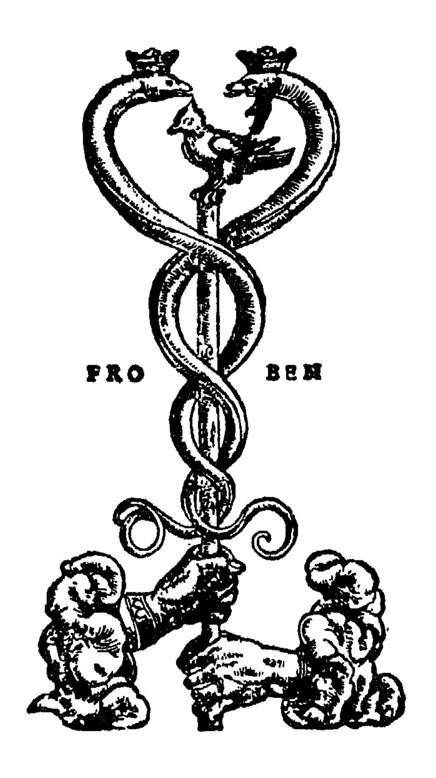
(الشكل ٧٠) – صفحة عنوان الكتاب فى صدر الجزء الأول من الأصل اليونانى لكتاب Omnia opera Hipporatis وهو يشتمل على النص اليونانى لتسعة وخمسين من المصنفات الأبقراطية غير مقرونة بالترجمة اللاتينية .

حرره فرانسيسكوس اسولانوس Franciscus Asulanus وطبعته مؤسسة ألدين الزاهرة لصاحبها الدوس وأندرياس اسولانوس Aldo Manuzio-Andrea Torresani of Asola فى البندقية ١٥٢٦ .

وتبدأ هذه الطبعة الأنيقة ذات القطع الكبير folio volume برسالة موجهة من كليمان السابع (جوليو دى مديشى Guilio de' Medici البابا من ١٥٢٣ إلى ١٥٣٤) إلى أبناء اندريا الطورسانى وورثة الدومانوزيو (١٤٤٩ – ١٥١٥) (نقلا عن نسخة مكتبة كلية هارفرد) .

ΙΠΠΟΚΡΑΤΟΥΣ
ΚΩΟΥ ΙΑΤΡΟΥ ΠΑΛΑΙΟΤΑ-
του, πάντων ἄλλων κορυφαίου, βι-
βλία ἅπαντα.

HIPPOCRATIS COI MEDICI
VETVSTISSIMI, ET OMNIVM ALIORVM PRIN-
cipis, libri omnes, ad uetustos Codices summo
studio collati & restaurati.



BASILEAE
M D XXXVIII

الشكل (٧) — صفحة العنوان فى صدر الطبعة اليونانية الثانية (على أوراق ذات قطع كبير) Folio لصنفات أبقراط بعناية جانوس كورناريوس Janus Cornarius وقد طبعها فروبنيوس Frobenius فى بال ١٥٣٨ . ولقد كان الإنسانيون ببال فى مزاحمة دائمة مع منافسيهم من أعلام البندقية (نقلا عن نسخة مكتبة كلية هارفارد) .

ولا داعى لأن نعلق أهمية كبرى على السياق الذى نسلكه فى مناقشتها ، لأن السياق التاريخى وهو أقرب الأمور إلى طبيعة الأشياء متعذر . فإن بعض هذه المصنفات ، فى الراجح ، يسبق زمن أبقراط مثل كتاب De hebdomadibus (انظر حـ ١ ص٤٣٨) و Coan prenotions (Praedicta,) Prorrhetic ، ومشتملات « القسم » Oath . وسنلم بثلاثين مصنفاً موزعة بوجه عام على النحو التالى : ١ — ٦ ، المؤلفات الطبية الرئيسية ، ٧ — ١١ ، المؤلفات الجراحية ، ١٢ — ٢٠ ، المباحث والمؤلفات الفلسفية الطبية ، ٢١ — ٢٤ الحكم ، ٢٥ — ٢٩ الواجبات الطبية : ٣٠ الرسائل .

المؤلفات الطبية الرئيسية[١٩]

١ — كتاب « المرض المقدس » (الصرع)[٢٠] : De morbo sacro; Peri hicres nosu

ليس هذا الكتاب ، على أى وجه ، أشهر المصنفات الأبقراطية ، لكنه من أبرزها فى نظر مؤرخى علم الطب . ونسبته إلى أبقراط فى الراجح صحيحة ، ويرجع تاريخه بيقين إلى العهد الأبقراطى . و « المرض المقدس » هو الصرع (الانهيار العصبى) ؛ ولكن الكتاب يعالج أيضاً أنواعاً من النوبات العصبية والأمراض العقلية . يبدأ هذا الداء ، على ما يظن ، فى الدماغ ، والسبب المباشر لحدوث النوبة هو احتباس الهواء فى الأوعية الدموية بسبب بلغم يأتى من الرأس . والمظنون أن هذا التعليل مقتبس عن معاصر لأبقراط هو ديوجينيس الأبولونى Diogenes of Applonia . فالدماغ (وليس القلب أو الحجاب الحاجز) هو الذى اعتبر مركزاً للوعى الوجدانى ، وربما يكون هذا مأخوذاً عن الكمايون Alcmaion (القرن السادس ق. م.) ، وقد قبله أفلاطون ، ورفضه أرسطو (ورفضه هذا من أسوأ أخطائه) وتبعاً لذلك تطلب زمناً طويلا لكشفه مرة أخرى .

وأعجب ما فى هذا الكتاب رفضه الاسم الذى طالما أطلق على داء الصرع وهو « المرض المقدس » . إذ ليس ثمة ، فيما يدعى أبقراط[٢١] ، نوعان من

OECONOMIA

HIPPOCRATIS,

ALPHABETI SE-
RIE DISTINCTA.

IN QVA DICTIONVM APVD HIPpocratem omnium, præsertim obscuriorum, vsus explicatur, & velut ex amplissimo penu depromitur: ita vt LEXICON HIPPOCRATEVM *merito dici possit.*

ANVTIO FOESIO MEDIOMATRICO
MEDICO, AVTHORE.



FRANCOFVRDI,
Apud Andreæ Wecheli heredes,
Claudium Marnium, & Io. Aubrium,
ANNO S. MDLXXXVIII.
Cum Priuilegio S. Cæsareæ Maiestatis.

الشكل ٧٢ — صفحة العنوان فى صدر دائرة المعارف والمعجم الأبقراطى . وضعه انيوس فويس من متز Anuce Foes of Metz (١٥٢٨ — ١٥٩٥) ، وهو أثر خالد من آثار المعارف الطبية اليونانية ، ولا يزال أداة صالحة لدرس الطب اليونانى (طبع على أوراق ذات قطع كبير ٣٣ سم ، ٧٠٠ ص بحرف صغير فى عمودين ، فرانكفورت ١٥٨٨) . وبالرغم من حجمه هذا فقد طبع ثانية فى جنيف ١٦٦٢ (نقلا عن نسخة مكتبة كلية هارفارد) .

OEUVRES

COMPLÈTES

D'HIPPOCRATE,

TRADUCTION NOUVELLE

AVEC LE TEXTE GREC EN REGARD,

COLLATIONNÉ SUR LES MANUSCRITS ET TOUTES LES ÉDITIONS;

ACCOMPAGNÉE D'UNE INTRODUCTION,

DE COMMENTAIRES MÉDICAUX, DE VARIANTES ET DE NOTES PHILOLOGIQUES;

Suivie d'une table générale des matières.

PAR É. LITTRÉ.

Τοῖς τῶν παλαιῶν ἀνδρῶν
ὁμιλῆσαι γράμμασι.
GAL.

TOME PREMIER

A PARIS,

CHEZ J. B. BAILLIERE,
LIBRAIRE DE L'ACADEMIE ROYALE DE MÉDECINE,
RUE DE L'ÉCOLE DE MÉDECINE, 17;
A LONDRES, CHEZ H. BAILLIÉRE, 219 REGENT-STREET

1839.

الشكل ٧٣ — صفحة العنوان فى صدر المجلد الأول من طبعة ليتريه اليونانية — الفرنسية للمصنفات الأبقراطية (عشرة مجلدات ، باريس ١٨٣٩ — ١٨٦١) (نقلا عن نسخة مكتبة كلية هارفارد) .

الأمراض : طبيعي ومقدس ، أو إنسانى وإلهى ، بل إن جميع الأمراض طبيعية ، وهى بجميعها ، على اعتبارما ، إلهية . وها هى ذى عبارته الغريبة بنصها :

« هأنذا أبدأ ببحث المرض المعروف « بالمقدس » . وليس هو ، فى رأيى ، أعرق فى الألوهية أو القداسة من سواه من الأمراض ، بل له سبب طبيعى . وألوهية أصله المزعومة مردها إلى جهل الناس واستغرابهم لطبائعه الخاصة . وبينما يستمر الناس فى الاعتقاد بأصله الإلهى لعجزهم عن إدراك خفاياه ، تراهم يفندون طابعه الإلهى باستخدام الوسائل المألوفة فى معالجته وهى التى تعتمد ، فيما تعتمد ، على وسائل التطهر وأساليب الرقى والعزائم . وإذا كان الذى يوجب اعتباره إلهيًّا مجرد غرابة أمره ، لم يكن هنالك مرض إلهى واحد بل جملة أمراض . وهأنذا أوضح أن هنالك أمراضاً أخرى لا تقل عن هذا المرض غرابة وهولا ، ومع ذلك لم يعتبرها أحد مقدسة . مثال ذلك أن الحميات اليومية ، وحميات الثلث والربع ، ليست، فيما يبدو لى ، أقل قداسة من ذلك المرض ، ولا أبعد منه احتمالا عن أن تكون بقضاء إلهى . لكن أحداً لم يعجب لأمرها . ونجد بعض الناس فى حال من البله والشرود لا نعرف لها سبباً ظاهراً ، ويأتون أموراً مستغربة ، فكثيرون منهم ، فيما أعلم ، يئنون ويصيحون ، وآخرون يشرقون ويختنقون ، وسواهم يثبون ويندفعون إلى الخارج وهم ساهون إلى أن يستعيدوا وعيهم . وعندها يعودون إلى ما كانوا عليه أولا من العافية والوعى ، لولا ما يعلو محياهم من صفرة ، وما ينتاب أجسامهم من إعياء . ويحدث لهم هذا مرات عديدة لا مرة واحدة . وفى استطاعتنا أن نورد على ذلك أمثلة عديدة مختلفة الأنواع ، ولكن الوقت يضيق بنا عن أن نتحدث عن كل منها على حدة .

« ويبدو لى أن الذين نسبوا فى البداية إلى هذا المرض طابعاً قدسيًّا كانوا أشبه بالسحرة والمطهرين والمشعوذين والدجالين فى أيامنا هذه — أولئك الذين يظهرون التقى البالغ ويدعون المعرفة الخارقة . وإذا أخذتهم الحيرة فى شأن هذا المرض ، وعزّ لديهم العلاج الشافى تستّروا بالخزعبلات وسموه « بالمرض المقدس »

كيلا يفتضح جهلهم المطبق[٢٢]»

أما العلم بأنسجة الأوعية الدموية فضعيف للغاية . ولئن كانت هنالك ملاحظات إكلينيكية صالحة فإن بيان الصرع غير واف بالغرض .ومع هذا ما أجدرنا أن نتسامح فى ذلك ، لأنا حتى الآن — على الرغم من كل ما ندعيه من التفوق فى أساليب البحث عن وصف موجات الدماغ الكهربية — (electroencephalography), لم نظفر بإيضاح « المرض المقدس » ، ولا نحن قادرون بعد على أن نشفى ضحاياه أو نمدهم بمساعدة مجدية .

قلما ينسى الإنسان انطباعاته الأولى ، وهذه الرسالة هى أول رسالة علمية يونانية قرأتها ، وقد أثرت فى روحها الحية تأثيراً عميقاً وأعدتنى لأكون مؤرخاً للعلم — قرأت هذا النص مع زملائى فى جامعة جنت Ghent ، فى الطبعة (الجزئية) التى نشرها فيلاموفتز Wilamowitz فى كتابه Griechisches Lesebuch بإرشاد جوزيف بيدز Joseph Bidez وتوجيهه الحكيم[٢٣] .

٢ — كتاب الإنذار المرضى[٢٤] : Prognostic; Prognostica sive praenotiones; Prognosticon.

هذا الكتاب منسوب تقليديًّا إلى أبقراط بلا مخالف . وقد وصف فيه نشوء الأمراض الحادة وتطورها لكى يتمكن الطبيب من أن يتكهن عن هذا التطور عند ابتدائه . واستمر هذا الكتاب متداولا حتى منتصف القرن السابع عشر ، وهو موجود فى عدد كبير من المخطوطات والطبعات فى لغات كثيرة .

ظهرت طبعات الترجمة اللاتينية لهذا الكتاب فى عهد بالغ القدم ، وذلك فى جملة الطبعات الست لكتاب Articella (١٤٧٦ إلى ١٥٠٠) ، ثم طبعه على حدة هنرى إتين Henri Estienne (باريس ١٥١٦) . ولست واثقاً من أن الطبعة اللاتينية — الألمانية لكتاب Prognostica Ypocratis cum aliis notatis (ميمنجن ١٤٩٦ ، كليبس ٥٢١) ليست هذا النص بالذات .

وقد جاء فى الفصل الأول منه :

« أعتقد أن من خير الأمور للطبيب أن يتمرن على التكهن . لأنه إن

اكتشف الشيء : ماضيه وحاضره وآتيه ، ثم أعلنه غير مستعين بمرضاه ، واستخدم ذلك فى سد الفجوات الباقية فيما يقرره المريض ، كانت ثقة الناس بإدراكه لحالات المرض أشد، فاطمأنوا إليه واستسلموا لمعالجته . ويصبح أوفر نجاحاً فى استئناف العلاج إن عرف مقدماً ، من ملاحظة الأعراض الحاضرة، ما الذى سيحدث بعد حين . وغنى عن البيان أن رد العافية إلى كل مريض أمر متعذر . ولو صح ذلك لكان بلاريب خيراً من استطلاع الغيب . والواقع أن الناس يموتون : بعضهم لاشتداد المرض بهم قبل استدعاء الطبيب، والبعض الآخر على أثر استدعائه — ولا تمتد حياته إلا يوماً أو أكثر — قبل أن يتمكن الطبيب من التذرع بعلمه لمقاومة المرض أيا كان نوعه فينبغى للطبيب والحالة هذه أن يعرف طبائع هذه الأمراض ، وإلى أى مدى تتجاوز قدرة الجسم البشرى على المقاومة . وأن يتعلم كيف يتكهن بها . وبهذه الطريق يتمكن من أن يحرز بحق كل احترام ، وأن يغدو طبيباً ماهراً . واعلم أنه على نسبة طول الوقت الموقوف لمعالجة حالة من الحالات المرضية تكون قدرتك على شفاء أولئك الذين يؤمل شفاؤهم . وفى الوقت نفسه يرتفع عنك اللوم متى علمت وأعلنت مقدماً عن المرضى الذين يخشى موتهم، وأولئك الذين يرجى امتثالهم للعافية .

أما العبارة الأخيرة فيبدو أنها أثبتت معارضة للأطباء الكنيديين وهى : « لا تأسف لحذف أسماء بعض الأمراض من بيانى هذا . لأنك إنما تعلم أنواع الأمراض بالأعراض ذاتها فى جميع الحالات ، متى بلغت منتهى حدتها فى الأوقات التى عينتها .

٣ — كتاب التدبير الصحى فى الأمراض الحادة[٢٥] Regimen in acute diseases; De diaeta (or De ratione victus in acutis); Peri diaites oxeon nosematon.

إن صحة نسبة هذا البحث لم تكن يوماً موضعاً للشك . وهو شبه ملحق لكتاب الإنذار المرضى . والأمراض الحادة التى تناولها البحث، والتى تتميز بحرارة عالية هى العلل الصدرية والملاريا المتقطعة . وعلاجها الخاص خفيف للغاية ،

لكنه مقرون بنظام غذائى صارم (كما يبدو ذلك فى عنوان الكتاب) . فأبقراط يشير بالاقتصار على خبيص الشعير أو نقيعه ، والمنبهات ا لحارة ، والحمامات ، والتدليك ، وأنواع من الخمور ، وشراب العسل ، وهكذا . . . ولا يشير إلا بالقليل النادر من الأدوية[٢٦].

« إننى لأطرى شديد الإطراء ذلك الطبيب الذى يظهر تفوقاً ما ، لدى معالجة الأمراض الحادة التى تذهب بحياة الكثرة المطلقة من المصابين . والأمراض الحادة هى تلك التى أطلق عليها القدماء أسماء : ذات الجنب ، وذات الرئة ، والتهاب السحايا ، والحمى الخبيثة ، وما جرى مجراها من ذوات الحرارة التى يغلب فيها الاستمرار . ذلك لأنه إذا لم يكن هنالك وباء كاسح ، وقعت أمراض متفرقة ، ثم ظهرت أمراض حادة فإنها تسبب من الوفيات عدة أضعاف ما تسببه سائر الأمراض الأخرى مجتمعة[٢٧] » .

إن النص اللاتينى لهذا البحث موجود فى طبعات Articella القديمة ، وعددها ستة (قبل سنة ١٤٧٦ حتى ١٥٠٠ ، كلبس ١١٦) . وأول طبعة مستقلة للأصل اليونانى هى التى حققها هالر Haller (باريس ١٥٣٠) . وهنالك طبعات عديدة أخرى أكثرها باللاتينية .

ولقد عرف هذا المؤلف بأسماء أخرى منها : « نقيع الشعير »(De ptisana) نظراً للأهمية المعلقة على نقيع الشعير ، ومنها « تسفيه الأحكام الكنيدية » ، لما فى الفصول الثلاثة الأولى من نقد موجه إلى تعاليم الكنيديين .

٤ — كتاب « المقدمات التمهيدية » الثانى[٢٨] Prorrhetic II; Praedicta II

Prorrheticon b نذكر هذا الكتاب هنا مع أن قدماء النقاد أمثال أروتيانوس وجالينوس لم يعتبروه صحيح النسبة ، وظاهره كله يدل على أنه يعود إلى العهد الأبقراطى الباكر . نذكره لأنه من بعض الوجوه ، صالح للمقابلة بكتاب « التدبير الصحى فى الأمراض الحادة » ، ومن الجائز أن يطلق عليه عنوان « التدبير الصحى فى الأمراض المزمنة » .

ويختلف هذا الكتاب جداً عن كتاب « المقدمات التمهيدية » الأول الذى

هو مجموع مائة وسبعين حكمة طبية . أما « التمهيد الثانى » الذى نحن بصدده فيقسم إلى ثلاثة وأربعين فصلا بعضها طويل نوعاً . ويشتمل على عدد وافر من الملاحظات الطبية وتصريحين غريبين . فى الفصل الثالث نقرأ : « إن لمس الطبيب لبطن المريض وعروقه يجعله أبعد عن الانخداع منه لو لم يلمسهما » . وهذه ، ولا شك ، إشارة إلى النبضان . والأطباء الأبقراطيين لم يعرفوا كثيراً عن النبض، وإن لاحظوه (وكيف يمكن أن يكونوا قد غفلوا عن ملاحظته ؟) . وفى الفصل السابع عشر إشارة إلى علقة كانت كامنة فى حلق أحدهم فاعتبرت مسببة للنزيف . ولم يستخدم الأطباء الأبقراطيون العلق ، وإن عرفوا الضرر الذى قد ينجم عنه عرضاً . وهذه ملاحظة صادقة فى بلد يكثر فيه هذا الحيوان[٢٩] .

٥ — كتابا الأوبئة الأول والثالث [٣٠] Epidemics I and III; Epidemiorum libri I et III; Epidemion biblia a', g'. إن هذا الكتاب لمن روائع المؤلفات العلمية اليونانية . وإن كان غير محكم الصياغة لأن مؤلفه لم يعن جديًّا بتهذيب عباراته . وهو جمهرة من « الأنظمة الصحية » ومجموعة خاصة من القصص الإكلينيكية . وتصف هذه « الأنظمة » ملابسات المناخ وأحوال المرض العامة فى مواضع معينة ، وتتعلق ثلاثة منها بجزيرة تاسوس Thasos . تلك التى لا مفر لنا من افتراض أن المؤلف (أبقراط) ؟ كان يعرفها جيداً . أما الحوادث الإكلينيكية فعددها اثنتان وأربعون ، انتهت خمس وعشرون منها بالوفاة .

وتتميز هذه الملاحظات الطبية بطابع علمى ولهجة رصينة تثير الإعجاب وهاك بضعة نماذج منها :

كتاب الأوبئة الأول — النظام الأول : Epidemics I . وهو وصف لوباء التهاب الغدد النكفية (أبو كعيب) . والطريف فى هذا الوصف أنه يعتبر التهاب الخصية أحد المضاعفات التى قد تتخلف عن التهاب الغدد النكفية (التكعيب) . (Orchitis parotidea)

فى جزيرة تاسوس ، أثناء فصل الخريف ، وحوالى الزمن الذى يقرب

فيه الاعتدال الشمسى من غروب الثريا ، يسقط مطر كثير خفيف ؛ متواصل ترافقه رياح تهب من الجنوب . وفى فصل الشتاء تهب رياح من الجنوب ، والرياح الشمالية خفيفة مع شيء من الجفاف ، والشتاء بوجه العموم أشبه بفصل الربيع . والربيع كذلك ذو رياح جنوبية قارسة والمطر ينهمر فى دفعات خفيفة . أما الصيف فغائم بوجه الإجمال ، وهو خال من المطر ؛ رياحه الموسمية قليلة ، وخفيفة غير منتظمة .

فالطقس على العموم جنوبى تتخلله موجات من الجفاف ؛ والأمر بالعكس فى أوائل الربيع كما اتضح من « النظام » السابق ، فهو شمالى المناخ ، وقليلون من المرضى هم الذين شكوا من حميات حادة ، بل كانت حرارتهم خفيفة جداً ، بحيث أدت فى حالات قليلة إلى نزيف ، ودون وفاة . وكثيرون منهم أصيبوا بتورم بجانب الأذن أو الأذنين ، ولم يصاحب ذلك ، فى الغالب ارتفاع فى الحرارة ، فلم يكن بهم حاجة إلى ملازمة الفراش . اقترنت بعض الحالات بشيء من الحرارة الخفيفة ، وزال الورم فيها جميعاً دون أن يسبب ضرراً ما . ولم يصاحب هذه الحالات ما يصاحب الأورام عادة من التقيح . وتمتاز هذه الأورام بأنها مسترخية ، كبيرة منتشرة ، لا يصحبها التهاب ولا ألم ، واختفت فى جميع الحالات دون أن تترك أثراً . وكان المصابون أحداثاً وشباناً ورجالا فى مقتبل العمر ، ومعظمهم من أولئك الذين ترددوا على مدرسة المصارعة ؛ وزاولوا الألعاب الجمنازية . ولم يصب بذلك من النساء إلا عدد قليل . وأصيب كثير من المرضى بسعال جاف . لا بلغم فيه ، وإنما يخشن الصوت ؛ ويترتب على ذلك أحياناً التهاب مؤلم فى خصية واحدة ، أو فى الاثنتين ، ومصحوب بحرارة فى بعض الأحوال ، وقد يؤدى إلى أوجاع شديدة ، وفيما عدا ذلك ليس ثمة ما يستدعى الإسعاف الطبى .

كتاب الأوبئة الأول ـــ خاتمة النظام الثانى

إن الآلام التى تحدث حول الرأس والعنق ، والثقل المصحوب بالألم قد يقترن بارتفاع درجة الحرارة . والمصابون بالتهاب سحائى (phrenitis) يحدث

لهم تشنج ينفثون معه قيئاً جنزاري اللون ، ويموت بعضهم فى الحال . وفى الحمى الحادة والحميات الأخرى ، يصاب بنزيف من الأنف من يعانون ألماً فى العنق وثقلا فى الصدغين وقصراً فى البصر وتوتراً غير مؤلم فى منطقتى الشراسيف اليمنى واليسرى ، ومن يشكون من ثقل عام فى الرأس ، وحرقة فى القلب ، وجيشان فى النفس يتقيأون بعد ذلك الصفراء والبلغم . ويغلب على الأولاد أن يصابوا ، فى مثل هذه الحالات ، بالتشنج ، فى حين تصاب النساء بهذين العرضين وبآلام فى الرحم . والمسنون ، الذين أخذت حرارتهم الطبيعية فى الجمود ، يصابون بالشلل أو البله أو العمى[٣١]. ويختم المؤلف كتاب الأوبئة الأول بإيراد أربع عشرة حالة إكلينيكية نثبت منها هنا الحالة الثانية فى تفصيل :

كان سيلنوس (Silenus) يقيم فى الشارع العريض بجوار يوالسيداس (Eualcidas)، وقد أصيب بحمى على أثر الإجهاد وإدمان الشرب وممارسة الرياضة فى غير الوقت الملائم . بدأ يشعر أولا بألم فى الخاصرة مصحوب بثقل فى الرأس وصلابة فى العنق . وفى اليوم الأول ألقت الأمعاء بمقدار وافر من الصفراء الخالية من العناصر الغريبة فاقعة اللون وافرة الزبد ، والبول أسود ، فيه رواسب سوداء ، ويصحب ذلك عطش وجفاف فى اللسان ، وسهاد فى الليل .

اليوم الثانى : الحمى حادة والغائط أوفر مقداراً وأقل كثافة وفيه مخاط وزبد ، والبول أسود ، والليلة مزعجة يتخللها شرود طفيف .

اليوم الثالث : هياج عام ، انكماش مستطيل فى منطقة الشراسيف ، ارتخاء فيما دون ذلك ممتد على الجانبين حتى السرة ، الغائط مائع وقاتم ، البول معتكر وقاتم ، سهاد فى الليل ، شرود كثير ، ضحك وغناء ، عجز عن ضبط النفس .

اليوم الرابع : الأعراض نفسها .

اليوم الخامس : الغائط خال من العناصر الغريبة ، صفراوى أملس ودبق كالدهن . البول رقيق شفاف ، فترات من الوعى .

اليوم السادس : عرق طفيف حول الرأس ؛ الأطراف باردة ولونها ضارب إلى الزرقة ، تقلب كثير ، الأمعاء لم تفرز شيئاً ، البول محتبس ، الحمى حادة .

اليوم السابع : انقطاع عن الكلام ، الأطراف لا يعود إليها الدفء : البول لا يجرى .

اليوم الثامن : عرق بارد يجلل الرأس ، بقع حمراء يعلوها العرق ، وهى صغيرة مستديرة كأنها حب الصبا ، استمرار ظهورها دون أن تخمد ، تفرز الأمعاء ، على أثر ملين خفيف ، مقداراً كبيراً من غائط صلب رقيق غير مهضوم مصحوب بالألم . البول مؤلم ومهيج ، الأطراف تستعيد شيئاً من الدفء، النوم متقطع ، غياب عن الوعى ، انقطاع عن الكلام ، البول رقيق شفاف .

اليوم التاسع : الأعراض نفسها .

اليوم العاشر : توقف عن الشرب ، غيبوبة ، نوم متقطع ، الغائط كما هو ، دفعة غزيرة من بول كثيف ترك بعد الاستقرار راسباً طحينيًّا أبيض . تعود الأطراف فتبرد .

اليوم الحادى عشر : الوفاة .

كانت حركة التنفس فى هذه الحال ، من أول الأمر ، بطيئة والتنفس عميقاً ، وكان النبض فى منطقة الشراسيف متواصلا . وعمر المريض حوالى عشرين سنة .

كتاب الأوبئة الأول — الحال السادسة .

كان كليناكتيدس (Cleanactides) طريح الفراش فوق معبد هيراكليس Heracles ، وداهمته حرارة غير منتظمة . شعر أولا بآلام فى الرأس والجانب الأيسر ، وأحس فى سائر جسمه بألم شبيه بالألم الذى يسببه العياء الشديد . ولم تكن وطأة الحرارة بنسبة واحدة . ولا مستمرة على نحو منتظم ؛ ويصحبها العرق فى أوقات دون أخرى . وهذه الوطأة فى الغالب على أشدها فى أيام المرض الحرجة .

حوالى اليوم الرابع والعشرين : ألم فى اليدين ، نوبات متكررة متقاربة من القىء الصفراوى الذى لا يلبث أن يتحول إلى جنزارى ، انتعاش عام .

حوالى اليوم الثلاثين . بدأ رعاف من كلا المنخرين ، واستمر ضعيفاً

متقطعاً حتى بلغت أزمة المرض أوج حدتها. لم يعان المريض فى هذه الأثناء عطشاً، ولا شكا من فقدان الشهية ولا من قلة النوم . البول رقيق وغير خال من لون ما .

حوالى اليوم الأربعين : البول ضارب إلى الحمرة مصحوب براسب وافر أحمر . تحسن فى حالة المريض ، ثم تبدل فى حالة البول فيظهر فيه أحياناً شيء من الرواسب .

اليوم الستون : ترك البول مقداراً كبيراً من الرواسب البيضاء الناعمة ، تحسن عام ، الحرارة متقطعة ، البول يعود رقيقاً لكن لونه مرضى .

اليوم السبعون : تعود الحرارة بعد أن توقفت عشرة أيام .

اليوم الثمانون : دور برد ، نوبة حمى حادة ، عرق غزير ، راسب فى البول أحمر . ناعم . أزمة خطيرة . . .

كتاب الأوبئة الأول : الحال الحادية عشرة .

وضعت زوجة درومیادس Dromeades ، طفلة ، وجرت الأمور فى مجراها الطبيعى ، ثم أصيبت ببرد وحمى حادة . وبدأت تشعر فى اليوم الأول بألم فى منطقة الشراسيف وأحست بغثيان فى النفس وأخذتها الرجفة واستولى عليها الاضطراب . وفى الأيام التالية امتنع عليها النوم ، حركة التنفس بطيئة ، والنفس عميق يتوقف فجأة كأنما يعترضه شهيق .

اليوم الثانى منذ بدء البرودة . تقوم الأمعاء بوظيفتها خير قيام ، البول كثيف أبيض معتكر ، شبيه بالبول الذى حرك بعد أن ترك يستقر ويترسب مدة طويلة ، فلم يرسب ، امتناع النوم ليلا .

اليوم الثالث : دور برد حوالى الظهر ، حمى حادة ، البول كما كان ، ألم فى منطقة الشراسيف ، غثيان ، ليلة قلقة بلا نوم ، عرق بارد يجلل الجسم ، ثم لم تلبث المريضة أن استعادت الدفء .

اليوم الرابع : تلطف الألم حول الشراسيف ، ثقل مؤلم فى الرأس ، شرود طفيف ، رعاف قليل ، جفاف فى اللسان وعطش ، البول شحيح رقيق ذو مادة زيتية ، النوم غفلات متباعدة .

اليوم الخامس : عطش ورعاف ، البول كما كان سابقاً ، الأمعاء لم تقذف بشيء ، حوالى منتصف النهار هذيان كثير تلاه على الأثر فترات من الوعى . نهضت ثم عاودها شيء من الشرود . دور برد طفيف ، استسلمت للرقاد ليلا عاودها الهذيان .

اليوم السادس : أصابها فى الصباح دور برد ، ولكن سرعان ما استرجعت حرارتها . جلل العرق جسمها . برودة فى الأطراف ، نوبة هذيان ، التنفس عميق وبطيء ، وبعد فترة أصيبت بتشنج ابتدأ من الرأس ، وجاءت الوفاة على الأثر .

بيّن أن هذا الكتاب لم يكن معدًّا للنشر وإننا لنشك فى أنه وضع أصلا من أجل أن ينشر ، أو من أجل أن يعتمد خارج المدرسة الطبية . من المحتمل أن يكون أبقراط وضعه لاستعماله الخاص ، اللهمّ إلا أن هذه العناية فى التأليف تجاوز هذا الغرض .

أما نظريته فى الأمزجة فقد ألمع إليها فى كتاب الأوبئة الثالث ، قال :

إن الصفات الجسمية التى تميز المصابين بالسل هى : نعومة الجلد ولونه العدسى الضارب إلى البياض ، والمشوب بالحمرة ، ثم بريق فى العينين وتبلد فى الحال العامة : بروز فى لوحتى الكتفين حتى لكأنهما جانحان . وكذلك شأن النساء فى ذلك كله . أما أصحاب الطبع الحزين وذوو المزاج الدموى فقد أصيبوا بحمى شديدة والتهاب سحائى ومتاعب زحارية ، ويضر التعنى من هم فى مقتبل العمر من ذوى المزاج اللمفاوى : ويضر الزحار المزمن والغائط الصلب الدهنى اللزج أرباب المزاج الصفراوى(٣٢) » .

كتب الأوبئة الثانى والرابع إلى السابع : Epidemics II, IV-VII;

Epidemiorum libri II, IV, V, VI VII; Epidemion biblia b', d'-z'.

عمدنا إلى فصل هذه الكتب الخمسة من مؤلف الأوبئة عن الكتابين

السابقين (الأول والثالث) تمشياً مع التقليد القديم ، الذى يرى أنها لا تنعم بالأصالة مثلما ينعمان . فقد نسب القدامى الكتابين الأول والثالث إلى أبقراط نفسه ، فى حين ردوا سائر الكتب الأخرى إلى أبقراطيين آخرين . ونسبت الكتب الثانى والسادس والرابع (؟) غير مرة إلى تسالوس Thessalos بن أبقراط ، وشرح الكتاب السادس جلوكياس التارنتى (Glaucias of Tarentum) (النصف الأول من القرن الأول ق.م.) ، وهو أحد قدماء الأطباء .

وهذه الكتب الخمسة التى نحن بصددها تشبه الكتابين السابقين فى أمر رئيسى ، وهو أنها جميعها مجموعات من الوقائع الإكلينيكية والملاحظات الطبية ، جاءت فى مراتب متفاوتة من حيث تهذيب العبارة وأناقة الإخراج . فالكتابان الأول والثالث أقرب إلى الإتقان ، والخامس والسابع أقل إتقاناً ، والثانى والرابع والسادس أبعد ما يكون عن ذلك ، وإن كان الغرض العام فيها جميعها واحداً .

وخمستها حشد من ملاحظات إكلينيكية متعددة الأنواع . بعضها محكم التعبير (وهو حيث بلغ الذروة شبيه بأوصاف الوقائع الواردة فى الكتابين الأول والثالث) . وبعضها الآخر مدون على عجل . ومنها ما دون بعد مشاهدات قليلة قبل أن يراقب استمرار المرض وتعرف نهايته ، ومنها ما هو ركيك التركيب غامض المدلول ، أو مبهم إبهاماً كلياً . وفى وسع الطبيب المعاصر أن يميز بعضها (كما صنع ليتريه) ، وبعضها الآخر شديد الخفاء .

وشعورى الشخصى أن هذه الملاحظات وثائق خلفها طبيب أو أكثر ، وكانت مدونة على قطع منثورة من أوراق البردى . وضم بعضها إلى بعض فى مجموعة واحدة منذ زمن مدغل فى القدم ، ثم نشرت على هذا النحو — إذا جاز إطلاق « النشر » على هذا الضرب من العمل المشوش . وفى رأيى أن ذلك تم فى عهد متأخر نسبياً (فى القرن الثالث مثلا) ، فى الوقت الذى أحرزت فيه المدرسة الأبقراطية شهرة واسعة .

ولقد بلغ من احترام الناشر لهذه الشذرات أن تحرج من إدخال أى تعديل

عليها ، فأقدم على نشرها كما هى تماماً . ولعله أصاب فى هذا ، وإن كان قد أخطأ فى تركها مشوشة والإبقاء على هفوات فاضحة، مثل إقحام الكتاب السادس بين الخامس والسابع ؛ مع أن التساوق الموضوعى بينهما واضح المعالم .

ومن الخير أن يكون قد قدر لهذه الملاحظات البدائية أن تنحدر إلينا : لأن دراستها تتيح لنا أن نستعيد حياة الأطباء الأبقراطيين وجميع اختباراتهم ، فنرقبهم وهم يقومون بأعمالهم، وتسنح لنا لمحات من تأملاتهم . وإننا لنصادف فى كتاب الأوبئة الخامس أمثلة عديدة على إصلاح الخطأ الشخصى ، فنجد الطبيب يقرر أن حكمه السابق بشأن حال مرضية كان خاطئاً ، وأن العلاج الذى عول عليه كان فى غير محله[٣٣] .

وفى كتاب الأوبئة الرابع يصف الطبيب فى الحادثة السادسة حال إجهاض. ثم يزيد متسائلا : ترى ، هل قالت المرأة الصدق ؟ لست أدرى !

وردت فى هذا الصدد أسماء ثلاثة من الأطباء : هيروديكوس[٣٤] Herodicos الذى عيبت عليه أساليبه ، وبيتوكليس[٣٥] Pythocles الذى أعطى مرضاه حليباً مخففاً بكثير من الماء، والمستشار منيسيماخوس[٣٦] Mnesimachos ؛ وهناك إشارات أخرى كثيرة إلى أطباء لم تذكر أسماؤهم .

ومظهر المصادفة فى تجميع هذه الحوادث يبين بوضوح فى تكرارها الزائد ؛ لا سيما فى مجموعات من الكتاب الثانى والرابع والسادس ، والخامس والسابع . ويظهر أن بعض الملاحظات كتبت غير مرة ، ووردت بالتالى مكررة فى قطع متعددة من ورق البردى . حتى إذا عمد الناسخ إلى جمع هذه القطع فى طومار واحد أثبت كل قطعة حيث وردت ولم ينتبه إلى التكرار ، أو لم يحفل به .

لم يقف التكرار عند هذا المجموع وحده ، بل امتد إلى مؤلفات أبقراطية أخرى كثيرة . وقد أشار ليتريه بدقته المعهودة إلى جميع الشذرات التى تطابق ، أو تشابه كثيراً ، فقرات يصادفها القارئ فى كتاب « الحكم الطبية » ، و« كتاب المقدمات التمهيدية » الأول و « الإنذار المرضى » ، و« الأهوية والأمواه والأماكن » ، و « التدبير الصحى فى الأمراض الحادة » ، « وعيادة

الطبيب » . . . إلخ . وهذه الظاهرة مفيدة للغاية ، إذ تدل على أن جانباً من مجموع المؤلفات الأبقراطية كان يسهل الرجوع إليه عندما دون الأطباء هذه الملاحظات الإكلينيكية . أو أن الأطباء الذين دونوها هم الذين وضعوا بعض المؤلفات الأبقراطية الأخرى . وبعبارة أخرى يساعدنا « كتاب الأوبئة » على أن نتثبت من صحة قسم وافر من مجموع المصنفات الأبقراطية . وقد أوضح ليتّريه هذا الأمر غاية الإيضاح فى الهوامش التى أثبتها ، وفى مقدمته لهذا الكتاب عامة أو لكل جزء من أجزائه الخاصة . وقد أورد دايشجريبر[٣٧] Deichgraber حجج ليتّريه بتفصيل أوفى ، وأقره فى تصنيفه ، وأقدم على تعيين تاريخ لكل مجموعة . وفى رأيه أنه يستطاع تحديد تواريخ المجموعات بحسب السياق التالى : الكتابان الأول والثالث حوالى سنة ٤١٠ ؛ الثانى والرابع والسادس حوالى ٣٩٥ — ٣٩٩ . والخامس والسابع حوالى ٣٦٠ .

ولا حاجة بنا إلى مناقشة هذا التحديد الدقيق ، لأنه ينطوى على كثير من الجرأة ، لا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار سوء التنسيق وعدم تجانس المواد فى تلك الكتب . وحسبنا أن نسلم بالنتيجة العامة وهى أن « كتاب الأوبئة » يمثل جملة التجارب الطبية التى توصلت إليها فئة معينة من الأطباء هم أعلام المدرسة الكوسية ، وذلك فى مدى قصير نسبيًّا هو نحو نصف قرن .

وقد ساعد دايشجريبر فى مهمته أنه باشر عمله بعد ليتّريه بما يقرب من قرن ، وعاقه أنه كان أقل كفاية منه فى مواجهة الواقع ، وأنه كان فى اختصار لغويًّا لا طبيباً .

ولكى تتهيأ لنا مناقشة معالم الطب الأبقراطى على اختلافها مناقشة أوفى ، يجدر بنا أن نعد طبعة جديدة « لكتاب الأوبئة » ، منسقة قدر الإمكان على أساس الموضوع . وبما أن النص الذى بين يدينا لا تنسيق فيه . فمن حقنا أن نغفل ترتيبه الاعتباطى الذى استقر على هذه الصورة ، وأن نفترض أن المجموع الأصلى لقطع البردى أعيد إلينا فى حالته المشوشة الأولى . ثم نأخذ فى إعادة تحريره ، هذه المرة ، بوعى وتعقل ، فنبدأ بتبويب الشذرات على خير وجه

ممكن جامعين القطع التى يتصل بعضها ببعض ، كأن نجمع كل ما يتصل بالوباء الغريب الذى انتشر فى پيرنثوس Perinthos[٣٨] فى فصل الشتاء من سنة لم تذكر على وجه التعيين[٣٩] : سعال مع أدواء كثيرة أخرى كالسعال المقرون بالذبحة الصدرية أو بالغشاوة « العمى الليلى » أو بشلل بعض الأعضاء ، واتخذ هذا المرض مظاهر مختلفة تبعاً لحرفة المريض وظروف حياته . فالبائعون المنادون والمغنون المتجولون فى المدن مثلا أصيبوا بالذبحة الصدرية ، بينما أصيب العمال الذين يستخدمون أيديهم بألم فى أيديهم وهلم جرا . قابل هذا القول بالعبارة الواردة فى كتاب الحكم الطبية : « إذا سبق لجانب من الجسم قبل حلول هذا المرض أن أصيب بعلة ما . ففى هذا الجانب يستقر المرض[٤٠] » . وهذا المنهج الذى اقترحه لإعادة تحرير الكتاب يسوغ اعتماده فى أقسام أخرى من مجموع النصوص ، على ألا يتم ذلك على يد لغوى مباه بعلمه ، بل يضطلع به طبيب مجرب أخذ فى الوقت نفسه من الثقافة اليونانية بحظ ما . ووعى شئون النشر العلمى، مثل ليتريه أو بتريكين Petrequin . وينبغى أن نذكر دائماً أن مواجهة الواقع لا تحصل من الكتب ، وإنما من ممارسة المهن العلمية .

إن كثيراً من الملاحظات المدونة فى « كتاب الأوبئة » فريد فى بابه ، ومع هذا تحمل كل دلالة على صحة نسبتها . وفيما يلى واحدة منها . وقد تكون أغربها على الإطلاق :

كانت فايتوسا Phaitusa ، فى أبديرا Abdera : مديرة للشئون المنزلية فى بيت بيتياس Pytheas ؛ ورزقت أولاداً ؛ ولكن زوجها هجرها فتوقف حيضها مدة طويلة ، ثم أصابها ألم فى المفاصل ؛ وظهرت فى مواضع الألم بقع حمراء . وفى هذه الحال بدأ جسمها يتخذ مظاهر أجسام الرجال : فجلله الشعر ، ونبتت لحيتها وخشن صوتها . ولم يعد إليها حيضها بالرغم من كل ما بذل فى سبيل ذلك من جهد ، بل أدركتها الوفاة بعد وقت غير طويل . وجرى مثل ذلك لنانو Nanno زوجة جورجيپوس Gorgippos فى تاسوس . واتفقت آراء الأطباء الذين حدثتهم فى الموضوع على أن الأمل الوحيد لإرجاع طبيعتها النسائية

إليها إنما هو فى أن يعود الحيض إلى مجراه الطبيعى . لكن جهودهم فى هذا السبيل ضاعت أيضاً وماتت المرأة على الأثر[٤١] .

هذه الحادثة على غرابتها مثال صالح من القصص الطبية المروية فى كتاب الأوبئة (وفيه نحو ٥٦٧ قصة[٤٢]) . وبعضها أطول جداً مما أوردناه، وكثير منها أقصر جداً حتى لتغدو مجرد قول مأثور. والأسلوب طبي علمى خالص ، خال من الحشو والكلام الهراء .

المؤلفات الجراحية :

إن المؤلفات الجراحية تكاد تكون ، بالنسبة إلى نظام الطب الأبقراطى ، فى منزلة المصنفات الطبية التى فرغنا الآن من مناقشتها ، إلا أن طابعها الفنى الصارم يجعلها أبعد تناولا عن القارئ العادى ، ولذلك لا نستطيع أن نخصها ببحث مستفيض . وفى وسع القارئ الفطن أن يدرك معالم الرشد فى الطب الأبقراطى كما تتجلى فى كتاب «التدبير الصحى فى الأمراض الحادة» ، والجرّاح وحده هو الذى يتمكن من استيعاب دقائق الأمور فى الجراحة الأبقراطية . أما باقى القراء فلا يسعفهم الشرح ، مهما طال ، فى إصدار حكم عادل بشأنها .

والبحوث الجراحية ، مع كل ما تتميز به من تفوق نسبى ، أقل إثارة للإعجاب من بعض البحوث الطبية الأخرى ، فنحن نعلم أن اليونان مارسوا حرفة الجراحة فى عهد موغل فى القدم (بصرف النظر عن التراث الذى خلفه المصريون فى هذا الباب قبل ذلك بقرون عديدة) ، وكشفت قصائد هوميروس عن كثير من المعلومات الجراحية . ومن الممتع جداً أن نقابل هذه القصائد بروايات الفروسية فى العصور الوسطى «حيث لا تقع الجروح تحت حصر ، ولا يقف العنف عند حد ، وحيث يكاد يكون الوضوح وكل اهتمام بشئون الجراحة مفقود المعالم[٤٣]» . أما الإلياذة فقد ورد فيها وصف لنحو من ١٤٧ جرحاً ، وجاء هذا الوصف من الوضوح بحيث يستطيع الجراح أن يميز بينها تمييزاً صحيحاً . وجمع اليونان الكثير من الاختبارات الجراحية ، لا من حوادث

الحروب وحدها ، بل مما وقع لهم أيضاً فى أثناء التمارين الجمنازية والألعاب الرياضية . مثال ذلك أن الكتف كثيراً ما كانت تخلع من مكانها فى المصارعة ؛ وعلى الجراح البارع أن يعرف جميع الطرق التى تمكنه من إرجاعها إلى موضعها . ولم تكن المعلومات الجراحية مقتصرة على جبر العظم المكسور وإرجاع المفاصل المخلوعة ، بل اشتملت فوق ذلك ، على أنواع من التضميد ، ووضع الجبائر ، وضم المفاصل ، وممارسة التدليك ، واستخدام الدهون . وقام الجراحون الأبقراطيون بكل ما مكنتهم الوسائل المتاحة لهم فى ذلك الحين من أن يقوموا به ؛ لكنهم لم يعرفوا — بطبيعة الحال — من وسائل التطهير والتخدير إلا ما هو بدائى للغاية . وذاعت شهرة الجراحين اليونان فى الخارج حتى بلغت بلاد فارس قبل نهاية القرن السادس. تشهد على ذلك حكاية ديموكسيديس الكروتونى Democedes of Croton الذى استدعى إلى بلاط دارا Darios (ج ١ — ٤٣٨ص) فالبحوث الأبقراطية تحل إذن من التراث الطبى الضخم فى أعلى قمة .

أخرج الجراح الفرنسى جوزيف الينور بتركين Joseph Eleonore Petrequin (١٨١٠ — ١٨٧٦) طبعة يونانية فرنسية شائقة للمؤلفات الجراحية وقف عليها أوقات راحته خلال ثلاثين سنة ، وأسماها جراحة أبقراط Chirurgie d'Hippocrate (مجلدان ١٢٢٢ ص ، باريس ، المطبعة الوطنية ١٨٧٧ — ١٨٧٨) ويشتمل المجلدان على تعليقات دقيقة للغاية . والمقدمات الطويلة التى صدرت بها بحوث المجلد الأول مفقودة فى المجلد الثانى ؛ لأنه حال دون تحقيقها موت المؤلف ، وأتم هذا المجلد إميل جوليان Emi؛ Jullien .

٧ — الجروح فى الراس[٤٤]: De capitis vulneribus; Peri ton en cephale tromaton إن هذا البحث لمن أروع البحوث الأبقراطية . يعود تاريخه ، فى غالب الظن ، إلى أواخر القرن الخامس ، وينسب إجمالا إلى أبقراط بالذات . ويشتمل على أوصاف لأنواع الجماجم المختلفة (المتباينة باعتبار تضاريسها العظمية) ، ولنظرية الكسر بالصدمة المعاكسة contrecoup . وفيه أيضاً منهج

حديث فى كيفية ثقب الجمجمة بالتربنة ، ومناقشة للحالات التى يشار فيها بإجراء هذه الجراحة العظمية ، وتلك التى يفضل فيها الامتناع عن ذلك .

٨ — فى الجراحة[٤٥] De officina medici; Cat' ietreion.

وهو مجموعة ملاحظات تعالج خاصة فن التضميد ، فتوضح كيف ينبغى للجراح أن يتصرف ، وأى الأدوات يستخدم وما إلى ذلك . وجملة هذه الملاحظات أشبه ما تكون بكراسة أعدها أستاذ أو دونها أحد الطلاب ؛ وفيها تكرار كثير ، ولكن التعليم الصالح يستتبع ترويض الطلاب بالتكرار . والشواهد التالية أبلغ فى إعطاء فكرة عن الكتاب من كل وصف .

٢ — مستلزمات العمليات الجراحية ، المريض ، الجراح : مساعدون ، أدوات ، النور ، مكانه وموقعه ، ، أى الأدوات يستخدم ، كيف ومتى ، شخص (المريض ؟) والجهاز ، والزمان والكيفية والمكان .

٣ — ينبغى للجراح ، واقفاً كان أو جالساً ، أن يتخير وضعاً مريحاً بالنسبة إليه وبالنسبة إلى ذلك الجزء من الجسم الذى يجرى فيه العملية ، وبالنسبة إلى النور .

وهنالك نوعان من النور : طبيعى وصناعى . ولئن كان الأول خارجاً عن سلطتنا فإن الثانى خاضع لها . واستخدام كل منهما ممكن على أحد وجهين : عمودياً أو منحرفاً . والمنحرف لا يحتاج إليه إلا قليلا ، والمقدار اللازم منه واضح . أما العمودى فإذا تيسر وكان مفيداً فينبغى أن يوجه الجزء الذى تجرى فيه العملية نحو البقعة المشرقة فيه ، هذا ما عدا الأعضاء التى ينبغى ألا تكشف ، والتى لا يحسن النظر إليها — وبذلك يغدو الموضع الذى تجرى فيه العملية مواجهاً للنور ، ويصبح الجراح مواجهاً للموضع الذى ينجز فيه مهمته ، بحيث لا يقع عليه ظله . لأنه يستطيع بهذا أن يبصر الموضع جيداً دون أن يعرضه للنظر .

٤ — ينبغى ألا تمتد الأظافر إلى أبعد من أطراف الأنامل ، ولا أن تقصر عنها . تمرنْ على استخدام الأنامل لا سيما السبابة وهى فى مقابل الإبهام ، وذلك

فى وضع تكون فيه اليدان متقابلتين ومتجهتين إلى أدنى . أما الشكل الصالح للأصابع : فأن تكون الفرجات بينها واسعة . والإبهام فى مقابل السبابة . وهنالك خلل ضار بحكم الطبع أو بحكم العادة ، عند الذين يجعلون الإبهام تحت سائر الأصابع . مارس جميع العمليات وأنجزها بكل يد على حدة وباليدين . معاً — لأن الواحدة منهما كالأخرى — وكل غرضك إحراز القدرة واللباقة والسرعة والرشاقة وعدم الإيلام . ثم الاستعداد الدائم للعمل .

٦ — اطلب إلى الذين يعنون بأمر المريض أن يجعلوا موضع إجراء العملية فى الوضع الذى تريد ، وأن يمسكوا سائر الجسم بحيث يغدو ثابتاً ويلزموا السكوت ويتقيدوا بالطاعة لرئيسهم .

هذا البحث الموجز أبقراطى لا ريب فيه ، وهو قديم نسبيًّا . وقد ورد اسم تسالوس ابن أبقراط على أنه واضعه . ومهما يكن من صحة نسبته فإن تأثير المعلم العظيم المبدع بارز فى تضاعيفه .

٩ — ١١ الكسور ، والمفاصل ، وأدوات الجبر (٤٦) De fractis, De articulis reponendis Vectiarius; Peri arthron agmon, Periarthron, Mochlicon.

يمكن أن تعالج هذه البحوث الثلاثة مجتمعة . والأول والثانى وهما ، على القطع ، من وضع طبيب واحد ، كانا فى وقت ما مؤلفاً واحداً . والثالث خلاصة للفصول التى تعالج خلع المفاصل فى البحثين الأولين . وقد غلب عليها جميعها الطابع الفنى ، فغدت من ثم بعيدة المنال بالنسبة إلى القارئ العادى .

إن بحثى الكسور والمفاصل ، لم يكونا يوماً موضعاً للشك . وقد جعلهما جالينوس فى المجموع الأول من المؤلفات الأبقراطية وهو أوثقها . والغريب أن أحد الشراح القدماء لم ينسبهما إلى أبقراط نفسه، بل إلى جده أبقراط ابن نوسيديكوس (٤٧) . وهذا يؤيد الرأى القائل بأن المؤلفات الجراحية قديمة العهد . والفضل فى وضعها لا يعود إلى أبقراط ، وجل ما صنعه أنه أكسبها صبغة قياسية (هذا إن لم يكن جده هو صاحب هذا الفضل) . والفاصل بين مؤلفى « الكسور » و « المفاصل » غير واضح . فإن الأول يشتمل على مادة وافرة (نحو

الربع) عن انخلاع المفاصل . بينما يتضمن الثانى عدة فصول عن الكسور : ومما يدعو إلى الغرابة أن كلا البحثين يشتمل على رسائل بليغة لا نظير لها فى أحسن المؤلفات الأبقراطية . وربما كان مرد هذا إلى عناية أحد الطلاب المتفقهين فى اللغة ودقته فى النشر .

وفى الفصل التاسع من بحث المفاصل يعالج المؤلف موضوع التدليك فى الحالات الجراحية ، ويعلن عن عزمه على وضع كتاب خاص فى ذلك . لكن هذا الكتاب لم يؤلف ، ولا نعثر على إشارة إليه إلا فى الرسالة المذكورة(٤٨) .

وقد وضع أبوللونيوس الكيتيونى (النصف الأول من القرن الأول ق.م.) شرحاً على بحث « المفاصل »(٤٩) أحرز أهمية كبرى لأمر عرض فى نقله . ذلك أنه وجد منه فى فلورنسا(٥٠) مخطوط هو نسخة بيزنطية يعود تاريخها إلى القرن التاسع . واشتمل على أشكال جراحية (كالذى ورد فيها مثلا عند الكلام عن طرق إرجاع المخلوع) تعود إلى عهد أبوللونيوس، بل وإلى زمن أبقراط . ومثل هذه المدونات المعززة بالأشكال نادر للغاية ، لأن نقل الأشكال أعسر جداً من نسخ النص ، وكثيراً ما أهمل . وبفضل أبوللونيوس انتهت إلينا أفكار واضحة عن ممارسة القدماء لفن الجراحة(٥١) .

الفلسفة الطبية والرسائل :

١٢ — كتاب الطب القديم De prisca medicina; Peri archaies ietrices.

هذا البحث قديم العهد ، ولنقل أواخر القرن الخامس ، وليس مؤلفه هو مؤلف « كتاب الصرع » (المرض المقدس) و « كتاب التدبير الصحى فى الأمراض الحادة » ، و « كتاب الأوبئة » . ذلك لأن أسلوبه الأدبى أشد أناقة من أساليبها . ومؤلفه ، فيما يرجح ، أحد تلامذة الأستاذ الكبير ممن جمعوا بين الطب والسفسطة، أى الجدل والخطابة ، وشعروا بضرورة الدفاع عن الفن الطبى بأسلوب يرضى زملاءه .

يبدأ الكتاب باعتراض على خلط البحث الفلسفى بالطب ، وهذا دفاع عن « الطب القديم » ، أى الطب العلمى (فى مقابل الطب الفلسفى) .

وكانت هناك حاجة إلى اختبار طويل لمعرفة الصالح وغير الصالح من

المآكل : كيف ينبغي أن تحضر وما المقدار الذى يلزم منها لحفظ الصحة عند الأقوياء أو لزيادة قوة الضعفاء . وما الفن الطبي إلا ضربٌ من تهذيب فن التغذية والتأنق فيه ، ومكتشفات الأطباء الحاذقين لا تختلف كثيراً عن مكتشفات علماء التغذية القدماء (ورأيي الخاص أن تعليل الفريقين واحد واكتشافهما واحد[٥٢]» . وكان عليهم أن يعينوا نوع الغذاء الموافق للمرضى (المرق أو النقيع أو الخبيص rhophemata) والذى يعيد إليهم عافيتهم بدلا من أن يقضي على ما بقي لهم منها) .

وليست الطبائع الأربع (الرطوبة واليبوسة والحرارة والبرودة) ذات أهمية نسبياً ، بل هنالك طبائع وقوى (dynameis) أخرى قد تفوقها أهمية وإن لم تكن أربعاً على التعيين — مثل : القوة ، والملوحة ، والمرارة ، والحلاوة ، والحدة ، والحموضة ، والرطوبة ، وكثير سواها وما لا يحصى مما يتركب منها .

وكان هذا ثورة مدهشة قام بها الإدراك الطبي السليم ضد التصنيفات المبتسرة .

ويدور الجانب الجدلي من هذا البحث حول تسفيه الافتراضات الواهية[٥٣] ، لأنه ينبغي أن يقف الطبيب عند القرائن التي فى متناول يده والتي يستطيع تحقيقها ، ولا بد له أن يكون رشيداً متواضعاً ، وفى اختصار ذا نزعة علمية .

عرف المؤلف من القدماء الكمايون Alcmaion وامبيدوكليس Empedocles وأناكساجوراس Anaxagoras ، واهتمامه الرئيسي فني[٥٤]، على أن تقديره لطب القدماء مضلل نوعاً ، فقد كان هناك طب تجريبي وجراحة ، ولم يكن هنالك ، قبل أبقراط ، إلا القليل من الطب العلمي ، ولم يسلم الأطباء الأول أمثال الكمايون من تأثير الفروض الفيثاجورية . ويظهر أن المؤلف كان مقتراً على كبار معاصريه بقدر ما كان سخياً إزاء السالفين ، فهاجم الفلاسفة والعقليين غير الناضجين ، ولم يجد شيئاً يقوله عن الدجل الذى كان منتشراً فى المعابد . ولعله لم يتعمد بحث الخرافات (كما يسكت أطباء اليوم عنها)، لأنه اعتبرها

خارجة عن الموضوع واعتبر الخوض فيها معيباً . أما إشارته إلى الأطباء الأغبياء « وهم الأكثرية الساحقة(٥٥) » فالمقصود بها غير الأكفاء لا المشعوذون .

وإليك تمهيده الهام :

« إن جميع الذين انتحلوا لأنفسهم . وهم يحاولون الكلام أو الكتابة فى الطب ، افتراضاً عدوه أساساً للبحث — كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . أو أى شىء آخر مما قد يجول فى خاطرهم ، والذين يحدون من مبدأ السببية المؤدى إلى المرض أو الموت ، ويجعلونه واحداً فى جميع الحالات ، مفترضين أمراً واحداً أو أمرين — إن هؤلاء جميعاً يخطئون فى مواطن كثيرة ، حتى فيما يقررونه ، لكنهم أشد عرضة للوم لأنهم غافلون عن حقيقة الفن ، ذلك الذى يعتصم به جميع الناس فى أحرج الظروف ، ويؤدى أجمل الخدمات إلى محترفيه ومطبقيه . حقاً إن من بينهم من هو ضعيف ، ولكن منهم من هو ماهر للغاية . ولو لم يكن فى الوجود فن كفن الطب ، ولو لم يكن هذا الفن مجالا للبحث والاستكشاف ، لما كانت الحال على ما وصفنا ، بل لكان الجميع سواء فى سوء الخبرة وقلة العلم ، ولكانت معالجة المرض اعتباطية من جميع الوجوه . وليس الأمر كذلك . وككل فن نجد بين المشتغلين بالطب الواسعى الاطلاع والحاذقين ، كما نجد غيرهم . ومن أجل ذلك تقرر عندى أنه ليس ثمة داع إلى الفروض الواهية ، أمثال تلك الأسرار الغامضة ، التى يلجأ إلى افتراضها الباحثون عما هو فى السماء أو تحت الأرض . وليس للباحث فى هذه الأمور من سبيل للجزم بصحة ما يقول أو عدم صحته ، لا لنفسه ولا لمستمعيه ، إذ ليس هنالك من تجربة يؤدى إجراؤها إلى التثبت من أحد الوجهين

« وقد غدت وسائل الطب كافة منذ القدم فى متناول اليد . واكتشفت فى آن واحد منهجه ومبادئه ، فاستطاع بذلك أن يحقق ، فى غضون زمن طويل ، كشوفاً كثيرة وجليلة . واستكمال هذه الكشوف أمر محقق إذا كان الباحث كفئاً يعمد إلى البحث فى ضوء ما تم كشفه ويتخذ منه نقطة البدء . وكل من يحاول أن يوجه بحثه جهة أخرى ، أو يعتمد منهجاً آخر ، معرضاً عن جميع

هذه الوسائل، رافضاً الأخذ بها، ثم يؤكد أنه قد عثر على شيء، كان ولا يزال ضحية الوهم دون نزاع » .

واقرأ كذلك الفصل العشرين :

« يؤكد بعض الأطباء والفلاسفة أن أحداً لا يستطيع فهم الطب إن كان يجهل ما هو الإنسان . ويرون أن من كان خليقاً بمعالجة المرضى معالجة صالحة ينبغى له أن يعرف ذلك . ولكن هذه معضلة فلسفية ، وتقع فى نطاق العلماء الذين ألفوا فى موضوع العلم الطبيعى كما فعل امپيدوكليس: ما هو الإنسان منذ البدء ، كيف برز إلى الوجود مبدئياً ، ومن أى العناصر كان تركيبه أصلا ؟ والذى أراه ، أولا ، أن جميع ما ذكره الفلاسفة أو الأطباء ، أو دونوه عن العلم الطبيعى ، لا يتصل بالطب أكثر منه بالتصوير . وأعتقد أيضاً أن المعرفة الخالصة بحقائق العلم الطبيعى إنما تستمد من علم الطب لا من مصدر آخر سواه . وفى استطاعة المرء أن يستوعب هذه المعرفة متى تم له تفهم الطب على الوجه الصحيح ، وإلا فتحقيق ذلك يكاد يكون مستحيلا — أعنى أن يقف على : ما هو الإنسان ، وما هى العوامل التى انتهت إلى تكوينه ، ونظير ذلك من دقائق الأمور . وإذا صح ذلك فإننى أعتقد أنه ينبغى للطبيب الذى يرغب فى أن يقوم بشيء من واجبه ، أن يعلم ، بل أن يبذل غاية الجهد كى يعلم ، ما الإنسان بالنسبة إلى ألوان الطعام والشراب ، وسائر العادات بصورة إجمالية ، وما أثر كل منها فى الأفراد . وليس يكفى أن يعرف — مثلا — أن الجبن طعام ردئ لأنه يسبب ألماً لمن أصابته منه تخمة ، بل ينبغى أن يعلم ما هو هذا الألم وما الذى يسببه ، وأى شيء فى الجسم أصابه منه ضرر . هنالك كثير من الأطعمة الأخرى الضارة ، وألوان عديدة من المشروبات الأخرى المؤذية ، وجميعها تؤثر فى الإنسان بطرق مختلفة . لذلك أوثر أن أضع هذه القضية على النحو التالى : « إن الخمور غير المخففة بالمزج ، إذا شربت بمقدار كبير تركت تأثيراً معيناً فى الإنسان » . فجميع الذين يدركون ذلك يتحققون أنه ناشئ عن الخمر ، وأنها سببه . ونعلم ، من ثم، فى أى موضع من جسم الإنسان يغلب أن تترك الخمور معظم تأثيرها . وكم أود لو تجلت حلاوة الحق هذه فى سائر الحالات

الأخرى . وبالرجوع إلى مثالى الأول : إن الجبن لا يضر بجميع الناس على السواء ؛ إذ يستطيع بعضهم أن يملأ جوفه منه دون أن يصاب بضرر ما ، بل إن الذين يوافق الجبن مزاجهم يستمدون منه قوة عجيبة ، فى حين يسبب لبعض آخر إزعاجاً شديداً . فالتكوين الإنسانى مختلف عند الفريقين ؛ والفارق فى هذا هو التكوين الذى لا يلائمه الجبن ، فيثور لذلك وينشط للعمل تحت تأثيره . وأولئك الذين يكثر فى أجسامهم مثل هذا العنصر ، ويعظم سلطانه عليهم يتكبدون منه ؛ بطبيعة الحال ، عناء أشد . ولو أن الجبن بالذات ضار بالتكوين الإنسانى بلا استثناء لكان ضرره لاحقاً بالجميع على السواء[٥٦] .

لدينا طبعتان حديثتان إحداهما لـ W.H.S. Jones, « الفلسفة والطب فى اليونان القديمة » (Philosophy and medicine in ancient Greece) وهى الملحق الثامن من صحيفة تاريخ الطب ;Bulletin of the History of Medicine (100PP. Baltimore, 1946)(Isis 37, 233 '1947'.), وتشتمل على طبعة جديدة للنص وترجمة إنجليزية ، والطبعة الثانية لـ A.J.Festugiére « الطب القديم » L'ancienne medecine (136 pp. Paris : Klincksieck, 1948) مشتملة على نص هايبرج Heiberg اليونانى وترجمة فرنسية . وقد عنى الناشران بتوفير الشروح والتعليقات الكثيرة ، وبتصدير البحوث بالمقدمات المحكمة .

١٣ — كتاب الفن الطبي[٥٧] De arte, peri technes.

وضع هذا البحث القصير الذى يصعد إلى العهد الأبقراطى الباكر ليثبت أن هنالك شيئاً يسمى الفن الطبي ، وليقف مدافعاً عن الذين يمارسونه ضد كل من يحاولون الحط من قدره . وربما كان المؤلف من غير المحترفين ، وقدحاول بعض الباحثين أن يدللوا على أنه بروتاجوراس Protagoras أو هيبياس Hippias ؛ ومثل هذه المحاولات الناشئة عن الرغبة فى تعيين مؤلف للكتاب المغفل عقيمة ، متى كان ما يؤيدها لا يزيد كثيراً عن مجرد الرغبة .

والذى نستنتجه من هذا البحث أنه : كان فى زمن أبقراط ، كما فى عهدنا الحاضر ، أناس يشنعون على الأطباء زاعمين أن الشفاء إنما هو من قبيل الحظ ،

وأن المرضى غالباً ما يشفون من غير معونة طبية ، وأن البعض قد فاضت أرواحهم وهم بين يدى الطبيب ، وأن الأطباء طالما امتنعوا عن معالجة بعض الأمراض . أما الاعتراضات الثلاثة الأولى ففيها من الحق ما يكفى لأن يجعلها ذات وقع فى النفوس ، وأما الرابع فلا يقول به أحد اليوم ، فالأطباء لم يعودوا يمتنعون عن معالجة بعض المرضى الذين فقدوا الأمل فى شفائهم ، وإن كانوا يتمنون أحياناً ألاّ يدعوهم الواجب إلى معالجتهم .

١٤ — كتاب طبيعة الإنسان(٥٨) De natura hominis; Peri physios anthropu **وكتاب التدبير الصحى فى العافية**(٥٩) De sla lubri victus ratione Peri diaites hygieines هذان المؤلفان مجموعان فى مجلد واحد لأنهما كانا فى التاريخ القديم يؤلفان كتاباً واحداً ، وهما مجموعان كذلك فى سائر المخطوطات . واقتبس أرسطو نبذة من كتاب « طبيعة الإنسان » مهد لها بقوله « ويذكر بوليبوس فى هذا الصدد » فنسب هذا البحث ، على هذا الأساس ، إلى بوليبوس صهر أبقراط ، وهى نسبة معقولة(٦٠) . وقد أيدها مينون Menon تأييداً جزئيّاً(٦١) .

وإذا اعتبرنا الكتابين مؤلفاً واحداً فإنهما لا يكونان كلاً جيد التنسيق، بل مجموعاً من شذرات ضم بعضها إلى بعض اعتباطاً ، ومن هنا فإن البحث فى هوية المؤلف ، أمر عقيم نوعاً . وقد يكون لهذا المجموع مؤلفون عديدون . وقد يكون مينون على صواب حين نسب الفصل التاسع إلى أرسطو والفصل الثالث إلى بوليبوس . وصدر كتاب طبيعة الإنسان يذكر القارئ بكتاب الطب القديم ، وهنالك نقاط اتصال عديدة بكتب أخرى من مجموع النصوص .

وأهم ما فى « طبيعة الإنسان » بحث نظرية الأخلاط . وهو الكتاب الأبقراطى الوحيد الذى يعالج هذه النظرية معالجة جدية ، فى حين أن البحث المخصص لهذا الموضوع لا يخوض فيه . ويعارض المؤلف أولئك الفلاسفة الذين يذهبون إلى أن الكون ناشئ من مادة واحدة ، ثم يتوسعون فى هذه النظرية حتّى

تشمل علم الطب . ولو صح ذلك ما كان هنالك إلا مرض واحد وعلاج واحد . والجسم الإنسانى مركب من أربعة أخلاط منفصلة ، وقيام التوازن بينها هو شرط الحالة الصحية .

ومع ذلك يغلب بعضها بعضاً على حسب الفصول ، ومن هذه الاعتبارات القياسية نستخرج قواعد المعالجة الصحية . ويشتمل الفصل الثانى على بيان مشوش عن الجهاز الدموى (وأقدم الأوصاف اليونانية لهذا الجهاز هى أوصاف سينسيس القبرصى Syennesis of Cypros وديوجنيس الأبوللونى Diogenes of Apollonia وهو ما نحن بصدده) .

ويقرر كتاب « التدبير الصحى فى العافية » قواعد للتغذية والتمارين الرياضية ، بحسب فصول السنة ومزاج الإنسان وسنه ، والوسائل التى تزيد المرء هزالا أو سمنة[٦٢] ، والظروف التى تستخدم فيها المقيئات والحقن ، ويبسط أصول التدبير الصحى للأطفال والنساء وهواة الرياضة .

لدينا من هذا الكتاب ست « طبعات » قديمة بالنص اللاتينى (كليبس Klebs ٥١٩ . ٦٤٤ - ٨٢٦) نشر أقدمها فى ميلانو ١٤٨١ . وأحدث طبعة منه بالنص اليونانى هى التى أخرجها أوسكار فيلارت Oskar Villaret (٨٨ ص : برلين ١٩١١) .

١٥ — كتاب الأخلاط[٦٣] ، De humoribus Peri chymon قد يكون هذا الكتاب أشد هذه المصنفات تشويشاً وأدعاها إلى الغرابة والحيرة . وقد قال ليتّريه عنه إنه خليق بأن يسمى كتاب الأوبئة الثامن (نشره بعد مجموع الأوبئة المشتمل على الكتاب الثانى والرابع إلى السابع) . أما جونز فكان أعنف فى الحكم عليه حيث قال : « وبيّنٌ أنه مسودة فى أشد حالات التشويش . ومجرد من كل مسحة أدبية ، وفيه قسط من الغموض والإبهام » . ومع ذلك فهو مسودة أبقراطية صحيحة النسبة ، وقد سبق لقدماء الشارحين أن عرفوها . والكتاب جمهرة من ملاحظات عنى بجمعها أحد الأساتذة أو الطلبة . وكل فرض بالنسبة له جائز وإن كان لا يمكن إثباته .

وهو حافل بالألغاز : وأولها عنوانه الخاص ، إذ يكاد لا يعالج موضوع الأخلاط مطلقاً . ولا يعرض لنا إلا كتاب أبقراطى واحد ، هو « طبيعة الإنسان » .

وبرغم الغموض الشائع فيه (أو بسببه) تكرر نسخه وطبعه .

١٦ – **كتاب الأهوية والأمواه والأماكن**(٦٤) : De aere locis aquis; . Peri aeron hydaton topon

صحيح النسبة بلا شك (أى أنه أبقراطى قديم) ، وفوق هذا هو من أدهش ما أنتجه النبوغ الأبقراطى (أو قل اليونانى) . لأنه أول بحث فى الأدب العالمى يعالج علم المناخ الطبى (راجع ما ذكرناه عن ذلك فى الفصل السابق) ، وأول بحث فى علم الأجناس البشرية .

يوضح أبقراط فى هذا الكتاب أنه ينبغى للطبيب أن يوجه انتباهه التام إلى المناخ فى كل منطقة من المناطق ، وإلى تقلبات الطقس الناجمة عن تغير الفصول . وعن مدى التعرض للمؤثرات المتباينة ، وطبيعة ما يتيسر لنا من الماء والطعام ، وما إلى ذلك . وينبغى أن ندرس كل مسألة طبية فى جوها الجغرافى والبشرى الخاص . لأن الأمراض تختلف باختلاف الأماكن تبعاً لتباين طبيعة سطح الأرض ، واختلاف المناخ ، وتفاوت الطبيعة الإنسانية . وتأييداً لهذا التعليل يثبت المؤلف عدداً كبيراً من الأمثلة التى جمعها فى غضون أسفاره .

ويعالج القسم الثانى من الكتاب (الفصل الثانى عشر إلى الرابع والعشرين) تأثير المناخ فى الطباع ، وهو ضرب من البحث التاريخى من الوجهة الأنثروبولوجية : ما الفرق بين أوربا وآسيا ، أو بين الهيلينيين والبرابرة ؟ يرجع أبقراط هذه الفروق ، بوجه خاص ، إلى اعتبارات مادية (جغرافية) ؛ وهذا ما فعله معاصره هيرودوت الذى أورد هذا التعليم على لسان قورش Syros ملك الفرس . فجعل بذلك لمؤلفه التاريخى خاتمة من أروع الخواتم .

ومن أروع الفصول فى الأنثروبولوجية الأبقراطية الفصل الثانى والعشرون الذى يعالج موضوع الخصيان السيتيين أو الخناثى(٦٥) . ومع أننا نكاد لا نتوقع أن يكون التعليل الطبيعى الذى يورده المؤلف لهذه الظاهرة الغريبة صحيحاً ، فإنه من المدهش جداً أن يكون قد حاول إيراد مثل هذا التعليل ؛ لا سيما إذا تذكرنا أن المناقشة الصريحة لحالات الشذوذ الجنسى فى أغلب الظن ، من فتوحات عصرنا الحاضر .

ويشهد على شهرة هذا البحث العدد الوافر من مخطوطاته وطبعاته . فهنالك أربع طبعات قديمة للنص اللاتينى يعود أقدمها إلى سنة ١٤٨١ (Klebs, 644, 2, 826. 1-2)

أما الطبعات الحديثة لهذا النص فينبغي – أن نشير من بينها – بصورة خاصة – إلى تلك التي أعـدها البحاثة والوطني اليـوناني ادامانتوس كورايس Adamantos Coraes ("Coray," 1748-1833) مع ترجمة فرنسية (مجلدان ؛ باريس ١٨٠٠) . ولهذا الكتاب خمس ترجمات إنجليزية على الأقل أولاها لبيتر لو Peter low (لندن ١٥٩٧) . انظر أيضاً كتاب Lugwig Edelstein, Peri aeron und die Sammlung der Hippokratischen Schriften (196 PP. Berlin, 1931) وكذلك مقال (Isis 21, 341 (1934)), وانظر أيضاً Arne Barkhuus,"Medical surveys fromHippocrates to the world travelers, Medical geography, geomedicine," *Ciba Symposia* 6, 1986-2020 (1945).

وفى الفصل الثالث عشر شروح إضافية عن هذا البحث لمن شاء التوسع

١٧ – كتاب الغذاء(٦٦) : De alimento; Peri trophes

يمكن اعتبار هذا الكتاب من مؤلفات الحكم ، وهو مقسم إلى خمسة وخمسين فصلا ، ثمانية عشر منها لا يزيد أحدها فى النص اليونانى عن سطرين ، وتسعة وعشرون يتراوح الواحد منها بين الثلاثة والخمسة الأسطر ، وثمانية فقط يزيد كل منها على ذلك قليلا وإن كان لا يبلغ العشرة الأسطر ، وثلاثة وثلاثون لا يبلغ الواحد منها الأربعة الأسطر . وهذا الكتاب منقطع النظير بين مجموع النصوص الأبقراطية لما يمتاز به من الطابع الهيراكليتى . وتاريخه متأخر عن هيراكليتوس ، ويغلب على الظن أنه سابق للقرن الرابع ، ولعله يعود إلى أواخر الخامس .

يحاول المؤلف فى هذا الكتاب أن يشرح عملية التغذية البالغة التعقيد . ومعلوم أن فهم هذا الأمر على الوجه الصحيح متعذر قبل نشأة علم الكيمياء الحديث ، وليس غريباً أن يخفق المؤلف فى هذا ويعتصم بالتكهنات الغامضة . ثم يدلى فى كثير من الفصول بمعنيين متعارضين ، تاركاً الاختيار للقارئ . على أن هنالك أمراً واحداً أحسن إدراكه وهو أن الطعام ينبغى أن يتحول إلى سائل حتى يتمكن الجسم من تمثيله(٦٧) . وأدرك أيضاً الحقيقة البينة وهى أن الغذاء قوام الحياة (فقوة الطعام تحل محل النار فى نظام هيراكليتوس) . ونعود

فنقول : كيف كان يمكن فى القرن الخامس قبل الميلاد أن يدرك أى شخص الظاهرة الكيموية العجيبة فى تحول الطعام إلى لحم وعظم، وإلى دم ولبن « كز وائد »[٦٨] (Pleonasmos) . وليس ثمة طعام نافع إطلاقاً بل بالنسبة إلى شخص معين ، وغرض مقرر ، وجميع الأشياء نافعة أو ضارة على نحو نسبى[٦٩] » .

ولننظر فى أمثلة أخرى قليلة[٧٠] (وقد اقتبست أربعة فصول بنصها الكامل) :

« الغذاء وشكل الغذاء واحد ومتعدد ؛ واحد باعتبار أن نوعه واحد، أما شكله فيختلف باختلاف الرطوبة واليبوسة . وللأغذية أشكالها الخاصة ومقاديرها المعينة ، وهى صالحة لأشياء معينة ، ولعدد محدود من الأمور» .

وهذا ضرب من الأحاجى التى عالجها قدماء فلاسفة اليونان : الواحد فى مقابل المتعدد . وأنواع الأغذية الكثيرة تؤدى إلى نتيجة واحدة هى النمو العضوى .

وفى النص التالى ما يوضح الغموض الهيرا كليتى .

الغذاء هو ما يغذى ، والغذاء هو الشىء الصالح لأن يغذى ، والغذاء هو ما يوشك أن يغذى . بداية جميع الأمور واحدة ونهايتها جميعاً واحدة ، والنهاية والبداية شىء واحد .

على أن خير الفصول هو :

« إن النبض وحركة التنفس تابعان للسن، فاتساقهما وعدم اتساقهما من دلائل المرض والصحة — الصحة أكثر من المرض ، والمرض أكثر من الصحة — لأن التنفس هو الآخر غذاء » . وقيمة هذا القول لا ترجع فقط إلى أنه ملموس أكثر من كل ما تقدم ، بل لأنه يعتبر أيضاً أقدم إشارة إلى النبض فى الأدب اليونانى ، ولأنه يعد الهواء غذاء . إن عدم ورود إشارات أخرى إلى حركة النبض البسيطة لمن الظواهر الغريبة فى النصوص الأبقراطية[٧١]. أما فيما يتعلق بالهواء ، فمن البديهى أنه لا غنى للحياة عنه ، واعتباره غذاء فى ذلك العهد لا يمكن أن يحمل إلا على أنه من باب الحدس أو على سبيل المجاز .

١٨ـ كتاب استخدام السوائل[٧٢] De liquidorum usu;Peri hygron Chresios

وهو مجموعة ملاحظات تتعلق بالماء العذب والملح ، والخل والخمر ، واستخدام السوائل الحارة والباردة . ولعله ملخص عن بحث أوسع مفقود . ولم نشر إليه هنا إلا لأنه موجود فى مجموع نصوص الطب اليونانى Corpus medicorum graecorum.

١٩ ـ كتاب التدبير الصحى ، القسم الأول إلى الرابع[٧٣] . Regimen I-IV De victu (يدعى القسم الرابع فى الغالب كتاب الأحلام De insomniis أو De somniis) ، Peri diaites, Peri enypnion).

وقد نسب هذا الكتاب إلى هيروديكوس السلمبرى ، وأبقراط ، وفيليستيون اللوكرى ، وسواهم . ويصعد تاريخه ، فى الراجح ، إلى العصر الأبقراطى ؛ لكنه ـ قطعاً ـ ليس أبقراطيًّا بالمعنى الصحيح ، لأنه حافل بالأوهام الفلسفية والافتراضات الاعتباطية . ويعثر فيه القارئ على آثار من تعاليم هيراكيتوس ، وأنبادوقليس ، وأناكساجوراس ، والفيثاجوريين . وتشتمل الطبعات الحديثة على أربعة أقسام ، للرابع منها عنوان إضافى هو « الأحلام » . وتبدأ بعض الطبعات القديمة بالقسم الثانى . وكان هذا المؤلف مقسما فى عهد جالينوس إلى ثلاثة أقسام ، وكان القسم الرابع مجرد خاتمة للقسم الثالث . وعلى كل ليس ثمة ما يجمع بين الأقسام الأربعة إلا ذلك العنوان الذى قال به المؤلف ، وهو « كشفه » (heurema) ، ويتلخص هذا الكشف فى أن العاملين الأساسيين فى حفظ الصحة هما الغذاء والتمرين الرياضى ، وينبغى أن يكونا على جانب وافر من التوازن . وإذا طغى أحدهما على الآخر وجب اتخاذ كل الاحتياطات لإعادة حالة التوازن . وهذا يوفر للطبيب منهجاً صالحاً لمعالجة مرضاه .

ويوافق المؤلف على وجود العناصر الأربعة ، وإن كان يحاول أن يجمعها فى اثنين : النار والماء ـ وبذلك يستخلص علم وظائف الأعضاء ، من التباين بين هذين العنصرين ؛ مما يؤدى إلى تغيرات لا نهاية لها . والفكرة العامة غير واضحة ؛ ومحاولات تطبيقها (على علم الأجنة مثلا) فيها كثير من

التكلف والتمويه . وفى القسم الأول يلجأ المؤلف إلى مثل هذه التصورات لبيان ما تتألف منه الأجسام الحية ، وإيضاح فروق السن والجنس . واظهار طبيعة الصحة البدنية والسلامة العقلية . ويعالج فى القسم الثانى خصائص البلدان على اختلافها : وأنواع اختلافها . وأنواع الرياح والأغذية ، والمشروبات ، وضروب الرياضة : ويصف فى الثالث العلامات التى تكشف عن سوء التوازن بين الغذاء والرياضة وتنبىء بهجوم المرض ؛ ويشرح فى الرابع كيف يمكن أن تساعد الأحلام فى الدلالة على حالات عدم التوازن التى هى فى سبيل التكون .

ويبحث المؤلف ، فى الفصل السادس إلى الواحد والثلاثين من القسم الأول ، المسائل الجنينية : فيبين أن الجنين ينشأ من المنى الذى هو النفس بالذات ، وهذه « النفس المنوية » مزيج من النار والماء ، ومؤلفة من أجزاء (merea) ناشئة من جسدى الوالدين كليهما . أما التطور الجنينى اللاحق فشبيه بإخراج قطعة موسيقية بحيث يكون الجنين منها بمثابة آلة العزف . هذه التصورات الموسيقية — الجنينية ، كما هو واضح ، تعود إلى أصل فيثاجورى ، وقد زاد فى غموضها اضطراب النص (٧٤).

ومن أمتع ما فى هذا الكتاب للقارئ الحديث وصف التمارين الرياضية والمقارنة بين أنواعها (العادى منها كالمشى ؛ والعنيف كالسباق والمصارعة) وأساليبها ونتائجها (٧٥) . وكذلك القسم الرابع فى موضوع الأحلام ، وهو جزيل الفائدة ؛ وقد جاء فيه أن هنالك نوعين من الأحلام : إلهى وهو خاص بمعبرى الأحلام . وفسيولوجى وهو الذى يستدل به الأطباء على العلة . ومتى تعرض العرافون لتعبير النوع الثانى من الأحلام كان الفشل نصيبهم فى غالب الأحيان . « فهم يوصون بأن تتخذ الاحتياطات لمنع الضرر ، ولا يرشدون إلى طرق الوقاية ، ويوحون فقط بتقديم الصلوات إلى الآلهة . والصلاة محمودة بلا ريب ، ولكن ينبغى مع التوسل إلى الآلهة أن يساعد الإنسان نفسه (٧٦) » .

وبذا تجمع الأقسام الأربعة بين الأفكار الغريبة والملاحظات الجيدة ، وتصور ذلك الارتباك الذى بليت به العقول — حتى الجيد منها — عند ما حاولت توضيح الأمور الطبيعية والفسيولوجية المعقدة التى كانت فى غير أمل بعيدة عن متناولها .

ويبدو الإدراك الأبقراطى السليم هنا وهناك ، على الرغم من طغيان النظريات المبتسرة .

و « كتاب الأحلام » أول دراسة علمية لموضوع سحر الجماهير فى التاريخ القديم والمتوسط ، بل وقطعاً فى كل العصور . ومهما بدت هذه الدراسة غريبة وغير ملتئمة لرجل العلم الحديث ، فإنها تمثل المحاولة الأولى لتفسير ألغاز عالم الأحلام تفسيراً معقولا ، واستخدامها فى شفاء الأمراض . إن مؤلف هذا الكتاب يعد الجد الأعلى لفرويد Freud .

وبعض الأحلام التى نظر فيها المؤلف ذات صلة بالظواهر الفلكية (فقد يرى النائم ، فيما يرى ، الشمس والقمر) . ومما يلفت النظر أنه لا يصنف مثل هذه الأحلام مع الأحلام الإلهية ، بل يضمها إلى الفسيولوجية . ومن هذه الناحية وحدها لا يصح القول (كما فعل [٧٧] جونز بأن كتاب (De insomniis) هو أقدم ما ورد فى الأدب القديم « عن الصلة المزعومة بين الأجرام السماوية ووقائع حياة الأفراد » . وفضلا عن ذلك فمن غير الثابت أن ذلك البحث أقدم من كتاب أفلاطون المسمى Epinomis ، بل ولا يسبق نشر فيليب الأبوسى Philip of Opus لهذا الكتاب بعد وفاة صاحبه .

كان (De insomniis) من أقدم ما نشر من كتب أبقراط . وقد طبعت ترجمته اللاتينية على حدة فى روما سنة ١٤٨١ ، ثم ألحقت بالنشرات السابقة لكتاب (Aphorismi) لابن ميمون ، ولكتاب المنصورى للرازى (Klebs, 517, 644. 2, 826 2-3)، ومجموعها أربع طبعات قديمة تتابعت بين ١٤٨١ و ١٥٠٠

٢٠ — كتاب النسمات [٧٨] De flatibus; Peri physon .

ويصعد إلى العهد الأبقراطى ، ويساعدنا على إدراك المعضلات الكبرى التى ساورت الفكر الطبى فى ذلك العصر . ولهذا السبب بالذات بدا لنا أن مراجعة هذا العدد الوافر من الكتب كلا منها على حدة أمر مفيد للغاية . ومعضلات الفكر الطبى أمر غير مستغرب متى تذكرنا أن العصر كان عصر نشاط عقلى ورغبة ملحة فى الاستطلاع . وكانت الملاحظات الطبية تتجمع فى بعض الأماكن الملائمة ؛

ونبهاء الأطباء يحاولون تنظيمها على أساس نظراتهم الفلسفية . على أن أساس تفكيرهم الفلسفى قلما كان متجانساً لأنهم خضعوا فى أواخر القرن الخامس لمؤثرات كثيرة متباينة . لذلك عمد الطبيب المفكر ، إذ وجد نفسه تجاه مشاكل مستعصية ، إلى محاولة حلها من الناحية التى بدا له فيها أمل النجاح أقرب تحقيقاً .

ذهب أناكسيمينيس Anaximenes إلى أن الهواء (pneuma) هو المبدأ الأول . ثم عمد ديوجنيس الأبولونى Diogenes of Apollonia إلى تطبيق ذلك على علم وظائف الأعضاء . وأهمية الهواء ، فى الواقع ، لا تحتاج إلى إيضاح . تأمل الريح فى جميع ضروبها : نسيم الربيع اللطيف ، هبات الصيف المفاجئة ، عواصف الشتاء القارسة والزوابع القاتلة ، وتأمل الهزات الأرضية[٧٩] . إن حاجة الجسم الإنسانى إلى الهواء الطلق لأمر بديهى ، وكذلك خطر الافتقار إليه أو عدم انتظام دورته . وكان فى استطاعة الطبيب أن يلاحظ سهولة التنفس عند الأصحاء وعسره عند الأعلاء ، وحشرجات الصدر فى أولى مراحل الاختناق . وفى استطاعته أيضاً أن يراقب التجشؤ ، وانتفاخ الأحشاء ، وقرقرة البطن ، وخروج الريح منه ، وقد عرف الأوجاع الناجمة عن احتباس الريح فيه . والحق أن الهواء (pneuma) شرط من شروط الحياة ، حتى إذا أطلق المرء نفسه الأخير أدركته الوفاة . ومن يدرى فلعل النفس (Anima) ضرب من الهواء ؟

لم يكن مؤلف « كتاب النسمات » طبيباً أبقراطياً ، بل ربما لم يكن طبيباً على الإطلاق . وكان بلا ريب فيلسوفاً سوفسطائياً ممن يهتمون أولا بحقائق الحياة والعافية . وكتابه نوع من القول الذى يقوم على أن جميع الأمراض ناجمة عن الهواء . وخاصة ذلك الهواء الموجود فى الأجسام الحية (Physa) . ولعل بعض البحوث الأبقراطية الأخرى مثل كتاب « طبيعة الإنسان » وكتاب « الطب القديم » إنما وضعت لنقض آرائه (وما جرى مجراه) .

ومن الخير أن نقارن هنا ما فى كتاب De flatibus من آراء فى الهواء بما

يشابهها مما جاء فى الأدب السنسكريتى القديم؛ وقد حاول ذلك جان فيليوزات(٨٠) Jean Filliozat ، واقتبس وترجم نصوصاً فى الموضوع عن كاراكا Caraka ، وبهيلا Bhela ، وسوسروتا Susruta . وهى نصوص تقرر نظرية الهنود فى الهواء ، وتعين الفضائل الأساسية « للرياح » فى الطبيعة جملة وفى الأجسام الحية. وبكلمة موجزة تعالج الفكرة العامة التى تبلورت فى المعانى المختلفة لهذه الألفاظ : الهواء (pneuma) والروح (spiritus) والنفس (anima) ، على أنه من المتعذر إثبات أى اقتباس من السنسكريتية إلى اليونانية أو بالعكس. فالأفكار الرئيسية مشتركة، وكثير مما عداها متباين ، وليس هنالك تطابق حرفى فى النصوص. وتعليل هذا التشابه بين التراث اليونانى والتراث الهندى ممكن على أساس انتشار هذه الآراء انتشاراً غير واضح المعالم . ذلك أنه كان بين بلاد الهند وبلاد اليونان اتصالات كثيرة قبل عهد الإسكندر . ويمكن تعليل ذلك أيضاً بأنه وليد تأمل مستقل فى حقائق هى موضوع تجربة مشتركة. فإن الحاجة إلى « الرياح » فى الطبيعة وفى الأجسام ، وما يتخلف عنها بين حين وآخر من مضايقات ، أوضح من أن تفوتها الملاحظة .

جمع أكثر الطبعات التى ظهرت فى القرن السادس عشر لكتاب « النسمات » De flatibus بين الأصل اليونانى والترجمة اللاتينية . وأحدث طبعة للنص اليونانى ، إلى جانب طبعات لويب Loeb ومجموع المصنفات الطبية اليونانية (Corpus medicorum graecorum) ، هى طبعة اكسيل نلسون Axel Nelson ، وعنوانها Die Hippokratische Schrift Peri physon ، (Uppsala, 1909) وتشتمل على ترجمتين لاتينيتين وضعتا فى عهد النهضة الإيطالية الأولى على يد فرنسيسكو فيللفو (١٣٩٨ — ١٤٨١) Francesco Filelfo والثانية على يد جانوس لسكاريس (١٤٤٥ — ١٥٣٥) Janus Lascaris .

مؤلفات الحكم :

فى مجموع المصنفات الأبقراطية عدد يمكن أن يضم بعضه إلى بعض ، لأنه مؤلف فى شكل حكم موجزة ، وضعت كل مجموعة منها تحت عنوان واحد فى

قليل من النظام أو بغير نظام . وقد عرضنا فيما سبق لأحدها وهو « كتاب الغذاء » .

والراجح أن أقدم هذه المؤلفات كتاب « الأقوال الكنيدية » . وهو مفقود ، ويشير عنوانه بالذات إلى أنه مجموعة من الأقوال المأثورة التى اشتملت على خلاصة حكمة الأطباء الكنيديين (وفى مجموع المصنفات الأبقراطية عدد من المؤلفات الكنيدية) . لأن مدرستى كوس وكنيدوس متجاورتان (وطبيعى أن توجد بعض الكتب الكنيدية فى المكتبة القومية) . وقد يرى البعض أن كتب الحكم والنصائح لا بد أن تكون قديمة ، لأن استخدام الأمثال من ضروب التعبير البدائى . ويكاد يكون ثابتاً أن بعض هذه المجموعات قديم ، ولكن لنحذر التعميم . إن حب الحكم والأمثال شائع عند جميع الشعوب فى جميع العصور ، ويروج أحياناً ويكسد أحياناً أخرى دون انقطاع . ويميل جونز « ٨١ » إلى رد كتب الحكم فى مجموع المصنفات الأبقراطية إلى النصف الثانى من القرن الخامس ، وذلك بالترتيب التقريبى : كتاب « المقدمات التمهيدية » الأول Prorrhetic I, ٤٤٠ . « الحكم » Aphorisms ٤١٥ «التكهنات القومية » Coan prenotions ٤١٠ ، « الغذاء » Nutriment ٤٠٠ « والتسنين » Dentition بعد ذلك (؟) . وسأعرض لها بهذا الترتيب باستثناء كتاب « الغذاء » الذى سبق الكلام عنه .

الشعر والأمثال أقدم أبواب الأدب عند الأمم كافة . وتمتاز الأقوال الحكمية بأنها سهلة الحفظ ، والذين يتداولونها يسمون أنفسهم ، دون تكبد أى عناء ، بسمة الحكمة وغزارة العلم . على أن نجاح الحكمة الطبية فى القرن الخامس لم ينجم عن الرغبة الشعبية فى الأمثال فحسب . بل عن حكم هيراكليتوس وسواه من الفلاسفة ، وعن قصائد بندار Pindar وغيره من شارحى المثل العليا اليونانية . وكان من المغرى أن تقتبس أبلغ الأبيات من قصيدة عصماء فتغدو ، لكثرة تداولها ، من باب الحكم . ولا يزال الأمر كذلك حتى هذا اليوم ، فإن كثيرين من الناس يعبرون عن مشاعرهم بضرب الأمثال ، واقتباس آية من الكتاب المقدس ، أو بيت من شعر شكسبير ، وهو أمر سهل للغاية وسار .

(٢١) كتاب المقدمات التمهيدية الأول[٨٢] Prorrhetic .I De praedictionibus Prorrheticon a.

وهو مجموع من الحكم الطبية على غير نظام . ويشتمل على ١٧٠ حكمة موجزة، سبع عشرة منها (أى العشر) خاصة بهذا المجموع ؛ أما الأغلبية المطلقة فهى جزء من « التكهنات الكوسية » .

أثارت إحدى هذه الحكم[٨٣] كثيراً من النقاش وهى . « المخبولون يشربون قليلا : يزعجهم الصوت وتدركهم الرعشة » . وقوله « يشربون قليلا » (brachypotai) هو موضوع النزاع ، وإذا كان المقصود الإشارة إلى داء الكلب فإنه ليس جديداً بل قديم جداً ، ولأرسطو فصل يشير إليه صراحة ، وإن كان ينتهى بحكم خاطىء[٨٤] .

وكتاب « المقدمات التمهيدية » الأول يختلف جداً عن الثانى ؛ وحظ الأخير من البلاغة كحظ الأول من الركاكة ، (انظر الفقرة الرابعة) .

(٢٢) كتاب الحكم[٨٥] Aphorismi sive sententiae; Aphorismoi.

وهو أشهر كتاب فى كل مجموع المصنفات ، وترجع شهرته نوعاً ما إلى حب الناس جميعاً « للحكمة الموجزة » — الحكمة المفرغة فى أقراص صغيرة يسهل ازدرادها ، إن صح هذا التعبير . والذى يشهد على شدة رواجه كثرة نسخه المخطوطة الموجودة فى لغات كثيرة[٨٦] ؛ وتعدد الشروح، وشروح الشرح ، ووفرة الكتب التى نسجت على منواله ؛ وأشهر هذه « كتاب الفصول فى الطب » لابن ميمون (النصف الثانى من القرن الثانى عشر) الذى كان بدوره طليعة حقبة جديدة فى تاريخ الطب .

طبع كتاب الحكم لأول مرة (باللاتينية) سنة ١٤٧٦ . وظهرت له منذ ذلك الحين طبعات كثيرة بلغات عديدة . ولقد كان كل طبيب مثقف، حتى القرن الثامن عشر ، يقتنى نسخة منه ؛ ويقرؤه كأنه كتاب من كتب الصلوات الطبية .

وهذه المجموعة - كما هى بين يدينا - مقسومة إلى سبعة أقسام تشتمل على ٤١٢ حكمة - موزعة بين الأقسام السبعة بغير نظام[٨٧] ، هذا باستثناء ما يعرض للقارئ أحياناً من أقوال متتالية تدور حول موضوع واحد . وتكاد هذه الحكم تغزو كل موضوع طبى إلا الجراحة . على أن بعضها قد ورد فى مؤلفات أبقراطية أخرى . مثال ذلك أن ستًّا وثمانين منها وردت أيضاً فى كتاب التكهنات الكوسية Coan prenotions .

إن كتاباً من هذا النوع ليتحدى التحليل ، لذلك كان خير ما نستطيع القيام به أن نثبت منه بعض النماذج .

والحكمة الأولى معروفة ، بوجه العموم - لافى الأوساط الطبية فحسب، بل فى أوساط المثقفين إجمالا . ويعرف أكثر الناس مع هذا قسمها الأول فقط ، ويجهلون الثانى الذى هو مستقل عن الأول ويعبر عن الاتجاهات الأساسية فى تعليم الطب الأبقراطى : (ولعلهما فى الأصل حكمتان مختلفتان التصقت أولاهما بالثانية مع توالى النسخ) ، ونصهما :

« الحياة قصيرة ، والفن طويل ، والفرصة هادية ، والتجربة تخون ، والحكم عسير . ينبغى للطبيب أن يكون مستعدًّا دائماً ، لا لأن يقوم بواجبه فحسب ، بل لأن يؤمن تعاون المريض والمساعدين والخارجيين أيضاً[٨٨] » .

والحكمة التالية تعالج التدبير الصحى الخاص بأبطال الرياضة، ولم نثبتها هنا كاملة :

« إن الوضع الأكمل فى حياة أبطال الرياضة خوّان متى كان فى أوجه الأعلى ؛ لأنه لا يمكن أن يستمر ؛ ولا أن يستقر فى مستواه ، ما دام التحول إلى ما هو أفضل أمراً متعذراً ، والتحول الوحيد الممكن إنما هو إلى أسوأ . والخير إذن أن يخفض هذا الوضع الممتاز كيما يتهيأ للجسم أن يباشر مرحلة نمو جديدة . على أن إضعاف الجسم ينبغى ألاّ يبلغ حد الإفراط ، وإلا كان خطراً ، وينبغى أن يوقف به عند حد يتناسب مع تكوين الشخص[٨٩] » . . .

وها هى ذى حكم أخرى أخذت دون قصد تقريباً :

« المسنون أقدرعلى الصوم من سواهم ، ويليهم المتوسطون فى العمر ، أما الأحداث فصبرهم على ذلك عسير ، وأعسر ما يكون الصوم على الأولاد . لا سيما أولئك الذين تزيد حيويتهم عما هو معتاد» .

«الأجسام غير السليمة يزداد ضررها بازدياد غذائها . من الخير للمصابين بالرمد أن يبتلوا بالإسهال » .

«إن الذين تحدودب ظهورهم قبل المراهقة ،على أثر السعال أو داء الربو ، لا يرجى لهم من ذلك شفاء[٩٠] » .

إن مجموعاً كهذا لشبيه ببناء لم تربط حجارته بالأسمنت . هذا إلى أن الفوارق بين طبعاته وترجماته كثيرة ، ومن السهل أن تدس فى النص حكم جديدة ، وأن يهمل منه ما لم يعجب الناشر .

انظر القسم الأخير من هذا الفصل ، ففيه بسط للطب الأبقراطى فى أدب العصور الوسطى .

(٢٣) كتاب التكهنات الكوسية[٩١] Coan prenotions ;

يقسم هذا المؤلف ، مثل كتاب الحكم الطبية، إلى سبعة أقسام، ويشتمل على ٦٤٠ حكمة منثورة فى غير نظام . ويغرى الكثير منها بالتعليق الطبى ، وقد أتى ليتريه Littré بحوادث طبية من عصره ليمثل بها على ما أشار إليه الطبيب الكوسى :

(٢٤) كتاب التسنين[٩٢] . De dentitione; Peri odontophyies

هذا المجموع المؤلف من اثنتين وثلاثين حكمة طبية يتعلق بحالة الأطفال الصحية وعلاجهم لا سيا فى طور التسنين . ويمكن أن يقسم إلى قسمين : الأول (١ — ١٧) خاص بالتسنين (odontophyia) ، والثانى (١٨ — ٣٢) يتعلق بتقرح اللوزتين (parishmia) واللهاة والحلق . وغالب الظن أن قسم التسنين مستخرج من مجموع أكبر انتزعه ناشر قصر اهتمامه على طب الأطفال ، وإذن هذا القسم أقدم بحث موقوف على هذا الفرع من فروع الطب . ولا ينفى هذا وجود ملاحظات كثيرة تتعلق بطب الأطفال فى كتب عديدة أخرى من مجموع المصنفات الأبقراطية .

علم الواجبات الطبية

من الطبيعى أن يجمع فى باب واحد عدد من النصوص الخاصة بواجبات الأطباء ، والطريقة اللائقة التى ينبغى أن يتقيدوا بها فى معاملة المرضى . ويستدل من محتويات هذه الكتب أن الأطباء أخذوا فى تنظيم أنفسهم فى هيئة مهنية ذات مسئوليات معينة وامتيازات خاصة . وليس لدينا إثبات آخر على وجود هيئة من هذا النوع ؛ ولذلك يتعذر علينا أن نعين المدى الذى بلغته من التنظيم . ومن المحتمل أنها كانت نقابة،أو على الأرجح جماعة ليست ذات صفة قانونية تألفت من كبار الأطباء ومساعديهم وطلابهم المتدربين . وأقدم هذه النصوص وأهمها إطلاقاً هو يمين أبقراط المشهور .

(٢٥) اليمين[٩٣] . Insiurandum; Horcos.

يراد بها تلك اليمين التى كان الطلاب المتدربون يحلفونها قبل أن يقبلوا كأعضاء فى النقابة أو جمعية الأطباء الكوسيين،ولم يكن - على حسب العبارة الأولى - مجرد قسم بل كان ميثاقاً (syngraphe) يتعهد به المتدرب أن يعامل أولاد أستاذه كما لو كانوا إخوته،وأن يشرك أستاذه فى رزقه ويخف إلى مساعدته إن دعت الحاجة إلى ذلك ؛ وأن يعلم أولاد أستاذه دون أن يتقاضى منهم رسوماً أو يفرض عليهم قيوداً ، وأن يدلى بالإرشادات المفصلة إلى أولاده هو - وأولاد أستاذه - وعدد قليل من الطلاب الآخرين الذين أقسموا اليمين ووقعوا الميثاق - لا إلى أحد سواهم . ومعنى هذا أن المهنة لم تكن منظمة فحسب بل إن استمرار احتكارها كان مضموناً . وهكذا كان التعليم الطبى قائماً على أساس نقابى .

ويتعذر علينا تعيين تاريخ هذا القسم - وغالب الظن أنه عرف منذ العصر الذهبى للمدرسة الكوسية .

وفيه نبذة مدهشة للغاية : « أتعهد بألا أستخدم المبضع حتى ولا على الذين يعانون من الحصاة - بل أفسح المجال للأخصائيين الذين حذقوا هذا العمل » . ورأى بعضهم أن الذى كان محظوراً إنما هو الخصاء لا إخراج

الحصاة بعملية جراحية . وأطباء اليونان ما كانوا يخشون من استخدام اللفظة المناسبة . أما الرأى القائل بأن الجراحة كانت محظورة على الأطباء . متاحة لمن هم دونهم من المساعدين . فلا يتناسب مع ما نعرفه عن الجراحة الأبقراطية . ذلك أن هذا التحامل على الجراحة وليد العصور الوسطى لا القديمة . وجرى الناشرون مؤخراً على حذف هذه العبارة من طبعات هذا النص الحديثة .

واليمين هى الوثيقة الأساسية فى علم الواجبات الطبية . وشهرتها عظيمة ، وكثيراً ما عدّت جزءاً جوهريّاً من مجموع مصنفات أبقراط ، وفوق هذا فالمثل العليا التى عززها كانت مقبولة لدى الكثرة المطلقة من المدارس الطبية فى التاريخ اليونانى — العربى — اللاتينى حتى يومنا هذا . وفيما يتعلق بتاريخه . انظر :

W.H.S. Jones, *The doctor's Oath* (61 pp.,Cambridge; (1924) (*Isis* 11, 154 (1928); Ludwig Edelstein, *The Hippocratic Oath. Text, translation, and interpretation* (70 pp.; Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1943) (*Isis* 35, 53 (1944).

وبحوث متفرقة فى : مجلة ايزيس

Isis 20, 262 (1933-34); 22, 222 (1934-35); 32, 116 (1947-49); 38, 94 (1947-48)

وفيما يتعلق باستمرار الأخذ به مع التعديلات الضرورية حتى يومنا هذا ، انظر : (*Isis* 40, 350 (1949) وهنالك . حوالى تسع طبعات قديمة من النص اللاتينى : (انظر Klebs) ، وأول طبعة للنص اليونانى ظهرت سنة ١٥٢٤ مع النص الذى أعده ايسوبوس[٩٤] Aisopos والترجمة اللاتينية التى أخرجها نيكولو بيروتى الساسوفراتى (١٤٣٠ — ١٤٨٠) Niccolo Perotti of Sassoferrato .

(٢٦) كتاب القانون[٩٥] Lex, Nomos

هذا النص لا يزيد كثيراً عن نص القسم (أقل من صفحتين فى الأصل اليونانى) وهو أحدث منه عهداً . وتأثير الرواقيين فيه ظاهر . وقد عرفه إيروتيانوس Erotianos وهو أقل واقعية من كتاب « القسم » . وأبعد منه عن النهج العملى ، وإن كان أعمق فلسفة . وأبلغ عبارة . ويرمى إلى تقرير المقومات التهذيبية التى تميز الطبيب الصالح ، ويشير إلى أن النقابة الطبية

تحولت ، فى الوقت الذى دوّن فيه ، إلى نوع من الأخوة السرية .

وها نحن أولاء نثبت منه النبذة الأولى والنبذتين الأخيرتين :

« الطب أرفع الفنون إطلاقاً ، إلا أن جهل الذين يمارسونه ، ورعونة الذين يتصدون عفواً للحكم على ممارسيه، قضى عليه بأن أصبح الآن أقل الفنون اعتباراً . والسبب الرئيسى لهذا الخطأ ، فيما يبدو لى ، أن الطب هو الفن الوحيد الذى تخضعه حكوماتنا لعقاب ما ، اللهم إلا فقد الشرف ، وفقد الشرف لا يجرح من يلصق بهم . وما أشبه هؤلاء الرجال بالممثلين الإضافيين فى المآسى . وكما أن لهؤلاء مظهر الممثل ولباسه وقناعه دون أن يكونوا ممثلين ، كذلك كثير من الأطباء إنما هم أطباء بالسمعة ، وقليلون منهم أطباء فى الواقع » . . .

« هذه هى الشروط التى ينبغى أن تتقيد بها ممارسة فن الطب ، والتى يجب علينا تحصيلها قبل أن نرحل من مدينة إلى أخرى ونحرز الشهرة التى تجعل منا أطباء، لا بالاسم فقط بل بالفعل أيضاً . وقلة التجربة كنز مرصود وذخر ملعون لمن ابتلى به، غافلا عنه كان أو واعياً . إنها منافية للثقة والمسرة ، وحاضنة للجبن والطيش . والجبن دليل العجز ، والطيش علامة التجرد من حلية الفن . والواقع أن هنالك أمرين : العلم والرأى ، والأول يقود إلى المعرفة والثانى إلى الجهل » .

« على أن الأمور الطاهرة تنكشف فقط للقوم الطاهرين . أما المدنسون فالأولى ألاّ يتعلموها حتى يتم إعدادهم للعلوم الخفية .

والذى لدينا من هذا الكتاب ثمانى طبعات قديمة من الترجمة اللاتينية (راجع Klebs) .

(٢٧) كتاب الطبيب [٩٦] De medico; Peri ietru

لم يذكر القدماء ، أمثال إيروتيانوس وجالينوس ، هذا الكتاب ، إلا أن بينه وبين مجموع المصنفات صلات كثيرة، والفصل الأول منه لا غير يعالج الواجبات الطبية ، فيصف سجية الطبيب الصالح جسداً وروحاً . ويتألف من أربعة عشر فصلا تشرح أصول الطب العملى : كيف تعد العدة للعمليات الجراحية وتجهز الأدوات وتهيأ اللوازم ، كيف تضمد الجروح وتعصب ،

كيف يحجم المريض ؛ وهكذا . . . أما الفصل الأخير فمخصص للجراحة العسكرية التى لا تتعلم إلا فى ساحة القتال . والبحث فى هذا الفصل عملى جداً ، وإن كان أساسه التشريحى ضعيفاً ؛ الأمر الذى يشير إلى عهد أبقراطى متقدم .

(٢٨) كتاب اللياقة الطبية[٩٧] De decenti habitu; Peri euschemosynes.

إن ركاكة اللغة فى هذا النص ـ إلى جانب التكلف فى الأسلوب (استخدام الألفاظ الحوشية) ـ يشير إلى أنه ـ نسبياً ـ متأخر العهد . وفوق ذلك هو مشوب بأفكار رواقية . وبعض فصوله (وجملتها ثمانية عشر فصلا) متكلف وغامض (عن قصد ؟) وجميعها ليس أبقراطياً بالمعنى الصحيح . ومع ذلك كله فالموضوع الذى يعالجه شائق حقاً . يشرح فيه المؤلف كيف ينبغى للطبيب أن يتصرف تصرفاً ينفع المريض ويعود عليه هو بالسمعة الطيبة ، ولا يليق به أن يكون سوفسطائياً ، بل رحيماً ومحباً للحق والحكمة . والطبيب المحب للحكمة شبيه بالآلهة[٩٨]» (ietros gar philosophos isotheos) ويشدد المؤلف فى الفصل السادس ؛ المشوب ـ لسوء الحظ ـ بالغموض والالتباس ؛ على أهمية العامل الدينى ، وهذه النبذة فريدة من نوعها فى المجموع كله ، فيها تفاصيل عملية كثيرة تتعلق بالملاحظات التى ينبغى إجراؤها فى المستوصف أو بين يدى المريض ، كإعداد العقاقير . وما إلى ذلك . ويوجب على الطبيب أن يزور المريض لماما ، وأن يقيم ـ أحياناً ـ أحد المتمرنين فى مكانه مدة غيابه .

(٢٩) كتاب الوصايا[٩٩] Praecepta; Parangeliai

هذا الكتاب ـ فيما يبدو ، متأخر التأليف ؛ ربما حتى العصر الرومانى ـ إن كان يصعد إلى ما قبل جالينوس ، وهو حافل بالتعابير الغامضة . ويصدمك منه فوراً ضعف الأسلوب والغلو فى الادعاء . ويغشى الفصلين الأول والثانى منه طابع أبيقورى .

على أن معظمه (الفصول ٣ ـ ١٣ من ١٤ فصلا) يعالج الواجبات

الطبية ، فيتناول اللياقة أو السلوك الطبي ، وتجنب الشعوذة ، ودمدمة الدجالين . (ولعل الدجالين المتجولين أحكموا فن مخاطبة الجمهور والترويج لبضاعتهم عند وصولهم إلى قرية ما) . ويكوّن الفصلان الأول والثانى مدخلا إلى الموضوع مؤداه أن الفن الطبي ينبغى أن يقوم على أساس الملاحظة لا « الافتراض » . أما الفصل الأخير فمجموعة من العبارات المفككة ، ولعلها ملاحظات لم يتيسر للمؤلف أن يستكمل صياغتها .

وقد أثبتنا الفصل السادس من « كتاب الوصايا » هذا بنصه الكامل فى الفصل الثالث عشر.

الرسائل :

(٣٠) الرسائل المنحولة

يشتمل المجلد التاسع من طبعة ليتريه (ص ٣٠٨ — ٤٦٦) على رسائل ، ووثائق أخرى ، مشكوك فى صحتها ، وإن كانت شائقة تلذ للباحث المعنى بنشأة الأسطورة الأبقراطية وتطورها . ويشير بعضها ضمناً إلى أن أبقراط أنقذ أثينا وبلاد اليونان من وباء الطاعون . ولوكان هذا صحيحاً لعرف عن غير هذا الطريق. ومن بين كتاب هذه الرسائل الملك العظيم ارتا كسركس Artaxerxes ، وهستانس Hystanes ، حاكم هيليسبونت Hellespont الفارسى ، ومواطنو جزيرة كوس وأبديرا Abdera ، وتسالوس بن أبقراط . والملك ديمتريوس Demetrios . وهنالك رسائل مسهبة، تبادلها أبقراط وديمتريوس تدور حول ما نسب إلى الثانى من خبل مزعوم .

ومن الجدير بالذكر أن علماء العصر القديم رغبوا فى أن يستكملوا حكاية أعلام الرجال (Opera Omnia) بالرسائل «الموثوقة » (مثل أفلاطون وأرسطو) وإذ لم تتيسر لهم الوثائق التى يسهل على الناشر الحديث جمعها أجازوا لأنفسهم أن « يختلقوا » ما افتقروا إليه منها. وعلى كل فإن كتابة رسالة معقولة، أومعقولة بالنسبة لهم ، ليس أشنع كثيراً من كتابة « الخطب » ، على ما جرى عليه قدماء

المؤرخين . وفيهم أمثال ثوكيديديس ممن اشتهروا بالصدق .

يصعد تاريخ طبع الترجمات اللاتينية لبعض الرسائل إلى سنة ١٤٨٧ و ١٤٩٢ ((Klebs 337)) مضموماً إليها رسائل ديوجينيس السينوبى Diogenes of Sinope مؤسس المذهب الكلبي (حوالى ٤٤٠ — ٣٢٥) .

تحقق القارئ الذى أعانه صبره الواسع على مرافقتى فى تفحص أهم المؤلفات الأبقراطية مما امتازت به محتوياتها من غزارة المادة وفرط التعقيد . وقد دون معظمها فى القرن الخامس . وقليل منها بعد ذلك بنحو قرن . أو أكثر . ومع ذلك فهى تحتفظ بتقليد من أنبل ما خلفه تاريخ الجنس البشرى .

الآثار الأبقراطية فى العصور الوسطى :

يمكن أن تقاس عظمة الفرد بمقدار ما يمتد إليه ظله خلال العصور اللاحقة . وينبغى ، لكى ندرك عظمة أبقراط ، أن نستشعر التأثير الذى فرضه على من تلاه . وسنحاول أن نسرد الوقائع بترتيبها التاريخى ، وبحكم هذا الترتيب يظهر « أبقراط » فى النصف الثانى من القرن الخامس ، وعلينا أن نستيقن بأن ما تم على يده — كائناً من كان أبقراط — فى ذلك العهد ، لم يكن إلا بدء حكاية طويلة . ولو قدر لهذه الحكاية أن تكتب لصح أن يكون عنوانها «حياة أبقراط من القرن الخامس إلى اليوم » ، ولو دونت بشىء من الاستيفاء لملأت كتاباً ضخماً . إن عظماء الرجال خالدون حقًّا ، وقد يكونون بعد الموت أكثر حياة منهم قبل ذلك[١٠٠] .

إن درس الآثار الأبقراطية أمر فريد فى تعقيده . ذلك لأن المصنفات الأبقراطية لا تؤلف كلا موحداً متماسكاً مثل مؤلفات هيرودوث وثيوكيديدس ، أو الإلياذة والأوديسا . وهذه المصنفات الكثيرة ، الصحيح منها والمنحول ، لا تخضع جميعها لقانون صارم كما هى الحال فى الكتاب المقدس . وعلى الباحث أن يتدبر خبر كل نبذة ، أو كل فئة من النبذ . لا سيما والباعث على الجمع بينها عناية القدماء من أمناء المكتبات ، والنساخ والناشرين ، فضلا

عن مناهج المدارس الطبية . مثال ذلك أن كتاب الحكم الطبية Aphorismi والإنذار المرضى Prognosticum ، وكتاب التدبير الصحى فى الأمراض الحادة Regimen acutorum (De diaeta in acutis) كثيراً ما جاءت مضمومة فى مجلد واحد ، كما حدث فى مدرسة مونبلييه Montpellier سنة ١٣٠٩ و ١٣٤٠[١٠١] .

وها نحن أولاء — على سبيل المثال — نرسم الخطط الكبرى لتاريخ كتاب واحد منها ، هو كتاب الحكم الطبية ، وهو أشهرها على الإطلاق .

عقب جالينوس على نحو سبعة عشر من المصنفات الأبقراطية[١٠٢] بينها كتاب الحكم الطبية . وقد ضم شرح جالينوس إلى المتن الأبقراطى فى هذا الكتاب كما حدث فى كثير سواه ، وعمل على تأييد ما جاء فيه. وآثار جالينوس فى أوائل العصر الوسيط معروفة جيداً ، لحسن الحظ ، ويعود الفضل فى ذلك إلى بحث كتبه أحد كبار لغوي العصور الوسطى هو حنين بن إسحق العبادى (النصف الثانى من القرن التاسع) المسمى باللاتينية يوانيتيوس Joannitius وقد عاش أولا فى جنديسابور ثم فى بغداد وتوفى سنة ٨٧٧. وكان نسطوريا ، وطبيباً ومترجماً ، اشتغل بالنقل من اليونانية إلى السريانية وإلى العربية ، وقام هو نفسه بترجمة الكثير من المؤلفات العلمية الخالدة التى وضعها أبقراط وأفلاطون وأرسطو وديوسكوريدس وبطلميوس وجالينوس ، وتولى إدارة معهد للمترجمين دربهم فيه تدريباً رائعاً ، أما بحثه الذى أشرت إليه منذ قليل فهو عرض مجمل للترجمة السريانية والعربية لمؤلفات جالينوس ، يقدر فيه قيمة هاتين الترجمتين النسبية ، ولا يتردد فى أن ينتقد بشدة بعض ترجماته الخاصة[١٠٣] .

وإليك ما أورده عن كتاب الحكم الطبية :

شرح أبقراط لكتاب الحكم الطبية (تفسير لكتاب الفصول) . يقسم هذا الكتاب إلى سبعة أقسام[١٠٤] . وقد ترجمه أيوب (إلى السريانية) ترجمة سقيمة . ثم حاول جبريل بن بختيشوع أن ينقح هذه الترجمة فجاءت أسوأ مما كانت . ولهذا قارنتها بالنص اليونانى وصححتها بحيث جعلت منها ترجمة (سريانية) جديدة ، وضممت إليها نص ألفاظ أبقراط نفسها . وطلب إلى أحمد بن محمد المدبر أن أترجم

له هذا الكتاب . فترجمت قسما منه إلى العربية . ثم أشار على ألا أبدأ ترجمة قسم آخر قبل أن أقرأ عليه القسم الذى تمت ترجمته . إلا أن أموراً أخرى شغلته فحال ذلك دون استمرارى فى الترجمة . ولما كان محمد بن موسى يوالى فحص كل قسم من الأقسام . فقد رجانى أن أستمر فى عملى ؛ وهكذا أنجزت ترجمة الكتاب كله (١٠٥) .

ولا يشير حنين إلى ترجمة أخرى لهذا الكتاب وضعها سرجيوس الراسعينى « الرأس عينى » Sergios of Resaina (النصف الأول من القرن السادس) وهو من أقدم وأعظم المترجمين الذين اشتغلوا بالنقل من اليونانية إلى السريانية، وقد درس فى الإسكندرية ، ثم قضى نحبه فى القسطنطينية سنة ٣٤٦ . ولم يكن نسطوريـاً كحنين، بل يعقوبيـاً من القائلين بالطبيعة الواحدة (١٠٦) . ولعل الذى ترجمه سرجيوس هو كتاب الحكم الطبية (لا شرح جالينوس له) ، لكن ذلك غير ثابت (١٠٧) .

ومما يدعو إلى الاستغراب أنى لم أقف على بادرة اهتمام بهذا الكتاب طيلة المدة بين وفاة حنين سنة ٨٧٧ وحوالى سنة ١٠٢٥ . وهى حقبة تقارب قرناً ونصفا، وفى منتصف القرن الحادى عشر ظهر له شرحان على الأقل ؛ وضع أحدهما على بن رضوان المصرى (النصف الأول من القرن الحادى عشر) ؛ وأخرج الثانى عبد الرحمن بن على بن أبى صادق الفارسى (١٠٨) . وقد توفى كلاهما فى حدود سنة ١٠٦٧ .

وبعد ذلك بقرن وضع يوسف بن حاسداى الإسبانى Yusuf Ibn Hasdai (النصف الأول من القرن الثانى عشر) شرحاً عربياً آخر أسماه « شرح الفصول » . وتكاثرت بعد ذلك الترجمات والشروح حتى لنجد من المناسب أن نبحث أمرها كل نصف قرن .

النصف الثانى من القرن الثانى عشر . ومن أبرز من فيه إسبانى آخر هو اليهودى ابن ميمون Maimonides ، وأهم مؤلفاته الطبية وأشهرها مجموعة أخرى من الحكم الطبية عرفت « بفصول موسى » تكاد تكون مستمدة من جالينوس وحده (١٠٩) . أما شرحه لحكم أبقراط الطبية فكتاب آخر أقل شهرة من ذلك . ومع أن « فصول

موسى » مستمدة من جالينوس فالمرجح أنه يشتمل على ملاحظات متفرقة تتصل مباشرة أو بالواسطة بحكم أبقراط .

وقد قضى ابن حاسداى وابن ميمون كلاهما الشطر الأكمل من حياتهما فى مصر لا فى إسبانيا . وهناك إسبانى ثالث ، قطلانى على التحديد ، وهو يوسف بن مائر بن زبارة Joseph ben Meir ibn Zabara (النصف الثانى من القرن الثانى عشر) حصل علومه فى نربونه ؛ وأقام على الأغلب فى مسقط رأسه برشلونه ، ولعله مؤلف تلك الرسالة التهكمية لكتاب الحكم التى جاءت بالعبرية تحت عنوان : مومرى هاروفائيم Momeriha-rofe'im

وفى هذه الأثناء قام بورجونديو البيزى Burgundio of Pisa (النصف الثانى من القرن الثانى عشر) بترجمة كتاب الحكم الطبية من اليونانية إلى اللاتينية رأساً ، ثم عمد موروس السالرنى Maurus of Salerno عالم التشريح (النصف الثانى من القرن الثانى عشر) إلى وضع شرح له باللاتينية . ولما كان موروس قد توفى بعد بورجونديو بنحو عشرين سنة (١٢١٤ فى مقابل ١٩١٣)، فمن المحتمل أن يكون قد اعتمد ترجمة بورجونديو بدلا من الترجمات السابقة التى نقلت عن العربية . على أن ذلك لا يتضح إلا بدرس أعمق مما تيسر لى حتى[١١٠] الآن .

النصف الأول من القرن الثالث عشر: إن ملاحظاتى على إنتاج النصف الأول من هذا القرن محصورة فيما وضع بالعربية فى مدينة دمشق . أو على الأقل ، فيما وضعه أطباء عاشوا فى هذه المدينة .

لدينا ثلاثة شروح عربية لكتاب الحكم الطبية : وضع اثنين منها طبيبان مسلمان هما ابن الدخوار المتوفى فى دمشق سنة ١٢٣٠[١١١] . وابن اللبودى الحلبى (النصف الأول من القرن الثالث عشر) الذى حصل علومه فى دمشق وتوفى بعد سنة ١٢٦٧ . ووضع الثالث طبيب سامرى هو صدقة ابن مناجا الدمشقى (النصف الأول من القرن الثالث عشر) . وقد جعل عنوان كتابه « شرح فصول أبقراط» .

النصف الثانى من القرن الثالث عشر: وفى النصف الثانى من هذا القرن لفت كتاب الحكم هذا أنظار كل طبيب عاش غربى بلاد الهند وتوقشت الحكم بالعربية والعبرية واللاتينية. وكتب الشروح العربية طبيبان شرقيان الأول مسيحى اسمه أبو الفرج ومعروف باسم برهبرايوس Barhebraeus[١١٢] (النصف الثانى من القرن الثالث عشر)، والثانى مسلم هو ابن النفيس (النصف الثانى من القرن الثالث عشر).

ووضع الشروح اللاتينية برتغالى هو بطرس الإسبانى Peter of Spain من لشبونة (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) الذى توفى تحت اسم البابا حنا الحادى والعشرين .Pope John XXI فى سنة ١٢٧٧، وإيطالى هو تاديو الديروتى الفلورنسى .Taddeo Alderotti of Florence (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) الذى عمر حتى سنة ١٣٠٣.

ولكتاب الحكم خمس ترجمات عبرية[١١٣] على الأقل، أروعها هى تلك التى أتمها شمطوب بن إسحق الطرطوشى Shem-tob ben Isaac of Tortosa (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) فى تراسكون سنة ١٢٦٧، وهذا يعطينا مثالا صالحاً على انتشار الأثر الأدبى وتنقله. فنص شمطوب العبرى يشتمـــل على شروح لبلاديوس Palladios الطبيب السوفسطائى (النصف الأول من القرن الخامس) وهى شروح غير معروفة فى الأصل اليونانى.. أما موسى بن طيبون المرسيلى (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) Moses ibn Tibbon of Marseille وهو من أشهر تراجمة العصر الوسيط، فقد ترجم شرح ابن ميمون من العربية إلى العبرية فى سنة ١٢٥٧ أو ١٢٦٧. وترجم ناتان هاماآتى السنّتى Nathan ha-me'a ti of Cento (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) الذى ازدهر فى روما حوالى ١٢٧٩ — ١٢٨٣ كتاب الحكم من العربية إلى العبرية مع شرح جالينوس.

النصف الأول من القرن الرابع عشر: وآخر الشروح العربية التى وصل إليها علمى تصعد إلى هذا العصر. ونحن مدينون بذلك إلى طبيبين تركيين

– على ما فى ذلك من الغرابة – هما عبد الله ابن عبد العزيز السيواسى (النصف الأول من القرن الرابع عشر) وأحمد بن محمد الكيلانى (النصف الأول من القرن الرابع عشر) . فشرح عبد الله الذى يصعد إلى أول هذا القرن عنوانه : « عمدة الفحول فى شرح الفصول » . وأما شرح أحمد فقد وضع بعد وضع بعد ذلك بقليل ، إذ أهدى إلى جانى بك محمود أمير العشيرة الزرقاء Blue Horde فى غربى القبجانى بين ١٣٤٠ – ١٣٥٧ .

وازداد إخراج الطبعات والشروح اللاتينية ، لكتاب الحكم بازدياد الحاجة إليه فى المدارس الطبية ، لا سيما أهم هذه المدارس فى ذلك العهد وهى مدرسة مونبليه فى أرجون . وكان أحد الكتب التى لا بد لطلاب الطب أن يستوعبوا مادتها (١١٤) . ولذلك وصلت إلينا شروح لاتينية عديدة له وضع أحدها برثولوميو البروجى Bartholomew of Bruges (النصف الأول من القرن الرابع عشر) الذى تخرج فى مونبلييه بشهادة .M.D قبل سنة ١٣١٥ ، ووضع شرحاً آخر برنجر التومباوى Berenger of Thumba (النصف الأول من القرن الرابع عشر) الذى كان فى مونبلييه سنة ١٣٣٢ ، وكذلك جيرالد السولى Gerald de Solo (النصف الأول من القرن الرابع عشر) الذى وضع شرحاً ثالثاً (فيما يظن) وكان أستاذاً هناك ، وتوفى حوالى سنة ١٣٦٠ .

وكانت مدرسة بولونيا Bologna تدانى فى أهميتها منافستها الأرجونية ، ولدينا شرحان وضعهما أستاذان من أساتذتها هما نيكولو برتوكشيو Niccolo Bertuccio (النصف الأول من القرن الرابع عشر) والبرتو الزنكارى Alberto de' Zancari (النصف الأول من القرن الرابع عشر) . وقد كان شرح البرتو بمثابة نشرة جديدة ، إذ جاءت فيها الحكم ، لأول مرة ، منسقة تنسيقاً منطقياً :

Anforismi Ypocratis per ordinem collecti.

النصف الثانى من القرن الرابع عشر : يبدو أن نشاط الشراح اليهود أخذ فى الخمود فى هذه الفترة ، شأن منافسيهم العرب ، حتى إنه ليتعذر على أن أشير إلى أكثر من شارح يهودى واحد هو إبراهيم كابرت القطلانى Abraham Cabret وإرضاء لحب الاستطلاع نشيرهنا إلى خلاصة «منطق أرسطو» Aristotelian Organon .

« منحة جودا » الذى أفرغه الفيلسوف اليهودى والعالم الرياضى اليونانى يوسف بن موسى الكلتى Joseph ben Moses ha-Kilti (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) فى قالب حكمى ، فكان بصفة جازمة تقريباً — تقليداً متعمداً أو غير متعمد — لكتاب أبقراط ، وازدهر يوسف هذا فى أواخر القرن الرابع عشر أو أوائل الخامس عشر .

ووضع مارتن دى سانت جيلس Martin de Saint Gilles (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) الذى ظهر فى أفينيون Avignon سنة ١٣٦٢ ترجمة فرنسية لكتاب الحكم الطبية مذيلا بشرح جالينوس[١١٥] . وهذه الترجمة تفتح أمامنا تقليداً أو دوراً جديداً يدعونا لأن نستكشف جميع لغات أوروبا الإقليمية التى نقل إليها كتاب الحكم فيما تقدم أو تأخر من الزمان ، إلا أن هذا يبعد بنا عن نطاق بحثنا . لأن شيئاً من هذا النشر الاقليمى لا يدخل فى حساب مؤرخ العلم العام ، وإن كان مما ترغب فيه فئة معينة رغبة شديدة . مثال ذلك أن حكاية الترجمات البولونية إنما تعنى طلاب العلم والأدب البولونى .

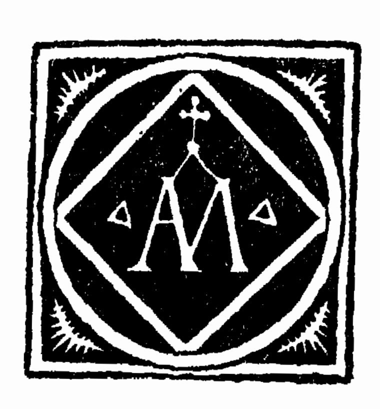
أما الطبقة المثقفة فى أوربا الغربية فلم تكن بحاجة إلى الترجمات الإقليمية بل نبذتها ، وكان النص اليونانى مفضلا لديها وبقى كذلك قروناً عديدة .

ولقد وضع مارسيجليو السانكتا صوفى Marsiglio of Sancta Sophia (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) الأستاذ فى جامعة بادوا ، كتاباً هو « أسئلة حول كتاب الحكم » Quaestiones in aphorismos طبع فى بادوا سنة ١٤٨٥ وأعيد طبعه عدة مرات بعد ذلك[١١٦] . وتوفى مارسيجليو هذا حوالى سنة ١٤٠٥ .

وهنا نصل إلى القرن الخامس عشر الذى لم يتسن لى أن أستوفى دراسته . على أن ذلك لا يمنع من الإشارة إلى شرحين ظهرا فى أوائل هذا القرن ، الأول شرح جياكومودللاطورى Giacomo della Torre[١١٧] والثانى شرح أوجوبنزى Ugo Benzi ، وكلاهما من أبناء القرن الرابع عشر . وكان لشرحيهما تأثير بالغ ، وأعيد طبعهما مراراً عديدة .

إن شرح جياكومودللاطورى والمعروف أيضاً بيعقوب الفورلى Jacobo da Forli

FINIVNT
Sententiæ Hippocratis Et Item Commentationes
Galeni In Eas Ipsas Sententias Editæ Laurentio
Laurentiano Florentino Interprete Viro Cla
rissimo Quas Antonius Miscominus
Ex Archetypo Laurentii Diligenter
Auscultauit:& Formulis Imprimi Curauit.
FLORENTIAE
Anno Salutis .M.CCCCLXXXXIIII.
Decimoseptimo.kal.Nouembris



الشكل ٧٤ — كتاب الحكم الطبية لأبقراط أول طبعة مستقلة وهى ترجمة لاتينية لكتاب الحكم وشروح جالينوس بعناية لورنتيوس لورنتيانوس الفلورنسى Laurentius Laurentianus of Florence وقف على طبعه أنطونيو مسكومينى Antonio Miscomini فى فلورنسا سنة ١٤٩٤ . وهذا المجلد مؤلف من ٩٨ صفحة ، وهو خال من صفحة العنوان ، وقد نسخنا الشعار وأثبتناه أعلاه . (بإذن المتحف البريطانى) .

(حوالى ١٣٥٠ و ١٤١٣) طبع أولا فى البندقية سنة ١٤٧٣ ، ولدينا منه ست طبعات قديمة(١١٨) ، أما شرح أوجو بنزى السيانى Ugo Benzi of Siena (حوالى ١٣٧٠ — ١٤٣٩) فقد طبع للمرة الأولى فى فرارة Ferrara سنة ١٤٩٣. وأعيد طبعه مرة واحدة فقط قبل القرن السادس عشر(١١٩) .

وقد طبع النص اللاتينى لكتاب الحكم مستقلا عن شروح مارسيجليو السنكتاصوفى ، وجياكومودللاطورى ، وأوجو بنزى ثمانى مرات على الأقل قبل القرن السادس عشر : ست مرات فى مجموع ارتيسلا Articella من ١٤٧٦ إلى ١٥٠٠ ، ومرتين سنة ١٤٩٤ و ١٤٩٦ على التوالى (الشكل ٧٤)(١٢٠)

أما الطبعات المتأخرة التى ظهرت فى لغات كثيرة فلا تقع تحت حصر . وفى فهرس ليتريه[١٢١] جداول طويلة جداً تضم أسماءها وإن كانت غير كاملة . وكذلك فى فهارس المتحف البريطانى والمكتبة الأهلية فى باريس .

وروايتنا لأخبار كتاب الحكم الطبية هى أيضاً ناقصة جداً ، وذلك لأسباب كثيرة ، أولها أننا لم نتمكن من أن نتحدث إلا عن شراح أبقراط الذين عرفنا يقيناً أنهم ترجموا حكم أبقراط أو شرحوها ، وعليه فالترجمات والشروح التى ورد ذكرها ينبغى أن تعتبر نماذج من مجموعة كبيرة ليس إلا . وعامل آخر أعمق من عوامل الخطأ ، هو أن المفسرين المغمورين الذين لم يتعمدوا الشرح كانوا فى الغالب ، أكثر عدداً من الشراح المعروفين الذين تجردوا لهذا العمل . وبعبارة أخرى ما عُدَّ الكثير من الشروح وشروح الشروح ، أقرب إلى الأصل من الكتب التى اعتبرت مؤلفات مستقلة . وهذا يصدق فى جميع العصور ، فإن مخلفات فرد لا يمكن أن تستخرج من الكتب التى وضعت خصيصاً لبحثه ، حتى ولا من كتب المؤلفين الذين استندوا إلى مقتبسات منه ؛ ولا يحرص المنتحلون وحدهم ، بل أصحاب العقول المحدودة أيضاً بوجه عام ، على إخفاء مصادر علمهم ، شأنهم فى ذلك شأن نهر النيل فى منابعه ؛ وكلما كثرت سرقاتهم قل ميلهم إلى الاعتراف بما هم مدينون به لغيرهم .

إن بحثاً شبيهاً بهذا خليق بأن يكتب حول تاريخ كتب أبقراط الأخرى ، بل وحول تاريخ أى كتاب علمى قديم . وقد يتاح للباحث أن يكشف فيما بينها فروقاً كثيرة فى مدى الشهرة وسعة الانتشار . كان « كتاب الحكم » من أشهر المؤلفات الأبقراطية ، أما المؤلفات الأخرى ، التى ضاعت قديماً أو أهملت ، فهى على عكس ذلك ، وطابع القصة فى كل منها واحد على ما بين أسماء أبطالها من اختلاف شديد .

وقد التقت فى تاريخ هذه المؤلفات عناصر متنوعة تعود إلى اعتبارات عنصرية وجنسية ودينية مختلفة . أما سبيلها اللغوى الرئيسى فكان اللغات الإقليمية : اليونانية : فالسريانية : فالعربية ، فاللاتينية فالعبرية ، وأما سبيلها الدينى فكان الوثنية فالإسلام : فالمسيحية ، فاليهودية .

تعليقات

(١) إميل ليتريه Emile Littre (١٨٠١ – ١٨٨١) Oeuvres completes d'Hippocrate : « مجموع مؤلفات أبقراط » (١٠ مجلدات ، باريس ١٨٣٨ – ١٨٦١) ، انظر ليون جينيه Leon Guinet : « إميل ليتريه » فى مجلة ايزيس Isis المجلد الثامن ص ٧٧ – ١٠٢ (١٩٢٦) مع رسم له : وعلى الصفحة الـ ٨٧ جدول بما يشتمل عليه كل مجلد من مجلدات طبعة ليترية .

(٢) نشر جونز (Jones) المجلدين الأول والثانى (١٩٢٣) (انظر مجلة ايزيس *Isis* المجلد السادس ص ٤٧ (١٩٢٣ – ١٩٢٤) والمجلد الرابع (١٩٣١) . ونشر ويتنجتون Withington المصنفات الجراحية فى المجلد الثالث (١٩٢٧) . انظر (مجلة ايزيس *Isis* ، المجلد الحادى عشر ص ٤٠٦ (١٩٢٨) .

(٣) معجم يونانى انجليزى . تأليف هنرى جورج لدل Henry George Liddell (١٨١١ – ١٨٩٨) ؛ وروبرت سكوت Robert Scott (١٨١١ – ١٨٨٧) . وهنالك طبعة جديدة منقحة بإشراف السر هنرى ستوارت جونز Henry Stuart Jones 2160 pp.; Oxford: Clarendon Press, 1925-1940). ولأغراض معجمية، عمد ويتنجتون إلى قراءة كل ما بقى من أدب اليونان الطبى ؟ انظر مجلة ايزيس *Isis* ، المجلد الثامن ص ٢٠٠ – ٢٠٢ (١٩٢٦) .

(٤) هذا بخلاف النص الأدبى الخالص الذى يقدر حق قدره ويترك على حاله نثراً كان أم شعراً .

(٥) قابل هذا باستخدام شعراء الإسبان ، فى العصر الوسيط ، للهجة الغاليسية – البرتغالية المقدمة (Introduction) المجلد الثالث، ص ٣٣٧، ٣٤٤) ، وكذلك باستخدام أطباء الفرنسيين ، فى القرن السابع عشر ، اللغة اللاتينية ، وورود الألفاظ الإنجليزية – النورماندية فى لغة القانون حتى يومنا هذا .

(٦) يقول و . هـ . س . جونز W.H.S. Jones فى كتاب أبقراط Hippocrates (مكتبة لويب للآداب القديمة)، المجلد الثانى ، ص ٥٤ من المقدمة « لا مطمع لنا فى إعادة النص على صورة خير من صوره الجيدة ، فى عهد جالينوس، وحتى هذا غير ميسور أحياناً . فمن العبث إذن أن نحاول إعادة النص إلى اللهجة الخاصة التى كتب بها المؤلفون . والراجح أنهم لم يكتبوا جميعاً بلغة أيونية واحدة لأن الأيونية ، فيما يتعلق بالطب والعلم إجمالا، كانت لغة أدبية لا لهجة تخاطب . ومن الغلو فى العبث أن نزعم أنا نعرف اليوم مثلا كيف كتب المؤلف هذه اللفظة : tois أم toisi أم toisin .

(٧) تناجرا Tanagra موضع بريوتيا Bœotia اشتهر بنشاط الأعمال والدريكة المقاتلة ، والتماثيل الفخارية الصغيرة أيضاً التى اكتشفت أثناء الحفريات التى أجريت فى مقابرها سنة ١٨٧٣ وما بعدها .

(٨) لم أعرض فى كتابى المقدمة (Introduction) لباكشيوس ولا لفيلينوس لضياع مؤلفاتهما .

وللابهام الذى يشوب شخصيتهما . عن باكشيوس انظر M. Wellmann, Pauly-Wissowa, vol. 4 (1896) p. 2790 وعن فيلينوس انظر Deller, ibid. vol. 38 '1938' pp. 2193-94 وكذلك K. Deichgraber *Die griechische Empirikerschule* (Berlin, 1930) وقد نظم جونز جدولا جزيل الفائدة جمع فيه المؤلفات الأبقراطية التى عرفها باكشيوس وسلسوس واروتيانوس على التوالى . وذلك فى كتاب أبقراط Hippocrates(مكتبة لويب للآداب القديمة) المجلد الأول ص ٣٨ — ٣٩ من المقدمة .

(٩) لم يكن سلسوس شارحاً ، ولكن بحثه الطبي باللاتينية De re Medicina حافل بالذكريات الأبقراطية . انظر الجدول المقارن المشتمل على النبذ المتقابلة عند ابقراط وسلسوس فى طبعة و . ج . سبنسر (W.G. Spencer) (مكتبة لويب للآداب القديمة)، المجلد الثالث (١٩٣٨) ، ص ٦٢٤ — ٦٢٧ . وقد ظهر كتاب سلسوس مطبوعاً قبل مؤلفات أبقراط وجالينوس وذلك سنة ١٤٧٨ .

(١٠) ألف أروتيانوس قاموساً أبقراطياً قيماً للغاية . وهنالك تفاسير أخرى جمعها هيرودوت . ويستطاع جمع أمثالها من شروح جالينوس ، ونشر فرانز هذه التفاسير : (J.G.F. Franz) Erotiani Galeni et Herodoti glossaria in Hippocratem ex recensione Henrici Stephani, Leipzig. 1780. وأعاد ارنست ناخماسون نشرها نشراً حديثاً : Ernest Nachmanson. Erotaianos Glossary. Uppsala, 1918.

(١١) هل كتاب Peri ton gnesion Hippocratis syngrammaton مفقود حقاً ؟ ألا تشتمل عليه طبعة كون (Kuhn) ؟ فقد ورد فى فهرس حنين تحت رقم ١٠٤ . انظر طبعة برجستراسر Bergstrasser (١٩٢٥) أو مقال ما يرهوف Meyerhof فى مجلة ايزيس *Isis* ، المجلد الثامن ، وص ٦٩٩ (١٩٢٦) .

(١٢) أبو الحسن على بن يحيى (توفى ٨٨٨) هو ابن يحيى المنجم . وكان يحيى هذا قد اعتنق الإسلام والتحق بخدمة الخليفة المأمون . وكان ابنه على كاتباً للخليفة المتوكل وجماعة للكتب شديد الرغبة فى العلم ، نقل إلى العربية الكثير من كتب جالينوس بطلب من المتوكل أو تحت رعايته . انظر مجلة ايزيس (*Isis*). المجلد الثامن ، ص ٧١٤ (١٩٢٦) . أما عيسى بن يحيى فيظن أنه أخوه .

(١٣) المقدمة (Introduction) المجلد الأول ، ص ٤٨٠ . ينبغى إجراء تصحيحين فى هذه النبذة : الأول ، أن يحيى النحوى (النصف الأول من القرن السابع) هو نفسه جان فيلوبونوس (النصف الأول من القرن السادس ، والثانى ، أن التاريخ الثانى هو الصحيح . ثم إن المؤلفات الطبية المنسوبة إلى يحيى هذا منحولة وتعيين تاريخ المجموعة البيزنطية لمؤلفات أبقراط أمر متعذر ، إذ ليس بين يدينا مخطوط قديم لها ، ولعل أقدم المجموعات البيزنطية نسخة عن مجموعة الإسكندرية لا أكثر .

(١٤) نشر أ . ل . هايبرج I.L.Heiberg هذه القوائم تحت عنوان "Hippocratis indices librorum" فى المجلد الأول من مجموع الطب اليونانى Corpus medicorum graecorum المجلد الأول (١٩٢٧) القسم الأول ص ١ — ٣ [مجلة ايزيس (*Isis*) المجلد الحادى عشر ، ص ١٥٤ (١٩٢٨)].

(١٥) كلبس Klebs ١١٦ ، هذه إشارة إلى رقم ١١٦ فى جدول المطبوعات القديمة فى العلوم والطب "Incunabula scientifica et medica" الذى نشره ارنلد ك . كلبس فى مجلةأوزيريس (Osiris) المجلد الرابع ، ص ١ — ٣٥٩ (١٩٣٨) . وهى قائمة دقيقة التنسيق لجميع الكتب العلمية والطبية التى طبعت فى القرن الخامس عشر . وسنعتمد هذه الإشارة المقتضبة فيما يلى دون إلحاقها بشرح ما .

(١٦) إن عدد المؤلفات من المطبوعات القديمة المنسوبة إلى كل منهم هى كما يلى : ١٥١ لألبير الكبير (النصف الثانى من القرن الثالث عشر)، ٩٨ لأرسطو ، و ٥٢ لأبقراط . وهذه الأرقام تشتمل على الكتب الصحيحة والمنحولة معا . انظر مجلة أوزيريس (Osiris) ، المجلد الخامس ص ١٨٣ — ١٨٦ (١٩٣٨) .

(١٧) انظر مقال ج. سارتون (G. Sarton) J.A. Van der Linden فى Singer Festschrift (أكسفورد ، مطبعة كلارندون ، ١٩٥٢) . إن الطبعات القديمة وفيها طبعة فان در لندن ؟(١٦٦٥) وكذلك — فيما يظن — بعض الطبعات المتأخرة ، لم توضع لعلماء اللغة ، ولا للمؤرخين ، بل للأطباء وتلامذة الطب .

(١٨) راجع مجلة ايزيس (*Isis*) المجلد الحادى عشر ، ص ١٥٤ (١٩٢٨) .

(١٩) أعرف ما تكون المصنفات الأبقراطية بعناوينها اللاتينية، فقد غدت هذه المناوين ذات رواج عالمى . وقد أشرنا عند الكلام عن كل منها إلى طبعة ليتريه ، ولويب ، والطبعة اليونانية اللاتينية corpus medicorum graecorum حيث تيسر لنا ذلك . وعلى الباحث عند درس أى واحد من هذه المصنفات أن يلتفت بنوع خاص إلى الشرح الجالينى ، فإذا كان هذا الشرح من وضع جالينوس نفسه ، ونقل إلينا ، أمكن الوقوف على نصه فى الطبعة اليونانية اللاتينية التى أخرجها كارل جوتلوب كون Karl Gottlob Kuhn الموسومة ب Galeni opera omnia (عشرون مجلداً ، ليبتزج ١٨٢١ — ١٨٣٣) ، والمجلد الأخير هو الفهرس العام للكتاب .

(٢٠) انظر طبعة ليتريه . المجلد السادس ، ص ٣٥٠ — ٣٩٧ ، وطبعة لويب ، المجلد الثانى ص ١٢٩ — ١٨٣ .

(٢١) التماساً للسهولة سأشير فى تضاعيف هذه الملاحظات باسم « أبقراط » إلى المؤلف أيا كان ، إذ تتعذر إعادة البحث فى هذا الموضوع عند الكلام عن كل واحد من تلك المصنفات .

(٢٢) ترد آراء من هذا النوع فى الفصل الحادى والعشرين من الكتاب المذكور ، وكذلك فى الفصل الثانى والعشرين من كتاب « الأهوية والأمواه والأمكنة » فى عرض الكلام عن المرض السيتيانى Scythian disease ، والتخنث عند فئة من الرجال . و « لكن الحق ، كما ذكرت سابقاً ، أن تلك العلل ليست أكثر قدسية ولا أقل من غيرها من العلل ، بل جميعها وكل واحدة منها طبيعية » . وقد يستفاد من هذا القول أن مؤلف (المرض المقدس) هو نفسه مؤلف « الأهوية والأمواه والأمكنة » .

(٢٣) أولريخ فون ويلاموفتز — مولندورف Ulrich von Wilamowitz-Moellendorff (١٨٤٨ — ١٩٣١) ، مؤلف Griechisches Lesebuch (مجلدان فى أربعة أجزاء ،

برلين ١٩٠٢ – ١٩٠٦) ، المجلد الأول ، ص ٢٦٩ – ٢٧٧ ، المجلد الثانى ص ١٦٨ – ١٧٢ .
انظر فيما يتعلق بجوزيف بيدز Joseph Bidez (١٨٦٧ – ١٩٤٩) مجلة أوزيريس Osiris ،
المجلد السادس (١٩٣٩) . وقد عالج أوسوى تمكن Oswei Temkin هذا الموضوع معالجة أوفى فى كتابه
« الانهيار العصبى » The falling sickness. A history of epilepsy from the Greeks to the beginnings of modern neurology. (359 pp.; Baltimore: Johns Hopkins University Press. 1945) (*Isis*) 36, 275-278 (1946)

(٢٤) ليتريه (Littre) ، المجلد الثانى ، ص ١١٠ – ١٩١ ، لويب ، المجلد الثانى ، ص ١ – ٥٦ .

(٢٥) ليتريه Littre ، المجلد الثانى ، ص ٢٢٤ – ٢٧٧ ؛ لويب ، المجلد الثانى ، ص ٥٩ – ١٢٥ ،

(٢٦) Chap. XXIII.

(٢٧) Chapter V.

(٢٨) Littré, vol. 9, pp. 1-75.

(٢٩) *Introduction*, vol. 2, p. 76.

(٣٠) Littré, vol. 2, pp. 598-717; 24-149; Loeb, vol. 1, pp. 141-287.

(٣١) Chap. XII.

(٣٢) Chap. XIV.

(٣٣) Littré, vol. 5, pp. 3-429.

(٣٤) *Epidemics* VI, 3, 18.

(٣٥) *Epidemics* V, 56.

(٣٦) *Epidemics* VII, 112.

(٣٧) Karl Deichgraber, "Die Epidemien und das Corpus Hippocraticum. Voruntersuchungen zu einer Geschichte der Koischen Arzteschule," Abhandl. Preuss. Akad.. Philos. Kl., nr. 3 (172 pp., quarto; Berlin, 1933).

(٣٨) تقع بيرنتوس Perinthos على شاطئ مرمرة الشمالى فى مقاطعة تراقيا قرب سليمبريا Selymbria . وقد كانت فى القرن الرابع تفوق بيزنطة خطورة .

(٣٩) Epidemics VI, 7, 1, etc. وأيضاً Epidemics II., IV,

(٤٠) Aphorisms 4, 33.

(٤١) Epidemics VI, 32; Littré, vol. 5, p. 357.

(٤٢) يقسم كتاب الأوبئة الثانى إلى ستة أقسام تشتمل على ١١٦ مادة ، ويقسم الكتاب السادس إلى ثمانية أقسام فيها ١٦٠ مادة . أما الرابع والخامس والسابع فتتضمن تباعاً ٦١ و ١٠٦ و ١٢٤ مادة . فمجموع المواد فى المؤلف إذن ٥٦٧ مادة . ثم إن كلا من هذه المواد ، بوجه العموم ،

يعالج حادثة أو ملاحظة أو حكمة طبية واحدة ، على أن بعضها يتجاوز الموضوع الواحد ، كما فى المادة التى أوردناها آنفاً، والتى تجمع بين حادثتين من نوع واحد .

(٤٣) Withington, in Loeb, vol. 3, p. xii.

(٤٤) Littré, vol. 3, pp. 182-261; Loeb, vol. 3, pp. 2-51.

(٤٥) Littré, vol. 3, pp. 262-337; Loeb, vol. 3, pp. 54-81.

(٤٦) Littré, vol. 3, pp. 338-563; vol. 4, pp. i-xx, 1-395; Loeb, vol. 3, pp. 84-455.

(٤٧) Galen, XV, 456.

(٤٨) للاطلاع على تاريخ التدليك انظر *Introduction*, vol. 3, p. 288.

(٤٩) كانت كيتيون Cition إحدى المدن التسع الرئيسية فى قبرص . أما أبولونيوس فقد تألق نجمه فى الإسكندرية . وللوقوف على حكاية الأشكال الواردة فى تعليق أبولونيوس راجع *Introduction* vol. 1, p. 219. وقد استنسخ هذه الأشكال هرمان شون Hermann Schone على نحو جميل للغاية فى كتاب Illustrierter Kommentar zu peri arthron (75 pp., 31 pls.; Leipzig, 1896).

(٥٠) Codex Laurentianus, lxxiv, 7.

(٥١) Littré, vol. 1, pp. 557-637; Loeb, vol. 1, pp. 3-64; CMG. vol. 1, pp. 36-55.

(٥٢) Chap. VIII.

(٥٣) كان المؤلف أول من استخدم اللفظة اليونانية hypothesis ولكن لا بالمعنى المعروف اليوم، بل بمعنى الفرض الاعتباطى الذى يتعذر إثباته. ونظرية الطبائع الأربع افتراض من هذا النوع .

(٥٤) إن لفظة Technical مشتقة من اللفظة اليونانية techne ومعناها : الفن ، إلا أنها تعنى أيضاً : « الطريقة » ، وبذلك تصبح قريبة المدلول من لفظة Science، بل إن ذلك أشبه بما بين اللفظتين الإنجليزيتين scientific و technical من مقارنة . فالفرق بين techne و episteme أو Mathema فى اليونانية قد لا يكون أعظم من الفرق بين المقصود بالمعرفة العملية والمعرفة النظرية .

(٥٥) Chap. IX.

(٥٦) يستخدم جونز فى ترجمة Hippocrates فى المجلد الأول ص ١٩ و ٥٢ ، لفظة hypothesis فى مقابل اللفظة اليونانية postulate لتلافى الالتباس ، أما نحن فنقصر اليوم استخدام اللفظة على الصالح القيم من الفروض حتى نميزها من الفروض الواهية . على أن اللهجة فى كلا القولين مدهشة فى حداثتها ، إذ يتحدث المؤلف وكأنه من علماء اليوم ، فيقول : لا تعمم لأول وهلة ولا تستعمل الأفكار إلا بعد أن يثبت قيمتها العملية.

(٥٧) Littré, vol. 6, pp. 1-27; Loeb, vol. 2, pp. 186-217; CMG, vol. 1, pp. 9-10.

(٥٨) Littré, vol. 6, pp., 29-69; Loeb, vol. 4, pp. 1-41.

(٥٩) Littré, vol. 6, pp., 70-87; Loeb, vol. 4, pp. 44-59.

(٦٠) يقع هذا النص فى *Historia animalium* (3, 3, p. 512 b) والنبذة المقتبسة مأخوذة من الفصل الحادى عشر من « طبيعة الإنسان » "nature of man" وهو وصف مشوش للأوردة .

(٦١) W.H.S. Jones, *The medical writings of Anonymus Londinensis* (Cambridge University Press, 1947) p. 75 (*Isis* 39, 73 '1948')

(٦٢) آثرنا استخدام هذا التعبير بدلا من القول المعتاد « كيف ننقص الوزن أو نزيده » لأن القدماء لم يذكروا الوزن أو لم يعمد أحد منهم إلى وزن نفسه .

(٦٣) Littré, vol. 5, pp. 470-503; Loeb. vol. 4, pp. 62-95.

(٦٤) Littré, vol. 2, pp. 12-93; Loeb, vol. 1, pp. 66-137; CMG, vol. 1, part 1, pp. 56-78.

(٦٥) هكذا يبدأ الفصل : « وزيادة على ذلك فإن الكثرة الغالبة من الرجال السيثيين يصبحون عنينين يشتغلون أشغال النساء ، ويعيشون عيشة النساء ، ويتحدثون بأحاديثهن . وقد دعوا أمثال هؤلاء الرجال Anaries (Anarieis) ويعرض هيردوت لهؤلاء القوم بالذات ويطلق عليهم أسماء يكاد يكون الاسم السابق وهو Enarees (1, 105; iv, 67) والراجح أنها لفظة سيثية معادلة للفظة androgyne (خنثى) أو homosexual (لوطى) .

(٦٦) Littré, vol. 9, pp. 94-121; Loeb, vol. 1, pp. 337-361; CMG, vol. 1, part I, pp. 79-84.

(٦٧) الرطوبة ، عجلة التغذية LV. Moisture the vehicle of nourishment

(٦٨) Chap. XXXVI.

(٦٩) نهاية الفصل الرابع والأربعين End of Chap, XLIV.

(٧٠) أثبتنا هنا الفصول الأول والثامن والتاسع والثامن والأربعين كاملة .

(٧١) براكساجوراس الكوسى (النصف الثانى من القرن الرابع) هو الذى قام بأول دراسات يونانية فى النبض » ومن بعده هيروفيلوس الخلقدونى Herophilos of Chalcedon (النصف الأول من القرن الثالث ق . م .) . وهذا يصلنا بالعصر الهيلينى . وقد لاحظ الأطباء الأبقراطيون دقات القلب الشديدة فى الحميات ، انظر (Littré's index s.v. "battement") وانظر النبذة الرابعة أعلاه .

(٧٢) Littré, vol. 6, pp. 116-137; CMG, vol. 1, part I, pp. 85-90.

(٧٣) Littré, vol. 6, pp. 462-663; Loeb, vol. 4, pp. 224-447.

(٧٤) Armand Delatte, *Les harmonies dans l'embryologie hippocratique* (Mélanges Paul Thomas, pp. 160-171, Bruges. 1930). Joseph Needham, *A history of embryology* (Cambridge: University Press, 1934), pp. 13-19 (*Isis* 27, 98-102 '1937').

(٧٥) Book II, LXI-LXVI.

(٧٦) End of LXXXVII.

(٧٧) Jones, Loeb *Hippocrates*, vol. 4. p. lii.

(٧٨) Littré, Vol. 6, pp. 88-113; Loeb. Vol. 2, pp. 221-253; CMG; Vol. 1, part 1, pp. 91-101.

(٧٩) لما كانت الزلازل تتوالى كثيراً فى منطقة البحر المتوسط فإن الفلاسفة الأول أمثال أناكسيمينيس وأناكساجوراس وديمكريتوس حاولوا أن يضعوا تعليلا منطقياً لها. وفى Meteorologia يقول أرسطو الذى بحث آراءهم : إن ظواهر الزلازل والبراكين تسببها رياح فى جوف الأرض .
Archibald Geikie, *Founders of geology* (London, 1905), pp. 13-14.

(٨٠) J. Filliozat, *La doctrine classique de la medecine indienne* (Paris: Imprimerie Nationale, 1949), pp. 161-190 (Isis 42, 353 '1951').

(٨١) Jones, Loeb *Hippocrates*, vol. 2, p. xxviii.

(٨٢) Littré, vol. 5, pp. 504-573.

(٨٣) *Prorrhetic* I, 16-*Coan prenotions*, 95.

(٨٤) Aristotle, *Historia Animalia* VIII, 22, 604 A. « تصاب الكلاب بثلاثة أمراض ، الكلب ، والالتهاب التغيمى فى اللوزتين ، وألم الأقدام . فالكلب يجعل الحيوان فى حالة من الهياج الشديد . وكل حيوان – إلا الإنسان – ينتقل إليه هذا المرض بالعدوى إن هو عضه كلْب كلب . وهو مرض قاتل ، يقضى على الكلب نفسه وعلى كل حيوان يعضه – ما عدا الإنسان » .

(٨٥) Littré, Vol. 4, pp. 450-609; Loeb, Vol. 4, pp. 98-221.

(٨٦) يوجد منه على الأقل ١٤٠ مخطوطة باليونانية ، و ٢٣٢ باللاتينية ، و ٧٠ بالعربية ، و ٤٠ بالعبرية ، ومجموع هذه ٤٨٢ مخطوطة ، وهنالك عدد كبير منها فى لغات أخرى .

(٨٧) يشتمل القسم الأول على العدد الأقل من الحكم (٢٥) والقسم السابع على العدد الأعظم (٨٧) .

(٨٨) *Aphorisms*, I, 1.

(٨٩) *Ibid* I, 3.

(٩٠) *Ibid.*, I, 13; II, 10; VI, 17, VI, 46. والأخير هو وصف موجز لداء «بوط» Pott's disease وهو المسمى باسم الجراح الإنجليزى برسفال بوط (١٧١٤ – ١٧٨٨) . Percival Pott.

(٩١) Littré, Vol. 5, pp. 574-733.

(٩٢) Littré, Vol. 8, pp. 542-549; Loeb, vol. 2, pp. 317-329.

(٩٣) Littré, Vol. 4, pp. 628-633; Loeb, Vol. 1, pp. 291-301; CMG, vol. 1. part 1, pp. 4-6.

(٩٤) إيسوب هو المؤلف التقليدى للأمثال اليونانية ذات التاريخ البالغ التعقيد . وعن هيرودوت (II, 134) أن إيسوب هذا المؤلف القصصى (ho logopoios) كان عَبداً فى ساموس فى ملك أماسيس Amasis (ملك مصر ٥٦٩ – ٥٢٥) . وقد دون سيرته ماكسيموس بلانوديس Maximos Planudes (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) Ben Edwin Perry, *Studies in the test history of the life and fables of Aesop* (256 pp., 6 pls.; Haverford, Pennsylvania; American Philological Association, 1936). Article "Fable," *Oxford classical dictionary*, p. 355.

(٩٥) Littré, vol. 4, pp. 638-643; Loeb, vol. 2, pp. 257-265; CMG, vol. 1, pp. 7-8.

(٩٦) Littré, vol. 9, pp. 198-221; Loeb, vol. 2, pp. 305-313, Chap. I only CMG, vol. 1, part 1, pp. 20-24.

(٩٧) Littré, vol. 9. pp. 222-245; Loeb, vol. 2, pp. 269-301; CMG, vol. 1, part 1, pp. 25-29.

(٩٨) Chap. V.

(٩٩) Littré, vol. 9 pp. 246-273; Loeb, vol. 1, pp. 305-333; CMG, vol. 1, part 1, pp. 30-35.

(١٠٠) *Introduction*, vol. 3, p. 10.

(١٠١) *Introduction*, vol. 3, pp. 247-248.

(١٠٢) هذه الكتب السبعة عشر ، إن لم تشكل دستوراً طبياً فهى تؤلف مجموعاً قائماً بنفسه ، كل رسالة منه خليقة بأن تسترعى انتباه أى تلميذ من تلامذة جالينوس كائناً من كان. وهذه الكتب هى:

(De officina medici, Prognosticum (Praenotiones), De diaeta in acutis, Prorrchetic (Praedicta), Epidemiorum libri, De fracturis, De articulis, De natura hominis, De humoribus, De alimento, Aphorismi, De salubri victus ratione

(وجميع هذه مثبتة فى الطبعة التى نشرها كون Kuhn لجالينوس ، وجميعها إلا الأخير منها مثبتة فى جدول حنين) .

De capitus vulneribus, De aere aquis locis, Iusiurandum, De ulceribus, De natura pueri.

(١٠٣) نشر هذا البحث بالعربية والألمانية جوتلف برجشتراسر (١٨٨٦ ١٩٣٣) .

Hunain ibn ishaq uber die syrischen und arabischen Galen-Uebersetzungen (Leipsig, 1925)

ثم لخصه ماكس مايرهوف (١٨٧٤ — ١٩٤٥) فى مجلة ايزيس (1926) *Isis* 8, 685-724 وقد أشرت إلى كلا الكتابين بهذا الرمز: Hunain, No. x.

(١٠٤) وضعت كلمة مقالة فى الترجمة العربية مقابل الكلمة اليونانية Tmema (أى قسم) ووضعت لها فى اللاتينية كلمة liber . وهذه الكلمات الثلاث متعادلة ، وإن كانت تمثل وجوهاً مختلفة من المجاز .

(١٠٥) هذا النص مترجم عن النص العربى الذى نشره برجشتراسر (Hunain, No. 88) وكان أيوب الرهاوى الأبرش (النصف الأول من القرن التاسع) ، يشتغل بالترجمة من اليونانية إلى السريانية ، وكذلك جبريل بن بختيشوع (النصف الأول من القرن التاسع) . أما أحمد بن محمد المدبر فكان والياً كبيراً وراعياً للعلم ، انظر (*Isis* 8, 715 '1926') . وكان محمد بن موسى أحد بنى موسى أعنى أحد أبناء موسى بن شاكر الثلاثة (النصف الأول من القرن التاسع) الذين رعوا حركة النقل إلى العربية ، وعاش محمد هذا حتى سنة ٨٧٢/٨٧٣ .

(١٠٦) الرأى المعتمد فيما يتعلق بالمسيح هو أن له طبيعتين (إنسانية وإلهية) لكن شخصه واحد . وادعى النساطرة أن هنالك طبيعتين وشخصين وبناء على ذلك دانهم مجمع أفسوس سنة ٤٣١ . أما اليعاقبة فقد اعتصموا بالنقيض الآخر مدعين أن المسيح ذو طبيعة واحدة وشخص واحد فدانهم كذلك

تجمع خلقدون سنة ٤٥١ . وتم نقل العلوم من اليونانية إلى العالم الإسلامى على يد هذين الفريقين – (المتعارضين) من هراطقة المسيحية : النساطرة واليعاقبة . وكان الآسيويون من هذين الفريقين يتكلمون لغة واحدة هى السريانية وإن كانوا يكتبون خطين مختلفين *Introduction*, vol. 2, p. 501. وعليه جرى التقليد العلمى اليونانى – السريانى – العربى فى مجريين يستعيد الواحد ما فى الآخر ويتحداه. ولا يتيسر هنا إيراد التفاصيل بعد أن بسطت الموضوع فى كتابى *Introduction* .

(١٠٧) Henri Pognon, *Une version syriaque des Aphorismes d'Hippocrate* (2 vols.; Leipzig, 1903) وهى طبعة سريانية فرنسية . ويشير بونيون Pognon إلى أن واضع النص السريانى قد يكون سرجيوس Sergios بل قد يكون أقدم من ذلك (Vol. 1, p. xxx) ، وإن كان لا يدلل على صحة هذا الرأى .

(١٠٨) لم أعرض لهذا الشرح فى كتابى *Introduction* . على أن فى مكتبة الأسكوريال نسخة من شرح عبد الرحمن لكتاب الحكم الطبية انظر : H.P.J. Renaud's catalogue (Paris, 1941) No. 877 (*Isis* 34, 34-35 '1942-43').

(١٠٩) حتى إن الكتاب اللاتين نظير جان دى تورنمير Jean de Tournemire (النصف الثانى من القرن الرابع عشر) دعوه بـ Flores Galieni للإلمام بطبعات فصول موسى العربية والعبرية واللاتينية ، راجع *Introduction* vol. 2, p. 377, no. 8, وأيضاً Osiris 5, 109 (1938), Figs. 28-29. إن مجموع ابن ميمون أضخم جداً من مجموع أبقراط – ففيه نحو ١٥٠٠ حكمة فى مقابل ٤١٢ .

(١١٠) عثر بنشر نص Glosule amphorismorum secundum magistrum Maurum سلفتورى الرنزى Salvatore de Renzi بعنوان : *Collectio salernitana* (Naples, 1856), vol. 4, pp. 513-557.

(١١١) *Introduction*, vol. 2, p. 1099, note.

(١١٢) من المحتمل أن يكون الشرح المنسوب إلى برهبرايوس قد وضعه مسيحى آخر اسمه كذلك أبو الفرج ، أقل منه شهرة ، وهو أبو الفرج يعقوب ابن القف الكركى (النصف الثانى من القرن الثالث عشر) ، وهومنسوب تخميناً فى جدول رينو لمخطوطات مكتبة الأسكوريال إلى ابن القف . على أنه من المحتمل أيضاً أن يكون كل من الرجلين قد وضع شرحاً .

(١١٣) *Introduction*, vol. 2, p. 846.

(١١٤) *Introduction*, vol. 3, p. 248.

(١١٥) يعد جرمين لافوى Germaine Lafeuille دراسة على تلك الترجمة الفرنسية ، ستظهر فى ١٩٥٣ – ١٩٥٤ .

(١١٦) Klebs, 564.3-6

(١١٧) *Introduction*, vol. 3 p. 1195.

(١١٨) Klebs, 476.

(١١٩) Klebs, 1002. Dean Putnam Lockwood, *Ugo Benzi* (Chicago: University of Chicago Press, 1951) (*Isis* 43, 60-62 '1952').

(١٢٠) Klebs 116. 1-6, 520. 1-2.

(١٢١) Littré, vol. 4, pp. 446-457.

الفصل الخامس عشر

كوس من الناحية الأثرية

تتحكم شخصية أبقراط تحكماً تامًّا فى تطور الطب اليونانى القديم، وتتصل اتصالا وثيقاً بجزيرة كوس ، ولذا كانت التوطئة للموضوع من الناحية الأثرية لا تخلو من قيمة .

كانت كوس ، رغم صغرها ، مهداً لكثير من الأطباء[1]؛ ومع ذلك فى هذا ما يدعو إلى الحيرة ، إذ يبدو أن أبقراط وزملاءه لم يمارسوامهنتهم فى كوس بقدر ما مارسوا فى نواح أخرى بعيدة عنها من بلاد اليونان. ولو عرّفنا هيلاس — حسب ما هو معلوم بصورة عامة — بجزر البحر الايجى والأراضى المحيطة به (أى بلاد اليونان الأصلية فى الغرب والبلقان فى الشمال وأيونيا فى الشرق وكريت فى الجنوب) ، لو عرّفناها بذلك لوجدنا أن كوس كانت تقع قرب الزاوية الجنوبية الشرقية لتلك المنطقة ، وأن الأطباء الأبقراطيين كانوا يمارسون عملهم فى الجزء الشمالى منها ، أى فى تساليا ومقدونيا وتراقية .ولو أعد شخص قائمة بالمرضى الذين ورد ذكرهم فى الحوادث الإكلينيكية ، وبالأماكن التى كانت تلاحظ فيها الحالات المرضية ، لوجد أن خبرة الأطباء الأبقراطيين إنما اكتسبت جلها فى الشمال (كما هو محدد سابقاً)، ولم يكتسب منها فى كوس سوى النزر القليل . وليس فى الآثار الكتابية سوى إشارتين لمرضى كوسيين : الأولى تشير إلى « أخت الرجل الكوسى » التى كانت تقاسى تضخماً فى الكبد[2] ، والثانية تشير إلى ديديمارخوس فى كوس[3]، وقد عولجت فى كوس نفسها ، أما الأولى فلا نستطيع أن نجزم بمكانها لأنه يجوز أن تكون أخت الكوسى قد تنقلت مبتعدة عن وطنها الأصلى . وفى كتاب آخر[4] . وصفت خمر كوس « الشديدة القوة والدكنة » للمرضى مرتين[5] . إلا أن الخمر من السهل

جداً أن تصدر، وإن كانت من النوع الجيد فإننا نستطيع أن نفترض أنها كانت تشرب خارج الجزيرة بالقدر الذى كانت تشرب فيه داخلها . وعلى ذلك نواجه مفارقة مؤداها أن الأطباء الأبقراطيين يشار إليهم كممثلين لمدرسة كوس أو نقابتها الطبية ، بينما مارسوا أعمالهم فى أماكن أخرى: حسبما استطعنا تعيينه من أماكن نشاطهم . وفى سبيل إيضاح هذه المفارقة دعنا نتحدث بإيجاز عن تاريخ كوس . أشرنا (فى الفصل الثالث عشر) إلى أن الجزيرة كانت غنية بإنتاجها ولا سيما العنب والحرير ، ومن المستحسن أن ندرك أن رخاءها فى أيام أبقراط والأيام التى تلتها لم يكن شيئاً مستحدثاً ، إذ لم تكن كوس محدثة نعمة بين جزر ذلك البحر الجميل ؛ بل كانت ، بسبب ما فيها من رواسب عظيمة لصخور زجاجية بركانية ، مركزاً تجارياً فى العصر الحجرى [٦] . وكان الكثير من هذه الصخور الزجاجية يستخرج من كوس نفسها ، والكثير منها أيضاً – مما هو من نوع أنقى – يستخرج من جزيرة هيالى[٧] التى تقع بين كوس وشبه جزيرة كنيدوس . وقد أكسبت تجارة الصخور الزجاجية تلك المنطقة (كوس وكنيدوس) نوعاً من التفوق ، إذ أوجدت لها ثروة ومكنت من ازدهار الثقافة والعلم فيها . ومن المؤكد أنه كان فى كوس أطباء يزاولون عملهم قبل الغزو الدورى بأمد طويل .

جاء الدوريون على الأرجح من كريت حوالى القرن التاسع ، وطردوا السكان الأصليين من الكاريين أو سلبوهم ما كانوا يملكون . ومن المحتمل أن يكون الدوريون هم الذين أدخلوا العبادات الأسكلبيوسية * فعملوا بذلك على إضفاء أهمية جديدة لفن الشفاء . ومن الجهة الأخرى كانت كوس فى موقع ممتاز ، عند ملتقى طرق كثير من الأمم مما جعل أهميتها التجارية دولية بحكم الضرورة . وكان للتجار الكوسيين معاملات تجارية مع بلاد اليونان وكريت ، وكاريا وأيونيا ، وآسيا وأوربا ؛ وكانت علاقاتهم التجارية بالمدن الأيونية وثيقة جداً حتى إن كوس نفسها أصبحت ، بالرغم من سيادة الدوريين عليها ، مدينة أيونية إلى حد ما . وعلى أى حال ، كانت ثقافتها الراقية أيونية لا دورية ، واللهجة الأيونية فيها تعتبر لغة الكياسة والظرف .

إن رخاء الجزيرة وما كانت تنعم به من علاقات دولية كانا عاملين

---

* نسبة إلى اسكلبيوس إله الطب (المترجم) .

ممتازين لنجاح أى نوع من أنواع الجهد العلمى ولكن هذا كله ليس إلا مجرد خميرة أولى لا بد لها من تدخل رجل عبقرى. ولقد أتيح لأسرة أبقراط ، إحدى الأسر الأسكلبيوسية ، أن تهيئ تلك الفرصة . وعلى ذلك لا غرابة فى أن تكون مدرسة الطب التى أنشأوها أو بعثوها من جديد قد ازدهرت مثل ذلك الازدهار . وكان من الممكن أن تستمر فى ازدهارها لولا كوارث الحرب .

ومن المرجح أن يكون الفتح الفارسى قد سهل صبغ الجزيرة بالصبغة الأيونية . فكانت كوس ، وهى فى ظل دارا (ملك الفرس : ٥٢١ — ٤٨٥) جزءاً من ولاية فارسية ؛ وإذ كان المثقفون من سكانها يحبون إخوانهم اليونانيين ويكرهون أسيادهم الفرس ، فمن الطبيعى أن يلتفوا حول معلميهم الأيونيين وأن يقلدوا الكلام والأخلاق الأيونية — تلك التى كانت تمثل أرفع مثل هيلاس العليا آنذاك . وبعد الانتصار البحرى فى معركة ميكالى * سنة ٤٧٩ ألقوا بالنير الفارسى عن عواتقهم ، وأغراهم الأيونيون — عاجلاً أو آجلاً — بالدخول فى حلف أثينى ضد فارس ، ونتيجة لذلك دخلوا الحرب البيلوپونيزية إلى جانب أثينا ، واشترك تسالوس بن أبقراط فعلا فى الحملة الصقلية المشئومة (٤١٥ — ٤١٣) . وكانت تلك الفترة فترة مفجعة لكوس ، إذ دمرها زلزال(٨) ، ثم غزاها الإسبرطيون بعد مدة وجيزة .

ونستطيع أن نقول إن عهد فتوة مدرسة أبقراط فى كوس كان يوافق نصف القرن الذى سادفيه السلام بين معركة ميكالى وبدء الحرب البيلوپونيزية . تعلّم أبقراط وأظهر عبقريته خلال تلك الفترة ، وما قام به هو وتلاميذه من عمل كان يجب أن يواصل فى مكان آخر . لأن حالة الاضطراب(٩) التى سببتها الحرب لم تكن ملائمة للبحث العلمى ، فليس بغريب إذن أن ترك أبقراط وبقية أفراد أسرة الأسكلبياد وطنهم فى الجزيرة وبدأوا يحيون حياة التشرد . وفى هذا ما يفسر المفارقة التى تبدو فى أن تعاليم أبقراط صيغ الكثير منها خارج كوس ، كما

* نسبة إلى رأس ميكالى من بلاد اليونان ، وفى هذه المعركة انتصر اليونان على الفرس بعد أن أحرقوا سفنهم ، وتخلى الأيونيون عن سادتهم الفرس ، وانضموا إلى جيش مواطنيهم . (المترجم) .

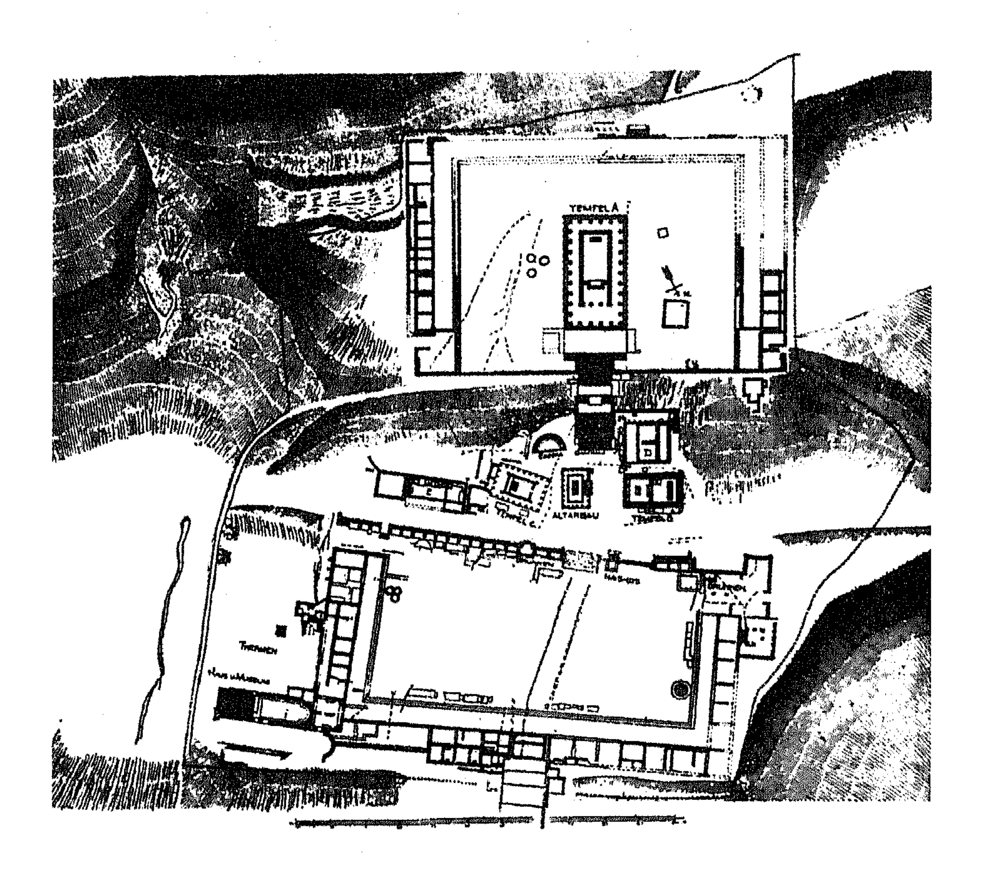
يفسر مفارقة أخرى هى ثبات المذهب الوضعى الأبقراطى (Hippocratic positivism) برغم وجود الميراث الأسكلبيادى . فبغض النظر عن قوة تأثير أسكلبيوس وشيوع هذا التأثير فقد نجا منه الأطباء الأبقراطيون ، وبدلا من أن يتركوا أنفسهم تستولى عليها الطقوس السحرية حدث لهم عكس ذلك تماماً ، واستفاد هيكل أسكلبيوس فى كوس فيما بعد من شهرة الأبقراطيين فى سبيل غاياته الدينية .

لا نستطيع أن نقول متى بدأت العبادات الأسكلبيوسية فى كوس ، ولكن آثار أقدم هيكل فيها لا ترجع إلى أبعد من القرن الثالث أو نهاية القرن الرابع . وقد اكتشف آثار هذا الهيكل أعضاء المعهد الأثرى الألمانى فى سنة ١٨٩٨ والسنوات التى تلتها . وبعد الحرب العظمى الأولى، حين كانت الدوديكانيز فى حوزة إيطاليا، أجريت حفريات جديدة على أيدى أثريين إيطاليين (شكل ٧٥). لم يكن الهيكل داخل مدينة كوس المسورة ، بل كان على بعد ميل ونصف إلى الغرب منها ، على سفح تل . وكان قائماً على ثلاث شرفات جبلية ولا يزال المرء يرى فى أعلاها آثار هيكل أسكلبيوس الدورى ماثلة بستة أعمدة فى كل جانب عرضى وأحد عشر عموداً فى كل جانب طولى . وفى الشرفة الوسطى توجد معابد صغرى ؛ وفى الشرفة المنخفضة متنزه يحيط به رواق معمد ، وفيه بئر مقدسة بقربها معبد صغير لنيرون (الإمبراطور من ٥٤ — ٦٨) على شكل الإله أسكلبيوس، ومنشئ هذا المعبد طبيب يدعى ك . سترتينيوس كسينوفون[١٠] . وأقدم إشارة إلى هذا الهيكل متأخرة نسبياً ، وقد وردت فى كتاب «جيوجرافيكا»[١١] لاسترابون (١ — ٢ ق م) ، ونصها : « وفى ضواحيها (أى كوس) يوجد الأسكلبيون ، وهو هيكل شهير جداً ومليء بنذور عديدة من بينها صورة انتيجونس التى رسمها أبلليس * وسلم كثير من النقوش التى يمتلىء بها الهيكل من العبث ، وهى تخلد ذكرى طقوس التطهير ، ودعوات حفلات الأعياد ،

* ابلليس من أعظم الرسامين القدامى ، عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وعاصر فيليب المقدونى وولده الإسكندر ، ومن أهم ما رسمه صورة أنتيجونس (المترجم) .

والأوامر الرسمية بتبجيل أطباء كوس الذين اشتهر كثير منهم فى العمل خارج بلادهم ، وهلم جرا . أما النذور التى يشير إليها سترابون والتى كانت على الأرجح أكثر بكثير من النقوش الأخرى ، فتمثل مجموعة أخرى من النصب التى توجد بكثرة فى معابد جميع الأقطار والعصور . وكان من ابتلوا بالأحزان الناجمة عن الأمراض أو العاهات أو المصائب الأخرى ، يلجأون إلى الإله وينذرون النذور ؛ فإذا ما شفوا وزالت همومهم عبروا عن شكرهم له بتحقيقها . وتختلف هذه النصب اختلافاً كبيراً فى الحجم والقيمة والمحتويات ، ويمكن أن تمثل الإله أسكلبيوس ، أو الأفاعى التى تقترن به وتمثل وسائل نعمته ، أو المريض ، أو الجزء الذى شفى من جسمه على وجه التحديد . ومن بين النذر الطبية القديمة ما يمثل امرأة حبلى ، وأطفالا ، وعيوناً ، ورحماً ومثانة ، وسرطاناً ثدييًّا ، وجسماً حابناً، وفتقاً معويًّا[١٢] . ومن أجمل النذائر الطبية التى أعرفها نذيرة مصورة هنا (شكل ٧٦) تمثل رجلا عجوزاً يمسك بذراعيه ساقاً غليظة منتفخة العروق . إن النذائر شائعة جدًّا فى كل مكان حتى إننا نستطيع أن نعتبرها مزية من مزايا الطبيعة البشرية. وهى تكثر بصورة خاصة فى الكنائس الكاثوليكية، والحجاج الذين يقصدون لورد يسهل عليهم أن يتصوروا كيف كان يبدو الأسكلبيون فى عصر سترابون مثلا . إننى أدعو النذائر مزية من مزايا الطبيعة البشرية ، لأن التقليد هنا خارج عن نطاقها بصورة مؤكدة تقريباً ، فالمريض الممتن يقدم زوجاً من العكاكيز لمعبد « لورد »، بنفس الروح التى كان يقدمه بها لهيكل كوس أو أبيدوروس (شكل ٧٧) .

ولدينا الآن آراء ثابتة تتعلق بطرق العلاج التى كان يستخدمها الأطباء الأبقراطيون ؛ كانت تلك الطرق معقولة لدرجة تدعو إلى الدهشة ، كما ظهر فى الفصول السابقة . هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى ، فإننا لا نعرف شيئاً سوى ما تنبئنا به النذائر (وذلك قليل لا يذكر) عن أنواع العلاج الطبية التى كانت تصطنع فى أسكلبيون كوس . ومن المرجح ، على كل حال ، أن ذلك الأسكلبيون كان منضبطاً لحد ما ، وأن كهنته كانوا ملزمين باستخدام ما كان



١٩٠٤

(شكل ٧٥) تصميم الأسكلبيون كما وضعه علماء الآثار الألمان سنة ١٩٠٤ ، وتظهر فيه المترفات الجبلية الثلاثة المتتالية ، وتبدو أعلاها فى أعلى الشكل . وقد اكتشف علماء الآثار الطليان حديثاً شرفة رابعة يمكن أن تمثل فى أسفل هذا الشكل ، انظر :

Schazmann, Asclepieion (Berlin, 1932), pl. 37



(شكل ٧٦) نذيرة تمثل رجلا يمسك أمامه بساق ضخمة فيها وريد منتفخ .
الأصل محفوظ فى المتحف الوطنى بأثينا .

Mitt. Krl. deut. Archaeol. Inst., Athenische Abt., 18 (Athens 1893,), pl. 11.



(شكل ٧٧) نذيرة لأمفياراوس تمثل منظر علاج (المتحف الوطنى فى أثينا) (عن :
Maxime Gorce and Raoul Mortier, eds., Histoire générale des religions (Paris: Quillet, 1944), vol, 2 p. 137.

شائعاً بجوارهم بين عامة الناس من طرق علاج ، ومقيدين بالمبادئ الأبقراطية فى الطب ، وإن طرق هؤلاء الكهنة كانت معقولة أكثر (أو أقل بعداً عن العقل) من تلك التى كانت تستعمل فى هياكل إله الطب الأخرى ، وأنهم لجأوا إلى العقل أكثر مما لجأوا إلى السحر ، أو أنهم استخدموا الأخير بصورة أقل ظهوراً(١٣) . وليس من التكرار فى شىء أن نعيد الحقيقة القائلة بأن الطرق التى كانت تستخدم فى الهيكل (كالتدفئة ، والراحة ، وبث الثقة) كانت معقولة وممتازة . أما الطرق غير المعقولة التى كانت تستخدم فى أبيدوروس وأماكن أخرى فقد كانت من ثمار سذاجة الشعب وطمع الكهنة .

وكل ما نستطيع قوله أنه لم تكتشف فى كوس لوحات نذور ، يمكن أن تقارن بتلك التى اكتشفت فى أبيدوروس. وهاك نصوص ثلاث قطع من نقوش أبيدوروس.

١ — حملت كليو مدة خمس سنين تقدمت بعدها للإله مبتهلة ضارعة ونامت فى هيكل الأباتون(١٤) . وعندما تركته وخرجت من جواره ولدت ولداً غسل نفسه بعد الولادة مباشرة فى الينبوع وسار مع والدته . إزاء هذا الفضل نقشت على لوحتها المقدمة ما يلى : « ليست عظمة اللوحة هى التى تثير الإعجاب وإنما تثيره (المعجزة الإلهية) فى أن كليو حملت حملها فى رحمها خمس سنين حتى نامت فى الهيكل وشفيت » .

٢ — وكان رجل من « تورون » يشكو من الديدان، فرأى رؤيا خيل إليه فيها أن الإله شق صدره بسكين وأخرج منه الديدان ، وأعطاه إياها فى يديه ، ثم أطبق صدره ثانية . وفى الصباح المبكر رحل والديدان فى يديه وبرئ تماماً . وكان قد ابتلعها فى شراب أعدته له أم زوجه .

٣ — شفت أفعى إحدى أصابع قدمى رجل . وتفصيل ذلك أنه كان يقاسى ألماً من قرحة خبيثة فى إحدى أصابع قدميه ، فأخرجه خدام الهيكل خلال النهار ووضعوه على مقعد . وحين طرق النوم عينيه ، خرجت أفعى من الأباتون وشفت إصبعه بلسانها ثم قفلت راجعة من حيث أتت . وحين استيقظ المريض معافى قال إنه رأى رؤيا بدا له خلالها أن شاباً جميل الطلعة وضع دواء على إصبعه(١٥) .



(شكل ٧٨) أسكليبيوس وما يرمز به إليه : أفعى ملتفة حول عصاه . . . مصنوع من البرونز ومحفوظ فى متحف برلين

W.H.Roscher, Ausfuhrliches Lexikon der griechischen und romischen Mythologe Leipzig, 1884-1890). vol. I, p. 636.

ورد ذكر الأفاعي التي كانت تحتفظ فى هياكل إله الطب ثلاث مرات حتى الآن (وبصورة رئيسية فى الفصل الثالث عشر) . ووجود الأفاعي واستخدامها فى الطب يقيمان الدليل على قدم العبادات الأسكليبيوسية ؛ إذ أن أهم ما كان يقترن بالإله أسكليبيوس عصا وأفعى ، تلتف الأخيرة منهما حول الأولى على العموم . وليس لنا أن نهتم بالمعنى الحقيقى لهذين الرمزين لأن القدماء لم يتفقوا على تفسيرهما ؛ كما أن المحدثين من العلماء عاجزون عن عمل شىء فى هذا الشأن أكثر من تكديس سلسلة من التخمينات والظنون . هكذا كان الأمر وحسب ؛ رجل عجوز وقور ، يلتحى لحية كاملة ، ويحمل عصا ثقيلة تنساب حولها أفعى ؛ إنه أسكليبيوس دون ريب ، ولا تحاول أن تثير أسئلة بعد ذلك . (شكلى ٧٨ و ٧٩)[١٦] .

كان أسكلبيون كوس (الهيكل) مشهوراً فى أيام الهيلينيين والرومان ، ولكنه قاسى الكثير على أيدى محطمى التماثيل والصور من المسيحيين فى القرن الرابع ، وتهدم على أثر زلزال سنة ٥٥٤ .

ويمكن أن يضاف إلى البينات الأثرية روايتان متوارثتان محليا تميل إلى قبولهما ، إن لم يكن بنصهما الحرفى ، فعلى الأقل لأنهما رمزان لشكر أبناء كوس وإخلاصهم الشديد لأشهر شخص من مواطنيهم .

أما الرواية الأولى فتتعلق بالشجرة العتيقة العريضة الأوراق النائمة فى سوق المدينة الرئيسية فى الجزيرة[١٧] ؛ إذ يدَّعى أن أبقراط علَّم تحت ظلالها . والشجرة ، لا شك ، قديمة العهد جداً ، وتمتد غصونها فوق ساحة المدينة بأسرها ، كما تدعمها أعمدة رخامية أخذت من الأسكلبيون . ومن يدرى ، فلعلها عاصرت أبقراط ، أو لعلها فرع لشجرة أخرى كانت موجودة فى نفس المكان فى زمنه . تذكر الأشجار العتيقة فى حديقة الجثمانية * ، تلك الأشجار التى يقول الآباء الفرنسسكان إنها كانت معاصرة للمسيح . إن شجرة كوس ، فى الواقع ، لا بد أن تكون أقدم من أشجار زيتون القدس بأربعة قرون على الأقل .

وهناك جزيرة صغيرة تقع بالقرب من الساحل الجنوبى الشرقى لكوس تدعى بلا يونيسى ، يروى أن أبقراط كتب بعض كتاباته فى خلوتها[١٨] .

وباختصار كانت كوس وكنيدوس المتجاورتان مهدى العلاج العلمى . ولكون أسرة اسكلبياد — وهى أسرة أبقراط — من كوس ، أصبحت هذه الجزيرة أكثر شهرة من جارتها فى القارة (كنيدوس) وكسفتها تقريباً . وقد بدأ الطب الأبقراطى فى كوس ، ولكنه تطور بصورة رئيسية فى شمال المنطقة التى يسكنها اليونان . ومن الممكن أن يكون بعض أفراد أسرة أبقراط قد بقوا فى كوس وتابعوا التقليد المجيد الذى بدأ به . هذا ، وفى القرن الثالث كان فى بناء

---

* تقع هذه الحديقة على السفح الأدنى لجبل الزيتون فى القدس ، وتتوسطها كنيسة فخمة . والإشارة هنا إلى أشجار الزيتون العتيقة فى هذه الحديقة . (المترجم) .



(شكل ٧٩) تقديم الولاء لأفعى أسكلبيوس (متحف برلين) . (عن كتاب
Gorce and Mortier, Histoire générale des religions. vol. 2,p. 135.)

أسكلبيون (أو فى بناء أسكلبيون جديد أوسع من السابق) مازاد من شهرة العلاج الوثنى . ومن المحتمل أن يكون العلاج العلمى والدينى قد وجدا جنباً إلى جنب فى كوس كما يوجد الآن فى بوسطن .

وطلاب الطب اليونانى أوفر حظاً من طلاب الشعر اليونانى ؛ لأنهم يستطيعون أن يردوا المكان الذى نشأ فيه أبقراط وأطلق العنان لأحلامه ، ويستطيعون أن يجلسوا فى ظل شجرة عتيقة واسعة الأوراق فيتخيلوا أن معلمهم جلس هناك منذ خمسة وعشرين قرناً ، بينما يستحيل على المرء أن يتصور ظروف هوميروس وما كان يحيط به إحاطة مباشرة .

* * *

اعتمدت فى دراسة تاريخ كوس وآثارها على المطبوعات التالية :

F.H. Marshall, *Discovery in Greek lands* (Cambridge, 1920), pp. 82-84 [*Isis* 4, 59 (1921-22)].

Karl Sudhoff, "Cos and Cnidos," *Ann. Medical History* 2, 13-19 (1930) [*Isis* 15, 199 (1931)].

Archaologisches Institut des deutschen Reiches, *Kos. Ergebnisse der deutschen Ausgrabungen und Forschungen*, vol. 1, Paul Schazmann, *Asklepieion* (folio, 116 p., 57 pl., 1 map; Berlin, 1932).

Aldo Neppi Modona, *L'esola di Cos nell'antichita classica* (Rhodes: Memorie dell'Istituto storico di Rodi, 1933), vol. 1. (folio, 240 pp., 18 pls., 2 maps).

Emma J. and Ludwig Edelstein, *Asclepius. A collection and interpretation of the testimonies* (2 vols.; Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1945) [Isis 37, 98 (1947)].

تعليقات

(١) راجع الفهرست لفظ : «كوس».

(٢) كتاب Epidemics الجزء الثانى ، الفصل الرابع والعشرون.

(٣) كتابProrrhetic الجزء الأول الفصل الرابع والعشرون.

(٤) كتاب De morbis internis الفصل الخامس والعشرون ، والفصل الثلاثون.

(٥) كانت خمر كوس مشهورة . ويقول استرابون (الفصل الرابع عشر ،ص ٢ و ١٩) تكثر الفواكه فى جميع أجزاء كوس ولكنها كخيوس ولسبوس أكثرها ما تشتهر بخمرها».

(٦) هذا الزجاج البركانى شديد الصلابة والحدة ولذا يكون مادة ممتازة لأدوات العصر الحجرى.

(٧) هيالى مشتقة من هيالوس التى تعنى البلور الصخرى أو الزجاج . وقد اشتقت الجزيرة اسمها من مصدر ثروتها الرئيسى ؛ وهى تسمى اليوم إستروس.

(٨) من المحقق أن زلزال سنة ٤١٣ – ٤١٢ لم يكن الزلزال الأول ولا الأخير كما سنرى. وتؤيد الأساطير شهرة الجزيرة كمركز زلزالى . فقد روى أن بوليبوتيس ، أحد المردة الذين حاربوا ضد الآلهة ، طارده بوسيدون (نبتيون) عبر البحر حتى كوس . ثم احتدم إله البحر (أى بوسيدون) غيظاً وكسر جزءاً من الجزيرة وألقاه على بوليبوتيس فدفنه تحته . إن مختلق هذه الأسطورة من العامة لم يختاروا كوس عبثاً ، بل اختاروها لعدم استقرارها المعروف.

(٩) مما ضاعف حالة الاضطراب اختلاف عناصر سكان كوس. من محبى الهلينيين بطريق غير مباشر . ونستطيع أن نجزم بأن شعورهم بالعطف على الدوريين لم يخب، وأن كثيرين منهم كانوا يعطفون على إسبرطة . وقد برهنت على ذلك برهنة تامة الحرب الاجتماعية التى بدأت سنة ٣٥٧ والتى كانت موجهة بصورة رئيسية ضد محمية أثينا . وحالفت كوس موسولوس ملك كاريا (٣٧٧ – ٣٥٣) الذى كان ضد أثينا كما كان ضد فارس ، وعقد الحليفان صلحاً مع أثينا سنة ٣٥٥ . وبقيت كوس تابعة لكاريا حتى سنة ٣٤٦ . ثم وقعت تحت حكم الإسكندر الأكبر ،وبعد وفاته أخذت الميول القومية تتأرجح بين مقدونيا وسوريا ومصر . ووصلت الجزيرة أوج مجدها تحت حكم البطالسة . وفى النصف الأول من القرن الثالث حباها الله بشاعرين هما فيليتاس وتلميذه تيوكريتوس السير اكوزى . وخلال العصر الرومانى تمتعت كوس بنوع من الحكم الذاتى المحدود ، إذ كانت تتمتع بحريتها المدنية ضمن ولاية آسيا . وقد أعطى الإمبراطور كلوديوس (٤١ – ٥٤) الجزيرة امتيازات متنوعة متأثراً بطبيبة كسينوفون الكوسى.

(١٠) ك . استرتنيوس كسينوفون هو الطبيب نفسه المذكور فى الحاشية رقم ٩ . كان رئيس أطباء كلوديوس وأجربينا ، وينتمى إلى أسرة أسكلبيادية قديمة . أما أول كسينوفون كوسى فكان تلميذاً لبراكساجوراس الكوسى(القرن الرابع – النصف الثانى ق.م),(A.N. Modona, L'isola di Cos).

p. 128) وأما النقوش التى تحوى تكريس كسينوفون فرسومة فى اللوحة الثامنة من كتاب مودونا .

(١١) جيوفراجيكا — سترابون ,Strabon — الجزء الرابع عشر ، ص ٢ و ١٩ .

(١٢) كثير منها مرسوم فى كتاب : T. Meyer-Steineg und Karl Sudhoff, *Geschichte der Medizin im Ueberblic* (Jena, 1921; [*Isis* 4, 368 (1921-22)]; ed. 2, 1922) (*Isis* 5, 188 (1923)] وكتاب William Henry Denham Rouse *Greek votive offerings* (480 p p. ill.; Cambridge, 1902): أو مقالة Rouse فى موسوعة الدين والأخلاق المجلد الثانى عشر (١٩٢٢) ص ٦٤١ .

(١٣) إننى أزعم أن أسكلبيون كوس كان يوجه أموره ويتحكم فيه آل أسكلبياد ؛ بينما تقوم شواهد قديمة بعض القدم على دعم زعم معاكس مؤداه أن الأطباء كانوا قد حصلوا على معلوماتهم الأولية من الهيكل . وفى ذلك يقول استرابون (النصف الثانى من القرن الأول ق . م .) : « يقال إن فن المعالجة بالحمية الذى استخدمه أبقراط مأخوذ على الأكثر من العلاجات المدونة على لوحات النذور فى كوس (كتاب الجغرافية ,Geography الجزء الرابع عشر ص ٢ و ١٩) . ويذكر پلينى (٢ — I) حقيقة مشابهة فى الجزء التاسع والعشرين من كتابه « التاريخ الطبيعى» Natural History .

ص ١ (٢) و ٤ ومن المرجح جداً أنهما (استرابون وپلينى) كانا مخطئين رغم أنى لا أنفى إمكانية حدوث تبادل فى التأثيرات الحسنة بين الهيكل والطبابة .

(١٤) تعنى لفظة الأبتلون : (مكان) لا يداس ؛ حرم ؛ قدس الأقداس .

(١٥) هذا النص مأخوذ من كتاب Edelstein ,*Asclepius* (المجلد الأول) فقرة ٤٢٣ النصب الأول فى أبيدوروس ، رقم ١ و ١٣ و ١٧ . ونقوش ذلك النصب تصف عشرين قضية ؛ وفى أعلاه كتب : « الله وحسن الطالع . ما شفاه أبوللو وأسكلبيوس » .

(١٦) حين أنشئ القسم الطبى لجيش الولايات المتحدة اختار لنفسه عصا وأفعيين ملتفتين حولها كشعار (مطرز على الملابس الرسمية إلخ) ؛ وكان ذلك خطأ إذ أن هذا لم يكن شعار اسكلبيوس إله الطب ، بل شعار هرمس (عطارد) إله التجارة والمواصلات .

(١٧) هنالك صورة جميلة للشجرة فى واجهة المجلد الرابع من كتاب Loeb, *Hippocrates* ، كما أن هنالك وصفاً لها فى صفحة ١٠٩ .

(١٨) روى هذه الرواية سنة ١٨٤٤ بعض مواطنى الجزيرة للعالم الألمانى Ludwig Ross (١٨٠٦ — ١٨٥٩) .

الإشـــــراف اللغـــوى : حسام عبد العزيز

الإشـــــراف الفـــــنى : حـسـن كـامــل

التصميم الأساسى للغلاف : أســامــة العــبـد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة



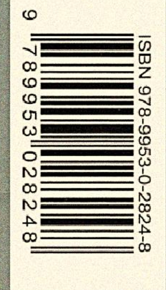
"... لم يوضع هذا الكتاب للغويين ... بل لطلاب العلم الذين لم يحصلوا من المعارف القديمة إلا بسائطها والذين لم يدرسوا اللغة اليونانية أو لم يتعمقوا درسها، ولهذا جاءت مقتبساتى عن اليونانية مقصورة على القدر الضرورى، مصحوبة دائما بترجمتها.

... وتاريخ العلم ميدان واسع، ليس من المستطاع شرحه كله فى مائة محاضرة أو ألف، ولذا فضلت أن أتناول طائفة من الموضوعات المختارة فى الحدود المستطاعة من أن أحاول غير المستطاع، إذ ليس ثمة مكان أو زمان لإثبات كل شىء.

... إن ما أقدمه هنا مبنى على المصادر الأولى، إذ حرصت دائما أن أغوص إلى الأعماق، ومع هذا تقصر وثائقنا كثيرا عن الكمال، ومثال ذلك أن الجماعات البشرية البدائية استخدمت كمية كبيرة من المعرفة قبل أن تدرك حيازتها لهذه المعرفة، وإذا هى لم تدركها فمن أين لنا أن ندركها؟

... ومن الناحية الأخرى نجد غالبا أن الوثائق الخاصة بالعلم فى مصر وبلاد ما بين النهرين أدق من وثائق العلم الإغريقى، إذ الواقع أن علماء المصريات والأشوريات موفقون فى أن لديهم وثائق أصلية، على حين يضطر علماء الهلينيات إلى القنوع بوثائق مجزوءة فى مقتبسات وآراء غير أصلية ..."

من مقدمة چورج سارتو


ISBN 978-9953-0-2824-8

تصميم الغلاف: نسرين كشك